

احزاب

التلمود

كتاب اليهود المقدس



قسم
اد. سیتل زگار



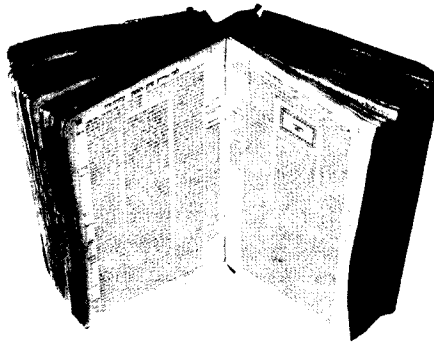
التلمود

كتاب اليهود المقدس

التلمود

كتاب اليهود المقدس

تاريخه و تعاليمه و مقتطفات من نصوصه



قدمته
أ. د. سهيل زكار



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا الكتاب

ما هي حقيقة التلمود ؟

وما هو أثره الديني والأخلاقي في معتقدات الجماعات اليهودية وسلوكها عبر التاريخ ؟ ما هي تعاليمه ، وعلامَ تشمل أجزاءه الكثيرة ومفرداته التي تصل إلى 2.5 مليون كلمة ؟

ماذا يعرف المثقف العربي عن هذا الكتاب ؟ أليس من الغريب أن يكون كل ما كُتب عنه في العربية (على قلته) ، كما يرى الكاتب الهندي ظفر الإسلام خان : مجرد تكرار لكتاب شعبي قديم هو «الكنز المرصود في قواعد التلمود» ؟ وما مدى دقة رؤية الباحث المصري عبد الوهاب المسيري في موسوعته الشهيرة : «الوقائع أن التلمود ليس من الكتب الباطنية ، أو تلك التي تُحيط بها هالة من السرية والغرابة والإخفاء ، كما يتوهم السواد الأعظم من الناس» ؟

ما سرّ التطابق المذهل بين مرويات «أجداه» التلمود ، وبين «القصاص» في تراثنا الإسلامي ؟ ولماذا عجزنا عن ترجمة هذا الكتاب ، الذي له من العمر ما لا يقل عن 19 قرناً من الزمان ؟ ثم كيف يتسنى للقارئ العربي فهم نصوصه المعقدة في العبادات والعرفانيات ، بين رمزيات التوحيد والحلولية والغنوصية ومعميات القبّالاه والزوّهار ، ونظرته لـ «الجويم» أو «الأخيريم» ؟

أسئلة كثيرة وتساؤلات أكثر وأعمق وأخطر تبرز بين السطور والحواشي ، في هذا الموضوع المستغلق الهامّ والمرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتراث الديني لمشرقنا الأدنى ، كحلقة أساسية منه لا يسعنا جهلها أبداً !

نقطة الأهمية الثانية في هذا السياق ، هي أن التلمود كوثيقة اشتراعية تحلّ المرتبة الأولى في أغلب الدوائر والمذاهب الدينية اليهودية الفاعلة ، وهي بما تحمله من پراغماتية إثنية وعقائدية ، أدت إلى وسم الإيديولوجيا الصهيونية بمبدأ عرقي شديد التجذّر يقطع بأن «اليهود وحدهم هم شعب الله المختار ، والشعوب من دونه جميعاً كالبهائم» . فما مصدر هذه النظرة التعصّبية الفوقية ؟

نعود هنا لنعبّر عن عجزنا التام عن إدراك السبب الذي يؤدي إلى تقاعس الدوائر الثقافية العربية - الرسمية منها والخاصة - عن القيام بهذا الواجب العلمي المتناهي الأهمية : «إصدار ترجمة عربية علمية دقيقة للتلمود» . أيعقل أننا اليوم في عام 2006 قد ولجنا أعتاب الألفية الثالثة ، في عصر ثورة المعلومات ، ولم تظهر لدينا هيئة أو مؤسسة علمية جريئة تتولّى هذه المهمة القومية والدينية ؟ أو لنقل في أضعف الإيمان : إرواءً للتعطش الفكري ، «العلم بالشيء ولا الجهلُ به» ؟!

أليس فينا من له جرأة ورُجولة الحُكم الثاني صاحب قُرطبة ، لما أمر الحاخام يوسف بن مُوشيه بنقل التلمود إلى العربية ؟ وهل يعلم مثقفونا شيئاً عن دور الفكر الإسلامي بظهور الحركة القرآنية اليهودية في القرن الثامن ، الرافضة للتراث الشفاهي الحاخامي (أي التلمود) ؟ ولماذا لم نر حتى اليوم أية دراسة نقدية جامعة لهذه الحركة التي مدت جسوراً بين الإسلام واليهودية «التوراتية الموسوية التوحيدية» ؟

وبعد ، فهذا كتابنا عن «التلمود» ، جهّدا فيه أن تقدّم جديداً وألاً نحذو حدّوا الكتب الهامشية البعيدة عن البحث الأكاديمي الرصين ، مثل «الكنز المرصود» و«پروتوكولات حكماء صهيون» . أخيراً ، نُزجي مزيد شكرنا وتقديرنا لعلامة الشام الأستاذ الدكتور سهيل زكّار ، الذي أفادنا من معلوماته الغنية وشجّعنا على المضي ، وأتحفنا بمقدمته الثمينة . وبالغ الشكر لأستاذنا المرثي الكبير الدكتور محمد شيخاني ونجله فُتية ، اللذين أمدّا هذا البحث بكلّ اهتمام ومتابعة .

د. أحمد إيبش

دمشق ، 14 آذار 2006

مقدمة

بقلم الأستاذ الدكتور سهيل زكار

في عام 539 ق.م ، نجح الإمبراطور الفارسي قورش في إقامة إمبراطورية فارسية عظمى ، هي الإمبراطورية الأخمينية ، وكان قوام هذه الإمبراطورية وحدة كل من إقليمي فارس وميديا ، وكانت مدينة الرّي هي الحاضرة الرئيسية لإقليم ميديا ، وكان هذا الإقليم وثيق الصلة حضارياً ولغوياً بأعالي بلاد الرافدين ، أي بممتلكات الدولة الآشورية الكبرى ، من مركز وأطراف شمالية وجنوبية وشرقية وغربية . وامتاز إقليم ميديا بثراث ديني كبير ، تجلّى قبل تأسيس الإمبراطورية الأخمينية بانبعث الديانة الزرادشتية ، بتشعباتها المثراوية والزروانية ، وبأساس عقيدتها الثنوية ، أي الإيمان بوجود قوتين إلهيتين : سماوية نورانية ، وأرضية مظلمة ، والقوة السماوية خيرة ، بينما القوة الأرضية شريرة . وجاءت ولادة إلهي النور (أهورمزد) وإله الظلام (أهرمان) من إله له طبيعة أنثوية - ذكرية مزدوجة ، قادر على التلقيح الذاتي ، هوزروان (الزمن اللامحدود أو الدهر) .

وكان من أهم مزايا الدين في إقليم ميديا وجود طبقة أو عشيرة للكهنة ذات مراتب متسلسلة هي عشيرة المجوس ، وكانت هذه الطبقة موجودة قبل ظهور الزرادشتية ، وظلت موجودة دوماً في المجتمع الإيراني ، الذي كان مجتمعاً طبقياً ، لا يجوز فيه لأحد - حتى بأمر من الإمبراطور - مغادرة طبقة صعوداً ولا حتى هبوطاً . وهذه الطبقات عند الحكيم تنسره هي :

- 1- طبقة أهل الدين من : كهنة ، وعبّاد ، وزهّاد ، وسدنة ، ومعلمين .
- 2- طبقة أهل الحرب ، من فرسان ورجالة .
- 3- طبقة رجال الإدارة ، من كتاب الرسائل ، والمحاسبات ، والأفضية ، والسجلات ، والعقود ، وكتاب السير ، ويدخل في طبقتهم : الأطباء والشعراء والمنجمون .

4- طبقة أهل المهن ، من زراع ، ورعاة ، وتجار ، وسائر أهل الحرف .

وقال تنسر الذي يُقال بأنه عاصر تأسيس حكم الأسرة الساسانية : «والناس في عهد زاهر دائماً ، ما حافظوا على هذه الأعضاء الأربعة ، ولم ينتقلوا من طبقة إلى أخرى»⁽¹⁾ .

وشغلت طبقة أهل الدين المجوسي أهم الأدوار في التاريخ الفارسي القديم ، كما أن دور رجال الإدارة كان عظيماً ، لأنهم امتلكوا مفاتيح السلطة الفعلية في الإمبراطورية . وكانت اللغة الآرامية هي لغة إقليم ميديا ، ثم غدت لغة الإمبراطورية بأسرها . وتوسعت الإمبراطورية الأخمينية كثيراً منذ أيام قورش ، فاستولت على بابل سنة 538 ق. م ، ثم استولت على بلاد الشام ومصر ، وعلى أرمينيا ، وآسيا الصغرى ، وسعت إلى التوسع الكبير في أوروبا الشرقية . وفي آسيا توسع الأخمينيون حتى الهند وأفغانستان ، ولربما اجتازوا نهر جيحون⁽²⁾ ، وتمازجت في ظلّ دولتهم ثقافات عالم الشرق القديم . ومن يقم بزيارة علمية فاحصة لمدينة الفرس (تخت جمشيد - المجمع الملكي للأخمينيين) (على بُعد قرابة الخمسين كم عن مدينة شيراز) يقدر أنه كما وفدت سفارات شعوب العالم على هذه العاصمة تقدم الولاء للأخمينيين ، وكما توقرت طُرز البناء البابلية والآشورية وسواها ، اجتمع تراث العالم القديم من ديني وفكري ومدوناته هناك . وبعدما انتصر الإسكندر المقدوني الأكبر على الإمبراطور الأخميني داريوس الثالث عام 333 ق. م ، احتلّ «مدينة الفرس» ودمرها ، وأحرق الوثائق والمدونات التي كانت فيها ، وركّز جهوده ضدّ المدونات الدينية ، فقد روي أن نسخة من كتاب «البستا» الزرادشتي كانت مكتوبة على اثني عشر ألف جلد بقرة ، قام بإتلافها ، وما لم يتلفه من الكتب أمر بنقله إلى الإغريقية والقبطية ، مثل بعض كتب «علم النجوم والطب والفلسفة والحراثة»⁽³⁾ .

-
- (1) كتاب تنسر - ترجمة عربية (ط . القاهرة 1954) ، ص 32-34 .
 - (2) يرد ذكر نهر جيحون في التلمود (لكن على أنه «نهر يحيط بالحبشة») ، وهذا دليل آخر على استقاء التراث الديني اليهودي بالأصل من أرض بابل وفارس وميديا .
 - (3) تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء عليهم السلام ، لحمزة الأصفهاني (ط . دار الحياة - بيروت) ، ص 40 .

ومن المعروف أن الإسكندر المقدوني الأكبر أراد عوكمة العالم في أيامه بجعله إغريقياً ، وصحيح أنه مات مبكراً ، لكن الدول التي ولدت من خلال نتائج أعماله العسكرية لا سيما دولة البطالمة والسلاوقيين ، تابعت الأخذ بسياسة العوكمة ، التي عُرفت بالهلنسة .

ولدى زيارتي في الشهر الماضي لمدينة الفرس (تخت جمشيد) في إصفهان بإيران ، رأيتُ في المنحوتات الجدارية المنقوشة تمثيلاً لشعوب العالم القديم ودوله التي كانت تتوافد على مدينة الفرس لتقديم فروض الولاء ، ولم يكن بين هؤلاء من مثل شعب «يهود أو دولة لهم» ، ولهذا أسبابه المعللة .

فعلى بُعد حوالي الخمسة كم عن «مدينة الفرس» Persepolis ، هناك في لحف الجبل مقابر أربعة من الملوك الأخمينيين ، أولهم داريوس [486-522 ق.م] ، الذي أعاد تأسيس حكم الإمبراطورية الأخمينية بعد موت قمبيز بن قورش ، ويُعرف موضع المقابر هذه باسم نقش رستم ، حيث هناك نقش تركه داريوس ذكر فيه ثلاثين شعباً ومنطقة كانوا خاضعين له ، وله يدفعون الجزية . والذي يقرأ أسماء هذه الشعوب يمكنه أن يرى صور رُسُلهم وممثليهم منحوتة في الصخر الأسود في «مدينة الفرس» [تخت جمشيد] ، ومثلما ليس هناك صور ليهود في المنحوتات ، لم يرد ذكر يهود بين قائمة شعوب النقش . هذا وتتوافق مادة هيرودوت في عدم ذكر اليهود مع نقش رستم ومنحوتات تخت جمشيد .

وعدم ورود ذكر لليهود سببه أنهم لم يكونوا قد ظهروا إلى حيز الوجود ، حيث أن هذا حدث محلياً في فلسطين في حوالي هذا التاريخ ، فقد استخدم الفرس حاميات عسكرية في فلسطين ومصر وسواهما ، وسكنت الحامية الأخمينية في مصر في جزيرة الفيله Philae (بالتيل وراء سد أسوان ، واسمها العربي «أنس الوجود») ، وتميزت بعبادة الإله يهوه . وكان لهذه الحامية علاقة بحامية فلسطين ، التي سكنت حول مدينة القدس ، ولربما لم يتجاوز تعدادها رجالاً ونساءً وأطفالاً مقدار اثني عشر ألفاً . وعثر أثرياً على بعض القطع الفخارية التي حملت أختاماً ، بعضها حمل اسم «يه» ثم بعضها «يهد» ، وهذه الأسماء من دون أحرف صوتية ، عندما تحرك تصبح «يهوه» و «يهود» .

وينفي هذا الاكتشاف الأثري الموثق مع غيره من الاكتشافات ما ورد في أسفار العهد القديم من أساطير وحكايات ، وهو يقودنا إلى إثارة موضوع العهد القديم وتاريخ تدوينه :

كان الإمبراطور داريوس الأول (522-486 ق.م) قد أعد ابنه خسرو (أكسراكس Xerxes 486-465 ق.م) أثناء حياته لخلافته ، وبناءً عليه خلفه ، ثم عندما مات هذا الإمبراطور خلفه ابنه أردشير (أرطحشت - أرتاأكسراكس) ، ونشط في بلاط هذا الإمبراطور أيام حكمه عدد من الكهنة الإداريين ، كانوا زرادشت بشكل عام ، لكن لهم تميزهم داخل هذه الديانة ، التي انضوى تحت عنوانها عدة عقائد وديانات . وتصدر هؤلاء عزرا الكاتب ، المدون الأول لأسفار العهد القديم والمؤسس الفعلي لليهودية ، ونحميا السّاقى الذي تولّى خدمة النساء في القصر الملكي ، مما يرجح أنه كان مخصياً ، وكذلك دانيال الذي عمل أيضاً ساقياً ومعبراً للأحلام . ولربما تردّد عزرا ونحميا بحكم وظائفهما على فلسطين ، وعاشا بعض الوقت مع الحامية الأخمينية التي كانت حول القدس ، وأن هذا لربما كان حوالي عام 445 ق.م ، وإثر هذا بدأت تظهر تسمية يهود ، ويرجح أن عزرا ونحميا بشراً بزرادشتيتهما بين عبّاد يهوه وسواهم ، وبات الآن لدينا مجموعة تميّزت دينياً اسمها «يهود» ، ولكن دون الخروج على جوهر الزرادشتية .

ولا بدّ أن عزرا نقل مادونه ، فشكّل نواة ما سيُعرف باسم العهد القديم ، وعزاه إلى النبي موسى عليه السلام ، وقد استقاه من محفوظات مجمع القصور الملكية ، أي «مدينة الفرس» ، لكن من أين جاءت هذه المحفوظات إلى البلاط الأخميني ؟ هذا سؤال تصعب الإجابة عليه الآن بشكل موثّق ، لكنني لا أستبعد إقليم ميديا وأعالي بلاد الرافدين ، حيث ورد ذكر حرّان كثيراً ، وحيث استدلّ بعضهم أن أصل سفر أخنوخ (إدرس) قد دوّن في أعالي هذين الإقليمين . وبرغم التعديلات التي لحقت بما دوّنه عزرا وبرغم الإضافات ، ما تزال ثمة ملامح زرادشتية واضحة نجدها في مخطوطات البحر الميت ، وفي أن رجل الدين اليهودي حمل التسمية التي حملها عضو هيئة المجوس أي حكيم (حاخام) وديّانه ، ومثلما حمل كبير الكهنة المجوس اسم «مؤيد مؤيدان» حمل كبير كهنة اليهود اسم الكاهن الأعظم .

وأكثر من هذا من حكايات سفر التكوين التي اهتمّ بها اليهود حكاية تعلقت بميلاد عيسو ويعقوب ابني إسحق من «رفقة بنت بتوئيل الآرامي أخت لابان الآرامي من فدان آرام»، ذلك أنه عندما كملت أيام رفقة «لتلد إذا في بطنها توأمان . فخرج الأول أحمر كلّه كفروة شعر فدعوا اسمه عيسو . وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة يعقب عيسو فدُعي يعقوب». وأحبّ إسحق عيسو ، لكن رفقة آثرت يعقوب ، وعندما شاخ إسحق أراد أن يبارك عيسو ليستخلفه ، وتأمّرت رفقة مع يعقوب لخداع إسحق ، فصنعت طعاماً ممّا أحبّه إسحق الذي فقد بصره ، وألبست يعقوب ملابس عيسو «وألبست يديه وملاسه عنقه جلود» جديدين «وأعطت الأطعمة والخبز التي صنعت في يد يعقوب ابنها . فدخل إلى أبيه وقال يا أبي ، فقال : ها أنذا ، مَنْ أنتَ يا ابني ؟ فقال يعقوب لأبيه : أنا عيسو بكرك»، وجسه إسحق وارتاب به فقال : «الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو . ولم يعرفه لأن يديه كانتا مُشعرتين كيدي عيسو أخيه ، فباركه»⁽¹⁾ .

ويعصرف النظر عن الجانب الأخلاقي في هذه الحكاية ، وأنا ننزّه الأنبياء عن اقرار مثل هذه الأعمال ، يهمنّا هنا الأصل الزرادشتي الذي هو مصدرها ، وتعلّق الأمر بولادة أهورمزدا وأهرمان من زروان ، فقد قام «زروان الكبير فزمزم تسعة آلاف وتسعمائة وتسعاً وتسعين سنة ليكون له ابن ، فلم يكن ، ثم حدث نفسه وفكر وقال : لعلّ هذا العالم ليس بشيء ، فحدث أهرمن من ذلك الهمّ الواحد ، وحدث أهرمزدا من ذلك العلم ، فكانا جميعاً في بطن واحد ، وكان أهرمن أقرب من باب الخروج ، فاحتال أهرمن الشيطان حتى شقّ بطن أمّه فخرج قبله وأخذ الدنيا» ، لأن زروان كان قد قرّر استخلاف الولد الأول بالخروج وأوحى بذلك إلى أهورمزدا ، فأعلم هذا أهرمان ، فخرج أهرمان أولاً ، ونال بركة أبيه وخلافته في حكاية طويلة متشعبة⁽²⁾ .

(1) سفر التكوين : الأسفار 25-28 . انظر أيضاً كتابي «القدس في التاريخ» ج 1 منشورات القيادة الشعبية الإسلامية العالمية - طرابلس الغرب 2002 ، ص 52-62 . وسترد في نصوص التلمود أدناه معطيات أوسع عن قضية عيسو ويعقوب .
(2) كتاب الملل والنحل للإمام عبد الكريم الشهرستاني (ت 548 هـ) على هامش الفصل لابن حزم - ط . القاهرة - ج 2 ص 74-77 .

وتعلقت الثانية بالتشريع اليهودي ، الذي قضى أنه إذا مات زوج وهو شاب لم يُنجب ، ينبغي تزويج أرملته بأخيه ، وأن يُنسب الولد الذي يكون ثمرة هذا الزواج إلى الأخ المتوفى . وهذه القاعدة قاعدة زرادشتية كان اسمها «الأبدال» ، حكاهما لنا تنسر في كتابه حيث قال : ومعنى الأبدال في مذهبهم أن الرجل منهم إذا حان أجله ولم يكن له ولد ، فإذا كانت له زوجة زوجهما من كان من أقاربه أقرب إليه وأولى . . . ويُنسب الولد الذي يولد من هذا الزواج إلى المتوفى صاحب التركة ، ويُقتل من يتصرف على غير هذا النحو ، وكانوا يقولون : «ينبغي أن يبقى نسل الميت حتى آخر الزمان»⁽¹⁾ .

وقطع سقوط الإمبراطورية الأخمينية الصلات السياسية لليهود مع بلاد فارس ، ووضع هؤلاء اليهود في ظل مؤثرات جديدة ، هي المؤثرات الإغريقية والهلنسية . وهكذا أضيف إلى أسفار العهد القديم أسفار جديدة نجد فيها أخبار ردات الفعل المؤيدة أو المضادة للهلنسية ، ومع ذلك تهلنس العهد القديم ، وعلى هذا انتهت المرحلة الأخمينية ، وهي المرحلة الأولى في تاريخ تدوين أسفار العهد القديم ، وبدأت مرحلة جديدة سوف يكون لها تأثير كبير وديمومة .

أنالنا أحاول في هذه المقدمة الخوض بمزيد من التفاصيل حول المرحلة الفارسية⁽²⁾ ، بل سوف أعالج المرحلة الهلنسية ، لكن مع شيء من الاختصار ، ومصدرنا هنا المؤرخ اليهودي يوسيفوس بشكل رئيسي : فمن المشهور إقدام البطالمة في مصر على إقامة مكتبة عظيمة جداً في مدينة الإسكندرية ، وسعى ملوك البطالمة إلى إغناء مكتبة الإسكندرية ، قال يوسيفوس اليهودي : «كان في ذلك الزمان رجل من أهل مقدونيا يُقال له بطليموس ، وكان مُحبباً للحكمة ، عاشقاً للعلوم ، شديد العناية بها ، كثير الرغبة في تحصيلها . وكان مُقيماً بأرض مصر ، فملكه المصريون عليهم ، فلما ملك ازداد تحرقاً على العلوم ، وكثر شوقه إليها ، وعُني بتحصيل الكتب وطلبها من كل أمة ، ومن كل صقع وبلد ، ويقال إنه لم يترك كتاباً إلا وحصله عنده» .

(1) كتاب تنسر - ط . القاهرة 1954 ص 43-44 .

(2) انظر كتابي «القدس في التاريخ» ج 1 ص 60-68 .

وتابع يوسيفوس يروي لنا أن الملك المصري سمع بكتاب عزرا في فلسطين ،
فحصل على نسخة منه حوّته وحوّت ما أضيف إليه من أسفار جديدة ، وعندما
حُملت إليه النسخة إلى مصر ، حُمل معها أكثر من سبعين حكيماً وشيخاً ، فأخلى
للسبعين حكيماً سبعين منزلاً ، وأمر أن ينزل كل رجل منهم في منزل مُنفرداً ، لا
يلتقي أحد منهم مع صاحبه ، وإنما فعل ذلك لزيادة تحرّزه ، وكثرة حذره ، لثلاً
يجتمع أحدهم مع رفيقه ، فيتفقوا على تغيير شيء من الكتب التي ينقلونها ، ثم أمر
أن يُجعل مع كل رجل منهم كاتب من الحدّاق في اللّغة اليونانية .

ويفيد هذا الخبر أن عدد النسخ التي حُملت إلى الإسكندرية تجاوز السبعين
نسخة ، وهذا عدد كبير جداً ، ومدعاة إلى الشك ، لا سيما في توافق نصوص من
النسخ من حيث المحتوى والضبط . وأن الحاخامات - وعددهم أيضاً كبير - الذين
حُملوا إلى الإسكندرية كانوا يُتقنون ما سيُعرف باسم العبريّة والإغريقيّة ، أي كانوا
مُتهلّنين . وقام هؤلاء الحاخامات ، كلّ على انفراد ، بنقل نسخة من الأسفار إلى
الإغريقيّة ، وكانت المحصّلة لهذا الجهد توقّر سبعين نسخة مترجمة إلى الإغريقيّة
كلّها متّفقة لم تختلف في شيء ، محرّرة في غاية الصّحة⁽¹⁾ .

قد يجد الإنسان صعوبة في تصديق هذه الحكاية بتفاصيلها ، لكن المهمّ هنا
هل بالفعل جاءت النسخ كلّها متّفقة ، أم تشكّلت لجنة لتوحيدها ومن ثمّ جرى
اعتماد النسخة الجديدة ؟ المثير للدهشة أن كتاب عزرا الذي كتبه أصلاً بالآرامية قد
زالت نسخه من الوجود ، وزال الآن معه الأسفار المُضافة ، فهل يأتري هذه الحكاية
كلّها ملفّقة ؟ أي أن سلّطات البطالمة أخرجت نسخة إغريقيّة رسميّة من أسفار العهد
القديم ولاحتت النسخ التي كانت متوقّرة بالآرامية وأتلفتها ، لا سيما إذا تذكّرنا أن
عدد اليهود كان آنذاك ضئيلاً ، وأن هؤلاء كانوا أفراد حامية عسكرية تنتمي إلى
النظام الأخميني المنهار ، وهذه الحامية كانت عُرضة لكل أنواع التهديدات . المهمّ
هنا أن المرحلة الهلنستية أنتجت نصّاً جديداً للعهد القديم مكتوباً بالإغريقيّة ، بات
يُعرف باسم «النصّ السبعيني أو السكندري» ، وهذا النصّ هو الذي اعتمد رسمياً
وتُرجم إلى مختلف اللّغات ، ومنها العبريّة .

(1) تاريخ يوسيفوس اليهودي - حروب اليهود (ط . بيروت 1874) ص 49-51 .

وساعدت هلنسة نصّ أسفار العهد القديم ، مع الاضطراب الديني في مصر وبلاد الشام وكذلك الاضطراب السياسي ، على انتشار اليهودية ، ولا سيما في بعض المناطق القريبة من القدس ، وفي منطقة أدوم القريبة . وعاش - كما كان الحال أيام الأخمينيين - بعض اليهود في القدس ، وحاول اليهود في ظلّ الصراعات المتواصلة بين السلوقيين والبطالمة إنشاء كيان سياسي ، أو فرض نفوذ ومكانة ، ونشأت بين صفوفهم عصابات متطرفة [القنّاثيون = الزيلوت] مارست الاغتيال والنهب والسلب وترويع الأمن . وازداد هذا الوضع واستشرى بعد سقوط حكم كلّ من السلوقيين في سورية ثم البطالمة في مصر ، ودخول المنطقة بأسرها تحت حكم الإمبراطورية الرومانية .

هذا وتحذّث يوسيفوس عن مجموعة من اليهود قامت قبيل دخول الرومان بحركات حرّية مكنتها من السيطرة على القدس ، وإقامة كيان سياسي عُرف باسم «الأسرة الحشمونية» ، وعُرفت مجموعة اليهود التي أسست هذا الكيان باسم «المكاييين» . ويوجد بين أسفار العهد القديم سفران عن المكاييين⁽¹⁾ ، وأسرف هذان السفران مع المؤرّخ يوسيفوس في الحديث عن الأعمال العسكرية لهذا الكيان ، ويبدو أن قيامه كان له بعض الأثر في جعل اليهودية مشروعاً دينياً ، وفي نشرها ، وفي توفير مؤسسات دينية وسياسية يهودية . ونظراً لأن الحكّام السلوقيين عدّوا المكاييين متمرّدين استمرّت حملاتهم التأديبية العسكرية ضدّهم ، ويات المكاييون على اطلاع على أخبار الإمبراطورية الرومانية ، وسوء علاقتها مع السلوقيين وتطلّعها إلى احتلال كلّ من سورية ومصر ، ولذلك راسلوا واعدن إياها بالمساعدة . ثمّ في عام 63 ق.م دخل القائد الروماني پومپيوس إلى سورية ، وفي دمشق استقبل الملك الحشموني «أرسطوبولس بن الإسكندر» وكان واقعاً في صراع مع أخيه هركانوس ، وبعد كثير من المشاق جرى تعيين هركانوس كاهناً أعظم ، ثم ما لبثت علاقات أرسطوبولس أن ساءت مع پومپيوس ، فزحف هذا ضدّ القدس ، واستولّى عليها بعنف مدمر ، وعزل الملك الحشموني وأنهى حكم أسرته ، وأخذه معه إلى روما ، وُسْتُدِلّ من اسم هذا الملك ومن بينات أخرى أنه كان «مُهلنساً» .

(1) ممّا يجدر ذكره أن سفري المكاييين ليست لهما سوى أصول يونانية كُتِبَ بها أصلاً .

إثر هذا شهدت الإمبراطورية الرومانية صراعات عنيفة أدت إلى مقتل پومپيوس وقيام يوليوس قيصر ، وفي أيام الاضطراب والفوضى ظهرت أسرة أدومية عربية حاكمة جديدة محل الأسرة الحشمونية . كما تمكّن الفُرس الفرثيون عام 40 ق.م من احتلال سورية ، وهنا ظهر من الأسرة الأدومية الجديدة هيرود بن أنتيباتر وعلا نجمه ، حيث ذهب إلى روما وكسب ثقة قادتها الجدد : أنطونيوس وأوكثافوس ، فعينه مجلس الشيوخ الروماني ملكاً على القدس ، فعاد إلى فلسطين ، وتعاون مع الوالي الروماني على سورية لطرده الفُرس ، وبذلك أخذ القدس عام 37 ق.م ، وتابع التوسّع حتى صار ملكاً على فلسطين كلّها ، وعلى أدوم ، وذلك امتداداً حتى حوران وجبلها ، أي حتى منطقة السويداء الحالية (في سورية) .

وامتدّ حكم هيرود - الذي بات يُعرف بالكبير - من عام 37 ق.م حتى عام 4 ق.م ، وكان سياسياً محتكاً ، وإدارياً ناجحاً ، عرف كيف يتخلّص من مُعظم الأزمات ، ولم يخضع لسُلطة الوالي الروماني على سورية . وكان مُحباً للعمارة ، وإليه يُنسب بناء مدينة قيسارية فلسطين وغيرها ، مثل سبسطية . وزعمت الروايات اليهودية أن هيرود كان يهودياً بغيضاً ، ولكنه كان في الواقع يؤمن بعبادة «بعل السماء» ولم يكن يهودياً ، ويدلّل على ذلك معبد بُني في أيامه في قرية سيع قرب بلدة قنوت في أحواز السويداء السوريّة⁽¹⁾ .

وقبل هيرود كان حكم الأسرة الحشمونية ممقوتاً ومدمراً ، ونظراً لهذا ، وللانحدار المتنوع للذين اعتنقوا اليهودية ، ولردّات الفعل ضد الهلنسة وغير ذلك ، ظهر بين صفوف الطائفة اليهودية في القدس وأحوازها عدّة فرق كان أهمّها :

- 1- الحسيديّون .
- 2- الصّدوقيّون .
- 3- الفريسيّون .
- 4- القنّائيّون .
- 5- الإيسينيّون .

(1) العرب في سورية لرنه دوسو - ترجمة عربية ، ط . بيروت 1985 - ص 150-157 .

وكان مذهب الحسيديين مذهباً باطنياً غنوصياً ، انتشر قديماً وتأصل في أعالي بلاد الرافدين (الجزيرة الفُراتية) والشام الشمالي . وأما حزب الصدوقيين ، فهو حزب ادعى أتباعه الانتماء إلى شخص أسطوري اسمه صادوق ، قيل كان كاهناً للملك داود ، وكان هذا الحزب يؤمن بالتعطيل ، ولا يؤمن لا بالملائكة ولا الشياطين ، واعتقد بفناء النفس مع فناء الجسد ، وهذا كله موجود في الإطار الواسع للزرادشتية⁽¹⁾ .

وعارض الفريسيون - الذين اشتق اسمهم من الفرس - وشابهوا عشيرة الجوس من جميع الجوانب ، وقدموا رجال الكهنوت اليهود المتعلمين المتعصبين ، وقد آمنوا بأن فعل الرب لا ينقطع ، وبحرية الإرادة عند الإنسان مع بقاء القرار بيد الرب ، والمعاد عندهم بالروح والجسد .

واشتهر حزب القنانيين (الزبلوت) بالتعصب والعنف والإقدام على سفك الدماء ، وكانوا متدينين متطرفين كثيراً ، قيل إنهم كانوا الجناح العسكري للفريسيين وقد مارسوا القتل للقتل . كان أحدهم يحمل خنجراً برأسين ، ويمر بين الناس فيطعن به على الجانبين ، وهم الذين سيتسبون بتدمير القدس وفلسطين على أيدي الرومان ، ومن ثم إبادتهم جميعاً⁽²⁾ .

وكان أتباع الطائفة الإيسينية هم الذين اعتزلوا حياة اليهود غير الطبيعية من جميع الجوانب ، وأقاموا ديراً لهم على شواطئ البحر الميت في قمران ، أو عين الجدي . ونظراً للعثور على تراثهم المكتوب ، باتت معلوماتنا عنهم وافية تقريباً ، حيث كانوا بعيدين عن بقية طوائف اليهود ، تعدادهم حوالي الثلاثمائة فقط ، حافظوا على الأصول الزرادشتية ، وكانوا أقرب إلى الارتباط بدمشق والواقع الشامي العام في القرن الأخير لما قبل الميلاد والنصف الأول من القرن الميلادي الأول⁽³⁾ .

(1) أقوم الآن بطباعة كتاب واسع عن الزرادشتية .

(2) يوسيفوس ، ص 97 ، 243-323 . القدس في التاريخ ، ج 1 ص 80-86 .

(3) قمت بترجمة مخطوطات البحر الميت التي كتبها الإيسينيون ، وهي قيد الطباعة الآن في دار قتيبة بدمشق .

وورث اليهود عن الزرادشت عقيدة المنتظر وسموه المسيح ، وفي مخطوطات البحر الميت أحاديث عن أكثر من مسيح مُنتظر ، كما أنه ظهر في القرن الأول للميلاد أكثر من شخص ادعى المسيحية ، وتردّت الأوضاع الأمنية في القدس كثيراً ، خاصة بعد وفاة الملك هيرود الكبير ، وحاول الرومان ضبط الأحوال . وظهر في هذه الآونة المسيح عليه السلام ، ولم تجلب رسالته السلام إلى فلسطين ، وظلّت الأحوال تتدهور ، وسكّان البلاد يطلبون من روما ضبط الأمور ، فكان أخيراً أن ندب الإمبراطور الروماني نيرون (54-68 م) القائد فسپاسيان ، الذي تتمتع بالكفاءة والشعبية بين جنوده ، وعيّنه نائباً إمبراطورياً على سورية وما جاورها . وفي آذار عام 67 م كان فسپاسيان في أنطاكية ، ثم التحق به ابنه تيطوس فصار تحت قيادته عدّة فرق عسكرية كبيرة ، وانضاف إلى الفيالق الرومانية قوآت الحاكم الأدومي أغريبا الثاني ، وسهيم ملك حمص ، ومالك الثاني ملك الأنباط . وشرعت هذه الجيوش باجتياح مدرّوس لفلسطين بدءاً من الجليل ، وحاول اليهود تنظيم أمورهم العسكرية وعهدوا بالقيادة إلى ثلاثة من كبار الكهنة ، كان منهم يوسف بن كريبون المؤرّخ . ولم يتوقفوا في الوقت نفسه عن الحروب الداخليّة وأعمال القتل والسلب ، وهكذا لحق الدمار بكلّ مكان في فلسطين ، وبينما الحروب بين العصابات اليهوديّة قد وصلت إلى ذروتها ، وصلت الأخبار بانتحار نيرون ، وبعد عام من عدم الاستقرار نودي بالقائد فسپاسيان إمبراطوراً ، فاستخلف ابنه تيطوس بمتابعة النشاط العسكري في فلسطين . وفي عام 70 م سقطت القدس جيّة هامة ، ثم سقطت بعدها بقيّة المناطق الفلسطينية حتى عام 73 ، ففي هذا العام تمّت إبادة بقيّة القنّائين الذين التجأوا إلى قلعة مسعدة ، وهكذا أفرغت فلسطين تقريباً من سكّانها ، حيث يُقدّر عدد الذين قتلوا من أهلها بـ 1,350,000 إنسان .

وخلال الأحداث هاجرت أعداد كبيرة من السكّان ، من النصارى أولاً أتباع النبي يحيى عليه السلام إلى الجزيرة الفُراتيّة ، وإلى جنوب العراق ، كما هاجرت أعداد من اليهود إلى بابل ، وإلى مناطق في الحجاز ، كما ساعدت وحدة الإمبراطوريّة الرومانيّة عناصر من اليهود على الهجرة إلى بلدان أروبيّة ، وإلى بعض بلدان الشمال الأفريقي ، وشكّل هذا بداية الشتات اليهودي في العالم .

وقبل أن يفرغ تيطوس من مهامه استدعاه والده للقدوم إليه ففعل ، وبعد مغادرته عاد إلى خرائب القدس أعداد من اليهود ، وكثير من الجليليين أو الناصريين الذين سيُعرفون فيما بعد باسم المسيحيين ، وكانوا متخفين في وادي الأردن في مدينة فحل ، وبنوا هناك أكواخاً أقاموا فيها . وصار المكان بالفعل «وكرّاً للصوص والقَتلة» ، ذلك أن «اليهود الذين روحهم لم تكن حتى ذلك الحين تحطمت بما فيه الكفاية ، أثاروا الاضطرابات ، وآذوا بشكل يومي النَّاس المؤمنين [المسيحيين] وأفراد الأمم الذين كانوا هناك ، لأنهم كانوا متوحشين إلى أقصى الدرجات ، وقتلة سفكوا دماءً جديدة فوق القدس ، التي كانت الآن مسوأة بالأرض ، ملطخة بالدماء» .

وبقي المكان على هذه الحالة البائسة حتى صار إيلْيوس هادريانوس إمبراطوراً [117-138 م] وقد «سمع بأن القدس التي كانت ميتة أخذت تتحرك ثانية ، فعبر البحار بسرعة ، وقدم إلى هناك ، فوجد هناك كثيراً من النَّاس من كلِّ من المسيحيين واليهود ، كانوا على خلاف بين أحدهم والآخر ، بسبب الخلاف بين ديانتهم ، وكان بالوقت نفسه أناس من الأمم وثنيين يكرهون الديانتين معاً ، وبناءً عليه» وضع فوق صخرة الجمجمة خارج القدس تمثالاً لثينوس ، وعلى مقربة منه تمثالاً لجوبيتر إله الرومان ، وفيما بينهما تمثالاً لنفسه ، ويُرجَّح أن هذا كان عام 124 م . لكن ما لبث بعد مغادرته أن قام اليهود والمسيحيون وبقية السكَّان بهدم ما بناه الإمبراطور ، واستدعى هذا أولاً إرسال فرقة رومانية إلى القدس ، ثم قدوم الإمبراطور هادريان نفسه ، فقام «بقتل اليهود وبيعهم رقيقاً ، وأخرجهم مطرودين من البلاد ، وبنى مدينة القدس» بناءً جديداً ، وزاد مساحتها وعمل لها أسواراً ، وأعاد بناء معبد جوبيتر ، وهو المكان الذي ستحتله كنيسة القيامة في المستقبل ، ومنح المدينة اسماً جديداً اشتقَّ من اسمه «إيلياء» ظلت تحمله حتى الفتح الإسلامي ، وأصدر مرسوماً إمبراطورياً يمنع اليهود من سكنى القدس ، أو حتى الدخول إليها ، وهذا مرسوم سوف يجده الإمبراطور البيزنطي هرقل بعد انتصاره على الفُرس السَّاسانيين عام 627 م ، ثم تجدد بعد هذا سنة 17 هـ / 639 م في العهدة العُمريَّة⁽¹⁾ .

(1) من أجل المزيد من التفاصيل انظر : القدس في التاريخ ، ج 2 ، ص 9-83 .

وهكذا تجمعت الآن في بابل طائفة من اليهود ، استقرت وأقامت مع الأيام عدداً من المدارس أو مراكز النشاط الديني ، وظلت هذه المراكز موجودة حتى قبيل عام 1948 ، وفي بلاد بابل عاشت اليهودية دوراً جديداً ، هو الثالث ، بعد الدورين الأخميني والهلنستي . وفي هذا الدور أعاد الحاخامات النظر في أسفار العهد القديم زيادةً وحذفاً وتكييفاً ، وجعلوا هذه الأسفار على نوعين : شرعي ، ومحذوف (أبوكريفاوي) . وخلال هذه المرحلة البابلية المهمة اعتمد الحاخامات على التراث البابلي الغني جداً ، فاستولوا على بعض منه كلياً ، واقتبسوا من بعضه الآخر ، وهكذا توقر لديهم أدب ولهجة لغوية خاصة هي التي ستعرف بالعبرية ، وكانت هذه العبرية بلا أحرف صوتية ، فأدخلها الحاخامات فيما بعد على نص ما بات يُعرف باسم العهد القديم ، وأدى هذا إلى تعديل بالنص وتغيير تجاوز 25٪ ، وفي الحقيقة لم يأخذ نص العهد القديم شكله النهائي حتى القرن العاشر للميلاد .

والاستعارات من التراث البابلي كثيرة جداً ، بدأت بقصة الغريق وهو الملك شاروكين الأكادي ، ثم نصوص أسفار كثيرة وعقائد من الممكن أن نرى نماذج عنها فيما نُشر بكتاب اسمه «حكمة الكلدانيين» [بغداد 2000] : النصوص التي وردت في الجزء الأول من ص 101 حتى 168 ، وكذلك محتويات كتاب «الأخلاق في الفكر العراقي القديم» تأليف حسن فاضل جواد [بغداد 1999] ، وغير ذلك كثير جداً يحتاج ذكره إلى وقت طويل وإلى مؤسسات بحثية .

وبعد قيام الإسلام ، وإثر معركة اليرموك ، وقعت بين أيدي العرب كميات كبيرة من النصوص الدينية اليهودية والمسيحية ، كان بينها أكثر من نسخة من العهد القديم ، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص على رأس الذين اهتموا بهذه النصوص حيث تُرجم له سفر التثنية ، كما ذكر الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه «غريب الحديث» وذكره مراراً ابن كثير في كتابه البداية والنهاية . كما يبدو أن بعض الأسفار الأخرى تُرجمت إلى العربية في العصر الأموي ، لا سيما من قبل وهب ابن منبه ، ويبدو أنه توقرت ترجمة كاملة للأسفار في العصر العباسي قبل حكم المتوكل على الله [232-247 هـ / 847-861 م] . وأنا لذي بعض ما توقر للمتوكل مع نسخة عربية أخرى ، هي الآن قيد التحقيق والنشر مع كامل الأسفار المحذوفة .

وفي الأندلس توقرت بعض الترجمات إلى العربية ، لا بل يبدو أن تاريخ يوسفوس - كلاً أو بعضه - قد تُرجم إلى العربية ، حيث توقّر ذلك للإمام ابن حزم الظاهري ، الذي تولّى نقد وتفنيده جُلّ الروايات التوراتية في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» ، بشكل رائع لا نظير له .

ومهما بلغت أهمية التأثير البابلي على العهد القديم ، كان الإنتاج الأعظم في هذه المرحلة هو تصنيف التلمود البابلي الذي احتاج إلى عدة قرون ، شروعاً من نهاية القرن الثاني للميلاد ، وعندما اكتمل نص التلمود مع الشروحات ، صار حجمه حوالي الثلاثين مجلّدة كبيرة ، فيها ما لا يقلّ عن مليونين ونصف المليون كلمة⁽¹⁾ . ولقد حصلتُ على نسخة كاملة من هذا الكتاب الذي لا يمكن إلا من خلاله التعرف إلى جميع جوانب الفكر اليهودي ، وأصول الصهيونية ، وعندني أمل كبير بترجمة هذا الكتاب كلاً إلى العربية ، إن أعان الله وشاء ويسر . ولكن إلى أن يتيسر هذا ، مفيدٌ جداً أن نقدّم إلى القارئ العربي والمسلم مُختاراتٍ من نصوص التلمود ، وهذا ما أقدم عليه الأستاذ أحمد إيش .

والأستاذ إيش سليل أسرة دمشقية عريقة ، مؤهل أكاديمياً ، يُحسن بالإضافة إلى العربية عدة لغات ، منها الإنكليزية والفرنسية والعبرية ، ويمتلك قدرة متميزة على التعامل مع نصوصها . والذي اختاره من التلمود ترجمه عن العبرية ، وعمله هذا عمل رائد في الفكر العربي يُشكر عليه ، ولكم أتمنى في مستقبل الأيام التعاون معه على ترجمة كتاب التلمود البابلي كلاً ، فهذا هو الجهاد الأعظم ، وسيكون من خلال ذلك قاعدة تمكّن الإنسان العربي والمسلم من فهم أصول الفكر الصهيوني ، فمن دون ذلك لا يمكن دحر الصهيونية واسترداد الأرض المغتصبة ، وتحرير المسجد الأقصى وقبة الصخرة وبقية المقدّسات .

لقد حاول العرب تحرير فلسطين بالسّلاح المستورد ، وبالفكر المستورد ، وبمجافاة الإسلام ، وإهمال العلم والعدل والمساواة والنقاء ، فأخفقوا ، واستسلم جُلّ حكامهم للصهيونية ، إلا دمشق الشام .

(1) يُعتبر وصف المرحوم د. حسن ظاظا لمحتويات التلمود هو الأفضل بالعربية ، انظر كتابه «الفكر الديني اليهودي - أطواره ومذاهبه» [ط . دمشق 1999] ص 66-93 .

وفي تاريخ أمتنا من الدّروس أبلغها ، ولا سيّما في أحداث قرني الحروب الصليبيّة ، فعندما تسلّم المجاهد نور الدّين محمود بن زنكي السّلطة في حلب عام 1146 م ، بعد مقتل أبيه زنكي ، وضع برنامجاً شاملاً في سبيل تحرير القُدس وطرده الصليبيين ، فابتدأ بإنشاء المدارس لإحداث نهضة علميّة كبيرة شاملة . وساعدته النهضة العلميّة على توحيد المجتمع ، فأزال الطائفية ، والعشائرية ، والإقليمية ، ووضع حداً للمفاسد في قطاع القضاء وسواه ، وأوقف استغلال المناصب ، وضرب بنفسه وبأسرته المثل الأعلى ، ومنع الجُنْد وقادتهم من التّدخل في شؤون النّاس وظلمهم واستغلالهم ، واهتم بالصّحة ، والأمن والأمان وحرية الرّأي والمعتد ، وأعاد بناء الجيش من حيث التّسليح والتّدريب والسّلوك ، وأقام لحمة بين الجُنْد والمواطنين ، فبات الجيش يمتلك ظهيراً شعبياً فعّالاً ، وكثر عدد المتطوّعة . وحقّق وحدة بلاد الشام شمالاً وجنوباً ، ومدّ الوحدة إلى مصر ، وكذلك إلى الموصل ، حتى بات على شبه يقين بتحرير القُدس ، حيث أمر بصنع منبر تُلقى عليه خطبة التّحرير في المسجد الأقصى . وصحيح أن المنيّة وافت نور الدّين قبل التّحقيق الكامل لما خطّط له ، لكن خلفه صلاح الدّين تابع أمانة الجهاد ومسؤوليته ، فحرّر القُدس سنة 583 هـ / 1187 م ، وحمل منبر نور الدّين إلى المسجد الأقصى ، حيث بقي فيه إلى أن أحرقه الصّهاينة عام 1969 .

لا بدّ - خاصّة في دمشق العروبة والإسلام والإيمان - من وضع خطط ماثلة لخطط نور الدّين ، بزيادة الاهتمام بالعلم والعلماء فعلاً ، يُضاف إلى هذا أن عصرنا هو عصر العلم والمعرفة ، اللذين لا يمكن أن يقوم أي مجتمع حضاري اليوم إلا على أساس متين يرتكز عليهما . ومن أهم مزايا عصرنا الآن الاهتمام بتواريخ الديانات والعقائد ، كما أن من مزايا بعض جوانب هذا الاهتمام في الغرب حملات ظالمة على الإسلام ، وعلى النبي المصطفى صلّى الله عليه وسلّم . فعلينا نحن الآن - كما فعل أئمّتنا الأوائل - خوض ميادين البحث في الديانات وتواريخها ، لا للإثارة ولكن لتبيان «أن الدّين عند الله الإسلام» ، وأن الإسلام صالح لكل زمان ومكان ، وأنه لا يصلح زمان ولا مكان من دون الإسلام ، لأن الإسلام هو الدّين الذي ارتضاه الله جلّت قدرته لعباده .

ما تزال علاقاتنا مع الغرب غير متوازنة وغير إنسانية ولا أخلاقية ، حيث ما برح الغرب منذ إعلان البابا أوربان الثاني عن الحروب الصليبية في عام 1095 م حتى الآن ، يجرعنا المرارة الدموية كأساً بعد كأس ، فالعدوانية الغربية لم تتوقف منذ ذلك الحين ، والكيان الصهيوني وسيمته العنصرية ، وغزو أفغانستان والعراق ، شواهد بارزة على ذلك .

وأنا شخصياً أطالب الغرب بتغيير سلوكه والإقلاع عن العدوان ، ولا أطلب أي عربي أو مسلم بالانتقام ، وذلك تأسياً واقتداءً بما فعله النبي المصطفى - صلى الله عليه وسلم - يوم أُحُد ، حيث دعا لأعدائه بالهداية ، ثم عندما دخل مكة فاتحاً لم ينتقم حتى من وحشي ومن هند ، بل قال : «اذهبوا فأنتم الطلقاء» .

فلتكن أبحاثنا في ميدان تاريخ العقائد أبحاثاً تستهدف تبيان أن كل ما هو موجود - سوى الإسلام - زيف وبلاء في الحاضرة وفي الآخرة ، وأن نقدم للغرب والعالم كله صورة الإسلام الحقيقية ، وأن ندعو للناس جميعاً بالهداية لا بالهلاك والإبادة ، وأن نهتم أكثر فأكثر بوحدة العرب والمسلمين ، لكن دون التساهل مع الكيان العنصري الصهيوني ، لأن كل متعامل مع هذا الكيان متهاون مفرط حكماً بالقدس ، والذي يهون عليه التفريط بالقدس يسهل عليه التفريط بالمسجد الحرام ، والمسجد النبوي . وما من مسلم يتفوه بالشهادتين ويؤمن قلبه بالوحدانية يجيز التفريط ، فكل المصائب قد تكون هيئة يمكن التعامل معها إلا مصيبة الإيمان ، فلو فرط بلال ولم يصر على قوله «أحدٌ ، أحدٌ» ، ولو تساهل الصديق رضي الله عنه مع المرتدين ، لتغير وجه التاريخ وللكحق الفساد دين الإسلام مثلما لحق غيره من الديانات عبر التاريخ . وحين فرط بعض الحكام وتفاوضوا مع الكيان الصهيوني ، فتحوا باباً للتنازلات ازداد اتساعاً ، وما زال يزداد ، ولم يتحقق حتى الآن سوى المزيد من الخسائر والإهانات .

وقط بالجهد تحقق الجلاء عن جنوب لبنان ، وسيتحقق قريباً من غزة ، ولكي يُغلق باب البدع والتنازلات ، على هؤلاء الحكام التوبة إلى الله تعالى ، والإنابة والأخذ بأي جماهير المسلمين ، والالتزام بالشرعية ، وإلا سيحصلون على الإدانة التاريخية ، ثم الإدانة من قبله تعالى . ولا منجاة من ذلك ، لأنهم لا ريب

سوف يؤتون كتابهم بشمالهم : ﴿وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوتَ كتابي * ولم أدر ما حسابي * يا ليتها كانت القاضية * ما أغنى عني ماليه * هلك عني سلطانيه * خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلّوه * ثم في سلسلة ذرّعها سبعون ذراعاً فاسلّكوه﴾ [الحاقة : 25-33] .

جزى الله بالخير والجنة كل من عمل في سبيل الإسلام وهداية البشرية ، بالقول والفعل ، وأقلع عن سفك الدماء ، ذلك لأنه ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة : 32] .

اللهم ألهمنا الرشد ، وامنحنا العون والهداية ، لك الحمد دائماً وأبداً ، وصلى الله على النبي المصطفى وعلى آله وأصحابه ، ومن أخذ بهداه إلى يوم الدين⁽¹⁾ .

سهيل زكار

دمشق ، 29 جمادى الآخرة 1426

الموافق 4 آب 2005 م

(1) لم أقم بالاستفاضة في الحديث عن التلمود ، واكتفيت بالإحالة إلى ما كتبه المرحوم الدكتور ظاظا ، تاركاً المزيد للأستاذ إيبش .

مقدمة

التلمود : تاريخه وتعاليمه

التلمود أحد أهم الكتب الدينية وأقدسها عند اليهود ، وهو النتاج الأساسي للشرية الشفوية ، أي تفسير الحاخامات للشرية المكتوبة (التوراه) . ويضم سجلاً لتقاشات الحاخامات حول الشرية اليهودية ، والأخلاق والعادات والأساطير والقصاص ، التي يعدها التراث اليهودي مؤصلة بالتواتر الشفوي . وهو مصدر أساسي للتشريع والأعراف ، وللتواريخ الواقعية والمواعظ الأخلاقية .

يتألف التلمود من مكونين رئيسيين : «المشناه» ، وهي أول مجموعة مكتوبة من الشرية الشفوية للدين اليهودي . و«الجمارا» ، وهي نقاش حول المشناه (علماً أن مصطلحي التلمود والجمارا يردان عادة بالتوازي) . والتلمود يتوسع في نصوص التوراه الباكرة عموماً وفي المشناه بوجه الخصوص ، وهو أساس القواعد التالية للشرية اليهودية كلها ، ولكثير من الأدب الحاخامي . وكذلك تجري الإشارة في العادة إلى التلمود بعبارة «شاس» ש"ס ، وهي اختصار حروفي للتسمية العبرية «ششاه سداريم» ، وتعني : المباحث الستة . واسم التلمود مشتق من الجذر العبري ש"ס (لامد) الذي يعني : دَرَسَ وتَعَلَّمَ ، كما في عبارة «تلمود توراه» ، أي (دراسة الشرية) . وهذا يتعارض مع العربية : تَلْمِذ ، تَلْمَذَة .

يُعد اليهود التلمود كتاباً مقدساً وأن كلام علمائه كان «يوحي به الروح القدس» (رُوح هَقُدْش הוהקדש) ، على أساس أن الشرية الشفاهية مُساوية في المنزلة للشرية المكتوبة . والتلمود مُصنَّف للأحكام الشرعية أو مجموعة القوانين الفقهية اليهودية حول المواضيع القانونية (هَلْخاه) والوعظية (هَجْداه) . وهو مُرادف للتعليم القائم على أساس الشرية الشفوية (السماعية) . من هنا ، يُطلق مؤرخنا أبو الحسن المسعودي على سعيد بن يوسف الفيومي اسم «السَّمعاتي» ، والتعبير يُقابل «القرآني» أو من يرفض التراث السماعي ولا يُقر إلا بالتوراه المكتوبة .

وتتضح الخاصية الجيولوجية في التلمود ، فهو يضمّ داخله وجهات نظر شتى متغايرة تماماً ، إذ أنه عبارة عن موسوعة تتضمن الدين والشريعة والتأملات الغيبية والتاريخ والآداب والعلوم الطبيعية . كما يتضمن فضلاً عن ذلك فصولاً في الزراعة وفلاحة البساتين والصناعة والمهن والتجارة والربا والضرائب وقوانين الملكية والرقّ والميراث وأسرار الأعداد والفلك والتنجيم والقصص الشعبي ، بل ويغطي مختلف جوانب حياة اليهودي الخاصة ، أي أنه كتاب جامع مانع بشكل يكاد لا يدع للفرد اليهودي حرية الاختيار في أي وجه من وجود النشاط في حياته العامة أو الخاصة ، إن هو أراد تطبيق ما جاء فيه .

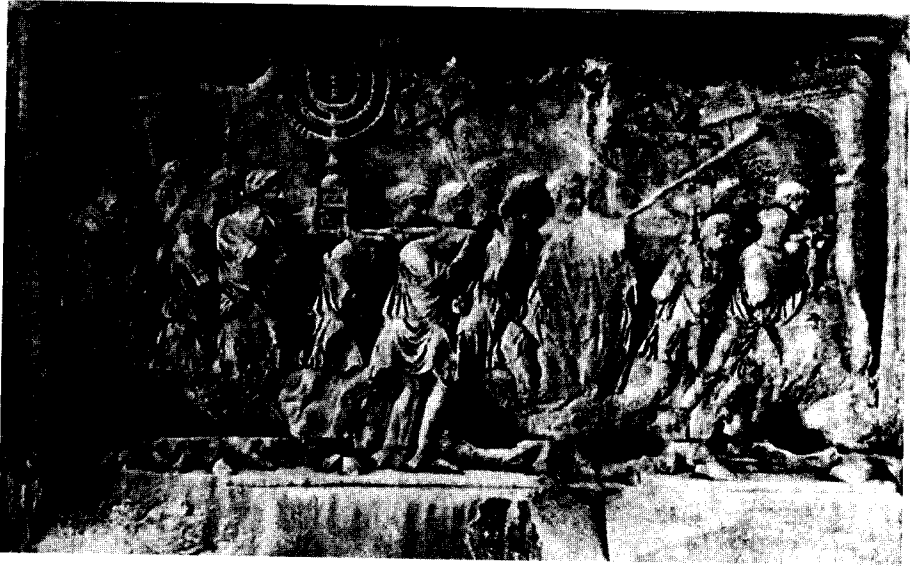
نشوء التلمود وتطوره

كان أول تدوين فعلي للتراث الديني اليهودي في القرن الخامس قبل الميلاد ، على يد عزرا الكاتب لا ٢٢٤ ٥٣٢٠ «عزرا هسوفير» ، الذي يعدّه اليهود واحداً من أنبيائهم الأخرين (أي التالين) ، وله في العهد القديم سفر خاص به ، ورد فيه لقبه : «عزرا الكاهن الكاتب ، كاتب كلام وصايا الرب» . وعلى ذلك ، ما كان مجرد المدون الأول لأسفار اليهود ، بل والمؤسس الفعلي لليهودية الباكرة المستندة إلى التوراه (كتاب العهد) ٥٣٢٠ הברית «سيفر هبريت» .

بعد عزرا ، قام بمتابعة مهمة التدوين طائفة من الكتبة (أو كتبة الشريعة) عرفوا بالعبرية باسم «سوفريم» ، فجمعوا أسفار التوراه وشرحوها ، وربطوا بها التراث المروي شفاهياً ، وراحوا يتناقلونه كشرح متواتر . وعلى امتداد 300 سنة ، قاموا باستنباط أحكام التوراه وتكييفها حتى أضحت شريعة تفاعلية ، كما أنهم سنّوا طائفة من الشرائع اصطُح على تسميتها «كلام السوفريم» . وبنهاية هذه المرحلة ، كانت اليهودية الربانية أو الحاخامية قد تأسست بشكل واضح . ثم في بداية القرن الثاني قبل الميلاد ، تألفت هيئة قضائية برئاسة الـ «زوجوت» ٢٠١٢ - أي المثاني من حكماء الدين - وصارت بمثابة سلطة هكخائية (تشريعية) . ومن هؤلاء المثاني ظهر خمسة أجيال بين حوالي عام 150-30 ق. م ، قام أول جيل منهم بوضع الأسلوب المشثاني في تداول الشريعة الشفاهية .

غير أن تدوين المشناه لم يتم في الواقع إلا بين القرنين الثاني والثالث ، على يد الجيل الأخير من «الزُّوجوت» : هَلِيل وشمّاي ، في عصر التَّنَائِيم (مُعَلِّمي المشناه) أواخر القرن الأول ق. م . وهذه الفترة تميّزت بمحاولات متكرّرة لجمع مواد المدرّاش والمِشناه المبعثرة ، فتمّ جمع المشناه بأكملها في مدرستي هَلِيل وشمّاي مطلع القرن الثالث الميلادي ، وتابعتها حاخامات آخر مثل يوحّان بن زكّاي (في مدرسته بيّنه) ، والرّأبي عقيبا الذي جمع مواد متميّزة من المدرّاش والمِشناه والهَجْداه .

بعد قيام الثّورة اليهوديّة ضدّ الرّومان بقيادة شمّعون بار كوخبا 132-135 م ، تمّ إحياء السّنهدين (المحكمة التشريعيّة العليا) ، فأقرّ رئيسها يهوداه هَنّاسي (الرئيس) المجموعة التشريعيّة التّامة للمِشناه ، وهي التي يضمّها التّلמוד اليوم . ولم يتمّ آنذاك إضافة مواد من المدرّاش أو الهَجْداه ، ثمّ شرع تلامذته يضيفون «البرّايوت» (المواد الدّخيلة) ومنها «التّوسفتا» (التّذييل) ، بينما تمّ جمع المدرّاشيم في مصنّفات مستقلّة . وخلال الثلاثة قرون التّالية قام «الأموراثيم» بإضافة الجّمارا (الفلسطينيّة والبابليّة) ، حتى اكتمل جمع التّلמוד بصورة عامّة في القرن السّادس الميلادي .



مشهد من قوس نصر القائد تيطوس في روما يمثّل «أخذ الغنائم من هيكل أورشليم»
أقيم في روما تخليداً لانتصاراته في حملته على أواسط فلسطين 70 م

تركيب التلمود ووظائفه

تؤمن اليهودية الأرثوذكسية بأن كتب «تنخ» (أي أسفار التوراه ، وأسفار الأنبياء ، وأسفار التاريخ) كانت تنزل جنبا إلى جنب مع تراث شفهي ما يزال حيا . وعلى ذلك ، فإن «التوراه» תורה (الشرعة أو التوجيه) هي الشريعة المكتوبة ، بينما تختص الشريعة الشفاهية תורה שבלالפה بتطبيقاتها وتأويل معانيها اللفظية ، ويؤلف التلمود إلى أتم حدّ الجمع المؤصلّ والمُسند لهذه الشريعة الشفاهية . ومن خلال ذلك فله أكبر الأثر على العقيدة والفكر اليهوديين . ورغم أنه ليس قاعدة شرعية رسمية ، فهو يمثل الأساس لجميع القواعد التالية للشرعة اليهودية ، ولذا فله دوماً أكبر الأثر في أحكام الهلكاه والممارسات الدينية اليهودية (راجع مقدمة مؤشيه بن ميمون على كتابه «مشنيه تُوراه» משנה תורה) .

والتلمود مرتّب بحسب محتوياته وفق مباحث ومقالات ، وإن كان بالمفهوم العام مقسوماً إلى قسمين : مشناه ، وجمارا . كما أن ثمة تمييزاً ما بين «الهلكاه» (المواد المعيارية المختصة بالتشريع) ، و«الأجداه» (المواد غير المعيارية) .

المشناه والجمارا

كان البدء بتدوين الشريعة اليهودية الشفاهية إثر خراب الهيكل عام 70 م ، فتمّ تحريرها على يد الرأبي يهوداه هتاسي ، فيما سُمّي «المشناه» (משנה) في عام 200 للميلاد . ولقد تمّ اعتماد كتابة التراث الشفاهي بُغية الحفاظ عليه ، عندما لاح تماماً أن المجتمع اليهودي وعلومه في فلسطين كانت عرضةً للفناء المحتوم . ويُعرف حاخامو المشناه باسم (المُعلمين) «تَنائيم» (مفردها : תנא) ، وجرت العادة إيراد عديد من التعاليم الواردة في المشناه تحت اسم أحد هؤلاء التَنائيم .

خلال القرون الثلاثة التالية جرى على المشناه تحليل ونقاش في فلسطين وبابل (حيث التجمعات اليهودية الكبيرة) . ويُعرف هذا التحليل باسم «الجمارا» (גמרא) . ويُشار إلى حاخامي الجمارا باسم (الشُّراح) «أمورائيم» (مفردها : أمورا משורא) . وتحليل الأمورائيم يتركز على إيضاح آراء وأقوال ووجهات نظر التَنائيم .

وختلاصة الأمر أن المشناه والجمارا معاً تؤلفان متن التلمود . وعلى ذلك فإن التلمود هو عبارة عن الجمع بين متن جوهرى هو المشناه ، أو «التنقيح» (من الفعل شاناه שנה ، أي : ثنى ، راجع) ، ومن التحليل والتذييل اللاحق ، أي «الجمارا» التي تعني : التكملة (من الفعل جמר גמר الذي يعني في العبرية : أتم ، وفي الآرامية يعني الفعل **حص** : دَرَس) .

مباحث التلمود ومقالاته

تتألف المشناه من ستة مباحث (سداريم ، مفردها سדר 660 ، أي سلك) . وكل واحد من هذه المباحث يتألف من 7 إلى 12 مقالة ، تُدعى مَسِيخْتوت (مُفردها مَسِيخַת מסכת) . وكل مَسِيخַת تنقسم بدورها إلى أجزاء أصغر تُدعى المِشنايوت (مُفردها مِشناه) . ويُلاحظ في التلمود أنه ليس لجميع مقالات المشناه نصّ جمارا . وفوق ذلك فإن ترتيب المقالات في التلمود يختلف في بعض الحالات عنه في المشناه ، وذلك يتضح لدى مراجعة كل سدرٍ بمُفرده :

- 1- سدر زراعيم גרעיאם (البُدور) 11 مَسِيخַת : وهو يبحث في الصلوات والعبادة ، ثم الأعراس والتشريعات الزراعيّة .
- 2- سدر مُعيد גולגולת (الفُصول) 12 مَسِيخַת : يختصّ بالأعياد عند اليهود وأحكام يوم شَبّات والتقاليد الخاصّة به .
- 3- سدر نَشيم נשים (النِّساء) 7 مَسِيخַת : يختصّ بقوانين الزّواج والطلاق وحلّف اليمين والنُّذور والوصايا .
- 4- سدر نزيقين נזיקין (العقوبات) 10 مَسِيخַת : يشتمل على التشريع المدني والجزائي ، وطريقة عمل المحاكم وتحليف الأيمان .
- 5- سدر قَداشيم קדשים (المُقدّسات) 11 مَسِيخַת : يبحث شعائر التّضحية والهيكل وأحكام الصّوم .
- 6- سدر طَهروت טהרות (الطهارة) 12 مَسِيخַת : يختصّ بأحكام الطهارة الشعائريّة .

الفحوى والأسلوب

تتضمن المشناه آراءً فقهيةً محسومة ، وكثيراً ما تضمّ خلافات في وجهات النظر بين التّائيم ، وبها القليل من الحوار . أما الجمارا ، فهي على التّقيض من ذلك تُطرح بشكل سِجال جدلي بين اثنين من الحاخاميم مُتناقضين في الرّأي (ومراراً ما يكونان مُغفليّ الهويّة ، وربما حتى كانا خياليين) ، يُصطلح على تسميتهما : «مكشان» מקשן (السّائل) ، و«ترتسان» תרטאן (المُجيب) . وهذه السّجلات تشكّل «الكتل البنائية» للجمارا ، واسم الفقرة الواحدة من الجمارا هو «سُوجياه» (סוגיה أي المسألة ، جمعها سُوجيوت) .

وهذه السُوجياه تتألف عادةً من توسّع تفصيلي للمِشناه مُبين بالبراهين . وفي كل سُوجياه يمكن لكل مشارك أن يذكر برهاناً توراتياً أو مِشنائياً أو أمورائياً لبناء دعم منطقي لرأيه . ومن خلال عمل ذلك ، تظهر من خلال الجمارا نقاط خلاف لفظية ما بين التّائيم والأمورائيم (غالباً تتمّ نسبة رأي ما إلى حاخام ثبت سالف بمقدار ما يمكنه الردّ على سؤال) ، وتتمّ مقارنة الآراء المِشنائية بمقاطع من التّوسِفتا (תוספתא أي المُلحق أو التذييل ، وهي مصدر مُواز للهكّلاه من عصر المِشناه) ، ومن المدراش الهكّخائي (أي المِخيلتا والسفّرا والسفّره)⁽¹⁾ .

وجميع هذه المصادر غير المِشنائية يُصطلح على تسميتها بالبرائثوت (مُفردھا برائتاہ ברייתא ، وتعني حرفياً بالأرامية : المواد الدّخيلة) . ونادراً ما يتمّ حسم السّجلات وإفعالها رسمياً ، وفي العديد من الأمثلة تحسم الكلمة النّهائية القانون العملي ، رغم أن هناك العديد من الاستثناءات لهذه القاعدة .

هذا وإنّ الواسطة اللغوية لمتن التّلמוד تختلف بشكل واسع بحسب المقطع ، فمقاطع المِشناه والإلماعات المنقولة من متن التّوراه ترد باللّغة العبرية القديمة ، بينما ترد مقاطع الجمارا بالأرامية⁽²⁾ .

- (1) التسميات معقّدة ، فالتّلמוד رغم قدمه يبقى جديداً في اللّغة العربية . أمّا المِخيلتا (المعيار) فهي شرح مدراشيّ على سفر الخروج لشمعون بن يوحاي ، والسفّرا (بالأرامية : كتاب شرح على سفر التّوراة) ، والسفّره (بالجمع الآرامي) شرح لسفري العدد والثنية .
- (2) أفضل مرجع اليوم حول المواد اللغوية في التّلמוד هو بحث هوفمان Hoffman عام 2004 .

الهَلْخَاهُ وَالْأَجْدَاهُ

الجَمَارَاهُ هِيَ بِالْأَسَاسِ وَثِيقَةٌ تَشْرِيعِيَّةٌ ، لَكِنهَا فَوْقَ ذَلِكَ تَزُودُ الْمَشْنَاهُ بِالْجِدَالِ حَوْلَ الْمَوَادِّ اللَّامِعِيَّاتِ ، أَيِ الْأَجْدَائِيَّةِ (أَوْ الْهَجْدَائِيَّةِ) وَالتَّفَاسِيرِ التَّوْرَاتِيَّةِ ، كَمَا أَنَّهَا مَصْدَرٌ لِلتَّارِيخِ وَالْأَسَاطِيرِ . فَعَلَى ذَلِكَ نَرَى أَنَّ الْجَمَارَاهُ مَرَاراً مَا قَدْ تَنْتَقِلُ بِالْمَوْضُوعِ إِلَى قَضَايَا ذَاتِ شَأْنٍ مَرْتَبَطٍ بِفَحْوَى السِّيَاقِ ، بِمَا فِي ذَلِكَ تَذْيِيلَاتٍ رَوَائِيَّةٍ تَوْرَاتِيَّةٍ وَأَخْلَاقِيَّةٍ وَعِلْمِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ وَطَبِيعِيَّةٍ . وَغَالِباً مَا يَكُونُ التَّشَابَهُ الْوَحِيدَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ مِنَ السَّوْجِيَّاتِ هُوَ حَقِيقَةٌ أَنَّهَا تَذَكْرَانِ الْحَاخَامِ ذَاتَهُ مِنَ التَّنَائِيمِ أَوْ الْأَمُورَائِيمِ .

والمَقَالَاتِ (المَسِيخَتُوتِ) الَّتِي تَنَاقِشُ مَوَادِّاً فِلَسْفِيَّةً أَوْ أَخْلَاقِيَّةً - كَمَسِيخَتِ بَرَاخُوتِ مِثْلًا ، الَّتِي تَعَالِجُ قَضَايَا الصَّلَوَاتِ وَالْبَرَكَاتِ - نَرَى أَنَّهَا تَضُمُّ مَحْتَوًى أَجْدَائِيًّا وَافْرَأَنْسِيًّا . وَتُقَدِّمُ الْأَجْدُوتِ عَمُومًا عَلَى شَكْلِ قِصَصِ أَوْ تَرَاثِ شَعْبِيٍّ أَوْ حِكَايَاتِ تَارِيخِيَّةٍ أَوْ مَوَاعِظِ أَخْلَاقِيَّةٍ ، مَعَ نِصَائِحِ تِجَارِيَّةٍ وَطَبِيعِيَّةٍ . مَعَ مِلَاحِظَةِ أَنَّ هَذَا السَّلُوبَ فِي الْعَرَضِ يُسْتَعْمَدُ غَالِبًا لِلتَّعْبِيرِ بِصُورَةٍ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ عَنِ تَعَالِيمِ أَكْثَرِ عُمَمًا . أَمَا «عَيْنُ يَاكُوفَ» [אין עין יאקוב] فَهِيَ تَسْمِيَةٌ تُطْلَقُ عَادَةً عَلَى مَجْمُوعِ الْمَادَّةِ الْأَجْدَائِيَّةِ بِأَسْرَاهَا فِي التَّلْمُودِ الْبَابِلِيِّ ، مُضَافًا إِلَيْهَا التَّعْلِيْقَاتُ التَّذْيِيلِيَّةُ .

التَّلْمُودَانِ الْأَسَاسِيَّانِ

بِرَغْمِ أَنَّ مَتْنَ الْمَشْنَاهِ وَاحِدٌ ، فَتَمَّةٌ نَوْعَانِ مُخْتَلِفَانِ مِنَ الْجَمَارَاهُ : الْيَرُوشَلِمِيَّةُ وَالْبَابِلِيَّةُ ، وَبِالتَّالِيِ يَنْبِثُ عَنْهُمَا تَلْمُودَانِ بِالْأَسْمِينِ الْمَذْكُورَيْنِ : التَّلْمُودِ الْيَرُوشَلِمِيِّ وَالتَّلْمُودِ الْبَابِلِيِّ . وَلَكِنِ الْيَوْمَ عِنْدَمَا تَرُدُ عِبَارَةُ التَّلْمُودِ مَجْرَدَةً مِنَ النَّعْتِ ، أَوْ مُحَلَاةً بِأَدَاةِ التَّعْرِيفِ (ه) فَهِيَ تَعْنِي تَحْدِيدًا التَّلْمُودَ الْبَابِلِيَّ ، وَذَلِكَ عَلَى أَسَاسِ الْمِزْيَةِ وَالْأَفْضَلِيَّةِ وَالتَّفُوقِ . وَلَمَّا كَانَتِ الْجَمَارَاهُ الْبَابِلِيَّةُ أَكْمَلَ وَأَشْمَلَ مِنَ الْجَمَارَاهِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ ، فَإِنَّ التَّلْمُودَ الْبَابِلِيَّ هُوَ الْأَكْثَرُ تَدَاوُلًا وَهُوَ الْكِتَابُ الْقِيَاسِيُّ عِنْدَ الْيَهُودِ . وَلِذَا ، فَحِينَ يُسْتَعْمَدُ لَفْظُ (التَّلْمُودِ) بِمُفْرَدِهِ فِي الْكِتَابَاتِ الْعِلْمِيَّةِ ، يَشِيرُ اللَّفْظُ إِلَى الْجَمَارَاهِ وَحْدَهَا . وَيُضَافُ عَادَةً تَعْلِيْقُ الرَّابِّيِّ رَاشِي (الرَّابِّيِّ شَلُومُو بِنْ يَتْسَحَاقِ) عَلَى التَّلْمُودِ عِنْدَ طَبْعِهِ ، وَإِنْ كَانَ هَذَا التَّعْلِيْقُ لَا يُعَدُّ جِزَاءً مِنْهُ .

التلمود اليروشلّمي

الأصحّ في تسميته : «التلمود الفلسطيني» ، واليهود ينسبونه إلى أورشليم : «تلمود يروشلمّي» תלמוד ירושלמי ، مع أن المدينة حُكّت من المدارس الدينيّة بعد هدم الهيكل الثاني ، وانتقل الحاخامات بعدها إلى إنشاء مدارسهم في بينه وصفورية وطبرية . كما أطلق يهود العراق على التلمود الفلسطيني اسم «تلمود آرتس يسرئيل» תלמוד ארס ישראל ، وأطلقوا عليه أحياناً اسم (تلمود أهل الغرب) ، نظراً لوقوع فلسطين إلى الغرب من العراق .

والجمارا في هذا التلمود هي خلاصة حوالي 200 سنة من تحليل المشناه في مدارس الفقه بفلسطين . وبسبب مكان وجود هذه المدارس ، فإن الأحكام الزراعيّة لما يُسمّى «آرتس يسرئيل» تُناقش فيها بتفاصيل وافية . ولقد تم صوغها في عام 350 م على يد الرأبي يوسي في فلسطين . وهذه الجمارا بالإضافة إلى المشناه تُسميان معاً «التلمود اليروشلمّي» ، ولو أن هذه التسمية غير دقيقة ، على اعتباره لم يُكتب في أورشليم . وعلى ذلك ، فهو يُعرف أيضاً بوجه أدقّ باسم «التلمود الفلسطيني» أو «تلمود آرتس يسرئيل» .

هذا ، وإن الإحالة إلى التلمود اليروشلمّي لا تتمّ عادةً بالإشارة إلى الصّفحة (كما هو الحال في التلمود البابلي) ، وإنما بترقيم المشناه التي تجري مناقشتها . وعليه فإن الإحالات تكون على الشكل التالي : [المسيخت - الفصل : المشناه] (مثلاً : براخوت 1 : 2) . وبما أن التلمود البابلي يُعدّ أكثر وقعاً وتأثيراً ، فإن الإحالات إلى التلمود اليروشلمّي تُصدرّ عادةً بعبارة : «يروشلمّي» ، لإيضاح مصدرها .

وأما أهمّ التفاسير التقليديّة المشتهرة على هذا التلمود اليروشلمّي فهما : «پنيه موشيه» פני משה ، و«قربان هيداه» קרבן הדין ، اللذان يُطبعان مع النصّ التلمودي في أغلب طبعات التلمود اليروشلمّي .

هذا ، ولقد صدرت طبعات مترجمة عن التلمود بكثير من اللغات الأوروبيّة ، ولم يُترجم منه إلى العربيّة شيء . أمّا عن ترجماته الإنكليزيّة فنذكر تفصيلها في الملحق بآخر كتابنا هذا (ص 400) .

التلمود البابلي

هذا التلمود هو نتاج الحلقات التلمودية (يشيفا) في العراق (بابل) ، وأشهرها يشيفوت سُورا ونهاردَعه ويومبديتا . ويُعرف هذا التلمود في حالات نادرة جداً باسم «تلمود أهل الشرق» .

والجمارا في هذا التلمود هي خلاصة أكثر من 300 سنة من التحليل للمِشناه في المدارس البابلية . ولقد تمّ صوغها على شكل مجموعة رسمية على يد الرَّاب آشي والرَّاب رافينا ، من زعماء الجالية اليهودية بأرض بابل ، حوالي سنة 550 م . لكن الرَّاب آشي توفي في عام 427 م ، مُخلفاً نسخة مُبكرة من التلمود بادت ولم يبق لها أثر ، فقام رافينا عقب وفاته بمتابعة عملية الجمع والتحرير لفترة بعيدة . ثم استمرت عملية الجمع والتحرير على يد «التساقورائيم» أو «الرَّابانان تساقورائيه» (حاجامات التلمود اللاحقون المُفسرون) بناءً على هذا النص لفترة 250 سنة تالية ، والكثير من المتن لم يبلغ شكله النهائي إلا حتى عام 700 م . وتؤلف المِشناه والجِمارا البابلية معاً «التلمود البابلي» תלמוד בבלי (اللفظ بالعبرية : تلمود بَقلي) .

هذا ويبلغ عدد كلمات التلمود البابلي مليونين ونصف مليون كلمة في نسخته الأصلية (تشكّل الأجداه 30٪ منها) ، وعلى هذا فإن حجمه يبلغ ثلاثة أضعاف حجم التلمود الفلسطيني . وقد كُتب التلمود بأكثر من لغة ، فالمِشناه كُتبت بعبرية خاصة تُسمّى عبرية المِشناه ، أمّا الجِمارا فبالآرامية (الجِمارا الفلسطينية باللهجة الآرامية الغربية ، والجِمارا البابلية باللهجة الآرامية الشرقية) . وتسم الشروح الواردة في التلمود الفلسطيني بأنها أقصر وأكثر حرفية وقرباً من النصّ .

ويُلاحظ أن بعض المفاهيم القانونية في التلمود البابلي تعكس أثر القانون الفارسي . كما أن التلموديين مختلفان في بعض المواطن ، فيُلاحظ مثلاً أن الموقف من الوثنيين في التلمود البابلي أكثر تسامحاً لأن وضع اليهود في بابل كان جيداً ، فقد جاء في التلمود البابلي أن الأغيار خارج فلسطين لا يمكن اعتبارهم من الوثنيين . وبينما يحرم التلمود الفلسطيني بيع آية سلع للوثنيين في الأيام الثلاثة التي تسبق أي عيد وثني ، فإن التلمود البابلي يحرم البيع في أيام العيد فحسب .

ومن أهم التطورات التي دخلت على الشريعة اليهودية ما جاء في التلمود البابلي من أن: «شريعة الدولة هي شريعتنا»، بل قد ورد في التلمود البابلي دعاءٌ خاص يُتلى أمام ملوك الأغيار ويطلب لهم البركة، نصّه: «مُبَارَكٌ هُوَ الَّذِي مَنَحَ مخلوقاته شيئاً من جلاله» .

وتعود الآراء والفتاوى التي وردت في التلمود إلى القرن الخامس قبل الميلاد . وبدأت عملية جمعها وتدوينها مع القرن الثاني الميلادي ، واستمرت عملية التفسير والتدوين حتى القرن السادس . وبعد اكتمال نص التلمود ، استمرت الإضافات والتعليقات حتى القرن الثامن عشر ، حين أضاف إلياهو (فقيه فيلنا) تعليقاته .

جرت طباعة التلمود للمرة الأولى في إيطاليا خلال القرن السادس عشر عام (1520-1523 م) على يد بوميرج (كما سنفصل أدناه) ، واشتملت هذه الطبعة على المشناه والجمارا ، بالإضافة إلى تفاسير راشي ، وكذلك التوسافوت . والواقع أن جميع الطبعات منذ ذاك أتبعت تنصيب الصفحات ذاته (بمعنى أن النص نفسه يظهر في الصفحة ذاتها بأية طبعة كانت) وإن اختلف التنسيق الطباعي ، وبلغ مجمل صفحاتها 5500 . غير أن أكثر الطبعات شيوعاً على الإطلاق هي القياسية المعروفة بطبعة فيلنا Vilna (عاصمة ليتوانيا من بلاد بحر البلطيق) ، التي قام بتنزيدها كل من أرملة روم Romm وإخوته وطُبعت بين 1880-1886 . والتلمود البابلي يشتمل فيها على المشناه الكاملة وال 37 جِمارا ، وعلى مَسِيخَتوت (مقالات) ثانوية وغير رسمية (من الحَسرونوت) ، في 5894 صفحة من القطع الكبير .

ورقم الصفحة في التلمود يشير إلى ورقة ذات وجهين اثنين (صفحتين) ، تُعرف في العبرية باسم : «داف» ٩٦ ، ولكل داف وجهان «عموديم» (لا ٦١١ أي صفحة) موسومان بالحرفين ٢٤ و ٢٥ (أ ، ب) . هذا وإن الإشارة الإسنادية لنصوص التلمود بواسطة «الدَّاف» هو أمر حديث العهد نسبياً ، ويعود زمنياً إلى الطبعات الباكرا للتلمود في القرن السابع عشر . وأما الأدب الحاخامي السابق لذلك فهو عادةً يشير بالإسناد إلى المَسِيخَت أو الفصول ضمن هذه المَسِيخَت . وفي يومنا الحاضر يتم الإسناد المرجعي بالشكل التالي : [المَسِيخَت ، رقم الدَّاف ، أ/ب] (مثلاً : براخوت 23 ب) .

هذا وإن أهم تفسير أساسي للتلمود البابلي هو تفسير الحاخام راشي «77»
(الرابي شلومو بن يتسحاق ، 1040-1105 م) . وهذا التفسير شامل ويغطي
التلمود بأكمله تقريباً ، وهو يقدم شرحاً وافياً للعبارات ، وللتركيب اللفظي لكل
فقرة تلمودية . وأما التفسير المعروف بـ «توسافوت» (أي الإضافات أو
الذيول) فهو أيضاً يعد أساساً للفهم الكامل لكل «داف» . وهو يتألف من مجموعة
من تفاسير التلمود ، قام بجمعها في غالبية الحالات حاخامات «إشكنازيم» فرنسيون
وألمان (وكان من بينهم أحفاد راشي نفسه) . وهو يدرج على خطى أساليب التلمود
النمطية في النقاشات الجدلية والسجال . ويرى البعض في هذه التوسافوت إضافات
على التلمود نفسه (أي بعبارة «تلمود على التلمود») ، وهي أيضاً نفي بمثابة تذييل
على تفسير راشي الأساسي . والتفسيران كلاهما يظهران افتراضياً في كل طبعة
للتلمود ، منذ صدوره مطبوعاً للمرة الأولى (انظر الشكل) .

في مدارس الشيفوت (مُفردها : شيفا «ש"ס» مدرسة دينية يهودية) ، تُعتمد
للدراسة المتقدمة للمسيخوت ثلاثة تفاسير تحليلية ، وضعها كلٌّ من : شلومو لوري
(مهرشال) ، ومثير لوبين (مهرام) ، وصموئيل إيدلز (مهرشا) ، وهي تناقش متن
التلمود وتفسير راشي والتوسافوت معاً . وكذلك فإن على التلاميذ المتقدمين أن
يدرسوا التفاسير التشريعية على التلمود ، خاصة تفاسير : أشير بن يهيئيل (هروش) ،
ويتسحاق الفاسي (هريف) ، وموشيه بن ميمون (هرمبم) .

وتُقسم تفاسير التلمود إلى نوعين : رشونيم وأخرونيم (السابقون والتالون)
فأما الرشونيم فهم الحاخامات الذين عاشوا منذ حوالي عام 1000 م إلى ما يقارب
عام 1450 م ، وأما الأخرونيم فمنذ قرابة العام 1450 إلى عصرنا الحاضر . وفي
دراسة التلمود من المؤلف اعتبار أن التفاسير القديمة تتمتع بفهم أفضل للتلمود من
الحديثة . وعلى ذلك من التادر جداً أن يقوم بعض الأخرونيم بنقد آراء الرشونيم ،
بل يحاول الأخرونيم عادة شرح تفاسير الرشونيم فضلاً عن محاولة التفسير المباشر
لعبارات التلمود . ومن أبرز تفاسير الرشونيم : تفسير راشي ، التوسافوت ، رشبا
(شلومو بن أدريت) وريتفا (يُوم طوف بن أبرهام) . وبعض الحاخامات الرشونيم
كتبوا تفاسير تشريعية تُستخدم كذلك لفهم معاني التلمود .

ومن الأمثلة على هؤلاء : يتسحاق الفاسي (هريف) ، موشيه بن ميمون (هرمبم) ، أشير بن يهيشيل (هروش) . ومن أشهر الحاخامات الأخرונים : الرابي أكيفا (عقيا) أيغر Akiva Eiger ، وبنيه يهوشوع ، وممن تلاهم لاحقاً الرابي حاييم سوليفيتشيك Chaim Soleveichik . هذا ، ويتعين على دارسي التلمود جميعاً أن يتمرسوا بالتفاسير المذكورة أعلاه وسواها ، وعليهم استخدامها للتوصل إلى فهم صحيح لأية ورقة («داف») من التلمود . والورقة الواحدة من التلمود بحاجة لدراستها على الوجه الصحيح إلى شهر كامل بغية فهمها تماماً ، وحتى أن العديد من التلموديين المتمرسين يؤكدون أنهم بعد سنوات طويلة من الدراسة المضنية لم يتجاوزوا من التلمود بعد مرحلة الأعتاب .

أساليب التلمود ومواضيعه

المعروف أن التلمود البروشلمي متجزء الأركان ويعسر على القراءة ، حتى للتلموديين المتمرسين . غير أنه يغطي عدداً من المواضيع المختصة حصراً بما يُسمى «آرتس يسرئيل» (أرض إسرائيل) مما لا تتم تغطيته في التلمود البابلي (كما ذكرنا أعلاه) ، كما في الأحكام الزراعية مثلاً . ومثل هذه الأحكام ، كترك زوايا الحقل للفقراء ، وترك الحقل بوراً كل سبعة أعوام إلخ ، تنطبق فقط ضمن حدود «آرتس يسرئيل» ، ولذا فإن الحاخامات التلمود البابلي الذين عاشوا في المنفى لأجيال عديدة يعدون أنفسهم غير خبراء بهذه الأحكام .

وأما التلمود البابلي فكانت عملية جمعه وتحريره أكثر عناية ودقة بكثير . ومع ذلك فإن فقرات الجمارا فيه توجد بمعيار 37 مقابل مقالات المشناه (المسيختوت) البالغ عددها 63 ، وسبب ذلك أن معظم أحكام مبثي زراعيم (الأحكام الزراعية المقتصرة على آرتس يسرئيل) وطهروت (أحكام الطهارة الشرعية المتعلقة بالهيكل ونظام الأضاحي) ، كانت لها تطبيقات محدودة من الناحية العملية ، ولذا لم يتم إضافتها⁽¹⁾ .

(1) رغم ذلك يلاحظ أن هناك جمارا بابلية على سدر قداشيم ، وسبب ذلك ربما كان أن دراسة أحكام التضحية تعد إجمالاً بمثابة المكافئ لعملية التنفيذ الفعلي للأضاحي .

وعبر العصور تمت دراسة التلمود البابلي بتركيز أكبر ، ولذا فله حشدٌ وافر من التفسير ، وفضلاً عن ذلك وبسبب أنه لاحق لليروشلمي ، يُعتقد بأنه يحلّ محلّه ويقوم مقامه ، ولذا فلا غرو أن تكون العبادة اليهودية تلتزم عموماً كأساس لها هذا التلمود البابلي .

ويتكوّن التلمود من عنصرين : العنصر الشرعي والقانوني (هَلْخَاه) ، الذي يذكرنا بأحكام الفرائض والتشريعات الواردة في أسفار الخروج والليويين والتثنية ، والعنصر القصصي والروائي والأسطوري (أجداه) ، بما فيه من أقوال مأثورة وأخبار وخرافات وشطحات ، مع السحر والتراث الشعبي . ومُعظم المشناه يندرج ضمن التشريع (هَلْخَاه) ، بينما معظم الجمارا قصص وأساطير (أجداه)⁽¹⁾ . ويُلاحظ أن التفسير يستمد أهميته من مدى قدمه ، فالأقدم أكثر ثقة وأهمية من الأحدث .

ويشكّل التلمود ، بسبب ضخامته وطريقة تصنيفه ، صعوبة غير عادية في محاولة استخدامه والاستفادة منه . ومن هنا ، بدأت جهود تصنيفه بعد إتمامه . وكانت أولى هذه المحاولات هي «هَلَاخوت پِسقوت» הלכות פסקות (القوانين المقررة) التي تُنسب إلى يهوداي جاؤون (القرن الثامن) ، و«هَلَاخوت جدُولوت» הלכות גדולות (القوانين العظيمة) التي كتبها شمعون كيّار ، والعملان يلبخّان المادة التلمودية المتعلقة بالشرائع . وظهرت مصنّفات أخرى في القرن الحادي عشر ، خصوصاً في العالم العربي وفي شمال أفريقيا وأوروبا ، من أهمّها :

- 1- مشنيه توراہ משנה תורה (تثنية التوراه) : لموشيه بن ميمون .
- 2- سفر هَطوريم ספר הטורים (كتاب الصّفوف) : ليعقوب بن أشير .
- 3- شَلْحان عاروخ שלחן ערוך (المائدة المنضودة) : ليوسيف قارو .

* * *

(1) تنبغي الملاحظة هنا أن الهَلْخَاه والأجداه في التلمود ينبغي تمييزها عن مجموع «المِدراش» מדרש ككتاب مُستقلّ عن التلمود (في 10 أجزاء) . وهو مجموعة الشروح التي وضعها فقهاء الدين اليهودي (أشهرهم بار نَحمانِي صاحب مدراش ريبًا מדרש רבא ، وتنحوما صاحب مدراش تنحوما מדרש תנחומא) على غوامض نصوص العهد القديم . ولقد تم تدوين هذين الشرحين وتبويبهما في القرنين الثالث والرابع للميلاد .

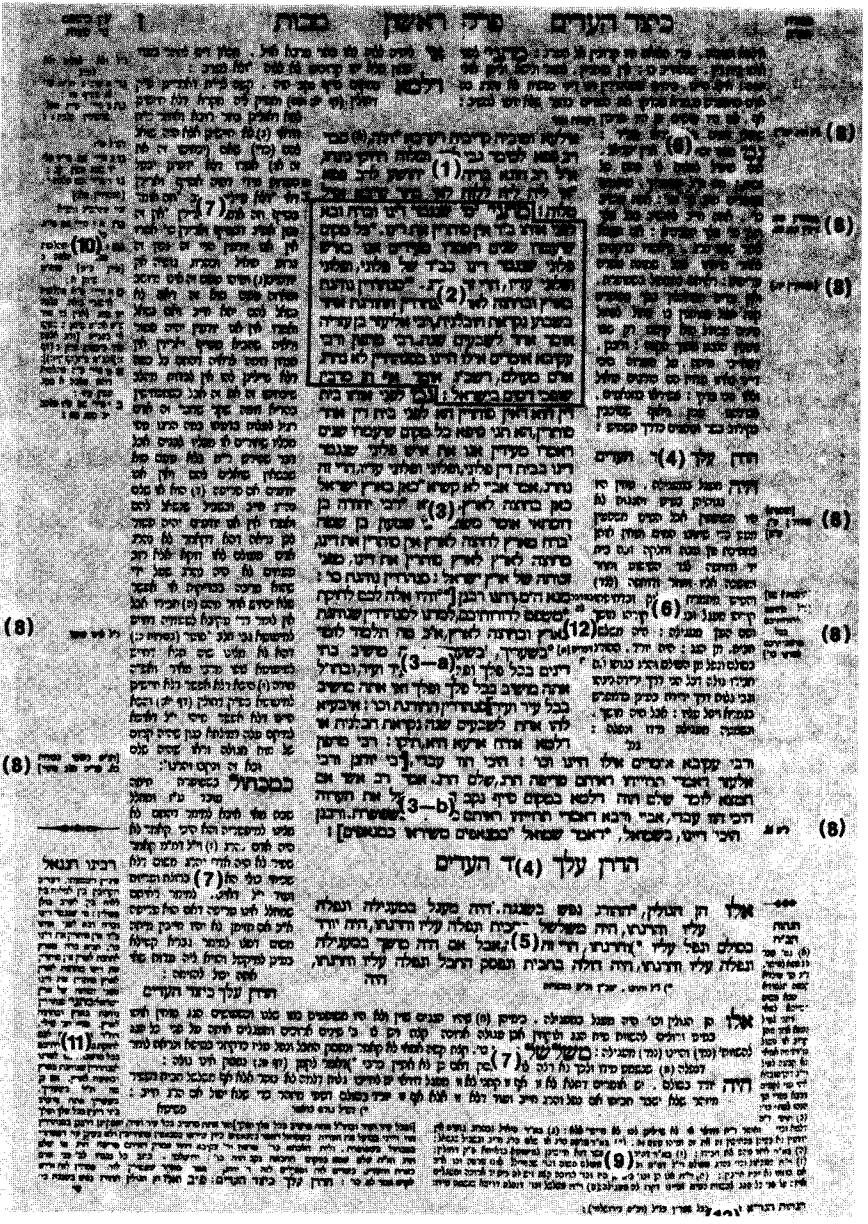
ظلّ التلمود مجهولاً تقريباً في أوروبا المسيحية ، ولم يكتشفه المسيحيون إلا في أواسط القرن الثالث عشر ، وذلك عن طريق اليهود المنتصرين . ومنذ ذلك التاريخ أصبح التلمود محطّ سخط السُلطات الدينيّة ، لأنها كانت تراه كتاب خُرافات نجم عنه عدم اعتناق اليهود المسيحية ، كما كانت ترى أنه يحتوي على ملاحظات مُهينة ضدّ المسيحية كعقيدة ، وضدّ شخص المسيح وأمه .

ويضمّ التلمود فضلاً عن ذلك أجزاء عن محاكمة المسيح في السّنهدرين ، ويُقرّ بأن اليهود هم الذين صلبوا المسيح وأنهم يتحملون المسؤولية كاملة عن ذلك . وقد كانت الكنيسة تنظّم مُناظرات (مُجادلات خلافيّة) علنيّة ، يشترك بها عادةً يهود منتصرون مُلمّون بالتلمود ويعرفون جوانبه السّليّة . وقد كانت الكنيسة تحرق نسخ التلمود التي تُضبط من آونة إلى أخرى .

طباعات التلمود

طُبِع التلمود الفلسطيني في مدينة البندقية بإيطاليا (بين عامي 1523-1524 م) بإشراف دانييل بومبرج Daniel Bomberg ، كما أن التلمود البابلي بُدئ بطباعته في إسبانيا عام 1482 ، لكن أقدم طبعة كاملة ظهرت في البندقية أيضاً (1520-1523 م) على يد بومبرج ذاته . وقد غدّت هذه الطبعة التّمودج الأصلي الذي حدّت حدوه مختلف الطباعات التي تلتها . وقد نُشرت الطبعة القياسيّة في فيلنا Vilna عاصمة ليتوانيا بين 1880-1886 ، وهي تحتوي تعليقات مستفيضة ، في أكثر من 20 جزءاً . فكان يتمّ طبع المشناه والجمارا في العمود الأوسط ، بتوالٍ شاقولي ، وتُطبع في عمود مجاور لها تعليقات راشي على النّحو التالي :

- (1) نهاية الجمارا على المشناه السّابقة . (2) المشناه . (3) الجمارا . (3-a) مدراش هَلْخائي تشرعي يؤيد المشناه . (3-b) ثلاثة تعليقات موجزة من حلقات فلسطين وسورا وپومبديتا .
- (4) علامة تدلّ على انتهاء الفصل . (5) مشناه تابعة لفصل تال . (6) شرح الحاخام راشي .
- (7) تعليقات تذييلية (توسافات) تناقش نقاطاً معيّنة من الجمارا وشرح راشي . (8) إحالات إلى مصادر تلمودية وحاخامية أخرى ومُتغيّرات نصيّة . (9) ملاحظات كتبها يوثيل سيركيس (1561-1640) . (10) إشارات لأحكام موشيه بن ميمون وموشيه كونسي وكتاب «هطور» و«شُلحان عاروخ» . (11) تعليقات للرّابي حناتيل من شمال أفريقيا مطلع القرن الحادي عشر .
- (12) إحالات إلى الكتاب المقدس . (13) ملاحظات لإياهو (فيلنا جاؤون) .



نمذج لطبعة قیلنا القیاسیة (1880-1886 م) ، الصفحة 7 من مَسِيخَت مَكُوت (سِدر زریقین) تناقض مصیر رجل حکم علیه ففرّ ، وبماذا ینبغي أن یُحکم علیه مجدداً . لاحظ متن المشناه المؤطر ضمن خط مربع حاصر ، والأقواس المربعة التي تحدّد امتداد الشروح (3-a) و (3-b) ، وكيف أن متن المشناه ثم الجمارا ثم الشروح تطبع بتراصف شاقولي في المتن . حول مدلولات الأرقام انظر الصفحة المقابلة (المصدر : *Encycl. Britannica*)

تمت ترجمة التلمود إلى بعض اللغات الأوروبية (كما سنبين في الملحق بآخر كتابنا هذا ص 399) ، وترجمت مختارات قصيرة منه إلى العربية لا تمثل الطبيعة المتناقضة للفكر التلمودي . ولكنه تُرجم بأكمله إلى الإنكليزية (في لندن بين 1935-1952 بإشراف الرأبي إيزيدور إپشتاين ، وتُعرف بطبعة Soncino) ، وإلى بعض اللغات الأخرى (كعمل الرابي أدین شتاينزالتس Adin Steinsaltz في ترجمته إلى كل من الإنكليزية والفرنسية والروسية) ، وهو يقوم حالياً بإعداد طبعة جديدة للتلمود البابلي والفلسطيني ، مزودة بترجمة عبرية حديثة للنصوص الآرامية . ولقد صدر حتى الآن أكثر من خمسة وعشرين جزءاً من التلمود البابلي ، ومن المتوقع أن يصدر التلمود في أربعين جزءاً ، خلال مدة عشرة أعوام .

ويلاحظ أن الرقابة الحكومية كانت تفرض على اليهود أحياناً أن يحذفوا بعض الفقرات التي تُظهر عداً متطرفاً للأغيار ، أو أن يُضيّقوا المجال الدلالي لبعض الكلمات والعبارات العنصرية المتطرفة . ولذا ، حلّت كلمة (عكوم) بمعنى عابد الكواكب وأبراج النجوم ، و(كوثي) بمعنى سامري ، و(كوشي) بمعنى زنجي أو حبشي محل (نكري) أو (جوي) التي تعني : أجنبي أو غريب . وحلّت كلمة (بابليم) أي البابليين ، و(كعنايم) أي الكنعانيين ، محلّ (أموت هعولام) ، التي تعني : أمم العالم .

والواقع أن جميع المحاولات تُضيّق المجال الدلالي لكلمة (الأغيار) وتُخصّصها فتجعلها مقصورة إما على الوثنيين وحسب ، أو على جماعة محدّدة من الناس مثل السامريين أو البابليين . وهذا من قبيل استرداد البُعد التاريخي لمصطلح الأغيار (العام) ، حتى تتكيّف نصوص التلمود مع الواقع الجديد حيث لم يعد الأغيار وثنيين بل أصبحوا من عبدة الإله . وكان يُسجل في مستهل كل صفحة من التلمود إعلان رسمي يقرّر أن قوانين التلمود ضد الوثنية لا تنطبق على الأمم التي يعيش اليهود بينها ، وأنها تنطبق على الوثنيين فحسب (وحيثما احتلّت إنكلترا الهند قبل إن المقصود هم الهنود البوذيين ، كما ضمّ إلى قائمة المعنيين بالهجوم سكان أستراليا الأصليين) . وبعض الطبقات تقرّر أن المعني بالهجوم هو (اليشمعي) ، وتعني : المسلم العربي ، من نسل إسماعيل بن إبراهيم .

مواقف الضرق والمذاهب اليهودية من التلمود

انتشر التلمود ودرسته من بلاد بابل إلى مصر وشمال أفريقيا وإيطاليا وإسبانيا وفرنسا وألمانيا ، فصار اليهود يعدّون هذه البلاد ملاذاً ومُطلقاً لفكرهم وعقيدتهم الرُوحية ، وفي جميع هذه الأقطار تركّز الاهتمام الفكري اليهودي حصراً في التلمود دون سواه .

مذهب القرائية :

كانت الحركة القرائية הקראיות «هَقْرَاووت» (التي أسسها داود بن عنان في العراق بالقرن الثامن الميلادي) ردة فعل كبرى على سيطرة التلمود ، ولقد قامت في عقر دار الجاؤونيم (الفقهاء) بعد قرنين من إتمام جمع التلمود . ولقد كان قيام هذه الحركة - بالإضافة إلى تأثير الثقافة الإسلامية - العاملين الرئيسيين الكبيرين في إثارة الطاقات الكامنة الغافية للدين اليهودي ، فضخّت القرائية في البحث العلمي كثيراً من الإلهام الذي تدين له اليهودية بعدة قرون من النشاط المثمر .

كان المفهوم المحوري للحركة القرائية هو رفض «الشرعية الشفاهية» ، المتمثلة في التلمود ، في مقابل الالتزام الصّارم حصراً بالشرعية النصّية المكتوبة (تنخ = أسفار التوراه وما يليها من أسفار النبيّيم والكتوييم) . وهذا بخلاف مفهوم اليهودية الرّبانية (أو المعيارية التلمودية) القائلة بأن «الشرعية الشفاهية» قد تمّ إنزالها على موشيه النبي في جبل سيناء إلى جانب «الشرعية المكتوبة» ، وأنها لذلك ليست تقلّ عنها قدسية أو أهمية في التشريع .

وتاريخ الحركة القرائية يبيّن أنها كانت ذات طابع ثوري متحرّر ، وفيها أصداء من حركة المعتزلة الإسلامية وفلسفتها الكلامية ، وأوّل ما رفضت النزعة الحلوّية التي غلبت على اليهودية الحاخامية من بقايا الصّدوقيين . ومنذ قيامها أعلن أصحابها إيمانهم بنبوّة عيسى عليه السلام ومحمد ﷺ ! ويُعتقد أن يهود الحزّر اعتنقوا يهودية قرائية ، وكان كثير من قرّائي روسيا وبولونيا يروون أن لغتهم هي التركية .

القبالة ودراسة التلمود :

في داخل الدين اليهودي ، كان المنافس الأكبر لسلطة التلمود تطور القبالة קבלה (التصوّف الباطني اليهودي) ، التي ظهرت بشكلها الحديث في القرن الثالث عشر . وخلال فترة انحطاط الحياة الفكرية بين اليهود التي بدأت في القرن السادس عشر ، كان التلمود يُعد بمثابة المصدر الأعلى للتشريع لدى غالبية اليهود ، وفي القرن ذاته أضحى أوروبا الشرقية - بخاصةً بولونيا - القاعدة الأولى لدراسته . حتى أن الكتاب المقدس (باعتباره وثيقة منفردة بحد ذاتها) حلّ في المرتبة الثانية ، وكرّست المدارس الدينية اليهودية كافة جهودها بشكل شبه حصري للتلمود وحده ، بحيث أضحى كلمة «الدراسة» مرادفةً لمفهوم «دراسة التلمود» .

أما الحركة الحسيدية החסידים التي ظهرت في بولونيا بالقرن السابع عشر وانتشرت عبر غالبية غربي الإمبراطورية الروسية وبعض أوروبا الشرقية (ما ينطبق اليوم على : بولونيا ، بيلاروسيا ، أوكرانيا ، مولداقيا ، هنغاريا ، إلخ) فأدت إلى إضفاء الأهمية على القبالة وعلى الأفكار المرتبطة بها من الناحية النظرية والتطبيقية في اليهودية . واليوم ينظر اليهود الحسیدیون إلى دراسة الحسیدیة المتعلقة بالقبالة على أنها من الأهمية ما يعادل دراسة التلمود ، أو حتى أكثر منها أهميةً ، على اعتبارها قوة دفع نفسي توجج الشعور والإصرار على التعلق بالشريعة .

التلمود وحركة التنوير :

ظهرت ضد سلطة التلمود ردة فعل جديدة ، بظهور رائد حركة التنوير اليهودي موشيه مندلزون Moses Mendelssohn ، الذي دعا إلى البعث الفكري للدين اليهودي من خلال احتكاكه بالثقافة الأُممية (الشعوب غير اليهودية) في القرن الثامن عشر . وكانت حصيلة هذا الصراع تمثلاً أقرب للثقافة الأوروبية ، وخلق علم جديد لليهودية ، وحركات إصلاح الديني . ورغم الميول شبه القرائية التي ظهرت في اليهودية الإصلاحية الباكرا ، تشبّث معظم اليهود بالتلمود على اعتباره الوثيقة الأولية التي يمكن من خلالها فهم اليهودية السائدة .

اليهود في الحضارة الغربية :

أدت الثقافة الحديثة تدريجياً إلى صرف معظم اليهود عن دراسة التلمود ،
فلذا نرى التلمود في نظر أغلبية اليهود مجرد فرع من فروع علم اللاهوت اليهودي .
وبالإجمال ، قامت المعرفة اليهودية بتوفية التلمود قدره تماماً ، إذ قام العديد من
باحثي القرنين التاسع عشر والعشرين بتقديم إسهامات هامة حول تاريخه ونقده
النصي⁽¹⁾ ، كما أحلّوه بمثابة الأساس للأبحاث التاريخية والأثرية . كما أن دراسة
التلمود قد اجتذبت انتباه حتى الباحثين من غير اليهود ، فتم إدراجه في فروع
التدريس بالجامعات .

التلمود في مذاهب الدين اليهودي المعاصر :

ما برحت اليهودية الأرثوذكسية تعدّ التلمود الوثيقة الأعلى شأناً التي يمكن
من خلالها فهم اليهودية عموماً ، والهلكاه على وجه الخصوص . والأرثوذكس
من اليهود يدرسون التلمود بعمق وتمعن ، لكنهم نادراً ما يستخدمون المصطلحات
التلمودية التشريعية لتحريّر الشريعة اليهودية المدرجة في المجاميع الاشتراعية اللاحقة
للتلمود . فعلياً ، يستند الباحثون الأرثوذكس عموماً على القوانين المنصوص
عليها قديماً ، وسبب ذلك هو أن المجتمع اليهودي الأرثوذكسي لديه قناعة بأن
الاحتمالات الصائبة لأوجه القوانين المختلفة قد استنفد بحثها غالباً جماعة الحاخامات
الرّشونيم (السالفون) ، ولذا فهم يُدعون لما نصّ عليه هؤلاء . وأما الأفراد الذين
لهم آراء يعدها المجتمع اليهودي بمثابة ما يرقى إلى مستوى الرّشونيم (مثل فقيه فيلنا⁽²⁾)
(Vilna Gaon) فهم قلة نادرة للغاية .

- (1) نذكر أن في ترجمة التلمود إلى العربية ودراسته بالنقد النصّي فوائد جمّة لنا .
(2) فقيه فيلنا ، أو : فيلنا جاؤون (1720-1797 م) اسمه الحقيقي : إياهو بن شلومو تسالمان
Elijah ben Solomon Zalman : أهم علماء التلمود في العصور الحديثة على الإطلاق ،
ولد في ليتوانيا وتنقل بين المجتمعات اليهودية في بولونيا وألمانيا ، ثم استقرّ في فيلنا وأسس
مدرسة تلمودية علياً (يشيفاً) خاصة به ، وعارض الحركة الحسيدية وحد من انتشارها في
ليتوانيا . له تعليقات شهيرة على التلمود البابلي ، تم إدراجها بأسفل حواشي طبعة فيلنا
القياسية ، المنشورة عام 1880-1886 م (انظر الشكل الوارد آنفاً) .

وفضلاً عن ذلك ، رغم أنه من الناحية النظرية من المتاح في اليهودية الأرثوذكسية تعديل أو إلغاء بعض المراسيم الحاخامية ، فهذا المطلب ينبغي أن تقوم به هيئة مساوية تشريعياً (من حيث تمكّنها بالموضوع ، ومن حيث تقواها الديني) للهيئة التي أصدرت المرسوم التشريعي أصلاً . وبحسب وجهة النظر الأرثوذكسية يضحى من الوارد تعطيل المراسيم الحاخامية بمجرد تأليف هيئة مجلس السنهدرين (المحكمة اليهودية العليا) من جديد ، إبان ظهور المسيح المنتظر (والاعتقاد السائد هنا يقول بأن الشريعة سوف تنتقل من التلمود البابلي إلى التلمود البيروشلمي) . كما أن اليهود الأرثوذكس جاهزون دوماً لدراسة التلمود ولو تكريماً لشأنه وحسب ، فهذا الأمر يعدّ لديهم بمثابة فريضة دينية كدراسة الشريعة المكتوبة תלמוד תורה . هذا ومعظم اليهود الأرثوذكس يعدّون منطق النقاش التلمودي مقدساً بحدّ ذاته ، بما أنه نقاش قائم ضمن مفهوم الذات الإلهية (فلذا ، حتى الآراء التي ثبت خطؤها أو التي لا تتوافق مع الهلكاه ، تُعدّ مقدّسة وجديرة بالدرس) . ومن وجهة النظر الثقافية ، تُتيح دراسة النقاش التلمودي للدّارس خلاصة قرون من الثقافة اليهودية والتراث اليهودي .

وكذلك فإن اليهود المحافظين Conservative Jews يعدّون الهلكاه موجبةً ومُلزمة ، غير أنهم لا يتقبّلون أحكام قوانين الشريعة المُحدثة (ما بعد عام 1500 م) . وعلى ذلك ، فالمجتمع اليهودي المحافظ يعدّ نفسه بأنه يستخدم التلمود بصورة مشابهة لما كان عليه الحاخامات السّابقون لعام 1500 م بالضبط . وأسلوب المحافظين في عملية التشريع القانوني تركّز على إرفاق نصوص قديمة ومراسيم سابقة ضمن سياق تاريخي وثقافي ، وعلى تفحص التطور التاريخي للهلكاه . ويعدّ المجتمع المحافظ أيضاً أن السّطة الهلكائية لمجلس الحاخامات لها من السّطة ما يفي بإلغاء المراسيم الحاخامية السّابقة ، وإصدار مراسيم جديدة بيدها رأساً . وهذه الأساليب عادةً ما ينجم عنها مرونة عملية أكثر ، وفاعلية أكبر في التغيير .

أمّا اليهود الإصلاحيون Reformist Jews وأتباع نزعة إعادة البناء اليهودي Reconstructionists ، فهم عموماً لا يقومون بتدريس الكثير من نصوص التلمود في مدارسهم العبرية ، وإنما يدرّسونه في حلقاتهم الحاخامية خاصةً ، إذ أن مفهوم

العالم الحاضر لدى اليهودية الليبرالية يرفض فكرة الشريعة اليهودية الملزمة ،
ويستخدم التلمود كمصدر للإلهام والتثقيف الأخلاقي والمعنوي . وغالبية الباحثين
الليبراليين للتلمود لا يدرسون التلمود بذلك المستوى المتعمق كما هو الحال لدى أتباع
الحركتين الأرثوذكسية والمحافظة .

* * *

الحملة المعادية للتلمود

يرى اليهود أن تاريخ التلمود يعكس بشكل جزئي تاريخ ديانتهم في مواجهة
عالم من العداء والاضطهاد ، لذا فإن هذا ما يفسر روح العدائية والتشكيك المتجذرة
في صلب العقلية اليهودية . فتقريباً في الوقت الذي كان فيه التسافورائيم (المفسرون)
البابليون يقومون بوضع اللمسات الأخيرة على عملية جمع التلمود وتنقيحه ، إذا
بالإمبراطور يوستينانوس (527-565 م) يصدر مرسومه ضد إلغاء الترجمة اليونانية
للكتاب المقدس اليهودي في الصلوات المقامة في الكُنُس اليهودية . فكان هذا
المرسوم ، الذي أملاه التعصب المسيحي والمشاعر المعادية لليهودية ، فاتحةً للحملة
على التلمود ، الذي اتخذ منه موقف مشابه ، بدأت هذه الحملة في القرن الثالث
عشر بفرنسا ، حيث كانت دراسة التلمود مزدهرة آنذاك .

وأدت التهم الملقاة على التلمود من قبل اليهودي المرتد نيكولاس دونين
Nicholas Donin إلى قيام المناظرة العلنية الأولى ما بين اليهود والمسيحيين ، وإلى
أول عملية حرق لنسخ من التلمود (في باريس بساحة جنيف عام 1244 م) . وأيضاً
كان التلمود موضوعاً لمناظرة أخرى في برشلونة عام 1263 م ما بين الحاخام موشيه
بن نحمان (نحمانيدس) وبابلو كريستيانى Pablo Christiani .

كما قام كريستيانى المذكور بحملة على التلمود ، مما أسفر عن أمر رسمي
بابوي ضده ، وعن أول قانون رقابة عليه ، تم تنفيذهما في برشلونة على يد هيئة
مفوضة من الأباء الدومينيكان ، الذين أمروا بحذف مقاطع يشجبها المنظر المسيحي
(عام 1264 م) .

وفي مناظرة طرطوشة Tortosa بإسبانيا عام 1413 م ، طرح إيرونيمودي سانتافيه Heronimo de Santa Fé طائفة من الاتهامات ، بما في ذلك التأكيد القاطع على أن إدانة الوثنيين والكفرة المرتدين المنصوص عليهم في التلمود إنما المقصود بهم في الواقع المسيحيون . وبعد عامين قام البابا مارتينوس الخامس ، الذي كان الداعي إلى هذه المناظرة ، بإصدار أمر بابوي (لكنه بقي حبراً على ورق) يُحرّم فيه على اليهود قراءة التلمود ، ويأمر بإتلاف نسخه كلها .

على أن أهمّ هذه الاتهامات وأبلغها أثراً كانت تلك التي أطلقها في بدايات القرن التاسع عشر المنشقّ اليهودي يوهانس نيفيركُورن Johannes Pfefferkorn ، الذي كان يعمل لصالح الآباء الدومينيكان . وكان من نتيجة هذه الاتهامات صراع لعب فيه الإمبراطور والبابا دور الحُكم ، أمّا المدافع عن اليهود فكان يوهان رُوخلين Johann Reuchlin ، الذي جُوبه من قِبَل دُعاة النزعة الظلامية ودُعاة النزعة الإنسانية . ولقد أضحت هذه المناظرة ، التي تمّ أغلبها عن طريق الكتيبات ، مقدّمة لإجراء الإصلاح .

غير أن نتيجة غير متوقّعة أبداً أسفرت عنها هذه القضية كانت صدور الطبعة الأولى الكاملة من التلمود البابلي ، التي أصدرها دانييل بومبرج Daniel Bomberg في البندقية (فينيسيا) ، وكان ذلك في عام 1520 ، تحت حماية مرسوم بابوي . وبعد ثلاثة سنوات ، في عام 1523 ، نشر بومبرج الطبعة الأولى من التلمود الفلسطيني (كما ذكرنا أعلاه) .

ولكن بعد ثلاثين عاماً ، بعد سماحه بنشر التلمود مطبوعاً ، قام الفاتيكان بحملة لتدميره . ففي يوم رأس السنة (9 أيلول 1553 م) تمّ في روما إحراق نسخ التلمود التي صودرت بموجب مرسوم من قِبَل محاكم التفتيش Inquisition ، وجرت عمليات حرق مماثلة في مُدن إيطالية أخرى ، مثل كريمونا في عام 1559 م . وصدر قانون الرقابة على التلمود وعلى الأعمال اليهودية الأخرى ضمن مرسوم بابوي نُشر في عام 1554 . وبعد خمسة أعوام تمّ إدراج التلمود في أولى قوائم الكتب الواجب تطهيرها Index Expurgatorius ، وأمر البابا بيوس الرابع في عام 1565 م بحرمان التلمود حتى من اسمه .

أما الطبعة «المُطَهَّرة» الأولى للتلمود ، التي استندت إلى متنها معظم الطبعات التالية ، فهي التي ظهرت في بازل Basel (بال) بسويسرا (1578-1581 م) ، فحُدِّثت منها بالكامل مَسِيخَت عبوداه زاراه (عبادة الأوثان) مع مقاطع عُدَّت مُعادية للمسيحية مع تحوير في بعض الجمل والعبارات . وتم إصدار مرسوم مُعادٍ جديد للتلمود بيند البابا جريجوري الثالث عشر (عام 1575-1585 م) ، وفي عام 1593 جدَّد البابا كليمنت الثامن مرسوم الحظر القديم على قراءته وحيازته .

ثم أدَّت الدراسة المتزايدة للتلمود في بولونيا إلى إصدار طبعة كاملة (كراكوف Krakow عام 1602-1605 م) تم فيها طبع النّص الأصلي الكامل . وسبقته طبعة تضمّ - ظناً - مبحثين فقط منه ، في لوبلين Lublin (1559-1576) . وفي عام 1707 صودرت بعض نسخ التلمود بإقليم براندنبورغ ، لكنها رُدَّت إلى أصحابها بأمر فريدريك ملك بروسيا . وآخر حملة على التلمود جرت في بولونيا ، عندما عقد الأسقف ديموفسكي ، بتحريض من الفرانكيست ، مُناظرة علنيّة تلاها أمر بمصادرة جميع نسخ التلمود الموجودة في إقليمه الأسقفي ، وبحرقها على الملأ .

هذا وإن تاريخ التلمود يتضمّن أيضاً الحملات الأدبية التي شُنَّت ضده من قِبَل اللاهوتيين المسيحيين ما بعد عهد الإصلاح ، حيث تم توجيه تلك الحملات الشديدة ضدّ التلمود تحديداً ، رغم أنه كان موضع دراسة اللاهوتيين المسيحيين في القرنين السابع عشر والثامن عشر . وفي عام 1830 خلال جدال في الجمعية الفرنسية للنّباء حول مسألة اعتراف الدّولة بالدين اليهودي ، أعلن الأدميرال فيرويل Verhuell عن رفضه شخصياً لمسامحة اليهود الذين صادفهم في أسفاره عبر العالم ، سواء لرفضهم الاعتراف بيسوع على أنه المسيح المُنتظر ، أو لاقتنائهم التلمود .

وفي السنة ذاتها ، قام الأسقف كياريني l'Abbé Chiarini بنشر كتاب ضخّم له في باريس بعنوان : «نظريّة اليهوديّة» *Théorie du Judaïsme* ، أعلن فيه عن النيّة بإعداد ترجمة للتلمود ، فكان بذلك أوّل مَنْ دعا من المسيحيين إلى ترجمة التلمود ونشره ، إنمّا بُغية الحصول على نسخة مقروءة منه ، يمكن فهمها ويمكن استخدامها للهجوم على العقيدة والمفاهيم اليهوديّة .

* * *



صفحة عنوان كتاب «أوتساروت حיים» (خزائن الحياة) للقبالي اليهودي يتسحاق لوري
 كُتبت هذه المخطوطة في المغرب عام 1760 م ، بيد رؤبين بن موشيه نحمانى

أقسام التلمود

نعود لتذكير القارئ ببعض المفاهيم الأساسية ، التي نتوقع أن تكون اختلطت في ذهنه حتى الآن بسبب تشابك الموضوع :

ينقسم التلمود إلى المشناه والجمارا ، وتبلغ أقسام المشناه ستة وتسمى بالعبرية (سداريم 676) أي المباحث (ولذا يُطلق على التلمود لقب : ششاً سداريم ، أي المباحث الستة ، وتُختصر إلى حرفي : 67 شاس⁽¹⁾) . وهذه المباحث الستة هي أيضاً أقسام التلمود الأساسية (وذلك باعتبار أن الجمارا تعليقٌ على المشناه وشرح لها) . ثم تنقسم السداريم إلى مقالات تُسمى (مسيختوت מסכתות) ، تنقسم بدورها إلى فصول تسمى (پراقيم 676) .

وفيما يلي تفصيل أجزاء السداريم الستة وتفريعاتها :

السدر الأول : سدر زراعيم

يتألف من 11 مقالة (مسيخت) ، ويتناول قوانين التوراه الزراعية من الناحيتين الدينية والاجتماعية ، ويسهب في شرح الأحكام التوراتية المتصلة بحقوق الفقراء والكهنة والليويين في غلال الأرض والحصاد . كما ييسط القواعد والأنظمة المتعلقة بالفلاحة والحراثة وزراعة الحقول والجنائن وبساتين الأثمار ، والسنة السببية والعشار ، بالإضافة إلى المواد المحظور خلطها في النبات والحيوان والكساء . وتبيان مقالات سدر زراعيم هو كما يلي :

1- براخوت (البركات) : تتناول صلوات اليهود وعباداتهم والقواعد المتعلقة بالأجزاء الأساسية للصلوات اليومية .

2- پعاه (زوايا الحقل) : تتناول القوانين المتعلقة بزوايا الحقل واللقط المنسي مما ينبغي تركه للفقراء ، وغير ذلك من الفرائض والواجبات التي يرد ذكرها في سفر الليويين (19 : 9-10) .

(1) ومنها اسم حزب (شاس) الديني الأرثوذكسي المتعصب في إسرائيل .

3- دماي (المشكوك بأمره من المحاصيل) : تتحدّث هذه المَسِيخِة عن المحاصيل الزراعية ، كالذرة وغيرها من متوجات الأرض ، وعن استخراج العشار اللازم منها أو عدمه .

4- كلايم (المخاليط أو الأخلاط) : تعالج الأحكام التوراتية الواردة في سفر الليوين (19 : 19) ، وسفر التثنية (22 : 9-11) ، بالنسبة لخلط البذور المختلفة في الزراعة ، أو الجمع بين جنسين من المواد في الثوب .

5- شِيعِيَت (السنة السابعة أو السبئية) : تبحث في القوانين المتعلقة بإراحة الأرض والإبراء من الديون في السنة السبئية .

6- تروموت (التقدمات : الرفائع أو جراية الكهنة) : تعالج القوانين والفرائض المتعلقة بذلك القسم من الغلال والمحاصيل المعين للكهنة .

7- مَعْسِرُوت (العشور) : وموضوعها العشار الأول المتوجّب دفعه سنوياً إلى الليوي من غلة الحصاد ، والليوي بدوره يعطي الكاهن منه نسبة العشر .

8- مَعْسِرِ شيني (العشار الثاني) : تتناول هذه المَسِيخِة موضوع العشار الثاني الذي يحمله المالك بنفسه إلى أورشليم لكي يؤكل هناك .

9- حَلَاة (باكورة العجين) : تتعلّق هذه المَسِيخِة بالقسم من العجين المفروض إعطاؤه للكاهن . وتتناول قانون هذا العجين وفرائضه .

10- عُرَلاه (الغلفاء) : تتناول هذه المَسِيخِة الحظر على استعمال ثمار الأشجار الصغيرة خلال السنوات الثلاث الأولى ، وقواعد الاعتناء بهذه الأشجار في السنة الرابعة ، طبقاً لما جاء في سفر الليوين (19 : 23-25) .

11- البِكوريم (البواكير ، الثمار الأولى) : هنا أيضاً تنصّ هذه المَسِيخِة على قوانين تقديم الثمار الأولى في الهيكل ، وتتضمّن وصفاً للشعائر التي ترافق التقدمة .

* * *

السُّدْرُ الثَّانِي : سِدْرُ مَوْعِيدِ

يؤلف سِدْرُ مَوْعِيدِ الْقِسْمِ الثَّانِي مِنَ التَّلْمُودِ الْبَابِلِيِّ فِي طَبْعَةِ سَوَنْتَشِينُو ، وَهُوَ يَتَوَزَّعُ عَلَى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَسِيخَتْ تَضْمَعُهَا أَرْبَعَةُ مَجَلَّدَاتٍ ضَخْمَةٍ . أَمَّا تَسْمِيَةُ (مَوْعِيدِ) بِمَعْنَى الْعِيدِ أَوْ الْمَوْسَمِ الْمُقَدَّسِ ، فَهِيَ مَأْخُودَةٌ عَلَى الْأَرْجَحِ مِنْ سَفَرِ اللَّيْبِينِ (23 : 2) . وَالْمَلَاظُ أَنْ الْمَسَائِلَ الْأَسَاسِيَةَ الَّتِي تَتَنَاوَلُهَا أَسْفَارُ هَذَا الْقِسْمِ تَتَعَلَّقُ بِالسَّبَبِ وَالْأَعْيَادِ وَأَيَّامِ الصَّوْمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَوَاسِمِ وَالْمُنَاسَبَاتِ الدِّينِيَّةِ ، بِالإِضَافَةِ إِلَى الطَّقُوسِ وَالشَّعَائِرِ وَالْفَرَائِضِ وَالْقِرَابِينَ ، وَإِلَى قَوَاعِدِ تَنْظِيمِ التَّقْوِيمِ الْعِبْرَانِيِّ (حِسَابِ الْمِيَاقَاتِ لِلْأَعْيَادِ الْيَهُودِيَّةِ ، وَكَيْفِيَّةِ مَعْرِفَةِ الْأَشْهُرِ الْعِبْرِيَّةِ الْقَمَرِيَّةِ مِنَ السَّنَةِ الشَّمْسِيَّةِ لِتَعْيِينِ الْأَعْيَادِ الْيَهُودِيَّةِ) . وَهَنَا أَيْضاً يَطَالَعْنَا الْكَثِيرَ مِنْ شَرَائِعِ التُّورَاهِ وَالشَّرَائِعِ وَالْقَوَانِينِ الْمُسْتَمَدَّةِ مِنْ خَارِجِ التُّورَاهِ ، جَنْباً إِلَى جَنْبٍ :

1- شَبَّاتُ (السَّبَبِ) : تَتَنَاوَلُ هَذِهِ الْمَسِيخَاتُ قَوَانِينَ السَّبَبِ وَالْقَوَاعِدَ اللَّازِمَةَ لِمُرَاعَاةِ عَطْلَةِ يَوْمِ الرَّاحَةِ ، كَمَا تَتَحَدَّثُ عَنِ الْأَعْمَالِ الْمُحْظُورَةِ فِي ذَلِكَ النَّهَارِ .

2- عَرُوبِينَ (الْمَقَادِيرِ) : تَعْنِي كَمِيَّةً مِنَ الْأَطْعَمَةِ الْمَحْدَدَةِ تَوْضِعُ فِي مَكَانٍ مَعْيُنٍ لِكَيْ تَكُونَ بِمَثَابَةِ الزَّادِ لِلْمَسَافِرِينَ أثنَاءَ عَطْلَةِ السَّبَبِ ، دُونَ أَنْ تَبْتَعِدَ تِلْكَ الْأَمْكَنَةَ عَنْ بَعْضِهَا فَيَصْبِحُ الْإِنْتِقَالُ خَرْقاً لِقَانُونِ السَّبَبِ .

3- بِسَاحِيمِ (خِرَافِ الْفَصْحِ) : تَتَنَاوَلُ قَوَانِينَ إِتْلَافِ الْمَخْمَرِ مِنَ الطَّعَامِ أثنَاءَ عِيدِ الْفَصْحِ الْيَهُودِيِّ ، وَتَقْدِيمِ الْخِرَافِ وَالذَّبَائِحِ قَرِيبَاناً ، وَمَوَاسِمِ الرَّبِّ الْمُقَدَّسَةِ . وَفِي الْفَصْلِ الْعَاشِرِ وَالْأَخِيرِ مِنْ هَذِهِ الْمَسِيخَاتِ تَرَدُّ التَّفَاصِيلُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِوَلِيمَةِ عَشِيَّةِ الْفَصْحِ وَالصَّلَوَاتِ الَّتِي تُصَاحِبُهَا .

4- شِقَالِيمِ (الشَّوَاقِلِ) : الشَّيْقِلُ هُوَ الْمُثْقَالُ مِنَ الْفِضَّةِ ، وَتَضْمَعُ هَذِهِ الْمَسِيخَاتُ أَحْكَامَ الضَّرَائِبِ وَالرَّسُومِ الَّتِي تَتِمُّ جِبَايَتُهَا لِصِيَانَةِ الْهَيْكَلِ وَتَأْمِينِ نَفَقَاتِهِ وَتَقْدِيمِ الذَّبَائِحِ بِصُورَةٍ مُنْتَظِمَةٍ .

5- يُومَا (اليَوْمِ) : وَتَعْرِفُ هَذِهِ الْمَسِيخَاتُ بِاسْمِ (يَوْمِ كِبُورِ) أَيَّ يَوْمِ الْغُفْرَانِ ، لِأَنَّهَا تَتَنَاوَلُ أَنْظِمَةَ هَذَا الْعِيدِ وَفَرَائِضَهُ دَاخِلَ الْهَيْكَلِ ، كَمَا يَتَسَطَّ قَوَانِينِ الصَّوْمِ وَأَحْكَامِهِ ، وَتَصِفُ الْإِحْتِفَالَاتِ وَالطَّقُوسِ الَّتِي يَتْرَأسُهَا الْكَاهِنُ الْأَكْبَرُ .

6- سَكَّاهُ (المظلة) : تحوي هذه المَسِيخِة قوانين عيد المظالّ ، وكيفية إقامة المظلة أو الخيمة ، والإقامة تحتها سبعة أيام . كما تتحدّث عن شعائر هذا العيد وصلواته ، وعن النباتات الأربعة التي تؤخذ أغصانها لصنع المظلة (راجع ما ذكره عنها في آخر القسم الخامس أدناه) .

7- بيتسا (بيضة العيد) : وتُعرف أيضاً باسم (يوم طوف) أي العيد ، إذ ترسم الحدود التي تتحكّم في إعداد الأطعمة أثناء الأعياد . كما تسرد مختلف أنواع الأعمال التي يُحظر إتيانها أو يُسمح بها خلال أيام العيد .

8- رُوش هَشَّناه (رأس السنة) : تتناول المسائل المتعلقة بالتقويم العبري ورؤية الأهلّة للسنة الجديدة ، مثلما تحوي القوانين التي تجب مُراعاتها في مطلع الشهر السابع (تشري) ، أي رأس السنة المدنيّة عند اليهود .

9- تَعْنيت (الصوم) : تتناول أحكام الصّوم للأيام الرّسميّة ، أو المناسبات الطارئة على الصّعيدين الشخصي والاجتماعي ، وترتيب الصلّوات التي تُتلى في ذلك اليوم .

10- مَجِلَّاه (لُفاهة التّوراه) : تتناول هذه المَسِيخِة كتاب إستير (بالدرجة الأولى) ، لأنها تتناول أحكام قراءة قصّة إستير في عيد پوريم (النّصيب) . كما ترد فيه أحكام أخرى تتعلّق بقراءة التّوراه أثناء العبادات العامّة .

11- موعيد قَطان (العيد الصغير) : تُعرف هذه المَسِيخِة أيضاً بـ (مشكين) ، نسبة إلى الكلمات الأولى فيها . وتتناول أحكام العمل أثناء الأيام الفاصلة بين أوائل عيد الفصح وأواخره وبين عيد المظالّ .

12- حَجِيجاه (قرايين الأعياد) : تتناول القوانين والأحكام المتّصلة بالقرايين التي تُقدّم في الأعياد ، وتقارن بين شعائر الأعياد الثلاثة الكبرى ، بالإضافة إلى الحديث عن فريضة الحجّ إلى القُدس ، وأنواع القرايين التي ينبغي تقديمها في مثل تلك المناسبات .

* * *

السُّدْرُ الثَّالِثُ : سِدْرُ نَشِيمٍ

معنى كلمة (نَشِيم) في العبرية : النِّسَاء ، وتشتمل مقالات هذا القسم من التَّلْمُود على قوانين الزواج والطلاق ، وغير ذلك من الأحكام التي تحدّد العلاقات بين الزوجين ، وبين الجنسين بصورة عامّة . وهي تبلغ السبعة عدداً ، موزعة على أربعة مجلّدات في طبعة سونتشيونو . وهي :

1- يِيَامُوت : العبارة صيغة جمع مؤنث في اللغة العبرية لمفردة (يِيَمَاه) ، وهي تعني امرأة الأخ المتوفى التي يجب على أخيه الزواج منها . كما تناول هذه المَسِيخَتِ الزيجات المحظورة بشكل عام ، وحقّ الفتاة القاصر بإبطال زواجها ، بالإضافة إلى التقليد اليهودي المعروف باسم (خلع التعل) ، أي حالة امتناع الأخ عن الزواج بأرملة أخيه .

2- كِتُوبُوت (شؤون الزواج وعقوده) : تناول هذه المَسِيخَتِ أحكام الاتفاق حول العروس والغرامة المتوجّبة عن الإغواء ، بالإضافة إلى واجبات الزوجين وحقوق الأرملة والأولاد المنحدرين من زيجات سابقة .

3- نِدَارِيم (النَّذور) : تصف هذه المَسِيخَتِ مختلف أشكال النَّذور ، والأنواع غير الصّحيحة منها ، وكيفية إلغائها والتراجع عنها . كما تتحدّث عن قوة إلغاء النَّذور التي نذرتها المرأة أو الابنة وألّزمت نفسها بها .

4- نَزِير (النَّذير أو النّاذر) : تتحدّث هذه المَسِيخَتِ عن النَّذر الذي يُلزم صاحبه به نفسه وكيفية التخلّي عنه ، والأمور المحظورة عليه ، والقيمة التي تُعطى لنذر النِّسَاء والعييد .

5- سُوَاطَه (المرأة المشبوهة) : الموضوع الأساسي لهذه المَسِيخَتِ هي المحنة التي تتعرّض لها المرأة التي يشكك زوجها في إخلاصها ، ويتهمها بارتكاب الزنى ، والإجراءات التي ترافق ذلك . كما تتحدّث هذه المَسِيخَتِ عن الأنواع السبعة من الفريسيين ، وعن الحرب الأهلية التي دارت بين هركانوس وأرسطوبولوس .

6- جِطِين (وثيقة الطلاق) : تعرض بالتفصيل للظروف المختلفة التي تؤدّي بالرجل إلى مناولة المرأة وثيقة طلاقها عندما يفسخ الزواج .

7- قدّوشين (التكريس) : تتناول الشعائر والفرائض المتّصلة بأموال الخطوبة والزّواج ، كما تتحدّث عن كيفة اقتناء العبيد والأقنان بصورة شرعية ، وتملك العقارات ، إلى جانب مبادئ الأخلاق وغير ذلك من المسائل المتعلّقة بعقود الزواج والقران .

* * *

السُّدْرُ الرَّابِع : سِدْرُ نَزِيْقِيْن

معنى كلمة (نزيقين) في العبرية : الأضرار ، وتُقسَّم الأسفار العشرة في هذا الجزء من التلمود إلى قسمين أساسيين : القسم الأول يضم الأسفار ، أو الأبواب الثلاثة الأولى (الباب الأول والأوسط والأخير) ، وموضوعها العام هو القانون المدني . وفيه 10 مَسِيخَتوت :

1- بابا قامّا (الباب الأول) : التسمية أرامية الأصل ، تتناول أحكام الأضرار اللاحقة بالأملك ، والأذى المُرتكب ضدّ الأشخاص بدافع إجرامي أو على صعيد الجُنحة . كما يعالج قضايا التعويض عن السرقة والسلب واقتراف العُنف .

2- بابا مِشيعا (الباب الأوسط) : تتناول الأحكام المتعلّقة بالأشياء المفقودة التي يتمّ العثور عليها ، والبيع والمبادلة والرّبا والغشّ والاحتيال ، واستئجار العمّال والبهائم ، بالإضافة إلى الإيجار والتأجير والملكية المشتركة للبيوت والحقول .

3- بابا باترا (الباب الأخير) : تعالج هذه المَسِيخَت القوانين المتعلّقة بتقسيم أملاك الشراكة والعقارات ، وقوانين التجارة ، بالإضافة إلى القيود المفروضة على الأملاك الخاصّة والعامّة وحقوق الملكية والوراثة .

4- سنهدرين (المحاكم القضائية) : حول تأليف مختلف المحاكم القضائية ، وإجراءات المحاكمة ، وعقوبات الموت والإعدام عن الجرائم الكبرى . وفيها كيفة تنفيذ أحكام بالإعدام وعقوبات الموت . وتحوي الكثير مما له علاقة بمحاكمة المسيح وبالعبودية التي تجب بالخارج عن دينه .

5- مَكُوت (الجلدات) : تتحدّث هذه المَسِيخِة عن اليمين الكاذبة والحَنث باليمين وشهادة الزُّور ، وعن (مدن اللّجوء) . بالإضافة إلى الآثام التي عقوبتها الجلد بالسيّاط ، والأحكام المتعلّقة بكيفيّة تنفيذ الجلد (39 جلدة) .

6- شِبوعوت (القَسَم أو اليمين) : تتناول هذه المَسِيخِة أنواع اليمين ، أي ما يحلفه الشخص بمفرده أثناء المحكمة ، ويمين المحكمة يصدق على الشهود والمتقاضين مثلما يصدق على المراقبين والأوصياء .

7- عيدويّوت (الشّهادات) : تتضمّن مجموعة من الأحكام المختلفة .

8- عبوداه زاراه (عبادة الأوثان) : تتحدّث عن عبّدة الأصنام والأوثان : شعائرهم وطقوسهم وأعيادهم . كما تتضمّن مواصفات الأحكام التي ينبغي إنزالها بهم ويمن يشاركهم أو يخالطهم بالتعامل الاجتماعي . وتتضمّن المَسِيخِة كثيراً من الأحكام والأقوال ذات الطابع الانتقامي التعويضي .

9- أبوت (الآباء) : تتضمّن التعاليم والأقوال الماثورة عن آباء التّراث اليهودي منذ السّنهدين الأكبر فصاعداً . وهي مليئة بالتعاليم الأخلاقية والأقوال الحكمية المنسوبة في معظمها إلى معلّمي المشناه (أي التّنائيم) .

10- هُورايوت (الأحكام أو القرارات) : تتناول الأحكام الخاطئة التي تصدر عن السّلطات الدّينية في المسائل المتعلّقة بالشعائر والطقوس . كما تتحدّث عمّا يجب تقديمه من توضيحات وذبائح إذا تمّ ارتكاب فعل عن هذه الأحكام .

* * *

السُّدُرُ الخَامِس : سِدْرُ قَدَاشِيم

يدور الموضوع الأساسي في هذا القسم من التّلمود حول الطقوس الرّباني والتّضحيات المتعلّقة بالهيكل . وكانت مُعظم الفرائض والأحكام الواردة في أسفاره مرتبطة أشدّ الارتباط بوجود الهيكل ، لكن الحاخامات في فلسطين وبابل تابعوا اهتمامهم بالطقوس القربانيّة والعبادات رغم هدم الهيكل وزواله .

ويُقسم هذا السُّدْر إلى 11 مَسِيخَتوت كما يلي :

1- زياحيم (الذَّبائح) : تحتوي على الأحكام المتعلقة بتقديم الذَّبائح الحيوانية على اختلاف أنواعها وعلى اختلاف المراحل التي تمرُّ بها . كما تضع الشروط التي تجعل القرابين مقبولة أو غير مقبولة . وتسهب المَسِيخَت في شرح الشعائر المتصلة برش الدِّماء ، وإحراق القطع الدهنيَّة أو الذبيحة الحيوانية كلّها .

2- مناخوت (قرايين اللحم والشراب) : تصف قواعد إعداد قرايين الطعام والشراب وكيفية القيام بها : من سكب الزيت على القرايين إلى الدقيق الملتوت ، ومن حزمة أول الحصيد إلى الرغيفين المخبوزين (خميراً باكورة للرَّب) ، إلى الفطائر الاثني عشر التي تُخبز من الدقيق أيضاً .

3- حَلِّين (الدُّنُوبِيات) : تتضمن مواصفات ذبح الحيوانات والطيور لأجل الاستهلاك العادي ، بالإضافة إلى تعداد مختلف الأمراض التي تجعل أكل تلك الذبائح محرماً . وفيها معالجة عامَّة لجميع قوانين الأطعمة والأحكام التي ينبغي التقيّد بها في إعداد الطعام .

4- بكَوروت (البواكير) : تتناول القوانين المتعلقة بالمواليد البكور من الحيوان والإنسان .

5- عَرَاخين (التَّقديرات) : تتضمن قواعد تحديد الكميَّة التي ينبغي تقديمها وفاءً لنذر ما للهيكَل ، بحيث يجري تقييم الشخص أو الشيء المنذور . ويختلف التقييم باختلاف السنّ والجنس (الذكر والأنثى) ، كما أن تجنيس البهيمة وتقييمها عائد إلى كاهن الهيكل . كما تتضمن المَسِيخَت القوانين التابعة لسنة اليوبيل .

6- تَمُوراه (الإبدال أو البَدَل) : تتناول قواعد إبدال القرايين وتغييرها : الجيّد بالرديء والرديء بالجيّد ، أي أن الموضوع يتعلّق بتبديل بهيمة نجسة بأخرى سبق تقديمها على مذبح الهيكل .

7- كَرِتوت (الرَّسوم الجزائيَّة) : تعالج الآثام والأخطاء التي تخضع لعقاب القطع (كرتاه) أو الفصل فيما لو جرى اقرارها بمحض الإرادة . أما إذا جرى ارتكاب الخطيئة عن غير قصد ، فلا بدّ أيضاً من تقديم القرايين تكفيراً عنها .

8- معيلاه (الإثم والخطيئة) : تتناول مسألة انتهاك الحرمات والمقدسات ،
وتدنيس الأشياء التابعة للهيكل أو المذبح .

9- تميد (التضحية اليومية أو المستمرة) : تصف خدمات الهيكل من حيث
اتصالها بتقديم القرابين اليومية في الصباح والمساء ، وخصوصاً الخراف التي ينبغي
تقديمها على المذبح صباحاً وعشيّة .

10- مدوّت (المقاييس والأبعاد) : تحتوي على مقاييس الهيكل ومواصفاته ،
فيما يتعلّق بساحاته وأبوابه وقاعاته ، وبالمذبح . كما تصف الخدمات التي يؤديها
الكهنة أثناء وجودهم في الهيكل ، وأثناء قيامهم بحراسته وتدير شؤونه .

11- قنيم (الأعشاش) : تسرد الأنظمة والأحكام المتعلقة بتقديم الطيور قرباناً
للتكفير عن الخطايا والمعاصي التي يقترفها الفقراء . كما تتناول بعض الأحوال
والشروط المتصلة بالنجاسة والقذارة .

* * *

السُدْرُ السّادس : سِدْرِ طَهْرُوت

الموضوع المشترك في هذا الجزء السادس والأخير من التلمود يتصل بأحكام
الطهارة والنجاسة لدى الأشخاص والجماعات . وهو يضم 12 مَسِيخُوت :

1- كليم (الأواني والأوعية) : تختص بقواعد النجاسة في الأواني والأدوات
التي تُستخدم للمنفعة البشريّة ، وتبيان الظروف والشروط التي تتحكّم في نجاستها .
والأواني تشمل الأثاث والملابس وكافة أدوات الاستعمال .

2- أوهالوت (الخيام) : تتناول الخيام باعتبارها ناقلة للنجاسة ، سواء عن
طريق جثّة لَمِيّت ، أو بواسطة الأواني والأوعية التي بقرّبها .

3- نِجَاعِيم (البَرَصّ والطواعين والأوبئة) : تبسط القوانين المتعلقة بمعالجة
البَرَصّ في البشر والألبسة والمساكن . كما تتضمن المواصفات الضرورية لتطهير
الأبرص وطرد النجاسة من بدنه .

4- پاراه (البقرة) : تتحدّث هذه المسیّخت عن الخصائص الواجب توفّرها في العجلة الحمراء (پاره أدوماه) ، وصولاً إلى إعدادهامادها للاستخدام في التّطهير من النّجاسة والرّجاسة .

5- طهّروت (التّطهيرات) : تعالج أحكام النّجاسة في الأطعمة والأشربة على اختلاف أنواعها ودرجاتها . كما تبيّن الشروط التي تتحكّم في تنجيسها عن طريق الاحتكاك بمختلف مصادر النّجاسة ودرجاتها .

6- مقواؤوت (الآبار والخزّانات) : تتضمّن مواصفات الآبار والصهاريج والخزّانات فيما يتعلّق بالمتطلّبات التي تجعلها صالحة شعائرياً للتّطهير والتغطيس . كما تتناول القواعد الحاكمة في جميع أنواع التغطيس الشعائري والطقسي .

7- نداءه (الحائض والحیض) : تفصّل القول في أحكام النّجاسة الشرعيّة التي تنشأ لدى النساء بسبب الحيض والنّفاس وبعد الولادة .

8- مكشّرين (الاستعدادات) : تتناول الظروف التي تصبح الأطعمة بموجبها قابلة للنّجاسة أو عرضة للتّنجس بعد احتكاكها بالسّوائل ، كما تعدّد السّوائل التي تنجّس الأطعمة في تلك الحالة .

9- زائيم (الزّاب - السّيلان) : تتحدّث عن نجاسة الرّجال والنساء عند الإصابة بأمراض الزّهري والسّيلان وغير ذلك .

10- طقّول یوم (الغسل اليومي) : تبحث في طبيعة النّجاسة لدى الشخص الذي قام بالغسل الشعائري (المفروض أثناء النّهار) لتطهير نفسه ، فإن عليه الانتظار حتى غروب الشمس لكي يعدّ طاهراً ونظيفاً .

11- يدایم (اليدان وتطهيرهما) : حول نجاستهما وتطهيرهما .

12- عفتسين (سویقات الثمار وقشورها) : وأحكام نجاستها .

* * *

عملنا في هذا الكتاب

لا ريب أن التلمود بأجزائه الكثيرة ، ولغته المعقدة ، وموضوعاته المتنافرة ، وأسلوبه الشائك ، وتسلسله اللامترابط ، وسياقه الصعب ، وجوه الملبّد بالغموض ، يفرض مشقةً وعناءً ومتاعبَ غير اعتيادية لكل من يروم التعاطي به ، سواء أكان دارساً أو محللاً أو مؤلفاً ، أو حتى مجرد قارئ . ومن لم يجرب فلا يحكمّن ! وباختصار نقول : نجزم دون أدنى طيف من شك أو مُشاحة أن التلمود أصعب نصّ ديني يمكن أن يحاول إنسانُ دراسته ، فكيف الكتابة عنه ؟

من خلال ذلك ، نلاحظ أن جميع من ألفوا عنه في العريّة - دون استثناء - لم يرجعوا أبداً إلى نصّه الأصلي ، ولا هو بمتناولهم أصلاً ، وحتى لو توصلوا إليه لوقفوا عاجزين عن استنطاقه ، هذا إن كانوا يُجيدون من العبريّة أي شيء أصلاً ! ها نحن نُدرج في مسرد مراجعنا هذه الكتب كلّها (ما خلا ثلاثة منها لم تكن بمتناولنا رغم أننا قرأناها) ، فلم نرأي كتاب منها خرج عن نطاق ما نقول !

قُصارى القول : بعد 25 عاماً بالتّمام والكمال أمضيناها في محاولة دراسة هذا الكتاب ، نرى أخيراً شيئاً من الأهليّة للكتابة عنه ، بشرط أن نلتزم بمقابلة كل ما نكتبه على أصله العبري والآرامي في متن التلمود مباشرة . أما النسخة التي نرجع إليها منذ 1981 فهي من إصدار دار Rebecca Bennet في نيويورك عام 1958 في 64 مجلداً من القطع الصغير ، وهي منقولة عن طبعة Soncino الشهيرة بإشراف الرّابي إيزيدور إيشتاين ، والصادرة بلندن بين 1935-1952 .

على أنه بالطبع كان لا بدّ لنا من اقتباس خطة انتقائيّة لأنطولوجيا التلمود ، بدلاً من الخبط العشوائي بين متاهاته التي لا تنتهي ، فألفينا أن خير ما نفعله هو متابعة الأسلوب الانتقائي لأشهر ثلاثة من حاخامات عصرنا ألفوا عن تلمودهم ، وهم : هايمان پولانو ، وأبراهام كوهين ، وأدين شتاينزالتس .

قمنا بجمع ما وصلت إليه يدنا من تأليف هؤلاء ، وتجاوزنا ذلك إلى عشرات المراجع بثتّى اللغات ، ثم تابعنا على الإنترنت ، فقابلنا وانتقينا وحققنا واقتبسنا . ثم راجعنا ما انتقينا على متن التلمود ، فبات العمل عبر هذه الخطة أيسر وأوثق . كما أفدنا من مصادر مُساعدة مُلحقة بالتلمود ، هي تحديداً : «سيدر هُدُوروت» סדר הדורות (سلك العصور) و «مَنُورات هَمَاُوريه» מנורות המאורי (مشكاة الأنوار) ، وهذا ما اقتبسناه خصوصاً عن پولانو . أما تاريخ التلمود وتحليل مُعطياته الشيولوجية فأكثره عن كوهين وشتاينزالتس بالإنكليزية والفرنسية .

حول نهجنا في نقل المُفردات من العبرية إلى العربية ، نَحُونَا قدر الإمكان إلى اتباع العبرية السِّفاردية الأندلسية الفُصحى ، فحافظنا على الباء بدلاً من ف ، والحاء بدلاً من خ . أما الأسماء العبرية المنتهية بهاء وقبلها ألف أو مَدَّة طويلة (v) «قَمَاص» فلم نرسمها على طريقة مَن عربوا التُّوراه بأغاليطهم الفادحة : يهودا ، مكفيله ؛ بل كتبنا : يهوداه ، مكفلاه . ومعيارنا في ذلك كان لغة قرآنا الكريم : تورا ، صَلاة ، لذلك كتبنا : هَلْخاه ، هَجْداه ، عِبوداه زاراه ، پاراه أدوماه⁽¹⁾ .

كما أننا نُحجم دوماً عن رسم أسماء العَلَم (أشخاص وأماكن) بما يُوافق اللغة المُترجم إليها ، فالمعيارية هي للغة المُترجم منها ، بلفظها وجرسها الصوتي (phonetic) وإيقاعها السَّماعي ونكهتها اللسانية . لذلك نقلناها بمنطوقها العبري ، لا بما اعتادته الأسماع ، والغاية من ذلك هي الوثوقية والدقة ونقل القارئ إلى جو الموضوع . وما أكثر ما نراه في الكتب المترجمة من أغاليط لا تُعقل⁽²⁾ .

عَدَدْنَا الأسماء العبرية جميعها ممنوعة من الصِّرف ، فلم نسمها بتتوين ولا بكسر . والجيم مُعطشة دوماً (g) . أما كلمة (بِن) في أسماء اليهود فأجريناها على القاعدة العبرية ، ولذا لم نُسبقها بألف في أي حال من الأحوال .

* * *

(1) غير أن الهاء هنا لا تُلَفِّظ ، إنما نُثبتها كتابةً لحفظ المدَّة والوقوف على ساكن فحسب .
(2) طالعنا مؤخراً كتاباً معرباً عن الإنكليزية حول «اللهجات العربية القديمة في غربي الجزيرة» ، اسم مؤلفه : حاييم رابين Chaim Rabin ، فإذا بالترجم يشبهه : تشيم !



صفحة عنوان كتاب صلوات «هَجْدَاهُ الفصح»
 طُبعت في جزيرة جَرِّيا بتونس عام 1938

مقتطفات
من نصوص التّلمود

القسم الأول سير الأولين في سفر التوراه

الفصل الأول من قَيْن وهَبِل إلى خراب برج بابل

وعرف آدم אָדָם حَوَاه חַוָּה امرأته ، فحبلت وولدت ابنين وثلاث بنات .
وسمّت المولود الأول «قَيْن» קַיִן ⁽¹⁾ ، وقالت : «اقتنيتُ رجلاً من عند الربِّ» ،
وسمّت مولودها الثاني «هَبِل» הָבֶל ، وقالت : «بلا شيء نزلنا هذه الدنيا ، وبلا
شيء سنُخرج منها» .

فعندما كبر الولدان اختصّ أبوهما كلياً منهما بحرفة في الأرض ، ففدا قَيْن
عاملاً في الأرض ، وهَبِل راعياً للغنم .

وحدث من بعد أيام أن الولدين قدّم كل منهما قرباناً للربِّ ، فقدم قَيْن من
أثمار الأرض ، وقدم هَبِل من أبكار غنمه . ولكن فيما انتقى هَبِل أجود خرافه
وأسمنها ، قدّم قَيْن أثماراً من الحَشَف البالي ، من أردأ ما أنبتته الأرض . ولذا
فلم يُتقبَل قربان قَيْن ، ولكن إذا بنار القبول تهبط من السماء فتستوفي التقدمة
المباركة التي أداها أخوه تجاه بارئته . فلذلك حلَّ غيظٌ شديد في قلب قَيْن ، وعزَم
متى وافته الفرصة على أن يقتل أخاه .

(1) يلاحظ القارئ هنا اختلاف الأسماء عمّا هو معروف في الترجمات العربية للتوراه : قايين
وهاييل ، وكذلك الأمر في اسمي آدم وحواء ، لكننا أترنا ترجمة المبنى واللفظ الأصلي
للأسماء كما هو بالعبرية لا كما اعتادته الأسماع . وهذا من باب الدقة العلمية أولاً ،
ومن باب التقيد بالمحتوى الفيلولوجي ثانياً . واسم هَبِل تُحرك فيه الكسرة بشكل مُمال
كحركة حرف العلة ה بالفرنسية . واسم قَيْن مُشتق من الفعل العبري קָנָה : اقتنى ،
حاز ، تملك . أما هَبِل فمن مفردة בַּל : لاشيء .

وحدث أن كان قَيْن يحرث حقله ، فكان هَبِل يقود قطيعه إلى المرعى واجتاز بالأرض التي كان أخوه يفلحها . بنفس ملؤها السَّخَط خَفَّ قَيْن صوب هَبِل مُخاطباً إياه⁽¹⁾ : «أتى لك أن تأتي بقطيعك فتحلّ به في أرضي التي أملكها ، ليرعى فيها؟» . فأجاب هَبِل : «وأنت لك أنت تأكل من لحم غَنَمي ؟ وأنتى لك تلبس ثياباً مصنوعة من صوفها ؟ ادفع لي قيمة اللحم الذي أكلتَ ، واللباس الذي لبستَ ، لأن ذلك كلّه مُلكٌ لي ؛ وعندذاك تراني أخرج منها بالفعل ، وأطير في الهواء فلا أمسُ أدِيمها» .

فقال قَيْن لأخيه : «ها أنت ذا الآن في قبضتي ، فإن وقع في نفسي أن أقتلك الآن في هذا اليوم ، مَنْ تُراه يثأر لمقتلك؟» . «الرَّبّ ، مَنْ أحلّنا هذه الأرض» ، أجاب هَبِل ، «فهو الحَكَم العَدل الذي يُجزِي المُحسن بإحسانه والمُسيء بإساءته . وليس بمقدورك أن تقتلني وتتوارى عنه بفعلتك هذه فلا ريب أنه سيعاقبك حتماً ، حتى لهذا الكلام الخبيث الذي تبتدرني به الآن» .

فزاد هذا الكلام في غيظ قَيْن ، وما كان منه إلا أن رفع أداة الفلاحة التي كانت بيده ، وضرب بها أخاه على حين غَرّة ، فأرداه قتيلاً . هكذا سُفِح دم هَبِل على يد أخيه قَيْن ، وجرى الدّم في الأرض ، حتى أنه بلغ المكان الذي كانت تقف فيه خراف هَبِل .

وحدث بعد هذا الفعل الطائش أن قَيْن ناح وبكى بمرارة . ثم تدارك نفسه ونَقَب حُفرةً في الأرض ، فوارى فيها أخاه عن نور النّهار . وبعد ذلك ظهر الرّبّ لَقَيْن ، وقال له : «أين هَبِل أخوك الذي كان معك؟» . فقال قَيْن : «لا أعلم ، أرقيبٌ أنا لأخي؟» . فقال الرّبّ : «ماذا فعلتَ ؟ دم أخيك صارخٌ إليّ من الأرض . وتظن أنني لا أعلم لي بجرّمك الذي تُنكره الآن . فالآن ملعونٌ أنت من الأرض التي فتحت لتبتلع دم أخيك . ومنذ الآن لا تعود تعطيك قوتها ، ولا تستجيب لكذك ، ولا تعود تعطيك شيئاً غير الحَسَك . طريداً وتائهاً تكون منذ الحين في الأرض» .

(1) يلاحظ القارئ وجود زيادات تفسيرية في التّلמוד على نصّ التّوراه (تكوين - 4) .

فخرج قَيْن شريداً من كَدْن بارئه ، صوب الأرض التي بشرقي جنة [أي
بستان] عِدِن [١٧٦٦] .

ثم بعد ذلك الحين ، لما بدأ الرَّب يسمح لَقَيْن بالاستقرار ، حبلت امرأته
وولدت ابناً . وسمّى قَيْن ابنه «حَنُوك» חנוך ، لأن الرَّب أجاز له في نهاية الأمر
الاستقرار في الأرض . وشرع بيني مدينة ، فسماها هي الأخرى «حَنُوك»^(١) ،
للسبب عينه ، لأنه لم يعد طريداً وتائهاً في الأرض .

* * *

ثم عندما بلغ آدم المئة والثلاثين من العمر ، وكَد ابناً آخر ، ودعا اسمه
«شَيْت» שית^(٢) . وعاش شيت مئة وخمس سنين ، ووكد «أنوش» אנוש . وبدأ
النَّاس يكثرُونَ ويتوالدون على وجه الأرض ، لكنهم دَنَسُوا أرواحهم بالخطايا
والمعاصي تجاه الرَّب ، وتعاطم شُرورهم وطغيانهم يوماً بعد يوم . ونسوا إلههم
الأبدي الذي خلقهم وأعطاهم الأرض مُلكاً لهم ، فراحوا يعملون الصُّور من
النَّحاس والحديد والخشب والحجر ، وطفقوا يسجدون لها عابدين . ودام النَّاس
على ذلك الضلال طوال مدَّة حياة أنوش .

ولهذا فقد تزايد سخط الله عليهم ، وقدَّر طوفان نهر جيحون נהר גיחון
لتدميرهم وإفنائهم . ولكن رغم أن ثلث البشر انقرضوا من جرَّاء ذلك ، لم يرعوِ
الباقون أو يتوبوا ، بل أقاموا على شُرورهم ضالِّين أمام عيني الله .

(١) في العبرية חנוך تعني : تنشئة ، تدشين ، ومنها عيد الأنوار «حَنُوكاه» חנוכה ، أي عيد
التدشين في 25 كسليف ، كما يُطلق اسم חנוכה على شمعدان المنوراء ذي التسعة شُعَب
المُستعمل في عيد الأنوار . وفي العبرية تعني «حَنُوك» اليوم : تربية ، تعليم .
(٢) يُترجم الاسم إلى العربية : شيت ، رغم أن حرف الشاء في العبرية ليس أصيلاً . ومردِّ
ذلك أن الترجمة الذين عربوا التوراه لم يعتمدوا النص العبري المسوراتי מסורת ، بل
نقلوا عن ترجمة يونانية متأخرة ، ميَّزت (بنحو مغلوط) بين حرفי ת (تاف) وט (طيت)
العبريين بنقل الأول بالحرف اليوناني ثيتا θ (ث ، th) ، والثاني بالحرف اليوناني تاو τ
(ت ، t) ، ومن هنا منشأ الغلط في العربية وكل اللغات الأوروبية أيضاً . والعجيب أن
نقرأ إلى اليوم نصَّ التوراه بالعربية مترجماً عن اليونانية بأغاليطها (وهي ليست الترجمة
السبعينية תרגום השבעים القديمة) ، بدلاً من ترجمته رأساً عن العبرية !

في أثناء هذه المدّة توقّف الزّرع والحصاد ، وحلّت بالأرض مجاعة مُمضّة ، لأنّ النَّاسَ لما زاعغوا وفسدوا فسدت الأرض معهم ، وبدلاً من أن تُعطي ثماراً لقوت الإنسان راحت تطرح شوكاً وحسكاً .

* * *

وعاش أنوش تسعين سنّة ، ووكدَ «قينان» 777 . وكان قينان رجلاً حكيماً يعرف الأمور جميعها ، وعندما بلغ الأربعين من العمر حكّم جنس البشر بأسره . ولما كان رجلاً حصيفاً فقد علّم النَّاسَ ، ونقل إليهم حكمته وعلومه . وقد أدرك بأن البشر سوف ينالون جزاءً كبيراً على شُرورهم الدائمة ، وتنبأ حول المستقبل والطوفان الذي سيصيب به الله الأرض ، وكتب هذه النبوءات على ألواح من حجر ، وأودعها في الخزانة .

وعندما بلغ قينان السبعين من العمر وكّد من الأبناء ثلاثة بنين وابنتين . أما الابنتان فصارتا زوجتين للامك 778 بن متوشئيل ، الحفيد الخامس من سلالة قين⁽¹⁾ . فولدت زوجته الأولى «عاداه»⁽²⁾ لابن 779 ابناً سمّته «يابال» 780 ، وابناً آخر سمّته «يُوبال» 781 . أما أختها «صِلاه» 782 فكانت عاقراً لا تُنجب مدّة سنوات عديدة .

ولكن حدث أن صِلاه ، برغم شيخوختها ، ولدت ابناً سمّته «تُوبال قين» 783 784 ، قائلةً : «بعدما شخت وهبني الربّ القدير ابناً» . ثم حبلت صِلاه ثانية ، وولدت ابنة سمّتها «نعماه» 785 ، وفي هذا الاسم كناية عن السرور والفرح في سن الشيخوخة .

فلما شاخ لامك شحّت عيناه ، ثم كُفّ بصره تماماً ، فكان ابنه تُوبال قين يقاتده بيده عندما يخرج .

(1) تفصيل ذلك : لامك بن متوشئيل بن محوئيل بن عيرد بن حنوك بن قين . ودوماً أسقطنا ألف (ابن) هنا لأن المقصود بها المفردة العبرية 786 لا العربية ابن . وهما واحد في اللغتين على أي حال .

(2) في الترجمات العربية المألوفة للتوراه : عادةً وصِلاه ، وهذا رسم غير صحيح البتة ، فعلى من يترجم التقيد بالمعايير اللفظية للغة التي يترجم منها لا التي يترجم إليها .

وحدث أنه عندما كان تُوبال قَيْنَ صغيراً ، اقتاد أباه إلى الحقول للصيد ، وقال لأبيه : «انتبه ، هو ذا حيوان للصيد» ، ارم بسهمك في ذلك الاتجاه . ففعل لامك كما أشار عليه ابنه ، فإذا بالسهم يصيب قَيْنَ الذي كان يمشي على مَبَعْدَة ، فأرداه قتيلاً . فهكذا تم الاستداد من دم قَيْنَ كما كان سَفَحَ دم أخيه هَبِلَ .

وعندما اقترب لامك وابنه وأدركا أنهما قد قتلا جدهما قَيْنَ بدلاً من حيوان صيد ، ارتعدت مفاصل لامك بشدة وضرب كفاً بكف بقوة ، من هول الصدمة والحزن والخوف . ولما كان ضريراً لم يتسن له رؤية ابنه ، وحصل أن لكز رأس الفتى بين يديه ، فصرعه على الفور . ولما اكتشفت زوجته ما قد أتى عليه زوجها أنحيتا عليه باللوم وكرهتاه .

لكنه خاطبهما قائلاً : «يا عاذاه وصلّاه ، اسمعا قولي ! آه ، يا امرأتي لامك ، أصغيا لكلامي ! لقد قتلتُ رجلاً يؤلمني مقتله وولداً يجرح قلبي مقتله ، ولكن لم أفعل ذلك عن قسوة قلب أو سابق تصميم . أنتما تعلمان أنني عجوز أشيب ، وأن عينايا لا تُبصران ؛ فكان ما فعلتُ بغير قصد مني ، لا بل كان فيه جُرْحِي والْمِي» .

ثم صفا قلب الزوجتين على زوجها ، بوساطة من أبيهما آدم ، لكنهما لم تُنجبا بعدُ أبناء آخرين .

* * *

«وَوَكَّدَ مَهَلْئِيلُ يَرِدُ ٦٦ ، وَيَرِدُ وَكَّدَ حَنْوُكُ (١) חַנוּךְ ، وَحَنْوُكُ وَكَّدَ مِتּוּשֶׁלַח מִתּוּשֶׁלַח» . وَعَبَّدَ حَنْوُكُ اللَّهَ وَسَارَ مَعَهُ ، وَازْدَرَى الْأَشْرَارَ الَّذِينَ حَوْلَهُ ، وَالتَّزَمَ بِالْعُلُومِ وَالْحِكْمَةِ إِلَى دَرُوبِ الْعَلِيِّ الْقَدِيرِ . وَحَدَّثَ أَنَّهُ فِيمَا كَانَ يَصَلِّي فِي بَيْتِهِ إِذَا بَمَلَكٍ مِنَ اللَّهِ يَنَادِيهِ مِنَ السَّمَاءِ قَائِلاً : «حَنْوُكُ ، حَنْوُكُ» ، فَأَجَابَ : «هَا أَنَا ذَا» . فَقَالَ الْمَلَكُ : «قُمْ ، انْهَضْ مِنْ وَحْدَتِكَ وَامْشِ بَيْنَ النَّاسِ . عَلَّمَهُمْ طَرِيقَ الْحَقِّ ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى مَا يَنْبَغِي لَهُمْ فَعَلَهُ» . فَفَعَلَ حَنْوُكُ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ .

(1) يُترجم الاسم بالغلط «أخنوخ» في التوراه العبرية (تكوين - 5 : 18) ومصادر السير . وقد عُثِرَ فِي الْحَبْشَةِ عَلَى مَخْطُوطٍ سَفَرِ ضَائِعٍ مِنَ التَّوْرَاهِ يُنْسَبُ لِحَنْوُكُ ، نُشِرَ فِي إِنْكَلْتْرَا .

راح يمشي بين الناس ويعلمهم سبيل الخالق ، ويجمعهم ليهديهم بإخلاص
وصدق . وقام بتكليف أتباعه لينادوا في جهات المعمورة حيثما كان بشر : « مَنْ
كان منكم يرغب بمعرفة سبيل الله وسلوك طريق الصّلاح ، فعليه بقصد حَنوك » .
وحكم حَنوك البشريّة فأذعن لطاعته الناس ، ولما كان مقيماً بينهم عبّدوا الله حقّ
عبادته . وتقاطر الأمراء والحكّام للاستماع إلى كلامه الحكيم وليؤدّوا تجاهه
فروض الطاعة . وأحلّ حَنوك السّلام على امتداد الأرض .

وامتدّ حكم حَنوك على جنس البشر ثلاث مئة وثلاث وخمسين سنة ، كان
ينتهج فيها العدل والصّلاح ، ونعمت الأرض بالأمن والسّلام طوال هذه المدّة .
وكان مِتُوشِليح ابناً لحَنوك ، ولامِك ابناً لمِتُوشِليح . ومات آدم ، عن عمر يناهز
التسع مئة وثلاثين سنة ، عندما كان لامِك بعمر الخامسة والستين ، فدُفن بتكريم
عظيم على يدي شيث وحَنوك ومِتُوشِليح . سَجِّي جُثمانه داخل مغارة ، وتُشير
بعض المصادر إلى أنها مغارة «مكفلاه» מַכְפֵּלָה⁽¹⁾ . ومنذ ذلك الحين ، أي دفن
آدم ، اتُخذت عادة الاحتفال بمراسم الجنّازة للموتى .

مات آدم لأنه أكل من ثمر شجرة المعرفة ، وعبر خطيئته هذه ينبغي لذريّته
من البشر جميعاً أن يذوقوا الموت مثله ، كما قال الله . وكانت السنة التي مات
فيها آدم هي الثالثة والخمسون بعد المتين من حكم حَنوك .

وحدث في ذلك الوقت أن حَنوك تاق بكل جوارحه إلى العزلة من جديد ،
فتخلّف ثانياً عن مجامعه المتكررة مع الناس . لكنه لم يعتزل عنهم بالكلّيّة ، إنّما
كان يختلي بنفسه ثلاثة أيام ، ثم يظهر في اليوم الرابع ليقدم إليهم النصائح
ويعلمهم . ولكنه بعد مضي بضعة سنوات زاد من فترات اعتزاله عن العالم ،
فصار يختلي بنفسه عن الناس ستة أيام ، ثم يخرج ليعظّمهم في اليوم السابع . غير
أنه بعد ذلك لم يعد يظهر أمام الناس غير مرّة واحدة في السنة ، ورغم توقّعهم إلى
رؤيته والإصغاء إلى صوته ، في غير هذا اليوم الوحيد في السنة ، لم يكن في
مقدورهم رؤيته أبداً .

(1) انظر ما يرد عنها في التوراه ، سفر التكوين - 23 : 9 . وفي الإشكنازيّة : مَخِيلاه .

وغدا حَنُوك قُدُوساً بحيث أن النَّاس ارتعدوا منه وما عادوا يجرؤون على الدنوّ منه عندما كان يظهر لهم ، لهالة النور السّماوي الذي يتألّق على وجهه . لكنهم كانوا عندما يتكلّم يتجمّعون ويصغون إلى كلامه ، وينهلون من علومه ، وراحوا ينحنون أمامه ويهتفون بملء أصواتهم : «عاش الملك !» .

وحدث أنه بعدما تعلّم سكّان المعمورة من حَنُوك سُبُل الله ، ناداه ملك من السّماء قائلاً : «اصعد يا حَنُوك ، اصعد إلى السّماء ، لتحكم بين أبناء الرّب في السّماء كما كنتَ حكمتَ أبناء البشر على الأرض» .

فجمع حَنُوك النَّاس وقال لهم : «ها أنا دُعيتُ إلى السّماء ، بيد أنني لا أدري متى يكون أوان صعودي . لذلك فهلّموا أعلمكم قبل أن أمضي ، مكرراً الدّروس التي كنتم سمعتموها من فمي» . وأحلّ حَنُوك السّلام والوثام بين بني البشر ، وأرشدهم إلى طريق الخلود . وراح أتباعه ينادون حيثما كان بشر : «مَنْ كان منكم يرغب بالحياة ويتعلّم سُبُل الله ، فعليه بقصد حَنُوك ليتعلّم ، قبل أن يُرفع من بيننا عن وجه الأرض» .

وهكذا علّم حَنُوك النَّاس ووحدهم بسلام ووثام . ثم ركب جواده ومضى مُبتعداً ، فتبعه حشدٌ غفير من النَّاس مسيرة يوم .

وحدث أنه في اليوم التالي تكلم حَنُوك مع الذين تبعوه ، قائلاً : «ارجعوا إلى خيامكم ! أين تتبعونني ؟ ارجعوا ، وإلا أصابكم الموت» . فعادت طائفة من أتباعه عند سماعهم هذا الكلام ، لكن طائفة أخرى تابعت المسيرة بصحبته ، وكان كل يوم يخاطبهم قائلاً : «ارجعوا ، وإلا أصابكم الموت» .

وفي اليوم السادس كان لا يزال ثمة بعض مَن تبعوه ، فقالوا : «حيث تذهب فمعك نحن ، وطالما كان الله حياً فلا شيء يفرّقنا عنك إلا الموت» . فلمّا ألفاهم حَنُوك مصرّين على هذا الوجه كفّ عن مخاطبتهم . وكان الذين عادوا في اليوم السادس يعلمون عدّة الذين تبعوه ، غير أن أحداً من هؤلاء الذين تركوهم في اليوم السادس لم يعد البتّة . وفي اليوم السابع ارتفع حَنُوك إلى السّماء في زويدة ريح ، بمركبة وخيول من نار .

وحدث أنه بعد ارتفاع حَنوك إلى السَّمَاء شرع النَّاس في البحث عن أولئك الذين تبعوه ، فوجدوا في المكان الذي غادروهم فيه ثلجاً وجليداً كثيفين . فلماً حفروا في الجليد عثروا على جُثث الأشخاص الذين كانوا عنهم يبحثون ، أما حَنوك فلم يعثروا له على أي أثر . فكان هذا معنى نصِّ سفر التَّوراه المقدَّس : «وسار حَنوك مع الله ، ولم يوجد (أي حيث جرى البحث عنه) لأن الله أخذه» .
ויתהלך חנוך אתהאלהים ואיננו כירקח אתו אלהים: (בראשית
تكوين - 5 : 24) .

وكان ارتفاع حَنوك إلى السَّمَاء عندما كان عمر لامِك بن مِتوشلِح مئة وثلاث عشرة سنة .

* * *

وحدث بعد ارتفاع حَنوك إلى السَّمَاء أن النَّاس نصَّبوا ابنه مِتوشلِح ملكاً عليهم . فأقام مِتوشلِح على أصول الصَّلاح التي لقَّنه إياها أبوه . واستمرَّ في تعليم النَّاس التَّقوى والخير كما كان فعل حَنوك من قبله . ولكن في أواخر مَدَّة حكمه راح النَّاس يهملون تعاليمه ولا يأبهون بها ، فضيَّعوا حقوق النَّاس بينهم ، وعصوا أوامر الله .

وحلَّ بهم غضب الرَّبِّ من جديد ، فعادت الأرض تُنبت شوكاً وحسكاً بدلاً من ثمارها التي يقات بها الإنسان ، لكنهم لم يتوبوا ولم يكفوا عن شرورهم وضلالاتهم . ولذلك قرَّر الله أن يُفنيهم بأكملهم من على وجه الأرض .

وعندما كان لامِك بن مِتوشلِح في سن المئة وستة وثمانين عاماً ، مات شيث بن آدام ودُفن . وفي هذه الأثناء اتَّخذ لامِك لامِد لنفسه زوجة ، هي أشمُوع אשמוע ، ابنة إليشُوع אלישוע بن حَنوك ، وكذلك ابناً فسماهُ نُوح נח ⁽¹⁾ . ونشأ نُوح على فضائل الصَّلاح وتمسَّك بقوة بسبُل الحقِّ التي لقَّنه إياها مِتوشلِح ، غير أن النَّاس تمادوا في معاصيهم تجاه الله وفشا الغشَّ بينهم .

(1) كذا مبنى الاسم في العبرية ، ورغم أنه يتألف من حرفي (ن - ح) فالقاعدة العبرية أن الحاء الأخيرة المحركة يفتح ويسبقها حوْلام قَطان أو قبوص تُلْفِظ : حوح ، كاسم : شِلُوح .

فقال الله : «هي ذي الأرض بأكملها قد فسدت . أمحو عن وجه الأرض هذا الإنسان الذي خلقتُ ، وكذلك طيور السماء وبهائم البر ، لأن شرور الإنسان ليست تؤهله للحياة ، وإني لأسفُّ على خلقي إياه» .

غير أن الربّ أمسك عن غضبه ، إلى أن مات كل إنسان كان يسلك إليه بالخير سيلاً ، قبل أن يحلّ لعنته التي قرّرها ، وذلك لثلاثي عشر عباده الصّالحون ما يكون من جزاء قومهم . ولكن نُوحٌ⁽¹⁾ لاقى بركةً في عيني الربّ ، فاصطفاه الله مع أسرته من بين بشر الأرض كلّهم ، ليُبقّيه وإياهم على قيد الحياة ما بعد الفناء الذي قدّر له الوقوع .

وحدث في السنة الرابعة والثمانين من عمر نُوحٍ أن أنوش بن شيت مات بعمر تسع مئة وخمس سنين . وعندما أضحى عمر نُوحٍ مئة وسبعين ، مات قينان عن عمر تسع مئة وعشر سنين . ومات مهلكئيل عن عمر ثمان مئة وخمس وتسعين سنة ، عندما كان نُوحٌ بعمر مئتين وثلاثين سنة . وعندما أضحى نُوحٌ في عمر ثلاث مئة وستين ، مات يرد بعمر تسع مئة واثنين وستين سنة . وكذلك مات في تلك الأيام جميع من اتّبَعوا أوامر الربّ ، من قبل أن يُرهبهم العقاب الذي قد أمر بوقوعه .

وحدث في السنة الثمانين بعد الأربع مئة من عمر نُوحٍ ، أن الصّالحين الوحيديين المتبقّين في ذلك الجيل كانوا متوشلح ونوح مع أسرته . وعندها ، صدرت كلمة الربّ إلى متوشلح ونوح كما يلي : هيا امضيا ، أعلننا أمام البشرية قاطبةً : هكذا تكلم الربّ : «تراجعوا عن نواياكم الخبيثة ، تخلّوا عن طرقكم الضالّة» ، لكي يعفو عنكم الله ويُبقيكم على وجه الأرض . لأن الله الأزلي قال : «إني سأمهلكم مئة وعشرين سنة لتتوبوا ، فإن تخلّيتم عن طرقكم الضالّة ، سوف أتخلّى عن نيتي في إفنائكم» .

(1) نذكر - كما قلنا في المقدّمة - أننا عددنا الأسماء العبرية في نصّنا ممنوعة من الصّرف ، لثلاثي عشر الالتياس في كون الألف المنوثة أصلية في الاسم ، ثم إن هذه الأسماء بصيغتها العبرية الأصلية لن يستقيم تنوين آخرها أو كسره . ونحن بدأنا على أي حال لم نخرج عن قاعدة التحو العبرية المتبعة . فمعدّرة من سيّوّه أن لم نكتب : لكن نوحاً !

فمضى نُوحٌ ومِتوشلِحٌ قُدُماً ، وتحدّثنا بكلمات الرّبِّ هذه أمام النّاس .
 وكانا كل يوم ، من الصّباح حتى المساء ، يخاطبان النّاس ، لكن النّاس لم يلقوا
 بالألّ إلى كلامهما .

ولما كان نُوحٌ رجلاً بارّاً في جيله ، فقد اصطفى الرّبُّ ذُرّيته لكي تنتشر على
 الأرض بأسرها . ثم قال الله لنُوحٍ : «أتخذ لنفسك زوجةً ، وأنجب الأبناء ، إذ
 أنني أراك أمامي رجلاً بارّاً . فأنت وحدك ، مع امرأتك وأبنائك ، سوف تحيون
 على الأرض من بين هذا الجيل» .

ففعل نُوحٌ كما أمره الله ، واتخذ نَعْماء ابنة حَنوك زوجةً له ، وكان عمر
 نُوحٍ أربع مئة وثمان وتسعين سنة عندما تزوّج نَعْماء . وحبلت نَعْماء وولدت ابناً
 سمّته «يافث» ⁽¹⁾ פּוּת : «قد أكثرنا الله على الأرض» . وولدت ابناً آخر
 فسّمته «حام» חָם . وولدت ابناً ثالثاً فسّمته «شِيم» ⁽²⁾ שֵׁם : «وهبني الله
 اسماً عظيماً في الأرض» . وكان عمر نُوحٍ خمس مئة وستين عندما ولدت له ابنة
 الثالث شِيم .

فنشأ الصبية وساروا مع الله ، كما علّمهم نُوحٌ ومِتوشلِحٌ . وفي هذه الأيام
 مات لامك ، والد نُوحٍ . لكن لم يكن له من الصّلاح لا كآبيه ولا كابنه . وكان
 عمره لما مات سبع مئة وسبعاً وسبعين سنة .

وكلم الرّبُّ متوشلِحَ ونُوحَ من جديد ، قائلاً : «مرّة أخرى ادعيا البشرية
 إلى التوبة . كرّرا النداء قبل أن يحلّ عقابي بالنّاس» . غير أن النّاس لم يُصغوا ،
 بل تجاهلوا كلمات الإنذار .

(1) الاسم في العبرية من فعل פּוּת : وسّع ، نشر ، مدّ . ومن الغلط ترجمته : يافث ، عن
 اليونانية ، كما قدّمنا في كلامنا على اسم شيت .
 (2) هكذا يُلفظ الاسم في العبرية (ومعناه : اسم) وهو في العربية سام ، كما في اليونانية وعنهما
 لغات أوروبا . والصحيح هو إيراد الاسم بصيغته الأصلية لا بقولته حسب اللغات
 الأخرى ، صحيح أن بين اللغات السامية إقلاّباً بين الحروف (كالسین والشين هنا) ،
 ولكن لا نرى سبباً للإبقاء على هذه الترجمة المغلوطة . بل غايتنا في هذا العمل تقديم
 نموذج دقيق ومباشر عن نص التلمود ، نقلاً عن لغته الأم ومصطلحاته الأصلية ، الأمر
 الذي لم يتم بالعربية حتى الآن سوى مرّة واحدة (في عمل مويال عام 1909) .

فقال الرَّبُّ لِنُوحَ : «نهاية كلِّ بَشَرٍ قد أنتَ أمامي ، إذ أفسدوا طرقهم ، فهنا أنا مُهلكهم مع الأرض . أما أنتَ فاصنع لنفسك تابوتاً⁽¹⁾ من خشب قَطْراني . وهكذا تصنعه : ثلاث مئة ذراع يكون طوله ، وخمسين ذراعاً عرضه ، وثلاثين ذراعاً ارتفاعه . وتصنع باباً للتَّابوتِ في جانبه وتُكمله إلى حدِّ ذراعٍ من فوقه» .

وفي السنة الخامسة والتسعين من بعد الخمس مئة من عمره ، شرع نُوحٌ في صنع التَّابوتِ ، وأتمه في السنة الست مئة من عمره ، وخلال مدَّة صنعه تزوج أبنائهُ الثلاثة من بناتِ مِتُوشَلِحِ الثلاث .

وحدث أيضاً في هذه الأيام أن مِتُوشَلِحِ بن حَنوك مات بعمر تسع مئة وتسع وستين سنة . وبعد موته قال الرَّبُّ لِنُوحَ : «فلتدخل التَّابوتِ أنتَ وأهل بيتك كلَّهم ، وهما أنا مُرسِلٌ إليك البهائم والطيور جميعها حول التَّابوتِ . فعليك أن تقف عند مدخل التَّابوتِ ، وستتجمَعُ البهائم والطيور أمامك ، فما ألقى منها أمامك فليُدخلها بَنوك إلى التَّابوتِ ، وما بقي منها قائماً فذَرها» .

فكما تكلم الرَّبُّ حصل ، وتجمعت البهائم بأعداد كبيرة مقابل التَّابوتِ ، فما ألقى منها أُدخل إليه ، فيما تُرُكت الأخرى . وعند مضي سبعة أيام قصفت الرِّعود والبروق في السَّماءِ فهزَّت أركان الأرض ، وأظلم بهاء الشَّمسِ ، وهطل مطر عظيم ، وتجاوزت حدَّة العواصف كل ما عرفه الإنسان أو تخيَّله .

هرع النَّاسُ إلى التَّابوتِ وتمسكوا به وصاحوا بِنُوحِ مستغيثين ، فأجابهم : «مئة وعشرون سنة مضت وأنا ألحُّ عليكم لتسمعوا كلامي ، أما الآن فهَيَّيات ، قد فاتتكم الفرصة» .

وهطل المطر أربعين يوماً وأربعين ليلة بقوة هادرة ، حتى أن أصحاب التَّابوتِ أصابهم الهلع والقلق ، من خوفهم ألا يكون تابوتهم قادراً على تحمُّل هذا الجبروت الغامر . فراحت كلُّ بهيمة في التَّابوتِ ، على اختلاف أنواعها ، تصبح من الخوف والعجز ، حتى أضحى الصَّخَبُ هادراً ورهيباً .

(1) المفردة الواردة في العبرية : תיבה تيه (تفاه) : صندوق ، كما تُطلق على تابوت العهد . فترجمناها به بدلاً من : سفينة أو قُلُك ، على اعتبار الأصل وهو هنا أولى .

عند ذلك توجه نُوحٌ إلى الله الأزلي ضارعاً : «ياربّ ، أتوسّل إليك ، نجّنا الساعة ! فبغير عَونٍ في وجه هذه الشدّة ترانا سنؤوب إليك . أنهار المياه تروّعنا ، والموت يلتطم بين الأمواج حولنا . انظر بوجهك إلينا ياربّ ! ارحمنا ، أحيينا وأنجدنا وخلصنا !» . فسمع الله صوت نُوحٍ ، وتذكّره .

* * *

«وأرسل الله ريحاً على الأرض على الأرض فتناقصت المياه ، ، واستقرّ التّابوت في الشهر السّابع ، على جبل أَراراط» ٥٦٦٤⁽¹⁾ . ففتح نُوحٌ كوة التّابوت ، وصرخ إلى الله من جديد قائلاً : «ياربّ ، يا إله السّموات والأرض ، أطلق أرواحنا من الأسر ، حرّرنا من الحبس الذي نعيش فيه . فقلوبنا قد أضنتها زفريات الأسي . فأجاب الله نُوحَ قائلاً : «في خاتمة العام يكون لكم أن تخرجوا من التّابوت» .

وحدث في الشهر الثاني ، في اليوم السابع والعشرين من الشهر ، أن جفّت الأرض . ولكن نُوحٌ وأسرته مكثوا في التّابوت ، ولم ييارحوه حتى كلّمهم الله قائلاً : «اخرجوا من التّابوت» . فخرج عندهنّ جميع البشر والحيوانات من المركب الذي نجت أرواحهم فيه .

وعبد نُوحٌ وبنوه الرّبّ طوال سني حياتهم ، وباركهم الله . وتكاثر جنس البشر بسرعة بعد الطوفان . وأسماء تلك الأجيال مكتوبة في التّوراه . أما كُوش ٥٦٧ بن حام ، حفيد نُوحٍ ، فقد تزوّج في شيخوخته امرأة صبيّة ، ووكد ابناً سمّاه «نمرود»⁽²⁾ ٦٦٦ ، لأنه في تلك الأيام بدأ الناس يعصون أوامر الرّبّ مجدّداً ، فاسم نمرود يعني التمردّ والعصيان .

(1) تضمين حرفي من متن التّوراه ، تكوين : 8 : 1-4 . أما اسم الجبل فهو يُلفظ بالإشكنازية بالثاء (أارات) ، وينسب إلى جبل معروف في جنوب شرقي تركية اليوم ، تغمره الثلوج صيفاً وشتاءً . أما في التراث الإسلامي فيسمى الجبل المذكور : الجودي .
(2) كذا منطوق الاسم في العبرية لا بفتح النون كما في العربية ، والواو تُلفظ O . واسمه ليس النمرود بن كنعان كما في كتب السير ، بل نمرود بن كُوش . وهو صاحب قصّة إلقاء إبراهيم في النار ، التي ليست في التّوراه أصلاً بل في المدراس والتلمود .

ثم شبَّ نمرود ، وكان أبوه يحبّه حبّاً جمّاً ، لأنه كان ابن شيخوخته . وكان ثمة رداء من الجلد صنعه الله لآدام ، فلما مات آدام غدا هذا الرداء ملكاً لحنوك ، ومنه انتقل إلى متوشلح ابنه ، وأعطاه متوشلح لنوح ، الذي أخذه معه في التابوت . ولما خرج الناس من التابوت ، سرق حامُّ هذا الرداء وأخفاه عن إخوته ، ثم أعطاه فيما بعد خفيةً لكوش ابنه . وأخفاه كوش سنين عديدة ، ثم بسبب حبه العظيم لنمرود ابن شيخوخته أعطاه إياه . فلما أضحى نمرود في سن العشرين لبس هذا الرداء ، فأسبغ عليه قوةً وجبروتاً ، كجبارٍ صيد في البراري ، وكجبارٍ حرب ينال من أعدائه وخصومه . وتكلمت بالظفر حروبه وأعماله ، حتى غدا ملكاً على الأرض كلها .

وها هي ذي قدرته إلى يومنا هذا لا تزال مضرباً للأمثال بين الناس ، فمن يعلم الأيادي الفتية فن استعمال السلاح ، والأذهان الفتية أسرار القنص ، يتمنى لتلامذته أن يكونوا «كنمرود» ، جبارٍ صيد في البراري ، وظافراً في حروبه» .

ولما أضحى نمرود في الأربعين ، تشاجر إخوته بنو حام مع بني يافث . فجمع نمرود عشيرة كوش ، وتقدم لقتال بني يافث . وخاطب جيشه قائلاً : «لا تجزعوا ، واطردوا الخوف من قلوبكم . فأعداؤنا سيضحون بلا ريب غنيمةً لكم فتفعلون بهم ما تشاؤون» . وحاز نمرود على النصر ، وأمست جيوش أعدائه تبعاً له . ولما عاد مع جنوده إلى ديارهم مبتهجين بالنصر ، أحاط به الناس ونصبوه ملكاً ، ووضعوا على رأسه تاجاً . فعين لنفسه مستشارين وقضاةً وشيوخاً وقواداً ومقدمين ، وأسس حكومةً للأمة ، وعين تارح بن ناحور⁽¹⁾ تارح بن ناحور كبير أمناء مملكته .

فلما أرسى نمرود قواعد سلطانه هكذا ، قرّر أن يبني مدينة ، بلدة مسورة ، لتكون عاصمة مملكته . فاختر لذلك سهلاً وبنى فيه مدينة كبيرة ، سماها شنعار 𐤱𐤍𐤁𐤏 . وأقام نمرود في شنعار بأمان ، وسرعان ما غدا حاكم العالم بأسره . وفي ذلك الحين كان لسكان الأرض أجمعهم لغة واحدة ولسان واحد .

(1) تارح بن ناحور هو أبو أبرام (إبراهيم عليه السلام) ، كما سيرد في الفصل التالي .

راح نمرود يتقلب في نعمائه فسني ربه ولم يعبده ، بل صنع أرباباً من خشب وحجر ، وراح الناس يتبعونه فيما يفعل . وعبد ابنه مردان ١٦٦٥ الأَصْنَامُ هو الآخر ، ومن هنا مصدر المثل القائم إلى يومنا الحاضر : «وهل يُخَلَّفُ الشَّرِيرُ إلا أشراراً؟» .

* * *

وحدث في هذه الأيام أن قواد نمرود وأحفاد قوط ٧١٥ ومِصْرَايِم ٧١٦ وكُوش ٧١٧ وكنعان ٧١٨ عقدوا مجلساً ، وقالوا فيما بينهم : «لنبن لنا مدينةً وفي وسطها برجٌ عالٍ كحصن ، وليصل رأسه إلى السماء . فهكذا نُقيم لأنفسنا اسماً عظيماً وجباراً ، ترتجف أمامه أعداؤنا جميعاً . عندها لا يجسرن أحد على مسنا بسوء ، ولا تشتتن الحروب أمجادنا» .

ولما خاطبوا الملك بهذا الكلام وافق على خطتهم . وهكذا اجتمعت هذه العشائر واختارت بقعةً ملائماً لمدينتها ، في سهل شرقي بأرض شنعار . ولما كانوا آخذين في البناء ، دبّ العصيان في قلوبهم ، عصيانٌ في وجه الله ، وتخيلوا أن يوسعهم اختراق السماء ومحاربه . فانقسموا إلى ثلاث فرق ، وقالت الفرقة الأولى : «نرقى إلى السماء فنضع فيها آلهتنا ونتعبدُها» . قالت الفرقة الثانية : «بل نقتحم سموات الربّ ونضارع قوته بقوتنا» . بينما قالت الفرقة الثالثة : «أجل ، ونرميه بوابل من أسهمنا وحرابنا» .

فنظر الله أفعالهم الضالّة واطلع على نواياهم الخبيثة ، فيما مضوا في البناء . وكانوا إذا سقط حجر مما يرفعون حزنوا وبكوا ، أما إذا سقط أحدٌ من إخوانهم ودقت عنقه لم يكثر أحدٌهم للروح التي أزهقت قيد شعرة . وهكذا ، مضوا في البناء سنين عديدة ، إلى أن قال الله : «والآن نُبَلِّلُ ألسنتهم»^(١) . فإذا بالناس ينسون لغاتهم ، وراحوا يخاطبون بعضهم بلغات غريبة . ومن جرّاء عدم التفاهم الذي سببه اختلاط الألسن راحوا يتشاجرون ويقتلون ، فمات منهم الكثير في هذه المعارك ، إلى أن اضطرّوا في النهاية إلى الكفّ عن البناء .

(١) بحسب تفسير التوراه أن مملكة «بابل» ٧١٩ سُمّيت نسبة لهذا الحدث .

وجازى الله كل واحدة من الفرق الضالّة الثلاث بحسب خطيئتها ، فأما الذين قالوا : «نضع آلهتنا في السماء» ، فقد مسخهم الله قردهً ؛ وأما الذين قالوا : «نرميه بوابل من أسهمنا وحرابنا» ، فقد قتل بعضهم الآخر بسبب عدم إمكانية التفاهم بينهم ؛ وأما الذين قالوا : «لنجرب قوتنا بقوته» ، فقد شئت شملهم على وجه الأرض .

وكان البرج متجاوزاً جداً في الطول ، فأما الجزء الثالث منه فقد غاص في الأرض ، وأما الثلث الثاني فقد احترق وتبدّد ، فيما بقي الثلث الأخير إلى وقت خراب بابل .

وعلى هذا النحو المذكور كان تشتتُ البشرُ عبر الأرض ، وتفرّقهم إلى أمم كثيرة متعدّدة .

* * *

الفصل الثاني من مولد أبرام إلى خراب سدوم وعمّراه

كان تارح بن ناحور⁽¹⁾ تרח בן נחור كبير مقدّمي الملك نمروذ ، وكان أثيراً جداً عند مولاه الملك . فلماً ولدت امرأته أمتطاه אמתטה بنت كرتبو כרבו ابناً سمّت الوليد «أب - رام» אב-רם ، وهذا يعني : أبٌ عظيم . وكان عمر تارح سبعين سنة لما ولد ابنه أبرام .

وحدث في ليلة مولد أبرام أن تارح استضاف عدداً من أصحابه ، بما فيهم حكماء الملك نمروذ وسحرته . فأمضوا السّهرة في العرّيدة والصّخب ، ولما مضوا من منزل مُضيفهم كان الصّبح أوان انبلاجه . فلماً رفعوا بأبصارهم صوب السّماء أبصروا بنجم كبير ساطع يطلع أمامهم في المشرق ، ويتلعب أو يلتهم أربع نجوم صفاراً من أركان السّماء الأربعة . فتعجّب السّحرة ملياً لهذه الواقعة ، وقال بعضهم للآخر :

«لا بدّ أن هذا نذيرٌ مرتبط بمولد طفل تارح . فعندما يكبر سيغدو له شأن عظيم ويتزايد سلطانه وقدره للغاية ، وسيبد نسله أركان هذه المملكة ويحوزون على أملاكها» .

ومضى كلٌّ إلى بيته وراحوا يُمعنون النّظر في هذا الشّأن ، ثم لم التقوا في بيت التّجمّع قالوا : «فلنُنبئ الملك بالواقعة العجيبة التي برزت لناظرينا . فإن نبي خبرها إلى علمه عن طريق آخر غيرنا فسوف يستبدّ به الغضب علينا لكتّم الأمر عنه ، أو لعلّه حتى يقتلنا لإهمالنا . لنذهبن إليه للتّوفّ فنجتّب أنفسنا مغبة الأمر» .

(1) اسم أبي أبرام حسب التّوراه (تك 11 : 10-26) والمدراش والتلمود : تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عيبر بن شالّح بن أرفكشاد بن شيم بن نُوح . وفي «قصص الأنبياء» للّيسابوري : «زارح» ، القريبة من تسميته في القرآن الكريم «أزر» .

فلما دخل حكماء الملك إلى حضرته حيّوه قائلين : «أيها الملك ، لتحيأ أبد الدهر!» . ثم تقدّم كبير الحكماء فروى للملك الظاهرة التي شهدتها أبصارهم ، والتعبير أو المعنى الذي نسبوه إليها . فلما أتمّ الرواية قال : «والآن من بعد إذن الملك ، نُشير بأن يدفع مولانا دية⁽¹⁾ هذا الوليد لأبيه ويُهلكه وهو رضيع ، وإلا كان مصيرنا ومصير أبنائنا من بعدنا في مستقبل الأيام أن نلقى الخراب على يديه وأيدي أبنائه» .

أصغى الملك بامعان إلى كلام أتباعه وأقرّ ما أشاروا به . فبعث برسول إلى تارح ، ولما مثل هذا بين يديه أخبره بكل ما رواه الحكماء ، ثم قال : «ولهذا فلتسلّمنا الطفل الساعة ، لنقتله قبل أن تحلّ بنا الشرور ، وسوف نجزيك مكانه ملء خزائنك ذهباً وفضّة!» .

فأجاب تارح : «قد استمعتُ إلى كلام مولاي ، وكلّ ما يرغب به فأنا له مطيع ، ولكن فليفضّل مولاي الملك بأن يسمح لي بذكر أمر طلب مني في الأمس بالذات ، وبأن أتمس منه المشورة حول ذلك» .

«لا بأس عليك ، فلتفعل» ، أجاب نمروذ . «هات ما عندك» .

قال تارح : «البارحة جاء إلى بيتي أيون بن موراد ، راغباً أن يبتاع مني الفحل الكريم الذي تكرّمتم مولاي الملك بمنحه إياي ! فقال أيون : «بيع هذا الجواد وسأعطيك كامل ثمنه ، وكذلك أملاً إصطبلك بالتبن والعلف» . فأجبتُه بأني لا أستجيز لنفسي التصرّف بعطيّة الملك بغير إذنه . ولذا فإني الآن أيها الملك أطلب منك المشورة!» .

أجاب الملك بحدّة مَغضباً : «أفيعق في بالك أن تبيع عطيتي ، وأن تستغني عن ذلك الفحل المسومّ طمعاً بالذهب والفضّة والتبن والعلف ؟ هل أنت بحاجة إلى مثل هذه الأشياء الخسيسة حتى تقايض عليها بالجواد الذي وهبتك إياه ، وهو الفحل الذي لا نظير له في البلاد؟» .

(1) بالأصل : ثمن ، وكلمة دية استعملناها لموافقة الترجمة ، وإن لم تكن في الأصل . وفي ترجمتنا هذه نحاول المحافظة على روح النصّ أولاً ، ثم صوغه بعربية سليمة ثانياً .

فرجع تارح أمام الملك ، وقال : «فإن كان هذا حكمك بخصوص ذاك الجواد ، فكيف تطلب مني أن أسلم وليدي ؟ فإن كان الذهب والفضة لا يفيان بضمن عطية مولاي ، فكيف تراهما يفيان بضمن وليدي ؟» .

استشاط الملك غضباً لهذا الكلام ، ولاح الشرّ جلياً على محيّا ، ثمّ دفع تارح إلى أن تابع كلامه قائلاً : «أنا وكلّ ما أملك رهنٌ للملك ، بما في ذلك وليدي ، بغير ما مال ولا ثمن» . قال الملك : «لا ، بل مالاً أدفعُ فيه» . فقال تارح : «ياذن مولاي ، أعطني ثلاثة أيام للتفكير في الأمر ، ثم إنني أريد مُفاتحة أم الصبي به» . فأجابه نمروذ إلى ما طلب ، وانصرف تارح من حضرته .

بعد انقضاء الأيام الثلاثة أرسل الملك إلى تارح ، يأمره بإشخاص الصبي ، وإلا أهلكه هو نفسه مع أسرته كلّها . فلمّا تسلّم تارح أمر الملك ، وأيقن أنه ماض فيما يريد ، بادر إلى ابن أحد عبيده ، وكان وُلد في يوم مولد أبرام ، فأرسله إلى الملك نمروذ ، وقبض المال دونه ، مدّعياً أنه وليده .

فما كان من الملك إلا أن قتل الصبي بيده ، بينما أخفى تارح امرأته وأبرام وحاضنة الصبي في مغارة نائية ، مُرسلاً القوّت إليهم سرّاً كل أسبوع . فأقام أبرام في هذه المغارة إلى أن بلغ العاشرة .

في غضون هذه السنوات ، كان هاران بن تارح ١٦٦٦ ١٦٦٦ ١٦٦٦ ، أخو أبرام الأكبر ، تزوّج فولدت له امرأته ابناً سمّاه «لوط» ١٦٦٦ ، وولدت له أيضاً ابنتين ، سمّت إحدهما «ملكاه» ١٦٦٦ والأخرى «ساراي» ١٦٦٦ . وعند ولادة ساراي كان عمر أبرام اثنين وأربعين عاماً . وكان أبرام منذ نُعمية أظفاره محبباً للربّ . ووهب الله قلباً حكيماً متفتحاً للفهم ولتجلّي عظمة الخالق ، وقادراً على مجابهة أباطيل الوثنيّة .

لما كان طفلاً نظراً إلى نور الشمس البديع في رابعة النهار ، وبهائها المتألّئ على الكائنات كلّها ، فقال : «لا ريب أن هذا النور الساطع هو الله ، فإليه أتوجّه بعبادتي» . فعبد الشمس وصلّى إليها . لكن لما تلا النهار وأفل بريق الشمس ، بدأ شعاعها الذي كان غامراً الأرض بالضياء بين طيات الظلام ، وفيما راح

الأصيل ينوخ بكلكله إذا بالفتى يكفّ عن الابتهاال قائلاً : «هذا لا يكون إلهاً . أين تُراي إذا أجد الخالق الذي صنع السّموات والأرض ؟» ، فنظر باتجاه الغرب والشمال وإلى الشرق ، فرأى أن الشمس اختفت من أمام ناظره ، وأضحت الطبيعة محتجبة خلف طيّات اليوم المنصرم . ثم طلع القمر ، فلما رآه أبرام يلتمع في كبد السّماء بما معه من آلاف النّجوم ، قال : «لعل هذه تكون الآلهة التي خلقت الأشياء كلّها» . وبادر بصلاته إليها . ولكن لما لاحت تباشير الفجر وشحبت النّجوم ، وشخّ نور القمر بيباض فضّي ثم ضاع في أوبة بهاء الشمس ، أدرك أبرام ساعتها كنه الله قائلاً : «ثمّة إلهٌ قدرته أسمى وذاته أرفع وأقوى ، وما هذه الأجرام المنيرة إلا من بعض مخلوقاته وصنّع يديه» .

وفيما كان أبرام بن تارح يتدرّج يومياً في مسالك الحكمة والمعرفة في بيت نُوح ، دون أن يدري أحد شيئاً عن أحواله ، كان رعايا الملك نمروود ، الذين حكموا بابل يعمهون في طرقهم الضالّة ، برغم ما يُنذرونه من وقوع البوار بهم وبكل ضالّ . ورعايا نمروود هؤلاء لقبوه أمرافل ⁽¹⁾ . وكان مردان بن نمروود أشدّ ضلالاً من أبيه ، وحتى تارح الذي ما برح كبير أمناء الملك ، غدا هو الآخر عابداً للأصنام . فكان في بيته اثنا عشرة صورة كبيرة من خشب وحجر ، يمثّل كلّ منها إلهاً خاصاً بشهر من شهور السنة ، يصلّي إليها ويتعبدها .

عندما بلغ أبرام الخمسين من العمر غادر بيت معلّمه نُوح ، عائداً إلى تارح أبيه . فلما أبصر الاثني عشر صنماً المتوسّدة مكان الشرف في دار أبيه ، استطار الغيظ في نفسه ، وآلى على نفسه مُقسماً : «وحياة الرّبّ ، لئن لبثت هذه الصّور ها هنا ثلاثة أيام آخر ، فليجعلني ربّي الذي خلقتني واحداً منها» .

خفّ أبرام إلى أبيه الذي كان مُحاطاً ببطانته ، فسأله قائلاً : «أخبرني يا أبتني ، أتى لي أن أجد الله الذي خلق السّموات والأرض ، وخلقك وخلقني وخلق البرية أجمعين في هذا العالم ؟» . فأجاب تارح : «يا بنيّ ، خالق الكائنات موجود معنا هنا في الدار» . قال أبرام : «فأرنيه إذا يا أبتاه» .

(1) اسمه في التوراه (تكوين - 14 : 1) : «أمرافل ملك شنعار» אמרפל מלך שנער .

فاصطحب تارح أبرام إلى حجرة داخلية ، وأشار إلى الأصنام الاثني عشر وأخرى عديدة أصغر منها حولها ، قائلاً : «هذه هي الآلهة التي خلقت السموات والأرض ، وخلقتك وخلقنتي والعالمين أجمع» .

فقصد أبرام أمه قائلاً : «يا أمّاه ، ها هو ذا أبتي قد أطلعني على الآلهة التي خلقت الأرض وكلّ ما عليها ، لهذا أرجو منك أن تهَيّي لي جدياً لأقدمه قرباناً لآلهة أبي ، كيما تأكله وتتلقّاه بعين الرضا» .

ف فعلت أم أبرام كما طلب منها ، وقدم أبرام الطعام الذي هيّأته أمام الأصنام ، لكن أياً منها لم يمدّ يده ليأكل . فقال أبرام ساخراً : «ربما لم يلاق مذاقها مزاج الآلهة ، أو فعلت كمية الطعام تبدو ضئيلة . سأقدم قرباناً أكبر ، وأجتهد أن يكون أشهى طعماً» .

في اليوم التالي طلب أبرام من أمه أن تهَيّي جديين ، بأفضل إتقان ، فلمّا قدّم ذلك أمام الأصنام وجد النتيجة ذاتها التي رآها في اليوم الفائت . تعجّب قائلاً : «ويل لأبي ولهذا الجيل الضالّ ، ويل لمن تميل قلوبهم إلى الزيف والباطل فيعبدون صوراً بكماء لا تحسّ ، فلا هي تشمّ ولا تأكل ولا تنظر ولا تسمع . لها أفواه ولا تتكلّم ، لها أعين ولا تُبصر ، لها آذان ولا تسمع ، لها أيدي ولا تتحرّك ، لها أرجل ولا تمشي»⁽¹⁾ . فما كان منه إلا أن استلّ أداة من حديد وراح يكسّر بها الأصنام جميعها ما خلا واحداً ، وضع بيده حديدته التي استخدمها⁽²⁾ .

تناهت ضجّة الفعل إلى أذني تارح ، فهرع إلى الحجرة حيث ألقى الأصنام المحطّمة والطعام تقدمة أبرام مزجىً أمامها . فصرخ بغضب ونقمة في وجه ابنه : «ما هذا الذي فعلته بألهتي ؟» . فأجاب أبرام : «قد جلبتُ لها طعاماً شهياً ، وإذا بها تمدّ أيديها إليه بشراهة دفعةً واحدة ، كلّها ما عدا كبيرها ، أزعجه جشعها ، فلم يُمسك نفسه أن استلّ تلك الحديدية التي بيده وراح يحطّمها جميعاً» .

(1) هذه العبارات ترد في مزامير داود - 115 : 5 .

(2) قصة تكسير أبرام لأصنام أبيه ليست في التوراه ، بل هي تراث شفهي مصدره المدراس والتلمود ، يُصنّف من الأجداه .

أجاب تارح بغضب : «كذب ما تقول ، ألهذه الصّور نسمة حياة لكي تتحرّك وتفعل كما تدّعي ؟ ألم أصنعها بيدي هاتين ؟ فكيف يمكن لكبيرها أن يحطم الأصغر منه ؟» . فكان ردّ أبرام : «إذا فيمّ عبادتُك آلهة لا تحسّ ولا تقوى على شيء ؟ آلهة لا هي تقدر على معونتك فيما تحتاج ، ولا هي تسمع دعائك ؟ ألا ساء ما تفعل وما يفعل أمثالك من عبادة صور الحجر والخشب ، ناسين الله ربّنا خالق السّموات والأرض وكلّ ما بينهما . ها أنتم تكسبون على أنفسكم الخطايا ذاتها التي جُوزي بها أجدادكم بمياه الطوفان . فلتكفّ يا ابتاه عن عبادة هذه الآلهة ، قبل أن يحلّ السّخط بروحك وأرواح أهل بيتك !» .

وتناول أبرام الحديدية من يد الصنم المتبقي ، فحطمه هو الآخر أمام ناظري أبيه . فلما رأى تارح فعل ابنه ، هرع إلى الملك ثمّرود واشتكى فعل أبرام قائلاً : «إن لي ابناً وكُلد منذ خمسين عاماً ، قد فعل كذا وكذا . فأرجو منك استحضاره للمثول بين يديك ليُحاكم» .

فلما استدعي أبرام أمام الملك ، قال له ثمّرود : «ما هذا الذي فعلت بالآلهة أليك ؟» . فأجاب أبرام الملك بالكلام ذاته الذي قاله لأبيه . ولما قال : «ليس للصنم الكبير من قوّة أو بأس ليفعل ذلك» ، تابع أبرام قائلاً : «إذا فيمّ عبادتُك إيّاه ؟ لماذا تحثّ رعيتك على سلوك طرقك الباطلة ؟ أولى لك أن تعبد ربّ العالمين العظيم ، القادر على كل شيء ، المحيي والمُميت . الويل لك يا ذا القلب السقيم . فلتتحوّل عن طرقك الضالّة ، واعبُدْ مَنْ بيده مقاليد حياتك وحياة شعبك جميعه ، أو تُمتّ مذموماً مدحوراً⁽¹⁾ ، أنت ومن يتبعك» .

فأمر الملك مُدّمي جيشه بالقبض على أبرام والزجّ به في السّجن ، فمكث في محبسه عشرة أيام . وفي ذيّاك الحين جمع ثمّرود مجلسه ، وخاطب أمراءه ومُقدّميه قائلاً : «سمعتُم بأفعال أبرام بن تارح ، لقد واجهني بازدراء ولم يُقم وزناً لسُلطاني . ها هو ذا بات في السّجن ، فأخبروني ما العقاب الذي ينبغي إنزاله بهذا الرّجل الذي اجترأ على مقامي هكذا؟» .

(1) نترجم عبارات التلمود بما يُقابلها مالوفاً في العربية لا بالورود التوقيفي ، فليُعلم .

فأجاب المستشارون : «مَن يجترئ على مقام الملك فجزاؤه الموت شنقاً ، أما هذا الرَّجُل فقد أتى على ما هو أدهى ، لقد كفر بالهتنا وحقرها ، لذا فينبغي أن يُحرق حياً . فإن حَسُن في عيني الملك ، ليوَقَد أتونُ نهاراً وليلاً ، ثم ليُلْقَى أبرام هذا في وسطه» .

فحَسُن هذا الرأي في عين الملك ، وأمر بتجهيز ذلك على الفور . فلَمَّا أوقد الأتون حتى بلغ حرارة عظيمة مُهلكة تجمَع المُقدّمون كلّهم ، والشعب جميعاً كباراً وصغاراً ، ليشهدوا تنفيذ حُكم الملك . وصعدت النساء حاملات أولادهن سطوح بيوتهن ، بينما تجمهر الرّجال بأعداد غفيرة . غير أن الجميع بقوا مبتعدين لم يجرؤ أحد منهم على الدنو من الأتون للنظر فيه ، من شدّة اللهب .

وحدث أنه عندما أتى بأبرام من السّجن ، وراه الحكماء والسّحرة ، رفعوا عقيرتهم وهتفوا بنمرود : «أيها الملك ، هذا الرّجُل نعرفه حق المعرفة ! فما هو سوى ذاك الوليد الذي حدث عند مولده قبل خمسين سنة أن ظهر نجم عظيم فأهلك أربعة نجوم أخرى . لقد هزئ بك أبوه وخذلك إذ أرسل إليك عوضاً عنه صبيّاً آخر سواه لكي يُقتل بمقتضى أمرك» .

عندما سمع الملك هذا الكلام استشاط غضباً ، وأمر بإحضار تارح على الفور أمامه . وقال له : «سمعت ما أكّده أمامي هؤلاء السّحرة ، فأنبئني الآن ، هل كان ما قالوه صدقاً؟» . فلم يجد تارح مناصاً ، وهو يرى مدى الغيظ العظيم الذي استبدّ بالملك ، من أن يجيب بصدق : «الأمر كما أخبر الحكماء . لقد أخذتني الرّاقة بابني ، فأرسلتُ لك بدلاً منه ابن واحد من عبيدي» .

فسأله نمرود : «مَن ذا الذي أشار عليك بذلك ؟ قُل الصّدق لتنجو!» . ارتعدت فرائص تارح من سؤرة غضب الملك ، فأجاب متسرّعاً ، دون أن يعي ما يقول ، وكان الأمر غير ما روى : «إنه هاران ابني الآخر ، هو الذي أشار علي بذلك» . وكان هاران لا طاقة له للتمييز في مسألة الإيمان ، ولم يقرّر لنفسه أيعبد أصنام أبيه أم إله أبرام ؟ فلَمَّا أُلقي بأبرام في السّجن ، قال في قلبه : «لنرأي الرّبّين أقوى ، فإن فاز أبرام تبعتُ دينه ، وإن هلك فلا تبعن دين الملك» .

فلماً أدان تارح ابنه هكذا ، أجاب نمروود : «إذا يلقى هاران عقوبة أبرام ذاتها ، وليُقذف بابنيه معاً في الأتون» .

فكان أن أحضر أبرام وهاران أمام الملك ، وعلى الملأ أمام السكّان جميعاً تم تجريدتهما من أثوابهما ، وقُيّدت أيديهما وأقدامهما ، ثم أُلقيتا في الأتون الملتهب . ولشدة حرارة النَّار كان مصير الاثني عشر رجلاً الذين قذفوا بهما في النَّار أنهم هلكوا فيها ، لكن الله بسط رحمته على عبده أبرام ، فرغم أن الحبال التي تقيده احترقت من حول أعضائه ، إذا هو يمشي بداخل النَّار دون أن يمسه منها سوء⁽¹⁾ . أما هاران أخوه ، الذي لم يكن قلبه متعلقاً بالله ، فقد لاقى حتفه على الفور في اللهب المُستعر . وصاح خُدام الملك بمولاهم : «هوذا أبرام يمشي دون أن يمسه سوء بين ألسنة اللهب ، لقد تَلّفت الحبال التي قيّدناه بها ، أما هو فلم يمسه أيُّ ضرر كان» .

أبى الملك أن يصدّق هذا الأمر العجيب ، فأرسل بعض مَنْ يشق بهم من مُقدّميه لينظروا في الأتون ، فلماً أيدوا كلام مرؤوسيهم عقدت الدهشة لسان الملك ، وأمر مُقدّميه بإخراج أبرام من النَّار . لكنهم مع ذلك لم يتمكنوا من القيام بأمره ، حيث أخذت ألسنة اللهب تستعر في وجوههم ، فهربوا من هولها وحرارتها اللاهبة . وعنفهم الملك قائلاً بوجه الهُزء : «عجلوا ، أخرجوا أبرام وإلامات !» . لكن محاولتهم الثانية باءت بالفشل كالأولى ، وفيها احترق ثمانية منهم حتى الموت .

ثم نادى الملك أبرام قائلاً : «يا عبد إله السّموات ، فلتخرج من النَّار وتقدّم أمامي» . فمشى أبرام خارجاً من النَّار والأتون ، ووقف في مواجهة الملك . ولما رأى الملك أن أبرام لم تنكّر منه شعرة واحدة بلهب النَّار ، أخذ منه العجب كلّ ما أخذ .

(1) من الهام الإشارة إلى أن قصة إلقاء أبرام في النَّار ليست في متن التوراه ، بل هي كسابقتها (تخطيمه أصنام أبيه) تراث شفهي الأصل مصدره المدرّاش والتلمود ، ويصنّف من ضمن الأجداه מגדה (شرح نصوص تاريخية وأخلاقية وردت في التوراه وفسرها فقهاء اليهود) . وفيها رواية كاملة لحكاية أبراهام (إبراهيم) : מעלשה אברהם «معسّيه أبرهّام» .

فقال أبرام : «إله السموات ومن بيده كل شيء ، قد نجانني من النار» .
 فرجع أمراء الملك أمام أبرام ، لكنه ابتدرهم بقوله : «ليس إليّ الرُكوع ، بل لربّ
 الكون العظيم الذي خلقكم . اعبدوه واسلكوا سبيله ، فهو من يُنجي من الهلاك
 ويحفظ من الموت» .

ووقّر في قلب الملك هو الآخر الارتياح من أبرام ، فقدم إليه عديداً من
 الهبات الثمينة ، وفارقه بسلام .

وحدث بعد ذلك أن ناحور⁽¹⁾ وأبرام اتّخذا لهما امرأتين ، اسم امرأة
 ناحور ملكاه ، واسم امرأة أبرام ساراي أو يسكاه⁽²⁾ . وكانتا كلاهما ابنتي
 هاران ، أخي زوجيهما⁽³⁾ .

عقب حوالي العامين من نجاة أبرام من الموت حرقاً ، حلم الملك نمرود برؤيا
 غريبة . فإذا به في هذا المنام يقف بجيشه في وادٍ ، وقبالتة أتون عظيم تتأجج فيه
 النار ، فأتى رجل يُشبه أبرام من داخل الأتون ووقف أمام الملك ، حاملاً بيده
 سيفاً مسلولاً . ثم اقترب الرجل من نمرود والسيف مُصلت بيده ، فنكص نمرود
 على عقبيه وهرب . وعندما هرب الملك رماه الرجل بيضة ، وتدفق من هذه
 البيضة نهر ماء غزير ، فغمر الملك وجيشه بأكمله ، ففرقوا كلهم ما عدا الملك
 وثلاثة رجال معه . وأثناء انطلاقهم هارابين ، استدار الملك لينظر رفاقه الذين نجوا
 معه ، فإذا بهم رجال طوال القامة ذوو مظهر جليل ويرتدون حُللاً ملكية . ثم
 اختفى النهر ولم يبق سوى البيضة . ثم في تنمة حلمه رأى الملك نمرود طيراً يخرج
 من هذه البيضة ، فحلّق هذا الطير فوق رأسه ونقر عينيه . وهبّ الملك من نومه
 برُعب كبير ، وراح قلبه يندق بسرعة ودمه ينفور في عروقه .

(1) ناحور هو ثاني أبناء تارح الثلاثة : أبرام وناحور وهاران . (تكوين - 11 : 27) .

(2) من المؤلف تعدد أسماء وألقاب شخصيات التراث الديني اليهودي ، كما سنرى أدناه بمثال
 يعقوب (يسرّئيل) وهندسأه (إستير) ، هذا عدا عن الرموز بأسماء كبار الرّبانين ، مثل :
 شلومو يتسحاق (راشي 671) وموشيه بن ميمون (رَمِيم 671) . وألقاب التكريم
 مثل : رايبنو هقدوش 671 וְהַקְדוּשׁ «سيدنا القديس» ليهودا هتاسي .

(3) يرد في التوراه (تكوين - 20 : 12) على لسان أبرام (وهنا صار اسمه أبرهام) : «وبالحقيقة
 أيضاً هي أختي ابنة أبي ، غير أنها ليست ابنة أُمي ، فصارت لي زوجة» .

في الصَّبَاح أرسل الملك خلف حكمائه ، وبعد أن حكى لهم حلمه طلب منهم تعبيره . فأجاب أحد الحكماء ، واسمه أنوكي ܐܢܘܟܝ قائلاً : «ما هذا المنام إلا تعبير عن الشر الذي سيصدر عن أبرام وذُرّيته تجاه الملك في المستقبل . وإنّه مُنبئ عن اليوم الذي سيهبّون فيه ويدحرون مولانا الملك مع جيوشه كلّها . ولن ينجو خلا الملك ذاته ، مع ثلاثة ملوك يحاربون إلى صفّه . أما النّهر والطير اللذان يخرجان من البيضة ، فما هما إلا رمزٌ يدلّ على ذرّيّة هذا الرّجل ، الذي سيصدر عنه مُطلق الضّررّ تجاه أمّتنا وشعبنا في الأيام الآتية» .

«هذا هو تعبير الحلم ، ومعناه الوحيد . وأنت تعلم تمام العلم ، يا مولاي الملك ، أنه منذ عدّة سنوات خلّت أدرك حكماؤك هذا الأمر بعينه ، ولكن لسوء طالعك تركت هذا الرّجل على قيد الحياة . فطالما بقي حيّاً يُرزق ستبقى مملكتك في خطر» .

وقعت كلمات أنوكي موقعاً بليغاً من نفس الملك ، فكلف بعض رجاله بالانسلاخ خفية للقضاء على حياة أبرام . ولكن مؤامرة الملك تمّ إحباطها على يد إلبعيزر الدمشقي⁽¹⁾ ܐܠܒܥܝܙܪ ܕܡܫܩܝ ܕܡܫܩ ܕܡܫܩ ܕܡܫܩ ܕܡܫܩ ܕܡܫܩ ، الذي أهداه له نمرود ، إذ علم بنوايا الملك ، فنبّه سيده قائلاً : «قُم فبارح هذا المكان على عَجَل ، لتنجو من الهلاك» . وأخبر أبرام بحكم الملك ، وبمغزاه كما عبّره له الحكماء .

لذلك خفّ أبرام إلى بيت نُوح وبقي مختبئاً فيه ، بينما جعل خُدّام الملك يفتشون بيته والديار المحيطة دون جدوى ، ومكث مدّة طالت ، حتى أن الناس نسوه بالكلّيّة .

وحدث خلال هذه المدّة من الاستتار أن تارح ، الذي كان ما يزال ذا حُظوة عند الملك ، جاء خفية لزيارة ابنه . فخاطبه ابنه قائلاً : «هلّمّ بنا نرحل إلى أرض غير هذه الأرض ، لنمض إلى أرض كنعان . تدري أن الملك يطلب حياتي ، ورغم أنه يضعك موضع التّكريم والرّفعة ، فإن المال والسّلطة لا يساويان شيئاً

(1) إلبعيزر الدمشقي هو الخادم الذي أهداه نمرود لأبرام عقب خروجه من النّار ، يذكره أبرام في نصّ التّوراه : «وقيم بيتي هو إلبعيزر الدمشقي» (تكوين - 15 : 2) .

بالقياس إلى الموت والأذية . هيّا فلترحل معي يا أبتاه ، ذرّك من هذا الباطل الذي تتبع ، لنعش بأمان ونعبد الله العظيم الذي خلقنا ، بسعادة وسلام» .

والْحَفَّ نُوحٌ وابنه شِيم إضافة إلى أبرام ، حتى أذعن تَارِحَ لهم ونزل عند رغبتهم . وهكذا خرج تَارِحَ وابنه أبرام ولُوط ابن ابنه ، وساراي كتنه ، وأهل بيته بأكملهم ، مغادرين «أور الكلدانيين» 676 675 674 مدينة بابل ، فرحلوا إلى أرض حاران 673 ، وأقاموا هناك⁽¹⁾ .

وكانت البلاد حولهم نضيرة ومُخصبة ، وثمة مجال رَحْب للرجال والماشية التي بحوزتهم . أما أهل حاران فقد أجّلّوهم وكرّموهم ، وباركهم الله ونظر إلى أهل بيتهم بعين الرضا .

وحدث بعد أن أقام أبرام في حاران ثلاث سنين أن الرَّبَّ تجلّى له وقال : «أنا الرَّبُّ إلهك الذي أنجّاك من نار الكلدانيين ، وخلّصك من قدرة أعدائك . فإن أصغيتَ جاداً إلى كلامي واتبعت أوامري مثابراً عليها ، لأكثرنّ نسلك بعدد نجوم السماء ، حتى يصير كل من أبغضك يخشى بأسك . وتحلّ عليك نعمتي وعلى أعمالك رضاي . فقم الآن وخذ ساراي امرأتك ومن يتبعك وكل ما تملك ، وامض إلى أرض كنعان 673 فاقم بها ، وأكون إلهك وأباركك»⁽²⁾ .

فرحل أبرام بأهل بيته إلى أرض كنعان مُطيعاً أمر الرَّبِّ ، وكان عمره لما بارح حاران خمساً وخمسين سنة . فلما ضرب أبرام خبائه في أرض كنعان بين سكّان البلد ، تجلّى الله له ثانية وقال : «هذي هي الأرض التي وهبتك إياها ملكاً لك ولنسلك . فتكون الأجيال الخارجة منك كثيرة كنجوم السماء ، والبلاد التي أطلعتك عليها تكون ميراثهم على الأرض» .

وصنع أبرام مذبحاً لله ، ودعاه باسم الرَّبِّ⁽³⁾ . وبقي مقيماً في كنعان ، ثم بعد أن مضت له هناك ثلاث سنين مات نُوحٌ بعمر تسع مئة وخمسين عاماً .

(1) قابل على نصّ التّوراه (تكوين - 11 : 31) .

(2) قابل على نصّ التّوراه (تكوين - 12 : 5-1) .

(3) قابل على نصّ التّوراه (تكوين - الأصحاح 13) .

بعد ذلك عاد أبرام إلى حاران ليزور أباه وأمه ، فبقي معهما في حاران خمس سنين . وفي خلال هذه المدة عكف على نشر عبادة الله الأزلي ، فأفلح في كسب الكثيرين من أهل حاران⁽¹⁾ عباداً لله الواحد الأحد .

وتجلى له الربّ في حاران قائلاً : «قم فامض إلى أرض كنعان ، أنت وامراتك وكلّ من وُلد في بيتك ، وكلّ النفوس التي اهدت بك في حاران . فلك أعطي الأرض من نهر مصر إلى حدّ النهر الكبير نهر الفرات» .

ففعل أبرام كما أمره الربّ ، ومضى معه لوط ابن أخيه من حاران إلى أرض كنعان . وكان للوط قطعان ماشية وفيرة ، ذلك أن الله قد بارك أعماله . فحدث أن رعاة لوط ورعاة أبرام اشتجروا ودبت بينهم البغضاء بخصوص حقوق الرعي وموارد الماء ، فاختصموا فيما بينهم . لذلك قال أبرام للوط : «إنك لمخطئ ، وبسبب رعاتك صيرتني مكروهاً في أعين جيراننا . رعاتك يوردون قطعانهم في أراض هي ملك للغير ، وعلي أنا تقع الملامة بالنتيجة . ما أنا إلا غريب نازل بهذه الديار كما تدري ، فعليك أن تأمر خدمك بالكفّ عما هم فاعلون» .

لكن برغم تحذيرات أبرام ، ظلّ رعاة لوط يختصمون مع رعاة أبرام ، ويخرقون مراعي جيرانهم . ثم في نهاية الأمر تكلم أبرام بجديّة قائلاً : «لا تكن خصومة بيني وبينك فنحن أقربون ، غير أننا نفترق الآن كلٌّ إلى سبيله . فلتمض حيث تشاء ، اختر مكان إقامتك أتى تحبّ ، أنت وماشيتك وكلّ ما تملك ، ولكن بعد الآن فلا تلازمني . وإما يصيبنك خطرٌ فإني مُسارعٌ إلى نجدتك ، وأكون معك في الأمور كلّها ، ولكن لتعتزلنّ عني ، إليك رجائي» .

فرفع لوط طرفه ورأى البقعة المواجهة لنهر الأردن ١٦٦٦ ، فأبصر سهولاً فضيرة ومزارع خصبة ودياراً تُبهج المرء ، مراعيها فسيحة ومياها غزيرة ، تسرّ الناظرين . فارتضى لوط بالديار ، وارتحل إليها ونزل إلى سدوم ٥٦٥ ، مُعتزلاً بسلام عن أبرام ، ومعه ماشيته وجميع ما يملك . أما أبرام فقد بقي وأقام في غياض ممرا ٢٦٦٦ بالقرب من حبرون ١٦٦٦ .

(1) ينسبها مؤرّخو السّير إلى حرّان من حواضر الرّافدين القديمة ، في جنوب تركيا اليوم .

«وكان أهل سدوم أشراً خاطئين أمام الربّ جداً»⁽¹⁾.

وفي هذه الأيام ، كانت سدوم ومعها أربع مدُن أخرى يسكنها ناسٌ ذوو أفعال شريرة ، تثير سخط الله العليّ القدير ونقمته . وفي الوادي غرسوا بستاناً جميلاً يبلغ امتداده عدّة مراحل ، وكان مُزداناً بالفواكه والأزهار ، وكل ما يُمتع النظر ويُسكر الحواس . فكان الناس يختلفون إليه أربع مرّات في السنّة بالصّخب والعزف والرّقص ، ويقتربون أعمال الفسق وعبادة الأوثان ، مُتمادين في ذلك إلى أبعد الغايات . ولم يكُ ثمة من ينبس بكلمة ترهيب أو تقييد .

وكانوا في حياتهم اليوميّة فُساءة القلوب وغدارين في آن معاً ، يظلمون الغرباء ويستغلّون كل من توقعه المقادير في حباتهم . فإن قدم تاجر جواًل مدينتهم ، وضعوا أيديهم على متاعه إما بالقوّة أو بالحيلة ، فإن احتج أو اشتكى هزؤوا به أو طردوه .

فحدث مرّة أن رجلاً من عيلام كان مسافراً إلى مكان يلي سدوم ، فبلغ مدينتهم هذه عند مغيب الشمس . وكان بحوزته جحش وعليه سرج ثمين علّق عليه بضائع نادرة وغالية الثمن . فلمّا لم يعثر له على مكان يأوي إليه ويأتمن عليه دابّته ، نوى أن يمضي ليلته في أزقة سدوم ، ثم يتابع رحلته في الصّباح . فصادف أن أحد سكّان سدوم - ويدعى حيدود 7177 - أبصر بهذا الغريب ، فدنا منه بخبث ومراوغة يسأله : «من أين الرجل ؟ وإلى أين تقصد ؟» . ردّ الغريب : «قدمتُ من حبرون ، ومقصدي ما يلي مدينتكم هذه ، لكن ها هي الشمس قد أفلت وليس أمامي مكان الجأ إليه ، فها أنا ماكثُ هنا في الأزقة . معي خبز وماء لنفسي ، وتبنٌ وعُلفٌ لراحلتي ، ولذا فلستُ مضطراً لأحد» .

أجاب حيدود : «لا ، هذا لا يجوز ، تعال فيت عندي ، ولن أكلفك شيئاً بل أقوم أيضاً بأود دابّتك» . واصطحب حيدود الغريب إلى داره ، فنزع السرج الثمين من على ظهر الجحش والأمتعة التي كانت عليه ، وأودعها في خزائنه ، ثم طرح للجحش عُلفاً وللغريب لحماً وشراباً ، فأكل من زاده وبات عنده .

(1) تضمين حرفي من متن التوراه (تكوين - 13 : 13) .

في الصباح قام الغريب باكراً يقصد متابعة رحلته ، لكن حيدود قال له :
«تناول فطورك أولاً ، ثم فلتتابع طريقك» . وبعد أن أكل الرجل قام ليمضي في
طريقه ، فتمنّع عليه حيدود قائلاً : «قد مضى من النهار جلّه ، فلتبقّ عندي هذا
اليوم أيضاً ثم ترحل» .

فبقي الغريب في بيت حيدود حتى صباح اليوم التالي ، ثم اعتذر عن دعوة
حيدود الملحة للبقاء يوماً آخر ، وتجهّز للرحيل . فقالت امرأة حيدود : «مكث
الرجل يومين ولم يدفع شيئاً» . فأجابها حيدود : «الزمني الصّمت يا امرأة» . ثم
جلب للغريب جحشه ، وودّعه قائلاً : «صحبتك السّلامة» .

قال الغريب : «مهلاً ، سرجي وبساطي الملوّن المحزّم بحبال ، وأمتعتي ،
أين هي كلّها؟» . قال حيدود متعجباً : «ماذا؟» . فتابع الغريب قائلاً : «قد
سلّمْتُك بساطاً جميلاً محزّماً بحبال ، وأنت خبّأتَه في دارك» .

قال حيدود مُبهتجاً : «آه ، نعم ، الآن أعبرُ لك حلّمك هذا . فرؤياك
حبالاً تدلّ على أن عمرك طويل كالحبال عندما تُمدّ من أولها لآخرها ، وأما
رؤياك بساطاً ملوّناً فتعبيره أنك في يوم ما ستمتلك بستاناً مليئاً بالزهور والثمار
اليانعة» . فأجاب الغريب : «لا يارباّه ، أنا لم أكن أحلم . . قد سلّمتُ إليك
بساطاً ملوّناً محزّماً بحبال ، ولقد خبّأتَ ذلك كلّهُ في دارك» .

فقال حيدود : «ها قد عبّرتُ لك منامك وأطلعتك على فحواه ، فلا داعي
لترداد ذلك . النَّاس عادةً يدفعون لي لتعبير مناماتهم أربع قطع فضيَّة ، أما أنت
فسأكتفي منك بثلاثة فحسب» .

استبدّ الحنق بالغريب من هذا التصرف الشائن ، وادّعى على حيدود أمام
محكمة سدّوم بسرقة أمتعتِه . فلمّا روى كلّ من الرجلين قصّته ، قال القاضي :
«صدّق حيدود ، فهو مُعبّر منامات وذلك عنه معروف» . فقال حيدود للغريب :
«وبما أنّك قد ادّعتِ عليّ كاذباً ، فعليك أيضاً أن تدفع لي كامل حقّي ، أربعة
قطع فضيَّة ، فضلاً عن ثمن أربع وجبات أكلتها عندي» . أجاب الرجل : «أدفع
قيمة طعامك بكل سرور ، إن أنت أرجعت إليّ سرجي وأمتعتي» .

ومضى الرجلان يتبادلان الشتائم والسباب ، فطردا من المحكمة ، وانضمّ الرجال في الشوارع إلى طرف حيدود ، فتشاجرا مع الغريب وطرده من المدينة ، بعد أن سلبوه كل ما يملك .

وكان الناس في سدوم إن دخل مدينتهم فقير يعطونه صدقة يُقال إنهم أهل برّ وإحسان ، ولكنهم أبرموا فيما بينهم اتفاقاً بالآ يعطيه أو يبيعه أحد زادا ، أو أن يُسمح له بمغادرة المدينة . فكان الرجل بالنتيجة يموت جوعاً ، فيستردّ الناس المال الذي أعطوه إيّاه . لا بل يسلبون ما يستر بدنه من أسمال بالية ، ويدفنونه عارياً في البرية .

وفي إحدى المرّات ، أرسلت ساراي خادمها إليعيزر إلى سدوم للسؤال عن أحوال لوط وأهل بيته . فلما دخل المدينة ، أبصر إليعيزر رجلاً من سدوم يتشاجر مع غريب بعد أن احتال عليه ، فإذا بالغريب يخفّ إلى إليعيزر ويستجير به طالباً العون . قال إليعيزر للسدومي : «ماذا أنت فاعل بهذا الرجل الفقير ؟ حقّ لك أن تخجل بتصرفك هكذا مع غريب في وسط مدينتك !» .

فأجاب السدومي : «أخوك هو ؟ ما شأنك أنت بخصوصتنا؟» ، وتناول حجراً فشدّخ به هامة إليعيزر ، فراح دمه يشخب على الأرض . ولما أبصر الرجل الدّم أمسك بتلابيب إليعيزر صائحاً : «ادفع لي أجر القصد ، إذ خلصتُك من هذا الدّم الفاسد ، هياً ادفع لي بالعجل فهكذا تقضي شريعتنا» .

فقال إليعيزر مندهشاً : «عجباً ! أتجرحني وتطلب عليها أجراً؟» . فلما أحجم إليعيزر عن الدّفع ، أخذه السدومي إلى المحكمة ، وراح هناك يكرّر مطالبته بالأجر . قال القاضي مخاطباً إليعيزر : «حكّمنا عليك بأن تدفع للرجل أجره ، فلقد أسال دمك ، وهكذا تنصّ شريعتنا» .

فما كان من إليعيزر إلا أن دفع المال المترتب ، ثم رفع الحجر وضرب به القاضي بقوة ، فشخب دمه نازفاً بشدة . وقال إليعيزر : «هاك إذا ! وبحسب شريعتكم فلتدفعوا أجري لهذا الرجل ، ومالكم لا لزوم له عندي» . وخرج من المحكمة .

وفي مرة أخرى ، دخل سدوم رجلٌ فقير ، ولما أحجم الجميع عن إعطائه ما يأكل ، فقد تضور جوعاً حتى كاد يتلف ، وصادف أن مرّت به ابنة لوط . وراحت تمدّه بالقوت عدّة أيام ، فتعطيه خبزاً كلما ذهبت تستقي المال لأبيها . فلما رأى أهل المدينة الرجل ما يزال على قيد الحياة ، تعجّبوا للغاية كيف أمكنه البقاء بغير زاد ، وبادر ثلاثة منهم لمراقبة حركات الرجل وسكّنته . فلما أبصروا ابنة لوط تعطيه طعاماً ، أمسكوا بها واقتادوها إلى القضاة الذين حكموا عليها بالموت حرقاً ، وتمّ تنفيذ العقوبة بها .

وثمة بنتٌ أخرى قدّمت طعاماً لغريب ، فحكم عليها بأن تُطلى بالعسل جسدها ، وعرضت للسهل النحل حتى لاقت حتفها .

لهذه الأفعال الرديّة ، أصاب سدوم وأخواتها المدن الأربع الهلاك بنارٍ محرقة من السماء ، ولم ينجُ من أهلها خلا لوط وعائلته ، لمحبة الله عبده الصالح أبرام .

* * *

الفصل الثالث

من مولد يصحاق إلى وقعة شيكيم⁽¹⁾

«وافقد الله ساره ، فجلت وولدت لأبرهَام ابناً في شيخوخته»⁽²⁾ .

وعندما وُلد يصحاق⁽³⁾ «צחק صنع أبرهَام»⁽⁴⁾ تكريماً لأجله مادبة عظيمة ، دعى إليها كبار الشيوخ كافةً وذوي النَّسَب والأعيان في ديرته ، من أمثال أَيْمَلِك אַיְמֶלֶךְ ومُقَدَّمي جيشه ، وتارح أبي أبراهام ، وناحور أخاه ، اللذين سافرا من حاران لحضور الحفل ، وكذلك كان شِيم مع ابنه غير من بين الحضور . وهنؤه جميعاً من صميم قلوبهم ، فكان قلب أبراهام مُفعماً بالسُرور .

وكان يشمَعِيل⁽⁵⁾ «שמעיל» ، ابن هاجار הַגָּר وأبرهَام ، مُغرماً بالصَّيد ورياضات البرية ، فكان يتكَب قوسه في كل وقت . وفي إحدى المرات عندما كان عمر يصحاق حوالي خمس سنوات ، صَوَّب يشمَعِيل سهمه نحو الصَّبي صائحاً : «الآن أرميك» . فلما رأت ساره هذا الفعل خشيت على حياة ابنها ، ووقع في قلبها حقدٌ على ابن خادمتها ، فتكررت منها الشكوى مراراً لأبرهَام على أفعال الفتى ، وألحت عليه أن يُبعد كلاً من هاجار وابنها من قبائه ، وبارسالهما ليعيشا في مكان آخر .

(1) ينسب مفسرو التوراه شيكيم إلى مدينة نابلس المعروفة ، وهكذا يُسمِّيها اليهود اليوم .

(2) تضمين شبه حرفي من التوراه ، تكوين - 21 : 1-2 .

(3) يُرسم الاسم : (ي ص ح ق) ، ويُلفظ بالإشكنازية : «يشخاق» ، لتعذر نُطق حرف صَدِي (لا) لدى اليهود الغربيين . ولم نرسم الاسم هنا إسحاق على ما هو مألوف في العربية ، لأن هذا يقلب مبنى الاسم تماماً ، ولا ننسب أن ثمة قيمة عددية تقابل الأسماء حسب أبجدية (أبجد هوز . .) ، فإن قولنا الأسماء تغيرت بالكلية .

(4) في التوراه (سفر التكوين 17 : 5 و 15) أن الله أمر أبرام أن يغيّر اسمه إلى أبرهَام ، واسم امرأته ساراي إلى ساره .

(5) بالعربية إسماعيل ، حسب قاعدة إقلاب السين والشين . ومعنى الاسم : الله سَمِعَ .

ولمدة من الوقت ، عاش يشمعييل مع أمه في بركة فاران⁽¹⁾ ١٦٨٩ ، مستمتعاً على الدوام بهوايته في الصيد . ثم ارتحلا إلى مصر ، حيث اتخذ يشمعييل له امرأة وولد له هناك أربعة بنين وابنة . لكنه سرعان ما أب إلى موطنه الأثير في البرية ، فأقام ثلاثة أقباء ، لنفسه ولجماعته ولأهل بيته ، إذ باركه الله فكان صاحب ماشية وقطعان كثيرة .

وحدث بعد هذا بأعوام ، أن أبرهام تأقت نفسه إلى هوى مكنون يعاوده دوماً ، فعزم على زيارة ابنه ، وكان أن أعلم ساراه بعزمه وانطلق بمفرده على متن بعير . وصل مكان إقامة يشمعييل قرابة وقت الظهر ، فألقى ابنه غائباً عن بيته في الصيد . ولاقى أبرهام معاملة رديئة من طرف امرأة يشمعييل التي لم تعرف من يكون ، وآبت إعطاه خبزاً وماءً كما طلب . فلهذا قال لها : «عندما يعود رجلك فلتقولي له ، من بعد أن تصفي محيائي ، إن رجلاً عجوزاً من بلاد الفلسطينيين أتى بابك في غيابك ، وقال لي إنه عندما يعود رجلك فقول لي أن ينزع المسمار الذي دقه في قبائه ويبدله بواحد خيراً منه» . وبعد أن تفوه بهذا الكلام ، انطلق أبرهام قافلاً إلى موطنه .

فلما عاد يشمعييل إلى بيته روت له امرأته ما جرى ، ووصفت له هيئة الرجل وكررت كلماته ، فأدرك يشمعييل أن أباه زاره وعمل بازدراء . فكان أن طلق يشمعييل امرأته ، وتزوج بنتاً من أرض كنعان .

بعد حوالي ثلاث سنوات ، زار أبرهام ثانية قباء ابنه ، فكان ابنه أيضاً غائباً عن البيت ، غير أن امرأته كانت لطيفة ومضيافة ، فرجت الغريب الذي لم تعرفه بالرجل عن بعيره ، وقدمت له خبزاً ولحماً . ولهذا قال لها : «عندما يعود رجلك فلتصفي له هيئتي وقولي له : أتاك هذا العجوز من أرض الفلسطينيين ، وترك لك هذه الرسالة : المسمار الذي دقته في قبائك جيد وقيم ، فانظر أن يلقي اعتباراً لائقاً» . وبارك أبرهام يشمعييل وأهل بيته ، عائداً إلى موطنه .

(1) ورد ذكر بركة فاران (أو پاران) في سفر التكوين - 14 : 6 ، 21 : 21 (وهنا ذكر إقامة يشمعييل وأمّه هناك) . وفي أطلس أوكسفورد للكتاب المقدس أنها بأواسط سيناء جنوبي بلاد كنعان ، وهذا التوصيف غير جازم بعد . راجع : Oxford Bible Atlas , p. 59 .

فلما عاد يشمعليل ، سره جداً أن يسمع رسالة أبيه ، وشكر الله على ما وهبه من امرأة صالحة ذات شأن ، وبعد مدة قام وأهل بيته لزيارة أبرهَام ، فمكث عنده في أرض الفلسطينيين عدة أيام .

بعد أن أقام أبرهَام على هذا الوضع ستاً وعشرين سنة ، انتقل بأهل بيته كلهم وممتلكاته إلى بئر شيبَع 786 787 قرب حبرون . ففرس هناك غيضة وبنى دوراً واسعة ، أبقاها على الدوام مفتوحة في وجه الفقراء والمحتاجين ، فكان الجائعون يدخلون كيف شاؤوا ويتناولون الطعام على هواهم ، وكان المحتاجون ينالون بكل كرم كل ما يلزمهم لمعيشتهم . ولما كان أصحاب الشأن يقصدون أبرهَام ليُطروا أريحته ويُسئوا عليه كان يقول : «إنما الشكر والحمد لله ، قيوم السماء الأزلي خالق كل شيء ومن يده ملكوت كل شيء ، وهو وحده الطاعم الكاسي» .

فكانت عقيدة أبرهَام التي انتهجها حياته كلها تقوم على إطعام الجياع ، وإكساء ذوي الفاقة ، والرفق بالمساكين ، والعدل بين الناس أجمعين ، وحمد الله الأزلي على آلائه ونعمائه⁽¹⁾ .

* * *

وأنت كلمة الربّ إلى أبرهَام ، قائلاً : «الآن خذ ابنك الذي تحبّه ، وقدمه قرباناً على محرقة على أحد الجبال الذي أريك»⁽²⁾ .

فعندما صدر الأمر إلى أبرهَام ، كان همه الأكبر - من جملة فيض من الآلام والوساوس التي ألمت بتفكيره - هو ضرورة إبعاد يصحاق عن أمه . فلم يقدر أن يطلعها على عزمه ، وكان الصبي معها دوماً . أخيراً ، توجه إلى قباء ساره ، فجلس إليها وقال : «ابنك يشبّ وسيصير رجلاً ، ولم يتلق بعد أصول العبادة السماوية . فغداً أخذه معي ليتعلم سبيل الربّ عند شيم وعيبر» .

(1) برغم هذا كله ، لم يتلق أبرهَام نصّاً موجيّه من السماء ، حسب التوراه ، بل كان أول نص سماوي هو ما أنزل على موسى النبي ﷺ كما سيمر أدناه .

(2) قابل على التوراه : تكوين - 22 : 2 .

فأجابت ساراه : «فلتمض يا سيدي ، ولتفعل كما قلت ، لكن لا تأخذنَّ الصَّبِيَّ مسافة بعيدة ، ولا تُقصِيَنَّه عن ناظريّ مدّة طويلة» . فقال أبرهَام : «فلتدعي الله من أجل سعادة ابنك ، وسعادتي ، وسعادتك أنت» .

في خلال تلكم الليلة استبدَّ القلق بساراه بخصوص فراقها القريب عن يصحاق ، فعجزت عن النَّوم ، ولما بان لناظرها في باكر الصَّبَاح زوجها والصبيَّان اللذان برفقته ، متأهِّبين للانطلاق في رحلتهم ، ضمَّت يصحاق إلى حضنها ، وبكت بمرارة ، وتنهدت قائلة : «أواه يا بُنيّ ، يا بُنيّ ! كيفك يسعني أن أدعك تنأى عني ، يا وحيدي ، ويا مُنيّتي وأُمليّ؟» . ثم التفتت نحو أبرهَام وقالت : «فلتحرص على الصبيّ كل الحرص ، فهو صغير وغَضَّ العود ، لا تدَّعه يمشي في الحرّ ، ولا تدعه يُضنيه السَّفر فيهزل جسمه» .

وألبست يصحاق أفخر ما لديه من ثياب ، وشيَّعته مع إمائها ، حتى فارقهنَّ أبرهَام وعُدن إلى بيوتهنَّ .

تابع أبرهَام ويصحاق رحلتها مع الفتين الاثنتين ، وهما يشمَّعيل ابن أبرهَام ، وإلعيِزِر قيَم بيته . ففي أثناء الطريق كلَّم يشمَّعيل إلعيزِر قائلاً : «أبي ينوي تقديم ابنه يصحاق قُرباناً للمحرقة ، فأكون أنا وارثه ، أما أنا ابنه البكر؟» . أجاب إلعيزِر : «كلا ، فأبوك قد طردك لثلاث ترث ما يملك . بل إلي أنا ، خادمه الأمين ، تؤول ثروته أجمع» .

ولما تقدّموا في مسيرهم خاطب يصحاق أباه قائلاً : «أي ابتاه ، ها هي ذي النَّار والحطب ، فأين هو حَمَل الأضحية؟» . فأجاب أبرهَام : «الحقّ أن إلهنا اختارك أنت يا بُنيّ ، كمخلوق بلا خطيئة ، قُربان محرقة يليق بعليائه بدلاً من الحَمَل» . فقال يصحاق عندها : «فها أنا إذا أركع مُطيعاً بالحمد والشكر رغبةً الله الحيّ» .

قال أبرهَام : «أي بُنيّ ، هل ثمة من معصية تخفيها في قلبك ، أو أي نَزَغٍ سوء في فكرك ؟ إن كان من ذلك شيء فلتبَّده أمامي يا بُنيّ دونما حَرَج ، ولا تُخف عني شيئاً في هذه السَّاعة العظيمة» .

فأجاب يصحاق : «وحياة الله يا أبتى ، إن قلبي لم يعرف سوءاً ، ولم يبدر مني ما يستوجب الندم . ومُباركُ هو الربُّ الذي اصطفاني اليوم» .

كان هذا الجواب من الصبي مُريحاً جداً لقلب أبيه ، فتابعاً طريقهما في صمت ، إلى أن أفضيا إلى البقعة التي اختارها الله . فأقام أبرهَام مذبحاً للربِّ ، وكان ابنه يناوله الحجارة ويعاونه في عمله . فإن من يؤمن بالله يتقوى قلبه على الدوام ، ورغم أن العيون لتدمع فإن القلب لراسخ مرتبط بالله .

فلما تمت إقامة المذبح أزعجى أبرهَام الحطب عليه مرتباً ، ثم أوثق ابنه يصحاق على الحطب . فخاطب يصحاق أباه قائلاً : «يا أبتاه ، فلتوثقني بإحكام لئلا أفسد القربان بحركة النزع . وكُن ثابت القلب يا أبتى ، ولتشهد السكّين . وأخبر أُمي أن فرحها قد راح ، فالابن الذي ولدته في سن التسعين قد هلك بلهب النار . وبعدها يفنى جسدي فخذ معك من رَمادي المتبقي ، وقُل لساراه : هذا هو يصحاقك ، الذي قُدّم قرباناً لله» .

فلما سمع أبرهَام هذا الكلام بكى بمرارة ، لكن يصحاق تابع بنبرة ثابتة : «هيا يا أبتى ، فلتنفذ مشيئة الربِّ» . ومد رقبته للسكّين التي في يده⁽¹⁾ .

* * *

«فعمد أبرهَام إلى الكبش ، فأخذه وأصعده محرقةً بدل ابنه»⁽²⁾ .

ورش أبرهَام دم الكبش على المذبح ، قائلاً : «ليكن هذا الدم كدم ابني مُقدماً قرباناً أمام الربِّ» . وفي خلال تقديم هذا القربان الربّاني استمرّ أبرهَام يصلي قائلاً : «ليكن هذا كدم ابني مُقدماً قرباناً أمام الربِّ» .

وفيما كان أبرهَام ويصحاق بعيدين في هذه المهمة ، جاء رجلٌ عجوز إلى ساراه ، قُرب خبائها ، وقال لها : «أتدرين أن أبرهَام قد قدّم يصحاقك قرباناً أمام الربِّ ؟ نعم ، ورُغم مُقاومته وصياحه ، قُدّم ابْنك أضحيةً للذبيح» .

(1) التّمة معروفة . وفي المرويات الإسلامية اختلاف : أكان الذبيح إسحاق أم إسماعيل ؟

(2) تضمين حرفي من التوراه ، تكوين - 22 : 13 .

فصرخت ساراه صرخة عظيمة من أعماق قلبها ، وارتمت على الأرض ونشجت بمرارة : «واهاً يا بُني ، ليتني أموتُ فذاك ! يا مَنْ ربيُّك وأطعمتُك ، ويا مَنْ كانت له حياتي ومحبتني كلّها . فالآن يُمسي زُهويّ وفرحتني نُواحاً ، إذ استوفت النَّار بهجتي . فلتسلُّ يا قلبي ! فحياة النَّاس أجمعين يُمسكها الله بيده . وليتبارك مَنْ يتبع وصاياك يا ربّ ، لأنك بارٌّ وكلامك صدق . لهذا يا ربّ ، ولو فاضت عيناى بالدمع السّخين ، فإن قلبي مُفعم بالرضاء !» .

ثم قامت ساراه ، وسارت من بيثّر شيبَع⁽¹⁾ إلى حبرون ، وراحت تستقصي على الطريق عن زوجها وابنها ، لكنها لم تتمكن من معرفة شيء عنهما . فلمّا رجعت إلى مضاربيها ، قابلت العجوز عينه الذي كان كلّهما من قبل ، فقال لها : «الحقّ أنّي كذبتُك القول ، فابنُك ما زال حيّاً» .

فكان قلب ساراه أقوى في تحمل الحزن منه في تلقّي الفرح ، ممّا أدّى بهذه الأبناء والصّدّامات في قلبها أن لاقت حتفها ، وهكذا ماتت ولحقت بألها . فلمّا عاد أبرهام ويصحاق ووجدوا ساراه جسداً هامداً ، صاحوا بنواح أليم ، وراح خدمهما معهما يندبون الفقيدة بأسى .

* * *

غدا يصحاق في سن التاسعة والخمسين من عمره ، وكانت امرأته ريقاه⁽²⁾ **בַּקָּה** عاقراً ، فدعا يصحاق الرّبّ أن يفتقد امرأته كما كان افتقد ساراه أمّه ، قائلاً : «يا ربّي ، ربّ السّموات والأرض ، ويا مالئ الثّقلين بخيرك ورحمتك ! قد جثت بأبي إلى هذا الموضع من بيت أبيه ومن صلب آله ، واعدأ إياه بإكثار نسله بعدد نجوم السّماء ، وبأن تهب لنسله هذه البلاد ميراثاً ومُلْكاً . فهلاً أنلتنا يا الله وعدك الذي وعدت ؟ إليك يا الله نرنو بآمالنا ونتضرّع أن تهبنا ذُرّيّة ونسلاً كما وعدتنا ! يا إلهي ، إليك أرنو بأملّي !» .

(1) بالعربية : بثر السّبع ، وفي نصّ التّوراه (تكوين - 21 : 31) مغزى هذه التّسمية .
(2) يُترجم اسمها في التّوراه المعرّبة عن التّرجمة السّبعينيّة : رفقة ، وهذا غلط لغوي . وفي سفر التكوين (25 : 20) أنها كانت بنت بتوئيل الآرامي من فدّان آرام .

واستمع الله إلى دُعاء يصحاق ، فولدت له امرأته توأمين ذكوراً ، فسَمّت أحدهما وهو الأول «عيسو» لال٧٧ ، والثاني «يعقوب» لال٧٨^(١) . وكان عيسو كلفاً بالصيد ورياضات البرّ ، ويعقوب مُقيماً بالخيام يتلقّى من جدّه أبرهَام سُبُل الرّبّ وتعاليمه .

فلَمّا كان الفَتَيَان بعمر خمسة عشر عاماً ، مات أبرهَام بعمر مئة وواحد وسبعين عاماً . ولَمَّا دري بموته سكَان أرض كنعان ، أقبلوا بملوك ديرتهم وأمرائهم مُسارعين لتكريم جُثمانه ، وكذلك أقبل أنسابوهم المقيمون في حاران جميعاً ، وأيضاً بنو إمامهم ، لحضور مراسم جنازته . فدفنه يصحاق ويشمّعيل في مغارة مكفّلاه ، وكلّ من كان على صلة به أقام عليه الحداد عاماً كاملاً .

وكان أبرهَام رجلاً عزّ وجود أمثاله تحت عين الشمس . فمن غَضَارَة عُمره عبَدَ خالقه وسار على الدّرب القويم أمامه ، ومنذ مولده وحتى ساعة موته كان إلهه دوماً معه . وكان يُحدّث بنعماء الله كلّ من قابله ، وأنشأ لأبناء السبيل من العابرين روضةً وفتح أبوابه بكلّ كَرَم للمحتاج والمنقطع وابن السبيل . ومن أجل أبرهَام نظر الرّبّ بعين الرّفق إلى أهل الأرض ، وعقب موته بارك الرّبّ يصحاق ابنه ورَفَعَ شأنه إلى أبعد حدّ .

وازداد ابنا يصحاق في القوّة والسّنّ . فكان عيسو رجلاً خبيث الطويّة ، تعتربه الأهواء ، ومُغرماً بالصيّد والبرّ . أما يعقوب الذي كان راعياً ، فكان امرءاً ذكياً ودمت الأخلاق ، ماضياً في طريق التّقى الذي بيّنه له أبرهَام .

وحدث أن عيسو راح يصطاد في البريّة يوماً ما ، عندما صادف خروج نمرود للشأن ذاته . ولَمَّا كانا كلاهما صيادين فائقين فقد دبّت منافسة بليغة بين الاثنين ، أعقبها غيرةٌ مُميّته . وصادف أن أبصر عيسو نمرود^(٢) لَمَّا كان أتباعه كلّهم - خلا اثنين - بعيدين عنه . فكمن عيسو ، ولَمَّا مرّ نمرود حيث كان مكمنه أوتر قوسه وسدّد سهمه فأصمى نمرود في سُوداء قلبه .

(1) قابل على التّوراه : تكوين - 25 : 26 .

(2) ذكرنا أننا عددنا الأسماء العبريّة جميعها ممنوعة من الصّرف ، فليُعلم .

ثم هرع عيسو من مكمته ، واشتبك في عراق مُميت مع تابعي نمرود ، فصرعهما وأرداهما قتلين كليهما . وجرّد من على منكبي نمرود الرداء العجيب المذكور سلفاً ، والذي كان صنعه الله لأدام . ثم خفّ عائداً إلى البيت ، فأدرك قباء أبيه وقد أعيا ، وكان بغاية الجوع والتعب والإنهاك . فقال عيسو ليعقوب أخيه⁽¹⁾ : «أطعمني من هذا الطبخ الأحمر ، فإني قد أعيتُّ» . فقال يعقوب : «بِعني اليوم بِكريتك» . ففكّر عيسو في نفسه : «لا ريب أنني الآن مُطالبٌ بدم نمرود ومقتولٌ به» ، فقال : «إنما أنا صائرٌ إلى الموت ، فما لي والبكرية ؟» .

وهكذا ابتاع يعقوب من عيسو حقّ بكرية المواليد בכוריה ، وكذلك قبراً لنفسه في مغارة مكفّلاه⁽²⁾ . فأعطى يعقوب لعيسو خُبزاً وطبخاً من العدس ، فأكل وشرب ومضى لشأنه . فبالمال كان ابتاع يعقوب هذين الحقيّن ، وبعد أن تمّ البيع أعطى أخاه ما طلب .

أما جثة نمرود فعُثر عليها وحملت إلى بابل ودُفنت فيها . وعاش نمرود مئتين وخمسة عشر عاماً ، وكان مقتله على يد واحد من نسل أبرهّام ، تماماً كما بانّ له في رؤياه .

* * *

ولما نال يعقوب البركة التي كانت مقصودة لعيسو⁽³⁾ ، كان يصحاق شيخاً طاعناً في السنّ ، فقال عيسو : «قَرُبْ يوم موت أبي ، وإني لأخذُ بشأري من يعقوب جزاءً بما فعله في حقي» . فأخبرت ريقاه بهذه النيّة ، فاستدعت يعقوب ودفعته للهرب إلى حاران ، عند أخيها لابان ، ليقيم هناك حتى يزول غيظ أخيه⁽⁴⁾ .

-
- (1) قابل على التوراه : تكوين - 25 : 30 . لكن رواية قتل عيسو لنمرود ليست فيها ، ولا يفهم مغزى كلامه عن الموت إلا بهذه الحواشي التفسيرية هنا .
(2) راجع ما تقدّم أعلاه في الفصل الأول ، وكذلك سفر الخروج - 49 : 29-30 .
(3) قابل على التوراه : تكوين ، الأصحاح 27 . وذلك تمّ بترتيب من ريقاه التي كانت تؤثر يعقوب عليّ عيسو لزواج هذا الأخير من بنات حتّ ، ولم ينتبه يصحاق لشح بصره .
(4) قابل على التوراه : تكوين - 27 : 41 .

فدعا يصحاق يعقوب وباركه وأوصاه ، فقال له ⁽¹⁾ : « لا تأخذ امرأة من بنات كنعان ، فإن أبي أبرهام كذلك قال ، من كلمة الربّ ، الكلمة التي وعد بها نسلك هذه الأرض إن أطعنا الربّ وأتبعنا أوامره بإخلاص . قم فامض إلى حاران إلى بيت بتوئيل أبي أمك ، واحرص على ألا تنسى الربّ إلهك وطرقه جميعها . لا تلتفت يمينا أو يسارا إلى أباطيل الناس الذين تمضي إليهم . والله القدير يحلّ عليك نعمة في أعين أهل البلد ، وتأخذ لنفسك ثمّ زوجة على ما يروق لك ، وليهب الله بركة أبرهام لك ، ويُنميك ويكثرك وتكون جمهور شعوب في الأرض ، ويردّك إلى هذه الأرض ولك بنون وعزّ وغبى » .

فأطاع يعقوب أباه ، ومضى إلى أرض بني المشرق ארצה בני־קדם (بلاد بين النهرين נהרין) . وكان في السابعة والسبعين من عمره لما غادر بيثرب شبيح . ولما رحل يعقوب من بيت أبيه دعا عيسو ابنه إليفاز אֵלִיפָאז وقال له خفيةً : « امض فاتبع يعقوب وليكن قوسك بيدك ، فاكمن له واقتله بين الجبال ، واغنم كل ما معه من مال ونفائس ، ثم عدّ إلي » .

وكان إليفاز عندها في الثالثة عشرة من عمره ، غير أنه كان لا يُجارى في سرعة المشي ، ويُجيد الرمي عن القوس . فأطاع أباه ، وأخذ معه بعضاً من الرجال وتبع يعقوب فأدركه عند تخوم أرض كنعان ⁽²⁾ . ولما رأى يعقوب إليفاز أتياً خلفه توقف وانتظر مجيئه ، يحسب أن ابن أخيه يحمل رسالة من دياره . لكن إليفاز لما اقترب امتشق سيفه ، فسأله يعقوب عن سبب لحاقه به ، فأجاب الفتى : « كذا وكذا أمرني أبي ، وأنا لا أجرؤ على عصيان أوامره » .

فلما أدرك يعقوب نية عيسو ، ورأى على الفتى علائم العزم على تنفيذ ما كُلف به ، بادره ورجاله بالقول : « خذوا كل ما معي ، كل ما أعطانيه أبي وأمي في يدي ، ولتبقوا على حياتي . وتكون هذا المكرمة عمل خير لكم » ⁽³⁾ .

(1) قابل على التوراه : تكوين - 28 : 1-4 .

(2) أرض كنعان المذكورة مراراً في التوراه والتلمود هي الجزء الجنوبي من فلسطين إلى حدّ صحراء النقب وصحراء سيناء . هذا علماً أن الكنعانيين أثرياً قطنوا سوريا أيضاً .

(3) رواية محاولة قتل يعقوب هذه لا ترد في نص التوراه ، بل هي إضافة تفسيرية في التلمود .

وأعطى الربّ في أعينهم حُطوة ليعقوب ، فتركوه يتابع رحلته بأمان . وأما الذهب والفضة وكل متاع نفيس كان أخذه معه من بيت أبيه ، استولى عليه إيفاز ورفاقه وحملوه إلى عيسو . فكان عيسو ممتعضاً بشدة لأنهم أذعنوا لرجائه ، وضمّ الكنز الذي استولوا عليه إلى خزائنه .

وتابع يعقوب رحلته إلى حاران . فلماً وصل جبل مورياه מוריה נزل ونام ليلته . وتراءى له الربّ وقال : «أنا الربّ إله أبرهام وإله يصحاق أبيك . وهذه الأرض التي أنت نائمٌ عليها أُعطيها أنا لنسلك ، فلا تخف ها أنا معك أحفظك حيثما أتجهت ، وأكثر نسلك بعدد نجوم السماء . وأبدد شمل أعدائك أمامك ، فيحاربونك ولا يظفرون بك . وبالعزّ والثروة أردك إلى أرض أبيك»⁽¹⁾ .

فانتبه يعقوب من نومه مسروراً بوقع الرؤيا الجميلة والمطمئنة التي تبارك بها في نومه . وسمّى ذلك المكان «بيت إيل» בית אל [بيت الله] .

ولما بلغ يعقوب حاران أخبر خاله لابان لابان كيف سلب منه إيفاز بن عيسو كل ما يملك ، وطفق يبكي معلناً أنه بات فقيراً محتاجاً . فقال لابان : «إنك أنت عظمي ولحمي ، فأنا أقوم بأودك حتى ولو كنت مُفلساً»⁽²⁾ .

* * *

من بعد أن بحث لابان بغير جدوى عن يعقوب لما رحلَ فاراً بامرأته وأبنائه وممتلكاته⁽³⁾ ، ومن بعد أن قال الله لابن بتوئيل בן בתוואל⁽⁴⁾ : «إياك أن تكلم يعقوب بخير أو بشر»⁽⁵⁾ ، وجّه لابان بعد فراقه عن صهره رُسلًا إلى عيسو ، وأوصاهم قائلاً : هكذا قولوا :

-
- (1) قابل على التوراه : تكوين - 28 : 11-19 .
(2) والذي جرى بعد ذلك أنه عمل خادماً لدى خاله سبع سنين فزوَّجه ابنته الكبرى ليثاء ، ثم سبع سنين أخرى فزوَّجه الصغرى راحيل . انظر التوراه : تكوين - 29 .
(3) انظر التوراه : تكوين - أصحاب 30-31 ، حول خلاف يعقوب مع خاله لاستغلاله إيّاه ، وتحول ثروته إليه ، ورحيله عائداً إلى أرض أبيه بزوجه ليثا وراحيل ابنتي لابان .
(4) أي لابان بن بتوئيل الآرامي خال يعقوب ذاته . انظر التوراه : تكوين - 25 : 20 .
(5) قابل على التوراه : تكوين - 28 : 11-19 .

«قدمنا من عند لابان خالك وقريبك ، وهو يقول لك : أتدري ما فعله أخوك يعقوب بي ؟ أتاني منهوكاً ومموزاً ، فأويته إلى بيتي مكرماً مودوداً . إليه قدمت ابنتي زوجتين ، وخادمتا ابنتي أيضاً أعطيتهما له . فباركه الله بسببي ، فجمع ثروة طائلة . وولد له بنون وحاز عبيداً وإماء ، وأغناماً وثيراناً وماشية من كل نوع ، بأعداد كبيرة ، وكذلك فضةً وذهباً . ثم بذلك كله مضى فتركني ، هرب خلسةً بكل ممتلكاته صوب أرض كنعان ، بلاد أبيه . حتى أنه حرمني من تقبيل ابنتي ، وساقهما كالمسيئين بالسيف ، وشر من هذا كله أنه سرق آلهتي . وعند معبر⁽¹⁾ יִיָּוַב «لا باب» تركته بكل ما معه ، فإن رغبت بإدراكه فشم أنت واجده . فلتذهبن إذاً ولتفعلن به ما يحلو لقلبك»⁽²⁾ .

فلما سمع عيسو هذه الكلمات من رسل لابان ، تجدد في قلبه كل ما كان لاقاه من يعقوب في حقه ، واضطرم في قلبه الكره والحقد على أخيه . فجمع بنيه وخدمه ، وكل أهل سعيير⁽³⁾ «لا لا»، فتألفت منهم فرقة تعد أربع مئة رجل ، وتقدم على رأسهم ليلاقمي يعقوب وينال منه .

بعدهما بارح رسل لابان عيسو ، رحلوا إلى أرض كنعان ، وأخبروا ريقاه هناك بترتيباته وعزمه على الكمين ليعقوب ومعاقبته . فخفت ريقاه لإرسال اثنين وسبعين رجلاً لمعونة ابنها الأثير عليها . فأدركوه عند معبر ييق ، فقال يعقوب لما رآهم : «هذا جند الله»، وسمى المكان : مِحْنَايِم⁽³⁾ «محناييم» .

فتبين يعقوب خدَم أبيه ، وسألهم عن أحوال أهله ، فأجابته الرسل : «هم بخير ، وكذلك نؤدّي إليك هذه الرسالة من أمك : «قد أتاني الخبر يا بُني أن أخاك عيسو قاصدٌ إليك في طريقك برجال سعيير . وعليه فأنا أرجوك أن تستمع

(1) قابل على التوراه : تكوين - 32 : 22 . وفي الترجمة العربية للتوراه ، نقلاً عن الترجمة السبعينية : «مَخَاضَةٌ يِيوق» . فهذا دليل على سوء هذه الترجمة ، فإن كانت المفردة الواردة بالعبرية «لا باب» (معبر) تتوافق مع العربية تماماً بالمبنى والمعنى ، فلماذا ندور ونترجمها عن اليونانية بالمخاضة ؟ خاصة أن لها صلة بتسمية «العبري» .

(2) ليس في التوراه خبر هذه الرسالة من لابان إلى عيسو ، إنما فيها فحوى هذا الخطاب بين لابان ويعقوب عند جبل جلعاد . قابل على التوراه : تكوين - 32 : 25-55 .

(3) قابل على التوراه : تكوين - 33 : 3 (في السورانية ، أما السبعينية فالآية 2) .

كلامي . فعندما تراه لا تكُ متهوراً ولا متعنتاً ، بل فلتبادره التحية بالرفق واللين ولتتحفه بالتقدمات النفيسة من الخيرات التي باركك الله بها . وعندما يخاطبك فلتُجبه بالحلم والّطف ، فيزول عنك غضبه . لا تنسينّ أنه أخوك الأكبر ، وإنه لمن واجبك إجلاله وتكريمه»⁽¹⁾ .

فبكى يعقوب لكلمات أمّه ، لكنه نزل عند رغبتها . فوجه رُسلًا قدّامه إلى عيسو ، لينقلوا إليه الكلام كما أوصت أمّه . فأدرك الرُّسل عيسو ورّبعه ، وقالوا له كما أمرهم يعقوب ، ولكن عيسو أجاب بإباء قائلاً : «كلاً ، فالحق هو ما نمي إلى مسمعي من قبل ، وأنا أعلم بما فعله يعقوب بلابان ، وكيف ردّ جميل قريبه الذي أدناه وأعطاه امرأتين وحلالاً جمّاً ، ففرّ أخذاً معه ابنتي لابان ، وساقهما كالمسيبتين بالسيف . وهولم يُسئ إلى لابان فحسب ، بل بي أيضاً غدر مرتين واغضب ما هولني . وهكذا فإني شاخص اليوم لملاقاته ، وما هو ذا ثأري الذي لبثتُ أترقبه عشرين عاماً يلوح أمام ناظري» .

فلما بلغت هذه الكلمات مسامع يعقوب ضاق به الأمر جداً . ولما ألقى العون من الأرض معدوماً ، توجه إلى الربّ ملتجئاً بملاء قلبه ودعاه بإخلاص ليُنجيه من هذه الشدّة التي ألت به ويأله . ثم قسّم القوم الذين معه وقطعان الماشية إلى فرقتين . وأوكل فرقةً منهما إلى الإيعيزر الدمشقي خادم أبيه أبرهام ، وأبناءؤه معه ؛ والأخرى إلى الينوس بن الإيعيزر وأبنائه . ثم أمرهم بما يلي : «تقدّموا مفترقين ، فإن أخذت إحدى الفرقتين نَجَت الفرقة الأخرى»⁽²⁾ .

ثم لما قابل عيسو سجد إلى الأرض أمامه سبع مرّات ، وأعطاه الله نعمةً في عيني أخيه . وتلاشى حقد عيسو وحلّت محلّه طبايع العطف ، فأنهض يعقوب من الأرض واعتنقه وقبله .

* * *

(1) هذه الرسالة ليست في متن التوراه .

(2) يرد في متن التوراه هنا ، قبل لقاءه بعيسو ، خبر مخاطبة الله إياه قائلاً : «لا يعقوب يدعى بعد اسمك بل يسرّئيل» : «לא 'עקב 'אמר עוד שמך כי אם 'ישראל .

نزل يعقوب بأهل بيته جميعاً قبالة مدينة شكيم שכימ ، وابتاع قطعة أرض لسكنها من أبناء حمور חמור بمبلغ خمسين شَيْقلاً⁽¹⁾ . وأقام هناك بيته وعاش بسلام وأمان حوالي ثمانية عشر شهراً .

ثم عمل أهل شكيم احتفالاً عظيماً ، مناسبة للفرحة والرقص والغناء واللهو على اختلاف أنواعه ، وشاركت بنات البلدة في مُجريات الاحتفال . وحدث أن راحيل רחיל وليثاء ליתא ، امرأتي يعقوب ، وديناه דינא ابنته اشتدت بهن الرغبة في حضور مشاهد الفرحة هذه ، فمضين إلى المكان الذي تجري فيه الاحتفالات . كان أعيان المدينة حاضرين بأسرهم ، وكان شكيم שכימ ابن الملك أيضاً من بين الحضور .

فصادف أن أبصر شكيم ديناه ، فخلبت الفتاة لبه من فورها بجمالها الفتان ومظهرها البسيط . وسأل عمّن تكون ، فقيل له إنها ابنة يعقوب العبري ، الذي نزل منذ مدة غير بعيدة في أرض أبيه . وبرح الحب بقلبه شديداً ، واستغل فرصة سانحة فجذب الفتاة المذعورة غصباً إلى داره واقتَرَعَهَا .

فسارعت راحيل وليثاء إلى بيتهما وأخبرت يعقوب بما جرى . فوجه على الفور اثني عشر خادماً إلى دار شكيم لطلب الفتاة ، لكنهم لقوا استقبالاً فاتراً من قبل حاشية الأمير وطُردوا إلى سيدهم يعقوب . فلم ينبس بكلمة ، بل انتظر بهدوء عودة أبنائه إلى البيت .

في تلك الأثناء ، وجه شكيم رسولاً إلى أبيه ، طالباً منه أن يزور يعقوب ويطلب ديناه زوجة له . فامتعض الملك كثيراً ، وطلب ابنه فقال له : «ألم ترق لنفسك زوجة من بنات بلدنا ؟ ما وجه رغبتك بهذه الفتاة العبرية ، الغربية عن قومك ؟» ، فأجاب شكيم أباه : «قد حسنت في ناظري» ، وأقنع أباه بحبه للفتاة حتى أذعن الملك في النهاية بأن يطلب أباها يعقوب ويلتمس موافقته للزواج .

(1) في التوراه المعربة عن الترجمة السبعينية اليونانية تُترجم عبارة שכימ (شَيْقِل) : شاقِل ، ولا ندرى من أين أتوا بألف إن كانت في العبرية محرّكة بصيريه לִשְׁכִּים ، وهي تتوافق مع العبرية : ثقل (ومنها : مثقال) . فهذا دليل آخر على سوء الترجمة .

ثم حينما عاد بنو يعقوب إلى البيت ، وعلموا بالحادثة التي تم فيها الإساءة البليغة تجاه أختهم الوحيدة ، غلى الدّم في عروقهم . وقالوا : «لا جزاء لهذه الجريمة إلا الموت ، فأختنا دُنّست بالخطيئة العظمى التي أنذر الله نُوحَ وبنيه من اقترافها إن رغبوا في الحياة . الموت كُن دُنّس بيتنا ، بيدنا نقتله ونقتل أهل بيته وأهل مدينته كلّها» .

وفيما كان بنو يعقوب يتكلمون بهذا ، إذا بحمّور أبي شيكيم يدخل إليهم ويخاطب يعقوب قائلاً : «ابني شيكيم يرغب بابتكك له ، فألتمس منك أن تعطيهما زوجةً له ، وخُذوا بنات بلدنا . بلدنا واسع ، وهذه الأرض بين أيديكم فأقيموا معنا واتجروا وافعلوا ما يروق لكم ، ولا نريد منكم إلا أن توافقوا على مطالب ابني» . ولما اختتم حمّور مقاله دخل ابنه شيكيم وتابع ما يعرضه أبوه ، قائلاً لأبيها وإخوتها : «هبوني حُظوةً في أعينكم ، وأعطوني الفتاة زوجةً ، وكل ما تطلبونه مني أعطيككم كما ترسمون لي» .

فأمّا شِمْعُون ١٧٧ و١٧٨ وليوي ١٧٩ ، اللذان لبثا يتربّصان الدوائر لإنزال الجزاء للدنّس الذي لحق بأختهما ، فأجابا شيكيم وأباه بطريق المراوغة : «سنفكر بما تقولان . ها هي أختنا في أيديكما . لكن امهلانا بعض الوقت لنستشير جدنا يصحاق ، فهو رجل حكيم ، ولديه خير الرأي فيما يتوجّب فعله في حالة كهذه ، وإننا للمتزمون بما يُبديه من رأي» .

فوافق شيكيم على هذا الترتيب ، وانصرف مع أبيه من بيت يعقوب . ولما ذهب ، راح بنو يعقوب يؤكّدون على تصميمهم بإنزال عقوبة الموت جزاءً وفاقاً بالرجل الذي دنّس بيتهم ، ومعهم أهل مدينته بأسرهم الذين كانوا السبب في اجترائه على فعله الخسيس .

قال شِمْعُون : «هاكُم الرأي ، نقول للقوم هكذا : «قد ارتضى لنا ربنا خِلة الختان ، ولا نستطيع أن نعطي بناتنا وأخواتنا لرجل لم يلتزم عهد الله . فلتصيروا مثلنا وعندها نتصاهر ، وإلا نأخذ ابنتنا ونمضي عنكم» . ثم لما يتملكهم الألم والضعف ، نهجم عليهم ونبذل السيف في رجالهم أجمع» .

فوقعت خطته من إخوته موقعا حسنا ، ولما عاد إليهم شيكيم وحمور لسماع قرارهم ، أعلنوا أمامهما أن هذه كانت مشورة يصحاق ، قائلين إن جدّهم جزم بأن إعطاء أختهم لرجل أوقف لهو عار يُلزمهم أبد الدهر .

فجمع شيكيم وأبوه عندها الناس عند أبواب المدينة ، وأطلعاهم على مطلب بني يسرئيل ، وحاولا حثّهم على القيام بما هو مطلوب . فكان الناس بأجمعهم راضين بالإذعان لملكهم ، ما خلا حدّقام بن ييريد ، والد حمور ، وإخوته الستة . فراحوا يزدرون بيعقوب وأبنائه ويدافعون عن أمهات مدينتهم اللواتي أحجمن عن السّماح بتعريض أبنائهن لهذا العمل .

قال هؤلاء : «بئس ما تفتريان ، أليست بنات الكنعانيين يصلحن زوجات ، حتى رغبتما بالزواج من بنات هذا العبري الغريب بينكم ؟ إليكم عن هذا الفعل البائر الذي لم يسنه لكم أبواؤكم من قبل ، فهذا فعل نحس . بم تجيئون إخوانكم الكنعانيين عندما يسألونكم عن مردّ هذا الحبال ؟ وكيف ستبدون في أعين إخوتكم بني حام عندما يُقال : «أمن أجل امرأة عبرية يأتي شيكيم وأبوه وأهل مدينته كلهم هذا البدعة ؟» . هذا الدّلّ الذي ارتضيتماه لنفسيكما عن طيب خاطر لن نرضخ له ، بل نجتمع إخواننا ونقاتلكما عليه فلتعلما ، حتى الموت» .

فبدأ التّدّم يتتاب حمور وشيكيم على ما تسرّعا في طرحه ، ولكنهما عادا فأجابا : «لا يدخلن في ظنكم أننا إنما نفعل ذلك محبةً بالعبريين ، بل إن هي إلا من باب المداورة لنُعْمِي أبصارهم ونأخذ ابنتهم . فلتلبثوا حتى نُنقّه من الحثان ، وساعتها يصيرون وما يملكون لنا كلهم ، فنتصرّف فيهم كيف نشاء» .

وسمعت ديناه هذا الحوار ، فأرسلت خادمة إلى بيت أبيها تُنبئه وتُنبئ إخوتها بتواطؤ شيكيم . فأقسم شمعون وليوي⁽¹⁾ : «بِحياة الرّبّ إله الكون ، غداً غدٍ ننقض على هؤلاء القوم ، فلا ينجون من سطوتنا منهم أحد» .

(1) في التّوراه المعرّبة عن الترجمة السبعينية اليونانية يُترجم اسم لاوي (ليوي) : لاوي ، ومثل ذلك : سفر اللاويين . وهذا عجيب ، فحركة صيريه لاوي التي تسم اللام هي بمثابة ياء لا ألف ، وتُنطق كالحركة الفرنسية e . والاسم في الإشكنازية : ليوي .

وهذا ما فعلاه فنَفَّذا ما عزمَا عليه ، وانقضَا على القوم في اليوم التالي ،
فبينما كانوا يتألمون من جرّاء الاختنان ، قتل ابنا يعقوب حَمُور وشِكيم وسكّان
المدينة أجمع ، وأرجعا أختهما ديناه إلى بيتها .

فلَمَّا أدرك يعقوب مغبة تهوّرهما حزن وغضب واستبدّ به القلق . وقال
مُسْتَكْرَأً : «ما هذا الذي فعلتماه بي ؟ نزلتُ هذا البلد وِخِلتُ أني أخلد إلى
الرّاحة ، فالآن إذ يعلم رِبع هؤلاء بما فعلتما يجتمعون عليّ ويقتلونني فأهلك أنا
وأهل بيتي» .

لكن ابنه أجابا : «هذا كلّه يقع على عاتق شِكيم . أكنّت تريدنا أن نكفّ
ونسكت ، ونصبر على هذا الفعل والدنّس العظيم ؟» .

وكان عدد الرّجال الذين قُتلوا بأيدي العبريين سبعة وأربعين . أما النّساء
فأخذوهنّ سبايا .

وحدث عندما غادر شِمعون وليوي مدينة شِكيم ، أن رجلين كانا مختبئين
أسرعا إلى مدينة تَفْناه ^{תפנא} فأطلعا ملكها وسكّانها على ما جناه ابنا يعقوب في
شِكيم . فأبى الملك أن يصدّق أن عشرة رجال بوسعهم التّغلب على مدينة ،
فوجّه رُسلًا لاستبيان حقيقة الأمر . وقال : حتى في زمن الملك نمروذ ، عندما
كان النّاس جبابرة ، لم يكن هذا الأمر ممكناً . لكن لما عاد رُسله وأخبروا أنهم لم
يلاقوا في شِكيم كلّها سوى نساء نادبات ، جمع الملك رجاله وقال : تجهّزوا
لنذهب ونقاتل العبريين ، فنفعل بهم كما فعلوا بإخوتنا في شِكيم .

غير أن أمراءه أجابوه قائلين : «بقومنا وحدهم لا طاقة لنا بهؤلاء العبريين .
فعشرة منهم أهلكوا مدينة ، ولم يقف في وجههم رجل واحد . لنرسلنّ في طلب
المعونة من الملوك المجاورين لنا ، علّنا بذنا نتمكّن منهم» .

فلاح للملك في هذا الرأي عين الصّواب ، وأرسل إلى ملوك الأموريين
المقيمين بجواره يُعلمهم بفعل بني يعقوب ، ويلتمس معونتهم لمعاينة هؤلاء .
فأجاب ملوك الأموريين طلبه ، وجمعوا حوالي عشرة آلاف رجل ، زحفوا لقتال
بني يعقوب .

ففرع يعقوب من ذلك فزعاً شديداً ، وراح ينحو مجدداً باللوم على أبنائه لتهورهم . فخاطب يهوداه «הוודה أباه قائلاً : «أتصرفنا بغير حق ، شمعون وليوي وبقيتنا ؟ لقد دُست أختنا ولُطخ بالعار بيتنا ، وانتُهكت محارم إلهنا . لهذا السبب مكثنا الربّ من المدينة . ففيم جزعك ؟ ولم تحزن وتغضب على أبنائك ؟ الله ذاته الذي أوقع برجال شكيم طعمه في أيدينا سيظفرنا بهؤلاء الأمورين القاصدين في طلبنا . طب نفساً ولا عليك يا أبانا ! لا تخف ، بل لتدعو الربّ إلهنا أن يحفظنا وأن يُسلم أعداءنا إلى سطوتنا» .

ثم استدعى يهوداه خدمه وأمرهم بالذهاب لاستطلاع من كان زاحفاً إليهم وكم عدّتهم . ثم خاطب شمعون وليوي قائلاً لهما : «تجهّزا ، وكونا بطلين . الربّ إلهنا معنا . فليتمنطق كل رجل بسيفه ويتكبّ قوسه ، مؤمناً بالسّماء ، سنحارب هؤلاء الأموريين ونُلاقي الفرج» .

وظفّق بنو يعقوب وخدمهم وخدم يصحاق ، الذي كان يقيم في حبرون ، يتجهّزون للحرب . وأما يصحاق رئيس أسرّتهم فدعا الله لينصرهم ، قائلاً : «يا ربّ ، يا الله ، قد كنتَ خاطبتُ أبي ووعدتَه قائلاً : «سأكثر نسلك بعدد النجوم في السّماء» . وعلي أيضاً أعدتَ هذا الوعد ، والآن ها هي جيوش كنعان قادمة لتحارب أبنائي . فياربّ يا إله الكون ، أثن هؤلاء الملوك عن عزائمهم ، ودع رهبة أبنائي تحلّ في قلوبهم وتخضد شوكتهم ، واحملهم على التراجع والعودة إلى ديارهم بغير إراقة دماء . خلّص أبنائي وخدمهم من قوّة هؤلاء الملوك ، فييدك أنتَ الجبروت والبأس والقوّة» .

وتلا يعقوب أيضاً صلاةً مهيبة للغرض ذاته .

فلما شارف الأموريون على بني يعقوب وقواتهم ، اجتمع الملوك والأمراء ليتشاوروا قبل الشروع في الهجوم ، حيث أن قلوبهم لم تكن قد استكانت بعد من الرعب الذي حلّ بها من بسالة العبريين . واستجاب الربّ لدُعاء يصحاق ويعقوب ، فتضاعف هذا الرعب والخوف ، ثم استبان بكلام واحد منهم ، ولاقى صدى في قلوب الآخرين :

«ها نحن اليوم مُقدمون على فعل أُحرق بمحاولة قتال هؤلاء العبريين ، كالسّاعي بقدمه إلى حتفه . ها عشرة رجال بمفردهم تغلبوا على سكّان شِكيم ، والآن هؤلاء الرّجال العشرة ذاتهم مع خدمهم جميعاً يتربّصون بنا . إن إلههم راض عنهم ، وهم ينعمون بحمايته الخاصّة . ما من آلهة في الأمم الأخرى تقدر أن تأتي بالعجائب التي أبداها في هذا الشّان إلههم تجاه شعبه المختار . ألم يسعى نمرود إلى إهلاك جدّهم الأكبر أبرهّام ، فنجاه إلههم من نار الأتون المتلظية ؟ ألم يحارب أبرهّام هذا نفسه الأربعة ملوك الذين أسروا قريبه لوط الذي كان مقيماً بسدوم ؟ إن إلههم جبار ، وهو يؤثّرهم ، وسيهبهم النصر علينا . وهذا يعقوب نفسه قد نجا من عيسو ومعه أربع مئة رجل . وهل بوسع عشرة رجال إهلاك مدينة بغير عون من السّماء ؟ فحتى لو كنّا نعدّ مئة مرّة أكثر ممّا نحن الآن فسوف نُمنى بالكسرة ، لأننا لسنا نحاربهم هم ، بل نحارب إلههم . لنشأن أعتنا عنهم ونراجع بغير قتال» .

فواحد بعد الآخر راح ملوك الأموريين ينكصون على أعقابهم ويعودون إلى ديارهم دون أن يمّسوا يعقوب بسوء . ومكث العبريون في مواقعهم متربّصين بالهجوم حتى المساء ، ولكن لما لم يأت الأموريون أبوا إلى بيوتهم . ثم تراءى الرّب ليعقوب ، قائلاً : «قُم فاصعد إلى «بيت إيل» وأقم هناك ، واصنع هناك مذبحاً لله الذي أنجأك وبنيك من السّوء» . فرحل يعقوب وأبناؤه إلى بيت إيل بحسب أوامر الله .

وكان عمر يعقوب يومذاك تسعة وتسعين عاماً . فأقام حوالي ستة أشهر في «بيت إيل» בית אל [بيت الله] ، التي كانت تُدعى «لُوزاه» לוזא (1) سابقاً ، فماتت دُبُوراه דבורה حاضنة رِبّاه ، ودفنها يعقوب بأسفل شجرة بلوط في بيت إيل . أما رِبّاه بنت بتوئيل ، أم يعقوب ، فماتت أيضاً في ذلك الحين ، ودفنت في مغارة «مكفلاه» מכפלה (2) .

(1) في التّرجمتين العبريتين للتّوراه (عن التّرجمة السبعينية طبعاً) يرد الاسم : لُوز ، رغم أن مَبْنَى الاسم بالعبرية لا وجه للفظه إلا : لُوزاه .

(2) راجع ما تقدم عنها أعلاه في الفصل الأول ، وهي في جبرون (الخليل) .

ولما غدا يعقوب في سنّ المئة ظهر الله له ودعاه «يسرّئيل» ⁽¹⁾ . ثم ارتحل بعدُ بأهل بيته إلى حبرون ليقيم عند يصحاق أبيه . وفي طريق هذه الرحلة ماتت امرأته راحيل ، بعمر خمسة وأربعين عاماً . وأقام يعقوب وأهل بيته مع يصحاق في أرض كنعان كما أمر الله أباهم أبراهام ⁽²⁾ .

* * *

(1) راجع ما تقدّم أعلاه في هذا الفصل . وقابل على نصّ التوراه (تكوين - 35 : 10) :

ויאמר לו אלהים שמך יעקב לא יקרא שמך עוד יעקב כי אם ישׂראל
והיה שמך . ויקרא את־שמו ישׂראל:

ترجمة النصّ : «وقال له الله اسمك يعقوب لا يُدعى بعدُ اسمك يعقوب ، بل يسرّئيل يكون اسمك . ودعا اسمه يسرّئيل» .

وأما اسم يسرّئيل «سראل» ، ومعناه : الله قَوْمٌ ، فكتابه في العبرية بحرف اليود (الياء) وليس الألف ، أما في العربية فننوه أن الهمزة حرف أصلي ، وإن كانت مكسورة فهي فعلاً تقابل الياء وليس الألف . على أي حال فثمة إشكاليات في أحرف العلة وحركات التشكيل ما بين اللغات «السامية» الحية : العربية - العبرية - الآرامية السريانية .

(2) أما بنو يعقوب فهم 12 ابناً وابنة واحدة (تكوين - 35 : 23-26) :

من امرأته لينا : رؤبين رابون ، شمعون شمعون ، ليوي لوي ، يهوداه يهوداه ، يسّاسخار
يسّسحر ، زبولون زبولون ، دينا دينا .

من راحيل : يوسف يوسف ، بنيامين بنيامين .

من بلهاه بلهاه أمة راحيل : دان دن ، نفتالي نفتالي .

من زلفاه زلفاه أمة لينا : جاد جد ، أشير אשר . (الجيم تُنطق كجيم مصرية)

الفصل الرابع من فتوة يوسف إلى بلوغه حكم مصر

كان يوسف⁽¹⁾ ٩٥١ ، ابن يعقوب وراحيل ، لم يشترك في وقعة شكيم ، إذ كان مجرد فتى يافعاً ، أصغر من أن يقاتل مع إخوته⁽²⁾ . لكنه برغم ذلك تملكته الرغبة في أن يضاهي مكانتهم ، لا بل شعر بأن شهرته ستطير في الآفاق أكثر . أما أبوه فكان يحبه بوجه الخصوص لأنه ابن شيخوخته ، وكعربون على هذه المحبة صنع له قميصاً جميلاً موشى . فأثارت علائم التميز هذه في نفس يوسف ميله الفطري إلى التفوق ، وكان لما يرى هنأت في أفعال إخوته يشي بها إلى أبيه ، فسرعان ما كسب على نفسه عداوتهم ، ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام .

ولما غدا يوسف في السابعة عشرة من عمره ، تراءى له منامه المعروف ، فرواه لإخوته ، فقالوا له : «ألعلك تملك علينا أو تتسلط علينا؟» . فقص يوسف الحلم على أبيه الذي أصغى إليه باهتمام ، ولحبهته الشديدة له قبله وباركه . ولما علم بقية إخوة يوسف بهذا التصرف من أبيهم ازدادوا كرهاً ليوسف . لكنه عندما قص عليهم حلمه الثاني ، فروى أن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً رأهم له ساجدين استطار غيظهم إلى أبعد الحدود ، حتى أن أباهم يعقوب ذاته لجأ إلى زجر صاحب الأحلام الطموح⁽³⁾ .

(1) الاسم يُشتهر في العربية : يُوسُف ، وفي العامية : يُوسُف . أما مبناه في العبرية ونطقه فهو كما رسمناه ، على اعتبار تحريك حرف السامخ (السين) بصيريه لا ٦٦٦ ، وهي أقوى من الكسرة وتشبه ياء مَمالة . ولذا فسُترسم الاسم في كتابنا على هذا النحو ، وإن كنا خالفنا المعهود ، فنحن هنا نترجم نصّاً اصطلاحياً بأقرب ما ينبغي إلى الدقة .

(2) وإخوته الأحد عشر هم : رؤبين ، شمعون ، ليوي ، يهوداه ، يساكر ، زبولون ، دان ، نفتالي ، جاد ، أشير ، بنيامين .

(3) قابل على التوراه : تكوين - 37 : 10 .

وحدث يوماً أن بني يعقوب خرجوا ليرعوا غنم أبيهم ، فتأخروا في مسعاهم حتى قلفت نفس أبيهم عليهم . وخشي أن يكون أهل شكيم قد استنجدوا ببعض إخوانهم ليُدركوا ثأرهم من أبنائه لخرابهم التي شنّوها على مدينتهم . فطلب يعقوب يوسف وقال له : « هو ذا إخوتك خرجوا يرعون عند شكيم ، ولما يرجعوا إلى الحين . فهلمّ فأخرج في طلبهم ، واثنني بأخبار سلامتهم» .

فجال يوسف بعض الوقت في نواحي شكيم ، فلم يرَ من إخوته أحداً ، ولم يدْرِ أين يبحث عنهم ، فصادفه رجلٌ وهو تائهٌ ، فسأله : « مَنْ تطلب ؟ » ، أجاب يوسف : « أطلب إخوتي ، أتدري أين أتجهوا ؟ » ، فقال الرجل : « إي نعم ، رأيت إخوتك ، وقد سمعتهم يقولون : نمضي إلى دوتان⁽¹⁾ » .

فلما رأى إخوة يوسف الفتى مُقبلاً عن بُعد اتّمروا عليه ، فقرروا قتله . فقال شمعون : « ها هو صاحب الأحلام مُقبل . والآن تعالوا نقتله ونطرحه في أحد أجاب البرية ، فلما يسألنا أبونا عنه نقول إن وحشاً ضارياً أفترسه» . فلما سمع رؤبين مقالهم قال : « لا ، بل لا نفعل مثل هذا . إن أبانا لن يغفر لنا ما حيننا هذا الجرم . بل اطرحوه في بئر ودعوه يموت» . وهذا الرأي أبداه رؤبين لكي يخلصه من أيديهم ، ثم يستنقذه فيردّه إلى أبيه .

فلما طُرح يوسف في البئر (٦٤٦٦) ، عملاً بهذا الرأي ، صاح بإخوته بملء صوته : « ما هذا الذي فعلتم ؟ لم تعاملوني هكذا ؟ ماذا فعلتُ وبم أذنبتُ ؟ ألا تخافون الربّ بفعلتكم هذه ؟ أولست لحكمكم ودمكم ابن يعقوب ؟ » . وراح يصيح : « رؤبين ، يهوداه ، ليوي ، شمعون ، أخرجوني من هذا البئر . . آه ، يا بني يعقوب ، ارحموني ! إن أخطأت في حقكم فتذكروا وصايا أبيكم ، من لدن أبرهَام ويصحاق ويعقوب ، بالرحمة باليتيم وإطعام المسكين وسقاية الظامئ وإكساء الفقير ، أم تُراكم تُمسكون عن رحمة من هو لحكمكم ودمكم ؟ إن كنتُ أخطأتُ في حقكم ، فلتسامحوني بحقّ آيينا يعقوب» .

(1) في التوراه المعربة عن الترجمة السبعينية بطبعها الكاثوليكية : دوتانين ، أما في الطبعة البروتستانتية : دوتان (بترجمة حرف ثيتا اليوناني ثاء) . وكلاهما غلط . ونعود إلى التأكيد على وجوب إعادة ترجمة التوراه عن العبرية مباشرة لا اليونانية .

لكن إخوته ابتعدوا عن البئر لئلا يسمعو صياحه ، وجلسوا يأكلون طعامهم المعتاد . وفيما كانوا يأكلون ، راحوا يتشاورون حول الوضع النهائي لأخيهم ، فكانوا متحيرين بين أن يتركوه حيث كان ، أو أن يقتلوه ، أو ويردوه إلى أبيه . فبينما هم يتشاورون ، أبصروا قافلة من اليشمعيين مُقبلة ، في طريقها إلى مصر ، فقال يهوداه لإخوته : «ما الفائدة من أن نقتل أخانا ؟ هلموا نبيعه لقافلة اليشمعيين هذه فيأخذونه حيث يشاؤون ، فلعله يموت بين شعوب الأرض ، ولا يكون دمه يُسفك بأيدينا نحن» .

فوافق الإخوة على هذا الرأي ، وأن يبيعوا يوسف إلى اليشمعيين . ولكن الذي جرى أنهم فيما كانوا يتمارون في الأمر ، مرقوم مدينيون يطلبون في دريهم بئر ماء ، فصادف أن مروا بالبئر الذي كان فيه يوسف مُلقى ، ولما نظروا فيه هالهم أن يروا فتىً وسيماً طلق المحيا . ف جذبوا يوسف من البئر وحملوه معهم .

فلما مروا بإخوة يوسف ، رآه هؤلاء معهم فصاحوا : «حسبكم ! ما تظنون أنفسكم فاعلين ؟ بأي حق تسرَقون عبدنا الذي طرحناه في البئر لعصيانه ؟ هلموا فأرجعوه لنا» . أجاب المدينيون : «أعبدكم هو ؟ أخدم هولكم ؟ بيدو الأمر عكس ما تدعون ، إذ هو أكثر وسامةً وفراهةً من أي واحد فيكم . قد لقينا ذا الفتى في البئر ، وإنا لأصحابه» .

كرّر بنو يعقوب مقاتلهم الأولى : «أرجعوا لنا العبد وإلا أفنيناكم قتلاً» . فاستل المدينيون أسلحتهم ، وأعدوا العدة للانخراط في قتال دام على الفور . فقال شمعون : «ويحكم ، ألا تعرفون أننا أهلكنا مدينةً عن بكرة أبيها ؟ ويحكم ، إن لم تردوا عبدنا لنفعلن بكم ما كنا فعلناه بمدينة شكيم» . فلما سمع المدينيون هذا الكلام خفضوا من أصواتهم ومالوا إلى الرفق واللين ، قائلين : «ما لكم ولهذا العبد الآبق ؟ فلتبيعوه لنا ، ولكم ندفع ما تشاؤون» . وهكذا تم عقد صفقة يبيع على التو ، فباع بنو يعقوب أخاهم يوسف إلى المدينيين بعشرين قطعة من الفضة ، حيث كان رؤييين متغيباً ولم يتسنَّ له منعهم من ذلك⁽¹⁾ .

(1) في هذه المقاطع زيادات تفسيرية على التوراه (تكوين - الأصحاح 37) .

وأخذ المدينيون يوسف معهم ، ورحلوا إلى جلعاد ٦٧٧٦ . لكنهم في أثناء طريقهم ندموا على شراء الفتى ، فقال بعضهم للبعض الآخر : «هذا الفتى تراه تبدو عليه مخايل الفراهة ، لا ريب أن الرجال الذين ابتعناه منهم قد سرقوه من أرض العبريين ، فإن طاف أهله عنه يبحثون لربما وقعوا عليه في أيدينا فيكون فيه هلاكنا» .

فقيم كانوا يتمارون في ذلك الشأن ، كانت قافلة اليشمعييليين التي رآها بنو يعقوب قد اقتربت من المدينيين ، فهتف بهم هؤلاء وباعوا لهم^(١) يوسف بالثمن ذاته الذي كانوا دفعوه فيه ، وهم فرحون بالخلاص من الهم التازل بهم . فجعل اليشمعيليون يوسف على بعض أباعرهم وحملوه معهم إلى مصر . وبكى يوسف بحرقة أثناء الرحلة لما أدركه بأن كل خطوة تنأى به بعيداً عن دار أبيه ، وتؤصد دونه بإحكام كل باب للأمل . وضاق اليشمعيليون ذرعاً بشهيقه ونحيبه المستمرين ، فأغلظوا له القول والمعاملة .

وفي دربهم مرّوا بالمكان الذي دُفنت فيه راحيل أم يوسف . وتعرّف يوسف على المكان ، فألقى بنفسه على قبر أمه وأطلق لروحه المعنّاة لواعج الأسى فبكى قائلاً : «أمّاه ، يا أمّاه ، قومي من لحدك فانظري بُنيك ! قد بيع عبداً ، وما من عين تنظر إليه بالرأفة . قومي فانظري بُنيك وأبكِ معه على بلوائه ومحتته ! أفيقي من رقادك ، وكفّي إخوتي عني ! قد جردوا عني قميصي وفي ريقة العبودية طرحوني ، ومرتين أخذتُ بالبيع ، ففرّق بيني وبين أبي ، وعن كل قلب رحيم وعين رثيفة أقصيتُ . قومي يا أمّاه ، وادعي إلهك ! ولتري يا أمّاه من ينصف الله الأزلي ومن يدين ! هبّي من رقادك ، فعليك بأبي ولتسكّني من لوعته وأساه ، وترفقي له بكلام السلوى وبشائر الخير ، لعل قلبه يعود فيحيا . هلّمّي قومي يا أمّاه وانظري إلى بُنيك !»^(٢) .

(١) نعد إلى استخدام التعبيرات الشائعة في لغة اليوم الفصحى ، بدلاً من : باعوه منهم ، عملاً بقاعدة : خطأ مشهور خير من صواب مهجور . وهذا لا يعني أننا نجهل المعيارية في لغتنا الفصحى .

(٢) هذا المقطع كلّه غير وارد في التوراه ، وينفرد به نصّ التلمود .

فدافع اليشمعيليون يوسف عن قبر أمه باللطم والصياح . فقال لهم يوسف : «هَبُونِي حُطْوَةً فِي أَعْيُنِكُمْ ، خُذُونِي إِلَى بَيْتِ أَبِي فَيُغْنِكُمْ» . فهزؤوا به وقالوا : «ألسْتَ عبداً ؟ فمن هو أبوك ؟ ها أنتَ قد أبعتَ مرتين ، فإن أنتَ إلا عبد ، ويَسُ العبدُ الآبِقُ ، فلو كنتَ ذا شأنَ لما تمَّ بيعك مرتين» .

فانتحب يوسف ونصل عوده واعتزته الأسقام ، فقال أسياده : «ما تُرى هذا الصبي إلا هالكاً بين أيدينا ، فيضيع المال الذي دفعناه فيه . إن كان يرغب بالعودة إلى بيت أبيه فلنردّه إليه ، لعلنا نستعيد المال الذي دفعناه فيه» . لكن بعضهم الآخر قال : «بِسُ الرأْي ، فالمسافة قصية وإن عدنا الآن تباعد بيننا وبين منازلنا . لناخذن الفتى إلى مصر ، وبمقدورنا أن نبيعه هناك ، وبشمن بالغ» . فوقع هذا الرأي موقع القبول لدى أغلبية القافلة ، وحملوا يوسف معهم إلى مصر .

أما بنو يعقوب فلما باعوا أخاهم أنبهم ضميرهم ، وتمنّوا استرداده شراءً ، ولكن على اعتبار مبيعه الثاني أخفقوا في العثور عليه . وبينما كانوا يفتشون عنه عاد رُؤبين إلى البئر الذي طُرح فيه يوسف ، بُغية أن يخلصه ، فوقف عند حاقة البئر ، لكنه لم يسمع صوتاً ، فصاح : «يا يوسف ، يا يوسف !» ، لكنه لم ينل جواباً إلا الصمت . فارتاع رُؤبين ، وظنّ أن يوسف قد مات من الخوف ، فنزل إلى البئر ، آملاً أن يكون جسده لم يفارق الحياة تماماً . ولما ألقى البئر خاوياً مزق ثيابه وصاح⁽¹⁾ : «كيف أمضي الآن إلى أبي ؟! كيف لي أن أنظر في وجهه ويوسف قد مات ؟!» .

ورجع مُسارعاً إلى إخوته ، فألفاهم يتشاورون حول كيف يخبرون أباهم بفقد يوسف . فعنف رُؤبين إخوته وقال لهم : «بِسُ ما صنعتم ، ستُودون بأبيكم الشيخ إلى التهلكة» . واتفق الإخوة على إبقاء مصير يوسف سراً بينهم ، وعملوا بمشورة يسّاكر ، فأخذوا قميص يوسف وخرّقوه في مواضع عدة ، وذبحوا جدياً من المعز وغمسوا القميص في دمه ، ثم عقروه بالتراب .

(1) عودة هنا إلى تقابل النصّ مع فحوى التوراه (تكوين - 37 : 29-30) .

وَبَعَثُوا بِالْقَمِيصِ عَلَى يَدِ نَفْتَالِي فَأَنْفَذُوهُ إِلَى أَبِيهِمْ ، وَكَلَّفُوهُ أَنْ يَسْلَمَهُ لَهُ قَائِلاً : «هَا نَحْنُ جَمَعْنَا مَوَاشِينَا فَتَوَجَّهْنَا إِلَى دَرَبِ شَكِيم ، وَهَذَا الْقَمِيصُ وَجَدْنَاهُ فِي طَرِيقِنَا بِالْبَرِّيَّةِ مَمَزَقاً وَمُلَطَّخاً بِالْدَّمِ وَمَعْفِراً بِالتُّرَابِ . فَلْتَمَسْ مِنْكَ أَنْ تَفْحَصَهُ وَأَنْ تُثَبِّتَهُ ، أَمِيصُ ابْنِكَ هُوَ أَمْ لَا ؟» .

فَأَثَبَتْ يَعْقُوبُ قَمِيصَ يُوسُفَ عَلَى الْفُورِ ، وَسَقَطَ بِوَجْهِهِ إِلَى الْأَرْضِ ، وَلَبِثَ بِلا حَرَكَ مَدَّةَ طَوِيلَةٍ ، ثُمَّ قَامَ يَنْتَحِبُ بِمَلءِ صَوْتِهِ : «قَمِيصُ ابْنِي هُوَ» . وَبِنَوَاحِي الْعَشِيِّ أَرْسَلَ يَدْعُو أَبْنَاءَهُ ، فَوَجَدَهُمُ الرَّسُولُ بِثِيَابٍ مَمَزَقَةٍ وَقَدْ حَثَّوْا التُّرَابَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ . فَلَمَّا جَاؤُوا الْبَيْتَ آكَلَتْ قُلُوبُهُمْ لَوْعَاتٍ أَبِيهِمُ الْمَرِيرَةَ ، لَكِنْ إِذْ أَنْبَهُمْ ضَمِيرُهُمْ جَعَلُوا يُنْكِرُونَ رُؤْيَا يُوسُفَ ، وَأَعَادُوا عَلَى أَسْمَاعِهِ قِصَّةَ عَثُورِهِمْ عَلَى الْقَمِيصِ .

وَاسْتَرْسَلَ يَعْقُوبُ فِي نُوَاحٍ شَدِيدٍ ، وَمَكَثَ وَوَجْهَهُ إِلَى الْأَرْضِ . فَرَفَعَ يَهُودَاهُ رَأْسَ أَبِيهِ وَمَسَحَ مِنْ عَيْنَيْهِ الدَّمْعَ ، غَيْرَ أَنْ يَعْقُوبُ أَبِي السَّلْوَى عَمَّا هُوَ فِيهِ ، وَقَالَ : «وَحَشُّ ضَارٍ افْتَرَسَ يُوسُفَ ، سَوْفَ لَنْ أَرَاهُ أَبَدًا بَعْدَ الْيَوْمِ» . وَنَاحَ عَلَى يُوسُفَ سِنِينَ كَثِيرَةً .

وَحَمَلَ الْيَشْمَعِيلِيُّونَ يُوسُفَ إِلَى مِصْرَ ، فَلَمَّا قَارَبُوا مِشَارِفَهَا صَادَفُوا أَرْبَعَةَ رِجَالٍ مِنْ نَسْلِ مِدَانَ (122) ، وَهُوَ ابْنُ أَبْرَهَامَ وَقِطُّورَاهُ קִטּוּרָה ، فَقَالُوا لَهُمْ : «أَتَشْتَرُونَ مِنَّا هَذَا الْعَبْدَ؟» ، فَرَأَى الرَّجَالَ يُوسُفَ فَتَى وَسِيمًا طَلَّقَ الْمُحْيَا ، فَاشْتَرَوْهُ مِنَ الْيَشْمَعِيلِيِّينَ بِسَعَةِ شِوَاقِلٍ وَحَمَلُوهُ إِلَى مِصْرَ . ثُمَّ قَالَ الْمِدَانِيُّونَ : «هُوَ ذَا قُوطِيقَرٍ פּוּטִיקֶר פּוּטִיקֶר וְזִיר פֶּרְעוֹה פֶּרְעוֹה [فِرْعَوْنَ] رَئِيسَ حِرْسِهِ (1) يَبْتَغِي شِرَاءَ عَبْدٍ فَتَى أَمِينٍ وَنَجِيبٍ لِيَقُومَ بِأُمُورِ بَيْتِهِ . فَلْنَحَاوِلْ بَيْعَ هَذَا الْفَتَى لَهُ» .

فَحَمَلَ الْمِدَانِيُّونَ يُوسُفَ إِلَى قُوطِيقَرٍ ، فَأَعْجَبَ هَذَا الْأَخِيرُ بِشَكْلِ يُوسُفَ وَمَوَاصِفَاتِهِ ، وَسَأَلَهُمْ : «كَمْ ثَمَنُهُ؟» ، قَالَ الْمِدَانِيُّونَ : «أَرْبَعُ قَطْعٍ مِنَ الْفِضَّةِ» . قَالَ قُوطِيقَرٍ : «أَشْتَرِيهِ إِذَا ، شَرِيطَةٌ أَنْ تَأْتُونِي بِالرَّجُلِ الَّذِي ابْتَعْتُوهُ مِنْهُ . فَهِيَ لَا يَبْدُو عَلَيْهِ سِيمَاءَ الْعَبِيدِ ، وَأَخْشَى أَنْ يَكُونَ مَسْرُوقاً مِنْ بِلَادِهِ وَمِنْ بَيْتِهِ» .

(1) سفر التكوين (39 : 1) : סָרִיס פֶּרְעוֹה שֶׁר הַטַּבָּחִים : חֲסִי פֶּרְעוֹה רִישׁ הַחֲרָס .

فأحضر المدانيون اليشمعييليين الذين منهم اتباعوا يُوسيف ، واقتنع فوطيفر بروايتهم للصورة التي حازوا بها ملكية الفتى ، فدفع القطع الأربع من الفضة ، واشترى يُوسيف عبداً له .

ووجد يُوسيف نعمةً في عيني فوطيفر ، فكُلّف بقوامة بيته وممتلكاته كلها . وكان الربّ مع يُوسيف ، ومن أجله بارك فوطيفار وأهل بيته جميعاً . وعند ذلك كان يُوسيف في حوالي الثامنة عشرة من العمر ، وكان فتىً حَسَنَ الهيئة وجميل المنظر لا نظير لحُسنه في أرض مصر . فلَمَّا كان مُلزَماً من خلال واجباته بالتنقل في أركان بيت سيده جميعها بحرية تامة ، كَفَتَ أنظار زليخاه זלִיכָה امرأة فوطيفر . فافتتت المرأة بمحاسن جسده وجمال وجهه ، وراحت تبوح له يوماً بعد يوم بحبها له وترجوه أن يبادلها ما تكته له من شعور . فأحجم يُوسيف عن الاستماع إليها ، وجهد أن يجتنب نفسه هذا الاهتمام منها . ولَمَّا قالت له : «ما أجملك من فتى ، إنه لا نظير لحُسنك في هذه الدنيا» ، أجاب : «مَن خلقتني خلق العالمين أجمع» . ولَمَّا تغزلت بملاحة عينيه أجاب : «ويم تراهما ينفعانني إذا صرتُ إلى رمسي وخبأ فيهما النور والحركة ؟» .

فلَمَّا ألقت زليخاه يُوسيف غير آبه ولا مكترث بكلامها المعسول ولا يُدعن إلى تدنيس بيت سيده ، راحت تهدده بالموت والسجن إن هو تَمَادى في تمتعه ، لكن يُوسيف ردّ ذلك بقوله : «مَن خلَقَ الإنسان يفكّ قيد المأسور ، وهو الذي يُنجيني من عقابك» .

وكانت صاحباتها اللواتي يزرنها يأخذهنّ الإعجاب أيضاً بيُوسيف ، ويُطرين حُسنه . وفي إحدى المرّات لَمَّا وُضعت الفواكه أمام الزائرات ، راحت إحداهنّ تقشّر فاكهةً فجرحت إصبعها دون أن تشعر بما جرى ، إلى أن لفت نظرها تقاطر الدّم على ثوبها ، إذ كانت عيناها زائغتين بيُوسيف ، وخيالها مأخوذاً برونق حُسنه وبهائه ⁽¹⁾ .

(1) هذه الحكاية لا ترد في التوراه ، إنما هي أيضاً مثال على الحواشي التفسيرية الأجدائية (من الأجداء) الواردة في التلمود . وهنا ننبّه إلى أهمية تتبع قصص الأنبياء الواردة في سفري تورا ونببئيم على ما يكملها في التراث الشفوي التلمودي ، استكمالاً للرواية .

وَمَضَتْ الأيام ، وورغم إلحاح زليخاه استمرَّ يوسفُ مُعرضاً عن غوايتها . وحدث أنه في وقت وفاء النَّيل خرج أهل مصر جميعاً من بيوتهم ، بما فيهم الملك والأمراء والشعب بأسره ، للفرجة على وفاء النَّيل وللاحتفال بالعطلة تكريماً له . فمثل غيرهم من أفراد الشعب ، خرج أهل بيت فوطيْفَر أيضاً ، ما خلا يوسف الذي مكث حارساً للممتلكات سيِّده ، بالإضافة إلى زليخاه التي مكثت بنية الانفراد بيوسف .

لبست زليخاه أفخر أثوابها ، وراحت تُغوي يوسف بتحرُّق أكثر من ذي قبل ، فلكي يُفَلت من أهوائها استدار وانسلَّ على حين غرة من بين يديها . فلماً فعل ذلك أمسكت بثوبه لتُبقِّيه أمامها ، فانشطرت الثوب وبقيت منه قطعة في يدها . فلماً أبصرتها ، ووقَّرت في مُخيلتها مقدار المذلة التي قُوبلت بها ، حلَّ في قلبها كُره عظيم ، كما أنها خافت أن ينمي خبر القصة إلى زوجها . فسارعت إلى استبدال ثوبها الفخم بلباسها المعتاد ، ونادت بفتى ليُحضر رجال البيت . فلماً وصلوا لاقتهم بالصياح والنواح ، وقصَّت عليهم حكاية عن وقاحة يوسف ، فنسبت إليه باطلاً فرية التحرش والمراودة عن النفس ، ثم صدر عنها هي في الواقع ، وزادت على ذلك تُهمة الإرغام بالقوة ، فقالت : «أمسكت بثيابه ورفعت صوتي وصرختُ ، فخاف وانهزم عني ، فبقيت هذه المزقة من ثيابه بيدي» .

فروى الرجال هذه الافتراءات لفوطيْفَر ، فأتى بيته يقدمه شرّ مستطير تلقاء يوسف ، وأمر على الفور بجلد الفتى بقوة . وأثناء إيقاع هذه العقوبة به ، بكى يوسف بقوة ، ورفع رأسه إلى السَّماء متضرّعاً : «تعلم يا الله علم اليقين أنني بريء من هذه الادِّعاءات كلّها ، فكيف أقتل الان زوراً وبُهتاناً؟» .

وقدّم فوطيْفَر يوسف أمام القضاة ، فادّعى عليه قائلاً : «هذا العبد فعل كذا وكذا» . فاستنطق القضاة يوسف ، فأدلى بروايته عن الحادثة قائلاً : «لم يكن الأمر هكذا ، إنما حصل كذا وكذا» . فأمر القضاة عندها بجلب الثوب الممزق إليهم ، ولدى فحصه حكموا ببراءة يوسف . لكنهم مع ذلك أشخصوه إلى السِّجن ، درءاً من مغبة التشهير بامرأة شخص من مستوى فوطيْفَر .

وأودع يوسف السجن اثنتي عشرة سنة مديدة ، وفي خلال هذه المدة زارته زليخاه ، فوعدهت أن ترد إليه حرّيته وكرامته إن هو نزل عند رغباتها . لكنه رفض بثبات ، إلى أن كفت أخيراً عن وطرها . وفي حين كان يوسف محبوساً على هذا الشكل ، محروماً من حرّيته ، كان أبوه يعقوب في أرض كنعان ينوح عليه نواح أب فرقة الموت عن ابنه الحبيب .

* * *

وحدث في ذلك الحين أن فرعوه [فرعون] أقام عيداً لوزراء مملكته وأمرائه⁽¹⁾ ، وكان رئيس السقاة ورئيس الخبّازين قائمين على خدمة المدعوين . فوجد الأمراء في الخبز نُحاتة حجر الطحن ، ولقي أحدهم في الحَمْرَةَ⁽²⁾ ذُباباً . فسخط فرعوه لذلك سخطاً شديداً ، وأمر بالاثنين إلى السجن ، فمكثا فيه حولاً كاملاً .

ثم وكّد لفرعوه ابن ، وكان بكرأله ، فعمّت الفرحة البلد . ولما كان الطفل في يومه الثالث أمر فرعوه بإقامة مأدبة هائلة ، وأمر بإخراج رئيس السقاة لحضورها . لكن الساقى نسي وعده ليوسف بأن يذكره إن رده فرعوه إلى مكانته كما عبّر له ، فكان أن مكث في سجنه عامين آخرين .

في ذلك الحين ، كان يصحاق بن أبرهّام ما زال مُقيماً في أرض كنعان ، وعمره مئة وثمانية أعوام . وكان عيسو ابنه مُقيماً في إدوم . فلما علم عيسو أن أباه قد هرم وضعف بدنه ، وبأن أيامه على الأرض باتت معدودة ، رحل إلى كنعان إلى بيت أبيه ، هو وأهل بيته بأكملهم . وكذلك رحل إلى هناك يعقوب وأبناؤه من حبرون ، وكان يعقوب ما يزال نائحاً على يوسف الفقيد .

(1) قابل على التوراه : تكوين - الأصحاح 40 .

(2) الحَمْرَةَ كلمة آرامية : חמרה حمرا ، معناها : الحمراء كما يدل معناها ومعناها ، دخلت العبرية بنطق الحاء خاء - والحاء في العبرية أصلها كاف أو حاء - فسُمّي بها النبيذ من باب التنكية عن لونه . بينما في قواميس العبرية راج تفسير مصدرها من الخمار أي الغطاء ، بمعنى أنها تحجب العقل ، فأيهما يلوح أقرب إلى تلقائية المنطق وبداهة المعنى ؟ يتفق فقهاء اللغة على أن تسمية الأشياء والألات والأماكن لا تنجم عادةً عن قصة مطوّلة ذات أركان وحواش ، بل عن معنى أو وصف بسيط تلقائي لا تعقيد فيه .

وقال يصحاق ليعقوب : «أذن أبناءك متي كي أباركهم» . فأدنى يعقوب أبناءه الأحد عشر وابنته الوحيدة إلى جانب أبيه . ووضع يصحاق يده على رؤوس بني يعقوب واعتنقهم واحداً إثر الآخر ، قائلاً لهم : «إله أبيكم مبارككم ونسلكم يكثره بعدد نجوم السماء» .

وبارك يصحاق أيضاً أبناء عيسو قائلاً : «مهابتكم تحلّ في قلوب أعدائكم ، ويملاً إلهكم قلوبهم رعباً» . ثم دعا يصحاق بهم أجمع ، أبناءً وأحفاداً ، وخطبهم ، موجهاً كلامه بالخصوص إلى يعقوب : «إن الربّ إله الكون كلّمني فقال : «لنسلك أعطي هذه البلاد ليملكوها ، إن التزم أبناؤك شريعتي وطُرقي . وأقيم العهد الذي قطعته لأبيك أبرهَام» . والآن يا بُنيّ ، فلتعلّم أبناءك وأبناء أبنائك مخافة الربّ وأن يسلكوا الطريق الذي يرضيه ويحسنُ في عينيه . لأنكم إن ثابرتم على شريعته سوف يُعطيكم العهد الذي بذله لأبرهَام ، ويجتبيكم أنتم ونسلكم إلى أبد الدهر» .

ثم مات يصحاق ، فبكي يعقوب وعيسو معاً لوفاته . وحملاً جثمانه إلى مغارة مكفلاه מַעְרַת הַמַּכְפֵּלָה التي في حَبْرُون ، وانضمّ ملوك كنعان جميعهم إلى وفود النّائحين في جنازة يصحاق . فدُفن بتشريف كبير ، كما لو أنه كان من الملوك . وناح عليه أبناؤه اثني عشر شهراً ، بينما أقام ملوك كنعان عليه الحُزن ثلاثين يوماً .

وكان يصحاق قد أوصى بحلاله وممتلكاته كلّها إلى ابنيه . فقال عيسو ليعقوب : «ها هو ما تركه لنا أبونا ، وينبغي أن نقسمه حصّتين ، وسوف أنتقي حصّتي» . فقَسَمَ يعقوب ممتلكات أبيه كلّها إلى حصّتين بحضور عيسو وأبنائه ، ثم خاطب أخاه قائلاً : «خُدْ لنفسك الحصّتين اللتين تراهما أمامك . إذ أن إله السماء والأرض كلّم كلاً من والدينا أبرهَام ويصحاق قائلاً : «لنسلك أعطي هذه الأرض ميراثاً أبدياً» . والآن فكلّ ما خلفه أبونا هو أمامك ، فإن رغبت بالملك الموعود - أي أرض كنعان - فخُدّه ، ويكون هذا الميراث الآخر من نصيبي . أو إن شئتَ هاتين الحصّتين ، فليكن لك كما يحسنُ في عينيك ، وتكون أرض كنعان حصّتي وملكاً لي» .

فقبل أن يجيب عيسو ويقوم بالاختيار ، قصد نايوت נַיִוֹת بن يشمعييل ، الذي كان في تلك الديار آنذاك ، وطلب منه الرأي في ما يختار . فأجابه نايوت : «ها هم الكنعانيون الآن مقيمون في البلاد بسلام وأمان ، فهي في الوقت الحاضر ملك لهم . دَع يعقوب يظن نفسه وارثها يوماً ، ولتأخذ أنت تركة أبيك وثروته الشخصية» .

فاتبع عيسو هذه النصيحة ، وإذا أخذ الممتلكات الشخصية أعطى ليعقوب حصته أرض كنعان من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات ، وكذلك مغارة مكفلاه في جبرون ، التي اشتراها أبراهام من عفرون بن صحر (1) للدفن . فأخذها يعقوب لتكون مدفناً له ولنسله إلى الأبد . فحرر يعقوب صكاً ودون فيه تفاصيل العقد جميعها ، وتم توقيع الشهود عليه وختمه . وهذا هو نص الصك :

«أرض كنعان وجميع المذن التي تضم : الحثيين ، والحويين ، واليبوسيين ، والأموريين ، والفرزيين ، والأمم السبع جميعها ، من نهر مصر إلى نهر الفرات . وكذلك مدينة جبرون ، التي هي قريت أربع קרית ארבע ، والمغارة التي بها . وهذا ما اشتراه يعقوب بالمال من أخيه عيسو ، ملكاً له يؤرثه من بعده لأبنائه وأحفادهم إلى الأبد» .

وأودع يعقوب هذا الصك حقاً من فخار لكي يبقى محفوظاً ، ووضع في يد أبنائه بمثابة حجة لهم .

فأخذ عيسو كل ما خلفه أبوه ، ورحل عن أخيه يعقوب ، كما هو مكتوب في التوراه : «وأخذ عيسو نساءه وبنيه وبناته وكل نفس في بيته ، وماشيته وكل بهائمهم وسائر مقتناه الذي اقتنى في أرض كنعان ، وانتقل إلى أرض أخرى من وجه يعقوب أخيه» (تكوين - 36 : 6) . ورحل بكل مقتناه إلى أرض سعير (36 : 6) فلم يرجع مطلقاً إلى أرض كنعان ، التي غدت ميراثاً أبدياً ليسرائيل .

* * *

(1) انظر التوراه : تكوين - 23 : 8-9 .

ثم إن الذي كان من أمر قَرَعُوهُ [فرعون] أنه أصدر بلاغاً عبر أرض مصر كلها لجميع ما فيها من حكماء . ودعاهم للمثول بين يديه ، والاستماع إلى الحلم الذي أزرعجه . فقال : «مَنْ أمكنه أن يعبر لي معنى هذه الرؤيا بشكل صحيح أعطيته كل ما تشتهي نفسه ، كائناً ما كان . أما مَنْ كان يقدر على تعبير الأحلام ولا يطابق أوامري ، أمرتُ به فيُعدم بلا مُراجعة» .

فأتى كل مَنْ في أرض مصر من حكماء وعرّافين وسَحَرَة ، ووقفوا بين يدي الملك . فروى لهم الملك حُلْمه ، وبرغم كثرة التعبيرات التي طُرحت لم يتفق منها اثنان قَطَّ على معنى واحد . وراح بعضهم يُناقض الآخر ، فلم يزيدوا الملك إلا حيرة على حيرة . وتعددت التعبيرات للغاية ، فمنهم مَنْ قال : «البقرات السَّبْع السَّمَان سبعة مُلوك يحكمون عرش مصر من نسل الملوك ، والبقرات السَّبْع العجاف سبعة أمراء يُولدون لهم ، ثم في عاقبة الأمر يُهلكون الملوك السَّبعة . أما السَّنابل السَّبْع الجياد فهي سبعة أمراء عظام من هذه البلاد ، يقعون في الأيام التالية بالحرب في أسر سبعة أمراء ، هم الآن ضعاف ولا يُؤبه لهم» .

فيما قال آخر : «بل البقرات السَّبْع السَّمَان هنّ سبع ملكات سوف تتزوجهنّ في الأيام التالية ، والبقرات السَّبْع العجاف تدلّ على أن أولئك الملكات سوف يمتنّ خلال مدة حُكمك أيها الملك ! أما السَّنابل السَّبْع الجياد والسَّبْع الدِّقّاق فهنّ أربعة عشر ابناً سيولدون لك ، وسوف يقتتلون فيهزم السَّبعة الضعاف إخوانهم السَّبعة الأقوياء» .

غير أن الملك لم ترُق له هذه التفسيرات كلها ، وأقام كاسفاً مضطرب البال ، لأن الرّب قدّر ليوسف أن يتمّ إطلاق سراحه من السّجن وأن يرتقي إلى منصب رفيع . ولهذا الشأن بقي قَرَعُوهُ غير راضٍ بكلام حكمائه .

وازداد حنق الملك ، فصرف الحكماء من حضرته ، وخرج من أمامه جميع حكماء مصر وعرّافها وسَحَرَتها يُجرّجرون أذيال الخيبة . وأمر الملك في فورة غضبه بهؤلاء جميعاً أن يُقتلوا . فلماً سمع بذلك رئيس السّقة التمس المثول بين يدي الملك ، وتكلّم أمامه بعين الخضوع قائلاً :

«أيها الملك فلتعش إلى الأبد ! وليدُم عزك أيها الملك على البلاد كلَّها دائماً وأبداً ! كُنْتُ مرّةً غاضباً على خادمك ، فأمرت بحبسه ، سنةً كاملةً أمضيتها في السّجن ، أنا ورئيس الخبّازين . وكان معنا هناك في زنزانتنا خادمٌ عبْرِي يتبع بيت رئيس الحرس . كان اسمه يُوسيف ، وإذ غضب عليه سيّده أودعه السّجن ، حيث راح يخدم رئيس الحرس ويخدمنا أيضاً .

«وحدث لما كُنّا نمضي هذه السنة في السّجن أننا رأينا كلّ منّا حلماً ، فعبرنا العبد العبْرِي لكل واحد منا حسب حلمه . فكان كما عبّر لنا الحلمين وكما تكلم جرى ووقع في الحقيقة .

«لذلك يا سيدي الملك ، أرجوك ألا تقتل حكماء مصر سُدَى . وها هو العبد ما برح في السّجن ، فإن حَسُن في عينيّ الملك فليُستدعى إليه . وليستمع إلى الأحلام التي أرقت بال الملك ، وإنّه لقادر على تغييرها بوجه الصّواب» .

اعتبر الملك بكلام رئيس السّقاة ، فأمر بإحضار يُوسيف إليه . لكنه أكّد على مُقدّميه وجوب الانتباه إلى عدم إفزاع الفتى ، مخافة أن يحول الخوف بينه وبين تعبیر الحلم بشكل صحيح . فذهب خدم الملك وأحضروا يُوسيف من زنزانته ، واحتلّق وأبدلوه ثياباً جديدةً وأخذوه للمثول بين يدي الملك . وكان الملك يجلس على عرشه ، فدُهِش يُوسيف وانبهر بمراى الجواهر التي تزِين عرشه إذ راحت تبرق وتلتمع .

وكان يؤدّي إلى عرش الملك سبع درجات ، وكان العُرف في مصر أنه إن مثل أمير أو واحد من الأعيان بين يدي الملك ، أن يصعد إلى الدّرجة السادسة . وأما إن طُلب رجلٌ أدنى أو مواطن عادي من الأهلين للمثول أمامه ، ينزل الملك إلى الدّرجة الثالثة ويخاطبه منها . ولهذا لما جُلب يُوسيف إلى حضرة الملك ركع إلى الأرض عند أدنى العرش ، فنزل الملك إلى الدّرجة الثالثة وكلمه فقال :

«إنني قد رأيتُ حلماً ، ومن بين حكماء البلد وسَحَرته لم يكن ثَمّة من عبّره لي . وقد سمعتُ عنك أنك واسع البصيرة وتنعمُ بمزايا ربّانية ، فأرسلتُ في طلبك كيما تُعبّر لي حلمي» .

فقال يُوسيف : «أيها الملك ، لا بعلمي وقوتي ، بل الله يُجيب ويُعطي فَرَعُوهُ السَّلَامَ» . ووجد يُوسيف حُطوة في عيني الملك ، وأنبأه بتعبير حلمه . وكانت رُوح الله مع يُوسيف ، فراح الملك يُصغي بكامل جوارحه ونفسه إلى كلام يُوسيف .

فقال يُوسيف لَفَرَعُوهُ : «لا يبدرنّ في ظنّ الملك أن حلميه اثنان منفصلان ومختلفان ، بل إنهما يُنبئان عن نذير واحد ، وما ينوي الرّبّ فعله بالأرض إنما يُكاشِف به فَرَعُوهُ في رؤياه . فاسمح لي أن أفيدك أيها الملك حول الطريقة التي تُنجي بها حياتك وحياة سكّان بلادك بأسرهم من شرور المجاعة الرهيبة التي ستحلّ قريباً فتضرب البلاد وتُتلف خصوبتها . فلينظر الملك رجلاً حكيماً فهيماً يُقيمه على البلاد ، يكون عارفاً بشؤونها ، وليُعيّن هذا دونه وكلاء فيذرعون طول البلاد وعرضها لجمع الطعام في سنيّ الخير ، ويخزنونه بعناية للسنين القادمة ، فلا تنقرض البلاد في سنيّ المجاعة التي تأتي . وليشرّع الملك لأهل البلاد بأن على كل واحد فيهم أن يجمع من نتاج الأرض ويخزنه في سنيّ الخير ، لكي يكون ذخيرة له عندما تنضبّ الزروع وتُمحلّ الأرض» .

فأجاب الملك : «وكيف جزمت أن تعبيريك للحلم صحيح ؟» ، فأجاب يُوسيف : «ثمة علامة على صدق كلامي . سيولد للملك ابن ، وفي يوم ولادته يموت ابنك البكر ، الذي عمره الآن سنتان» . وعُقب أن أتمّ يُوسيف خطابه ، رجع للملك وانصرف من حضرته .

وحدث أن الواقعة التي تنبأ بها يُوسيف جرت بالفعل . فلقد ولدت الملكة ابناً ، وفي اليوم الذي حُمِلت به البشارة إلى الملك أصابه سرور بالغ . ولكن ما إن خرج البشير بها ، حتى ألقى خُدام الملك ابنه البكر ميتاً ، وكان هناك بكاء وعويل عظيمين في قصر الملك . فلماً سأل الملك عن سبب البكاء والصياح قيل له عن الفاجعة ، فتذكّر كلام يُوسيف وأقرّ به مصداقاً ما فيه (1) .

(1) هذه الرواية عن صدق يُوسيف وموت ابن فرعون البكر ليست في التوراه ، بل ينفرد بها التلمود . راجع نصّ التوراه : تكوين - الأصحاح 41 . وهذا مثال آخر على الحواشي التفسيرية ، لكننا في القسم الثاني من كتابنا سنشرح آلية هذه الحواشي أكثر .

بعد هذه الأمر دعا الملك بأمرائه ومُقدّميه وأعيان دولته وجمعهم بأسرهم ، فلماً مثلوا بين يديه قال لهم : «قد شهدتم وسمعتُم مقالة هذا الفتى العبري ، وتعلمون أنّه كما تكلم قد جرت الأحداث . لذلك فعلينا أن نصدّق بأن تعبيره الحُلُمي هو الصّحيح ، وبأن نصائحه ذات شأن واعتبار بالعين . ينبغي لنا أن نتأهّب استعداداً لهذه المجاعة التي ستحلّ بنا لا محالة . لذلك فإني أطلب إليكم أن تلتمسوا لنا عبر مصر كلّها رجلاً ذا حكمة ومعرفة في قلبه ، نُقيمه حاكماً على البلاد» .

فأجابوا الملك : «إن نصائح العبري قيّمة للغاية ، فطالما أن البلاد في يد الملك يفعل بها ما يحسُن في عينيه ، وطالما أن العبري أثبت حكمته وحُدّقه ، فلم لا يختاره مولانا الملك ويُقيمه حاكماً للبلاد؟» . فقال الملك : «نعم ، بالفعل . إن كان الله أعطى علم هذه الأمور للعبري ، فإذا ليس فينا مَنْ هو أكثر حكمةً وفهماً منه . فما اقترحموه يوافق ما يجول بفكري . سنعيّن العبري حاكماً لنا ، ومن خلال حكمته سوف تنجو بلادنا من مخاطر العوز والفاقة» .

فأرسل فرْعُوهُ في طلب يُوسيف ، وقال له : «قد نصحتني أن أعين رجلاً حكيماً فهيماً ليجنب البلاد مغبةً المجاعة . ولا ريب أنه ليس فهيمٌ حكيماً مثلك بعدما عرفك الله هذه الأشياء كلّها . واسمك لا يكون بعدُ يُوسيف ، بل يكون «صافنتُ قُنعِيح» (כנעני סאפנת) (كاشف الخفايا)⁽¹⁾ ، وبه تُدعى بين الناس . ولا يكون أعلى منك يداً في المملكة غيري أنا فرْعُوهُ ، وبحسب كلماتك تجري أحكام مصر . ولا يكون فيها أعلى منك إلّا بي بعرضي هذا» .

(1) انظر التوراه : تكوين - 41 : 45 . أما في الترجمات العربية للتوراه عن الترجمة السبعينية العتيقة ، فترد العبارة : «مُخلّص العالم» في الترجمة الكاثوليكية ، أما في البروتستانتية : «صَفَنَاتُ قُنعِيح» ، مما دلّ على جهل الترجمة المطلق باللسان العبري ، إذ حركوا الحاء في الكلمة الثانية بالفتحة ومن قبلها ياء ساكنة . أما القاعدة العبرية في هذه الحالة (برغم إثبات التّاح فعلاً على الحيت) أن الحاء الأخيرة المحركة يّتاح ويسبقها حرف يُود أو حركة صيري تُلفظ : سِيح ، ككلمة : مَفْتِيح . ويتماثل مع ذلك قاعدة اسم نُوح أعلاه . والتسمية العبرية المذكورة تُلفظ بالإشكنازية : «تسافينت پائنيح» . وفي العبرية : סאפנת يعني : أخفى ، خبأ ، ستر . أما סאפנת فيعني : حلّ ، فسر ، فكّ المغاليق .

ثم خلع الملك خاتمه من إصبعه وجعله في يد يُوسيف ، وألبسه حُلّة ملكيّة وجعل على رأسه تاجاً وطوّق عنقه بسلسلة ذهبية . وأمر قَرْعُوهُ بِإِرْكَابِ يُوسيف في مركبته الثانية في أرض مصر بأجمعها . وتبعه الرّجال بالعزف والنّداء ، وكان يمضي وبصحبته حاشية كبيرة . فكان يقدّمه خمسة آلاف جندي وبأيديهم سيوف مسلولة تلتمع في نور الشّمس ، ثم يتبعه عشرون ألفاً . وكان أهل البلاد ، رجالاً ونساءً وولداً ، يتفرّجون على الموكب من التّوافذ وأسطحة البيوت ، وحاز حُسن يُوسيف إعجاب عيون النّاظرين .

وكانت الزّهور تُنثر في طريقه حين يمشي ، ويُعطّر الجو بالأطياب وعبق البَلَسَمِ والبُخور . وكان يُعلَن ببيانات عن سُلطة يُوسيف في الأماكن البارزة ، ويُهدّد بالموت مَنْ لا يبذل أمامه فروض الطاعة . لأنّه كان يُعدّ من ضروب الإهانة للملك عدم تكريم نائبه الذي أقامه على مملكته . فكان النّاس يركعون أمامه ويصيحون : «عاش الملك ونائبه !» . أما يُوسيف ، فلما تربّع في عربته الملكيّة ، رفع طرفه إلى السّماء وقال من أعماق قلبه : «هو الله يرفع الفقير من التّراب ، ومن الحماة يرفع المحتاج . ياربّ الجيوش ⁽¹⁾ אֲדֹנָי צְבָאוֹת ، قد أفلح مَنْ آمَن بك واتكل عليك» ⁽²⁾ .

* * *

(1) اسم الله يرد في التّوراه أيضاً بأشكال مغايرة ، سنبحثها في القسم الثاني من كتابنا . ومراراً ترد عبارة : إله الجيوش «إلهوهم صبؤوت» ، كما في مزامير داود (59 : 6) : «وأنت ياربّ إله الجيوش إله يسرّئيل» : وאתה יהוה-אלהים צבאות אלהי ישראל .
(2) هاتان الفقرتان الأخيرتان أكثرهما ليس في التّوراه .

الفصل الخامس مَجْد يُوسيف ودخول يعقوب إلى مصر

وحدث من بعد ذلك أن يُوسيف رأى أسنات נַסְנָא بنت فوطي فرَع⁽¹⁾ 517 פלא ، فكانت كدرةً بين جميلات البلد ، فأحبّها واتّخذها زوجةً له . ولم يكن يُوسيف تجاوز الثلاثين من عمره عندما تولّى هذا المنصب الرفيع الكبير الشأن . وابتنى لنفسه قصرًا نفيساً تام المواصفات والمُلحقات ، فجاء على غاية الإتقان لدرجة أن ثلاث سنوات من الزمن لزمّت لإِنجازه . وكان الرّبّ مع يُوسيف وضاعف حكمته وفهمه ، وباركه بطباع دمثة ونبيلة فسرعان ما كسب قلوب أبناء البلاد ومحبتهم .

وخلال سبعة أعوام ، كما كان تنبأ يُوسيف ، ضاعف الرّبّ غلال مصر سبع مرّات . فعين يُوسيف مُقدّمين لجمع الوفّر . وبنوا أهراءً ضخاماً كوّموا فيها القمح خلال سبع سنوات الخير ، حتى بلغت الكمّيات المخزونة حدّاً لم يعد بالإمكان إحصاؤه . وثابر يُوسيف ومقدّموه على الانتباه لدرء أهراء الجبوب عن آفتي العثّ والعفن . وكذلك راح أهالي البلاد أيضاً يخزّنون الفائض من محاصيلهم ، لكنهم ما كانوا حريصين عليه ونابهين كفاية كما كان يُوسيف ومعاونوه .

أما امرأة يُوسيف فولدت له ابنين : مَنشيه מַנְשֵׁי وإفرايم אִפְרַיִם ، فعلمهما أبوهما مثابراً طريق الحق⁽²⁾ . فاستمعا إلى كلامه ولم يحيدا عن طرق التهذيب إلى اليمين أو إلى اليسار . وشبّا فصارا فتّيين لامعين نابهين ، وكانا يلقيان من الناس كل التشريف كما لو كانا من أبناء الملك ذاته .

(1) راجع التّوراه (تكوين - 41 : 45) : فوطي فرَع كاهن أون כַּהֵן אוֹן 17 א .
(2) في سفر التكوين (41 : 51) أن يُوسيف سمى بكره مَنشيه قائلاً : إن الله قد أنساني جميع شقائي وكل بيت أبي ، وسمّى الثاني إفرايم قائلاً : إن الله قد أنماني في أرض مذلتني .

غير أن سنوات الخير السبع أتت إلى ختامها ، فأضحت الحقول مُمحلّة وكفّت الأشجار عن حمل الثمار ، وراحت المجاعة التي تنبأ بها يوسف تُلقى بظلالها القاتمة وتهدد بحلولها على الأرض التي كانت تُعرف بخصوصيتها .

فلما فتح النَّاس حواصلهم ، وجدوا مع أسفهم البالغ أن العثَّ والعَفَن قد استغلاً إهمالهم أي استغلال . فصاحوا بقرعوه : «أعطنا طعاماً ، لا تدعنا نموت من الجوع أمامك نحن وأطفالنا ، أعطنا نرجوك من الوفر المكدّس في أهرائك» .

فأجابهم قرعوه : «لِمَ تتصايحون إلي أيها المهملون ؟ أما كان نبيكم يوسف إلى المجاعة التي حلّت بنا ؟ فلم لم تستمعوا إلى كلامه وتطيعوا أوامره إليكم بأن تلمزوا جانب الاقتصاد والحرص ؟» . قال النَّاس : «وحقّ حياتك يا مولانا ، كما تكلم يوسف قد فعلنا ، فرحنا نجتمع ذُرتنا خلال سنوات الخير ، ولكننا لما حلّ فينا الجوع وأمحلت الأرض فتحنا صوامعنا فوجدنا العثَّ قد أهلك المون التي كنّا آخذين في تخزينها» .

فلخشية الملك أن تكون استعداداتهم غير مُجدية في مواجهة آفة المجاعة ، أمر النَّاس بالتوجّه إلى يوسف ، وقال لهم : «أطيعوا أوامره ولا تعصوا كلامه» . فكرر النَّاس أما يوسف صياحهم طلباً للطعام ، كما كانوا فعلوا أمام قرعوه . ولما سمع يوسف كلام النَّاس وأدرك حاجتهم الملحة للمعونة ، فتح أهراء الملك ، وراح يبيع المون للنَّاس الجياع .

وراقت المجاعة تتفاقم وتزداد في أرض مصر ، وانتشرت في كنعان وأرض الفلسطينيين ، وفي الجانب الآخر من نهر الأردن . فلما سمع أهالي هذه البلاد بأن القمح متوفر في مصر ، أتوا بأجمعهم إليها ليمتاروه ، مما ألجأ يوسف إلى تعيين العديد من المقدمين لبيع القمح للحشد الهائل من النَّاس .

وراح تفكير يوسف يتجه إلى موطن أبيه ، وأدرك أن إخوته سيضطرون للمجيء إلى مصر لشراء الغذاء ، حيث أن المجاعة كانت شديدة في ديرتهم . ولذا قام بتوجيه الأوامر أنه لا يجوز لأحد ممن يرغب بشراء القمح أن يرسل خادمه بهذا الغرض ، بل على ربّ الأسرة الحضور شخصياً أو إرسال أبنائه . وأعلن أيضاً

بأن أمر الملك ونائبه ينصّ على أنه لا يجوز لأحد شراء القمح من مصر بغية بيعه والاتجار به في البلدان الأخرى ، إنما يقتصر حقّه على الحصول على القوت القائم بأود أسرته وحسب . وكذلك فلا يحقّ لأيّ شارٍ ابتياع أكثر من حمل دابّة واحدة فقط من القمح .

وقام بتعيين حرّاس على مداخل مصر كلّها ، وكل من يمرّ عبر هذه المداخل كان ينبغي له تقييد اسمه واسم أبيه في سجلّ مخصّص ، ويتعيّن على الحرّاس جلب هذا السّجل في كل ليلة ليُوسيف كي يُراجعه . وخطّط يُوسيف لذلك كلّه بغية أن يثبّت من مجيء إخوته لشراء الغذاء . وتمّ تنفيذ هذه التعليمات بأسرها تماماً بحذافيرها .

فلما علم الآب Jacob يعقوب أن القوت متوقّف للمبيع في مصر ، طلب إلى أبنائه السّفر إليها والتزوّد بمؤن غذائية ، حيث كانت المجاعة تتفاقم بشكل يُنذر بالخطر ، وخشي أن تعاني أسرته من عقابيلها . وأوصى يعقوب بنيه أن يدخلوا المدينة من مداخل عدّة ، حتى لا يُقابلوا بالرفض بكمية الشراء التي يرومونها ، ففعلوا ما أمرهم به .

وهكذا هبط بنو يعقوب إلى مصر ، وفي أثناء طريقهم فكّروا بأخيهم يُوسيف ، وراحت ضمائرهم تؤنّبهم على القسوة التي عاملوه بها ، فقال بعضهم للآخر : «ترانا نعلم بأن يُوسيف قد حُمّل إلى مصر ، فالآن حينما نبلغ المدينة فلنبحث عنه ، فرما نقع على أخباره ، ونستردّه عندها من سيّده» .

هبط بنو يعقوب العشرة إلى مصر ، وكان بنيامين ليس معهم ، لأن أباه خشي أن يلحقه سوء كما حصل لابن راحيل الآخر ، فأبقاه إلى جانبه في موطنه لم يبارحه . ودخل بنو الآب العشرة أرض مصر من عشرة مداخل مختلفة ، فدوّن الحرّاس الذين عند المداخل أسماءهم ، فأرسلت مع سواها إلى يُوسيف في ختام النهار . ولما قرأ يُوسيف الأسماء أمر بإغلاق الأهراء كلّها ما خلا واحداً ، وأمر أيضاً بحضور كل شارٍ أمام هذا الهُري لتقديم اسمه . وذكر أسماء إخوته قائلاً : «إن تقدّم أمامكم هؤلاء فقوموا بالقبض عليهم ، بأكملهم» .

فلما دخل بنو يعقوب المدينة التقوا ثانية ، وقبل أن يقوموا بشراء القمح قرروا القيام ببحث مفصل عن أخيهم . فزاروا جميع أماكن اللّهُو العامّة ، وأماكن العبادة ، ولكن رغم متابعتهم البحث ثلاثة أيام لم يظفروا بظائل .

فلما انقضت الأيام الثلاثة ، ولم يظهر إخوة يُوسيف أمام الهُري ، تعجّب هذا الأخير لتأخّرهم ، وأرسل ستة عشر رجلاً من عبيده للبحث عنهم خفية في المدينة . فتمّ العثور عليهم بين ممثلي المسارح المصريين ، وجلبوا على الفور أمام نائب الملك .

كان يُوسيف جالساً على عرشه مُرتدياً حلّته الملكيّة ، وحوله مُقدّموه ، لما مثل إخوته وركعوا أمامه إلى الأرض . فبهروا للغاية لما رأوه أمامهم من هذا السيّد الباذخ صاحب الشوكة ، بما عليه من حُسن وفخامة طلعة ، لكنهم لم يميّزوا فيه أخاهم .

فكلّمهم يُوسيف قائلاً : «من أين أنتم ؟» ، أجابوا : «من أرض كنعان ، لكي نبتاع طعاماً ، فهنا هي المجاعة قد أثّخت في الأرض ، وقد علم عبيدك أن القمح مطروح للبيع في مصر ، فقدمنا هنا لننتار مؤناً لأنفسنا ومثلها لأهلينا» . لكن يُوسيف قال : «لا ، بل أنتم جواسيس ، وإلا فقيم دخولكم المدينة من عشرة مداخل مختلفة ؟» ، أجابوا : «لا بل نحن سليمو القلب ، عبيدك ليسوا قطُّ بجواسيس . بل عبيدك إخوان بنو رجل واحد ، وبأمره دخلنا المدينة مُنفصلين ، لأنه خشي أن مجيئنا معاً قد يلفت انتباهاً غير محمود» . لكن يُوسيف أصرّ : «بل أنتم جواسيس ، إنما جئتم لتجسّوا تُغور الأرض . فكل امرئ يأتي لابتياح القمح يتمّ عمله ويرحل ، أمّا أنتم فهنا لكم في المدينة ثلاثة أيام ، في الأماكن العامّة وبين الممثلين . الأمر كما قلتُ ، أنتم جواسيس» .

أجابوا : «معاذ الله ، سيّدنا يسيء بنا الظنّ ، نحن اثنا عشر أخاً ، بنو رجل في أرض كنعان ، يعقوب بن يصبّاق ، حفيد أبرهّام العِبري . هو ذا أخونا الصغير عند أبنينا ، ونحن هنا عشرة ، والواحد مفقود لا ندرى أين يكون . ظننا أنه ربما يكون في بلادك ، لذلك بحثنا عنه في الأماكن العامّة ثلاثة أيام» .

سأل يوسف : «وما تُراه يفعل ابن يعقوب في هذه الأماكن العامّة؟» .
أجابوا : سمعنا أن اليشمعيليين قد باعوه في مصر ، ولما كان ذا مظهر بالغ الحسن
فقد وقر في ظننا أنهم قد يكونوا باعوه في أحد المسارح ، لذلك قصدنا تلك
الأماكن راجين أن نعثر عليه ونسترده» .

قال يوسف : «لفنترض أنكم عثرتُم عليه ، وطلب فيه سيّده مبلغاً طائلاً
من المال ، هلاً كنتم حقاً مستعدّين لمثل هذه المطالب الفاحشة؟» فأجاب الإخوة
بالإيجاب ، وتابع يوسف : «لفنترض أيضاً أنكم عثرتُم عليه ، وأن سيّده رفض
بيعه أو تسليمه إليكم بأي شرط كان ، فما أنتم فاعلون والحالة تلك؟» .

أجابوا : «في هذه الحالة إن لم يُجد الرّجاء ولا بذل المال شيئاً ، سوف ننفذ
أخانا بالقوّة . أجل ، ولو كلّفنا ذلك قتل سيّده والفرار به إلى بيت أينا» . أجاب
يوسف : «الأمر كما قلتُ إذأ ، ما أنتم إلا جواسيس ، فها أنتم جتتم تخطّطون
بمؤامرات دنيئة لأذية سكان مدينتنا . لقد كنّا سمعنا وعلمنا كيف قتلتم كل رجال
شكيم في أرض كنعان من أجل أختكم ، والآن تبغون معاملة رجال مصر بالطريقة
ذاتها من أجل أخيكم . لكننا برغم ذلك كلّه سمنحكم فرصة لكي تُثبتوا حسن
نواياكم . فلترسلوا واحداً منكم إلى بيت أبيكم لتحضروا أخاكم الأصغر الذي
كنتم ذكرتموه . فإن فعلتم ذلك علمتُ أنكم صادقون . ودونكم ثلاثة أيام
للتفكير بالأمر» .

وبناءً على أوامر يوسف ، تمّ احتجاز إخوانه في الحبس ثلاثة أيام .

بعد ذلك الحين اتفق الإخوة على ترك واحد منهم بمثابة رهينة ، فيما يمضي
الآخرون إلى كنعان للهبوط بينيامين إلى مصر . ولذا قام منشيّه بن يوسف
باختيار شمعون كرهينة ، وتمّ الإبقاء عليه في الحبس .

وقبل أن يغادر الإخوة ، خاطبهم يوسف مرةً أخرى : «حذارٍ أن تنسوا
أوامري ، فإن أحضرتُم أخاكم إليّ علمتُ أنكم سليمو القلب ، ويكون لكم أن
تنتقلوا بحريّة في البلاد ، ولا أؤذي أخاكم بل يكون له حريّة الرجوع معكم إلى
بيت أبيكم بسلام» .

فركعوا إلى الأرض أمامه ، ورحلوا من أرض مصر . وفي أثناء رحلتهم إلى موطنهم توقفوا بخان لإطعام حميرهم ، وفتح ليوي كيسه⁽¹⁾ ، وإذا به يعثر على الفضة التي دفعها ثمناً للقمح في فم الكيس . فاستطار قلبه وأخبر إخوته بالأمر ، فبهتوا هم الآخرون . ولما وجد كل واحد منهم فضته عادت إليه ، صاحوا قائلين :

«ما فعلَ الله بنا ؟ أيستردّ الربّ منا الرّحمة التي بسطها لآبائنا ، إلى أبرهَام وإلى يصحاق وإلى يعقوب ، بأن يُسلمنا إلى أيدي أمير مصر فيهبزأ بنا ويجعلنا أمامه ألعوبة ؟» . فقال يهوداه : «إنّه لحقّ ! أوكم نأثم⁽²⁾ ونُخطئُ أمام الربّ ؟ لقد بعنا أخانا ، لحمنا . فلمَ نتشكى الآن من أن نَعَمَ الله التي أسبغها على آبائنا قد حُرّمنا منها الآن ؟» .

وقال رؤبين : «ألم أقل لكم لا تأثموا في الولد ؟ وأنتم لم تستمعوا لي ، فنحن مُطالبون بدمه . فيمَ قولكم إذاً : «أين هي تلك الرّعاية التي وعد الربّ بها آباءنا ؟» . الحقّ أننا بُننا بالخيرِسان وضيعنا حمايته» .

ثم قصّ الإخوة على أبيهم جميع ما نالهم في أرض مصر ، فقال لهم : «ما ذا الذي فعلتُم بي ؟ أرسل إليكم أخاكم يُوسيف للاستعلام عن أخباركم ، فلا أرى وجهه بعدها قطّ ، وتأتونني بقميصه المدمى قائلين : «وحش ضارٍ في البريّة افترس ابنك» . وشمّعون أوجههم معكم لشراء الطعام ، فتقولون لي إنه محبوس في بلد لا رحمة فيه . ثم تبغون الآن أخذ بنيامين هو الآخر ؟ بيُوسيف وبنيامين تُنزلون شيبتي بحسرة إلى القبر . لا ينحدر ابني معكم» .

(1) عبارة الأصل : סָק (سَق) كيس ، بينما في التوراه العبريّة : جُوالق ، فارسيّة (جُوال) !
(2) استخدمنا هذه المفردة (إثم ، يَأثم ، أئيم) رغم أن لا علاقة لها بمجموعة اللغات المُصطلح على تسميتها بالساميّة ، وهي يونانيّة الأصل : $\alpha\tau\iota\mu\iota\alpha$ (أتيماً) تعني : فسق ، فحش ، ذنب . ويُشتق منها : $\alpha\tau\iota\mu\omega\varsigma$ (أتيموس) : فاسق ، فاحش ، مُذنب . ولها في اليونانيّة اشتقاقات عديدة تدلّ على أصلها فيها ، ثم إنها لا توجد في اللّغات الساميّة قديماً بل دخلت العربية حصراً من اليونانيّة في زمن قديم (بالاحتكاك الثقافي واللغوي مع بيزنطة) فظنّت فيها أصليّة . وفي العبريّة : אָשָׁם (راشاع) : قاس ، شرير ، مُذنب . من فعل (راشع) : أخطأ ، أساء ، أذنب . أما عبارة التوراه فهي : אָשָׁם (خاطا) : أخطأ .

فقال رؤبين : «حياة ولديّ أجعلها في يدك ، فإن لم نردّ إليك بنيامين سالماً
أمناً ، تكون حياتهما تعويضاً للخسارة . لكن يعقوب عارضه قائلاً : «ولا حتى
أنتم تهبطون مصرأ من جديد ، بل تبقون هنا . وابني لا ينحدر معكم فيموت كما
مات أخوه» .

فقال يهوداه لإخوته : «الآن لا تُلحفوا عليه بالطلب أكثر . بل دعوه حتى
تنفذ هذه المؤن ، فإن ألبأتنا الحاجة وعضنا الجوع ترونه نزل عند رغبتنا» .

وحدث أنه عندما نفدت المؤن تقاطر الأحفاد حول يعقوب وتصايحوا به
باكين : «أعطنا خبزاً!» . فتمزق قلب يعقوب من المرارة لبكائهم ، واستدعى
أبناءه فقال لهم : «ألستم تسمعون أصوات أبنائكم سيكون طلباً للطعام ؟ إنهم
يصرخون بي باكين : «أعطنا خُبزاً» ، وليس لديّ ما أعطيهم لهم . فأرجوكم
اهبطوا مصرأ وامتاروا لنا شيئاً من الطعام» .

فأجاب يهوداه قائلاً لأبيه : «إن أرسلت معنا بنيامين مضيئنا ، وإلا فليس
إلى ذلك سبيل . فملك مصر عاهل ذو بأس شديد ، لا نجروء على العبث معه .
ونحن إن عدنا إلى مصر وليس معنا أخونا الأصغر ، فإنه لُهلكتنا جميعاً . يا أبانا
ليس في وسعنا أن نعصي هذا الملك ، فهو أعظم حتى من أبيمليك الفلسطيني
מלך הפלשתי . إنك لم ترَ ما رأيناه ، عرشه وقصره وحشود المقدمين
حوله ، ولم تتلمس مثلنا حكمته وعلومه وفهمه . فقد باركه الله بمزايا فائقة ،
وهو أعظم من كل الخلق قاطبة . لقد أنبأنا بأسمائنا ، وبما حدث لنا في سني
شبابنا ، حتى أنه سأل عنك قائلاً : «أما زال أبوكم على قيد الحياة ؟ أموره كلّها
بخير؟» ، وأنت لم تسمع عن سلطته كما سمعنا ، فحكمه على الناس ناجزٌ
مُطلق ، فإن قال امضوا يمضون وإن قال تعالوا يأتون ، والناس رهن كلمته ، حتى
بغير صوت سيده فرعوه . أوآه يا أبي ، أرسل معنا الفتى ، فبدونه لا نستطيع
المضي . وإن أبيت رأينا بأعيننا أولادنا يموتون من الجوع» .

فقال يعقوب متحسراً : «لَم أخبرتم الرجل أن لكم أخاً ؟ ألا يسّ وساء ما
قد صنعتم !» .

قال يهوداه : «سَلَمَني الفتى بيدي ، ودعنا نهبط مصرأ ونبتاع القمح . فإن لم أعدهِ إليك آمنأ فأنا مُذنب إليك طول حياتي . أطفالنا يتتجبون أمامك ، وليس لدينا ما نسدّ به رمقهم . فارحمهم وأرسل أخانا معنا . ألم تحدّثنا مراراً عن الرّحمة التي وعدك بها الله ؟ فإذا هو يحفظ ابنك ويعيده إليك لم يمسه ضررٌ . فلتدعُ الرّبّ من أجلك وتضرّع إليه أن يعطينا نعمةً وحظوةً في عيني أمير مصر . وما نحن لو أننا ما مكثنا هنا طول هذه المدة لكننا الآن قد عدنا بالطعام . أجل ، كُنّا عدنا إليك مرّتين ، ومعنا ابنك سالماً آمنأ» .

فأجاب يعقوب : «الرّبّ الإله يهبكم رحمةً في عيني ملك مصر ومُقدّميها . به آمنتُ وعليه اتكالي . قوموا فامضوا إلى الرّجل ، ومعكم خذوا هدايا من أطيب فاكهة الأرض . الرّبّ يكون معكم ، وتعودون إلي بأخويكم بنيامين وشِمعون» .

فقام بنو يعقوب وانحدروا ثانيةً إلى مصر . واصطحبوا معهم بنيامين ، كما أخذوا هدايا وكميةً مُضاعفة من الفضة . فدعهم يعقوب قائلاً : «انتبهوا للفتى ، لا تُفارقوه لا في مصر ولا في أثناء الطريق» .

ولما رحلوا قصّدَ حضرة الله القدير بصلاته داعياً : «يا ربّ ، يا إله السّماء والأرض ، أضرع إليك فلتذكّر عهدك إلى أينا أبرهّام . وأضرع إليك أن تذكر حُسنك بيصحاق أبي ، فلاجلهما ترفّق بأبنائي ولا تُسلمهم لأيدي ملك مصر بالسّوء . أعدهم إلي ، أتوسّل إليك ، وأرجعهم سالمين مع أخويهم» . أما زوجات بني يعقوب وأحفاده ، فرفعوا هم الآخرون عيونهم وقلوبهم إلى السّماء بالبكاء قائلين : «خلّص يا ربّ آباءنا من ملك مصر» .

ووجه يعقوب كذلك رسالة ، ليسلمها أبناءه ليدي يُوسيف ، وفيها⁽¹⁾ :

«من خادمك يعقوب بن يصحاق بن أبرهّام العبري . من أمير الله إلى الملك الحكيم ذي البأس صافنّتُ فَعَنِيحَ ملك مصر ، سلامٌ لك» .

(1) هذه الرّسالة لا ذكر لها في نصّ التّوراه ، راجع سفر التكوين - الأصحاح 43 . ولدى المقابلة على نصّ التّوراه نجد في التلمود عموماً زيادات تفسيرية كثيرة .

«يعلم سيدي الملك جيداً أن الجماعة قد أئخنت في أرض كنعان ، لذا قد وجّهتُ أبنائي إليك لشراء الطعام لقوتنا . وقد كلّفتهم ألا يلجوا المدينة من المدخل ذاته ، لئلا يُثير دخولهم معاً انتباه الأهلين . فها قد أدّى التزامهم بأوامري إلى وقوعهم تحت ظنك بكونهم جواسيس . فيا سيدي ، أيعسر على رجل حصيف مثلك أن يستجلي الحقيقة من وجوه أبنائي ؟ لقد سمعتُ الكثير عن حكمتك وفهمك اللذين أبديتهما في تعبيرك الحُلُمي فرَعُوهُ ، وفي التنبؤ بهذه الجماعة الشديدة . فكيف يجري إذاً أن تتهم أبنائي ؟» .

«ها أنا مُحاطٌ بالأبناء ، وإني طعنتُ في السنّ وشحّ نور عينيّ اللتين ما كفتنا عن ذرف الدمع السّخين طوال عشرين عاماً حسرةً لفقد ابني يُوسيف ، وها أنا الآن أرسل إليك أخاه بنيامين كما أمرت . فإني لأرجوك يا سيدي أن تترقّق به ، وتعيده إليّ مع إخوته ! إن جبروت الله طالما كان إلى جانبنا ، فهو يجيبُ صلاتنا ودعاءنا ولا يخيبُ رجاءنا قط . فلتحمِ ابني القادم إليك ، والله ينظر إليك وإلى مملكتك بعين الرضى والقبول . رُدّه إليّ مع إخوته ، وكذلك شِمعون فلتردّه معهم سالمًا» .

وهذه الرّسالة كلّف بها يهوداه وسلّمت إليه في يده .

وهكذا ، هبط بنو يعقوب مصرًا ، ومعهم بنيامين والهدايا ، ووقفوا أمام يُوسيف . فأطلق يُوسيف شِمعون من الحبس ، وجمعه بإخوته . وأخبرهم شِمعون بالمعاملة الطيّبة التي نالها منذ رحيلهم ، فقال : «لم أُقيد أو أُعامل كسجين ، لكنني أخذتُ إلى دارة الحاكم فاستُقبلتُ بحفاوة كضيف» .

ثم أخذ يهوداه بنيامين وأحضره أمام يُوسيف ، فسجدوا على وجهيهما أمامه إلى الأرض . وقدم له الإخوة الهدية التي أرسلها أبوهم إليه . فسألهم يُوسيف إن كان كل شيء على ما يرام بخصوص أولادهم وأبيهم الشيخ ، فأجابوه : «كلّهم في سلام» . ثم قدّم يهوداه رسالة أبيه إلى يُوسيف ، فتعرّف الأخير إلى خطّ أبيه ، وغلبته مشاعره فاستولت عليه ذكريات طفولته ، فما كان منه إلا أن انسحب إلى حُجرة جانبية وراح يبكي بمرارة .

ولما عاد إلى أمام إخوته ، تعلقت أنظاره بنيامين ابن أمه ، وسأل : «أهذا أخوك الصغير الذي ذكرتموه لي؟» . ولما اقترب بنيامين منه ، وضع يوسف يده على رأس أخيه وقال : «يرأف الله بك يا بني» .

ثم تملك مشاعره وتجلد وأمر مقدميه بتقديم الطعام .

ثم لما صار الطعام جاهزاً أخذ يوسف بيده قدحاً⁽¹⁾ ، وكان من الفضة الخالصة مرصعاً بحجارة كريمة ، فأمسكه بيده بحضور إخوته وقال : «أرى في هذا القدح أن رؤبين هو بكر أبيكم ، ولذا فهو يجلس أولاً ، ثم يليه شمعون فليوي فيهوداه فيساكر فزبولون ، حسب الترتيب الذي ذكرته تبعاً لأعمارهم . أما البقية فيتلونهم بحسب أعمارهم» . وأضاف قائلاً : «وأنا أعلم أن أصغر إخوتكم لا أم له وأنا أيضاً لا أم لي ، فلذا نقعد معاً سوية» .

فراح القوم يبهتون لكلام يوسف ملياً ، في هذا النهار الذي أمضوه معه يأكلون ويشربون . ووضع يوسف حصتين من الطعام أمام أخيه بنيامين ، فلما رأى ابنه إفرايم ومنشيه ذلك قدما حصتيهما أيضاً لبنيامين ، وقدمت أسنات امرأة يوسف حصتها أيضاً . فكان لبنيامين خمس حصص من الطعام .

وأمر يوسف بإحضار الخمرة ، وأشار إلى إخوته بالشرب والتبسط ، فأبوا قائلين : «نحن لم نذق الخمرة منذ أن فقدنا أخاناً» . لكن يوسف ألح عليهم أن يشربوا ، وأجبرهم على ذلك وراح يياسطهم . وسأل بنيامين : «ألك أبناء؟» ، فأجاب بنيامين : «لعبدك عشرة بنين ، وقد أسميتهم بأسماء تذكرني بأخي الذي لم أره قط» .

في الصباح صرف يوسف إخوته ، وطلب إليهم العودة إلى أبيهم بسلام . ولكن لما رحلوا ، نادى خدّمه وأمرهم أن يتبعوهم ويذكرهم ليعيدوهم . فلما أدركهم خدّم يوسف وقالوا لهم : «لم فعلتم هذا السوء فسرقتم قدح سيدنا؟» ، سخط إخوة يوسف وأجابوا : «من يوجد القدح معه فليقتل ، ونحن أيضاً نكون لسيدكم عبيداً» .

(1) في التوراه المعربة بالطبعة الكاثوليكية : جام ، والبروتستانتية : طاس . وهما فارسيتان !

غير أنهم لما عُثِرَ على القدح حيث أمر يوسف بوضعه ، في كيس بنيامين ، عادوا حزينين مكسوري الخاطر إلى حضرة يوسف . فكان نائب الملك جالساً على عرشه وحوله مقدمو دولته مجتمعون ، لما دخل إخوته ، فخاطبهم بجفاء قائلاً : «ما هذا الصنيع ال الذي صنعتُم ؟ لم أخذتُم قدحي الفضي ؟ أهو بسبب أنكم لم تُفلحوا في العثور على ذلك الأخ الذي ذكرتموه في البلد ، فأخذتم القدح عوضاً عنه ؟ أجبوا وأخبروني بمَ فعلتُم هذا الصنيع .»

فتكلّم يهوداه قائلاً : «ما نقول لسَيدي ؟ بماذا نتكلّم وبماذا نتبرأ ؟ قد كشف الله ذنب عبيدك ، وأرسل علينا هذه المحنة» . ثم قام يوسف ، فأمسك بنيامين وأخذه إلى حجرة أخرى ، فدفع به فيها ثم أوصد الباب دونه . ثم أخبر الباقين بالعودة إلى ديارهم بسلام ، قائلاً : «أبقي الذي وُجد القدح في حوزته ، وأنتم تعودون بسلام» .

فاقترب يهوداه من يوسف وقال : «يا سيدي أتوسّل إليك أن يتكلّم عبدك كلمةً على مَسَمع سيدي ، ولا يشتد غضبُك على عبدك» ، فأجاب يوسف : «تكلّم» . فتابع يهوداه : «مُنذ البداية ، مُنذ اللحظة التي وضعنا فيها قدمنا بأرض مصر ، هزئت بنا . أنهنّا بأننا جواسيس ، وأجبرنا على إحضار أخينا بنيامين إلى هنا . والآن ، ما زلتَ تستخدمنا كألعوبة لتسليتك . فليُصغ الملك السّاعة إلى كلامي ، وليلقِ إليه بالاً ، وليسمح لأخينا بالعودة إلى أبيه معنا ، وإلا أهلكناك ، أنتَ وكلّ مُقدّميك المبتوثين حولك . أنت تعلم ماذا فعل أخوان اثنان منّا بمدينة شكيم من أجل أخت لهما . فلتعلم أنهما ليسا من سيئتهم لأخيها بنيامين . بل ها أنا أقوى وأجلد منهما مجتمعين . لتتخلّ عن عبثك السّقيم بنا وإلا صرعتك أنتَ وحرّاسك معاً . ألا تدري بالعقاب الذي أنزله الله بقرعوه لما أساء إلى ساراي جدّتنا ؟ إلى يومنا هذا ما زال سكّان بلدك يحدثون عن ذلك ! فحذارِ إذاً ، وإلاّ جازاك أنتَ أيضاً بإساءتك في استلاب أخينا بنيامين من أبيه . فالله لا ينسى العهد الذي قطعه لأبرهّام في حماية نسله وتشديد أعدائهم . لذلك فاسمع يا سيدي إلى الكلام الذي أقولُ ! ذرّ أخانا يرجع إلى أبيه ، وإلا كنتُ فاعلاً ما أقولُ . وحذارِ لست بالندّي ولا بغالبي أنتَ» .

فأجاب يُوسيف قائلاً : «فيمَ تماديكَ بهذا الفخر الأجوف ؟ فإن هي إلا كلمة واحدة مني إلى مُقدّمي ، فيهلكونك بلحظة واحدة أنت وإخوتك» . أجاب يهُوداه : «أقسم بحياة الله ، إن سحبتُ سيفي لأبدأنَّ بك أنت ، ثم لا تخمننَّ بقرعوه ذاته»⁽¹⁾ .

ردَّ يُوسيف : «إن قوتك ليست بمقدار تيهك ، فأنا نفسي أقوى منك ، وإن سحبتُ سيفك لأغمدنّه في جسدك . وبسيفك هذا سأجهز عليك وعلى إخوتك أجمعين» .

فأجاب يهُوداه : «يا سيّدي ، الله بيننا يشهد أنني لا أروم قتالاً . أعطنا أخانا واطركننا نمضي بسلام» .

فأجاب يُوسيف : «أقسم بحياة فرعوه ، إن أتى مُلوك كنعان بأسرهم وكرّروا أمامي مطلبك لما سلّمتمهم أخاك . هيا فلتمض أنت وبقية إخوتك إلى أبيكم ، أما بنيامين فيكون لي عبداً . قد سرق قدحي وحرّيته رهينة بيدي» .

أجاب يهُوداه : «ما فائدة لقب الملك لا مرئى مثلك إذا ؟ دور الملوك فيها ما فيها من آنية الذهب والفضة وأدواتها ، وها أنت ذا تجادل حول قدح تافه من الفضة ، بعد أن جعلته أنت في كيس أخينا . معاذ الله أن يسرق أحد أحفاد أبرهام شيئاً منك ، أو من أي ملك آخر ، كائناً من كان . فلتصمت الآن حول هذا الأمر لمصلحتك أنت ، وإلا شاع الأمر فيقول الناس : «ها من أجل قدح فضّي يسير يختصم نائب ملك مصر مع قوم ، فيأخذ منهم أحدهم عبداً له» . من أجل سمعتك أنت هلا ككفّمت ؟» .

لكن يُوسيف اكتفى بتكرار ما كان قاله سابقاً : «امضوا ودعوا أخاكم عندي ، فالشّرع يجعل منه عبداً لي . اذهبوا ، وخذوا القدح معكم» . تمتع يهُوداه قائلاً : «أبدأ ، لن نتخلّى عن أخينا ولا من أجل ألف قدح ، أو لقاء أي مبلغ من المال يكون في تصوّرك» .

(1) ينبغي الإشارة إلى أن هذا النقاش الحادّ كلّه لا يرد في التوراه ، بل ما فيها يقتصر على مناشدة يهوداه ليوسيف أن يسمح بعودة الابن لأبيه الشيخ ، رحمةً بهذا الأخير .

فأجاب يوسف مُسرِعاً : «لكنكم تخليتُم عن أخيكُم وتركتموه ، بل وبعتموه بعشرين قطعة من الفضة» . أصرَّ يهوداه : «رُدِّ لنا أخانا . الله يشهد علي أنني ما رُمْتُ معك قتالاً . دعنا نرحل بغير تناحُر . أوَاه ، ماذا نقول لأبينا إذ عدنا بغير الفتى ؟ ستقتله الحسرة . أما نحن ، فما نقول ؟» .

قال يوسف : «قولوا له إن الحبل لاحقٌ بالدلو»⁽¹⁾ .

فصاح يهوداه : «ويلٌ ، ويلٌ للملك الذي يقول زوراً وبُهتاناً» . فأجاب يوسف : «لا تتحدثوا عن الزور والبُهتان . أقلمتُ تكذبوا على أيكُم فقلتم : «وحشٌ ضارٍ افترس يوسف ؟» ، ألم تبيعوه إلى المدينيِّين بعشرين قطعة ؟ ألا فلتصمتوا ، اصمتوا وليعتريكم الخجل» .

صاح يهوداه مُهدداً ومتوعداً : «نارٌ شكيمة تلتهب الآن في صدري . أنتَ وبلدك ستهلكون تحت جام غضبي» .

وفي تلك الأثناء خلال هذا الموقف ، كان يوسف وجّه منْشِيه ابنه لجلب الجنود إلى قصره ، فهُرَعوا بأقصى سرعتهم ، بكامل سلاحهم وعددهم متأهبين للهجوم ، خمس مئة من الخيالة ، وألفان من الرجالة ، وأربع مئة من الحرس الاحتياطي القُدماء . فأحاط هؤلاء يهددون ويتصايحون بيني يعقوب ، الذين ارتاعوا بشدةً وارتجفت أوصالهم خوفاً على حياتهم .

ثم قال يوسف ليهوداه : «أرجو أن تُطلعني ، لماذا أنتَ دون قومك كلهم تعارك بضراوة من أجل الفتى ؟» ، أجاب يهوداه : «اعلمُ أنني قد ضمنتُ لأبينا بروحي عودة الفتى سالماً ، فقلتُ له : «إن لم أعدْ به إليك فأكون مُذنباً إليك طول حياتي» . يا سيدي ، دعني أجدُ نعمةً في عينيك . فلتذرنِي أُرِدَّ الفتى إلى أبيه ، أرجع مكانه عبداً لك⁽²⁾ . أترى ؟ أنا أقوى منه وأكبر . دعني أكون عبدك بدلاً من بنيامين» .

(1) هذا يعني بحسب شروح التلمود أن الحبل إشارة إلى يوسف والدلو إلى بنيامين .
(2) هذا هنا فحوى الخطاب الأساسي الوارد في التوراه (التكوين - 44 : 32-33) ، أما كل ما سبقه من خطاب تعنيف فيرد فقط في الحواشي التفسيرية من أجدها التلمود .

أجاب يُوسيف : «فليكن ، لكن بشرط . ليذهب الفتى معك ، ولكن أحضر لي أخاه ، ابن أمه الذي ذكرته ، فأخذه بدلاً من بنيامين . ألم تجعل نفسك ضماناً له أمام أبيك ؟ لذلك دعني أخذه ، وأما الفتى الذي حللت ضماناً له فيعود إلى بيته معك» .

فتقدّم شمعون وقال : «أولم نقل لك يا سيدي عندما أتينا إليك أول مرة أن هذا الأخ المفقود لم نعر عليه ؟ فكيف ينطق سيدي بهذا الكلام الباطل ؟ نحن لا نعلم للأسف إن كان هذا الأخ حياً أم ميتاً» .

قال يُوسيف : «افترضوا إذاً أنني أناديه فيمثل أمامي ، فهل تعطونه لي بدلاً من بنيامين ؟ وإذا به يرفع صوته صائحاً : «يُوسيف ! يُوسيف ! اظهر يا يُوسيف واجلس أمام إخوتك» .

فبهت بنو يعقوب بشدة لهذا الكلام ، وجمد الدم في عروقهم فيما راحوا يحملقون برهبة وعجب ليروا من أين يطلع عليهم أخوهم .

فقل لهم يُوسيف : «أين تنظرون ؟ ها هو ذا أخوكم أمامكم . أنا يُوسيف أخوكم الذي بعموه إلى مصر . ولكن لا تخافوا ، تُراكم ما كنتم إلا أداة في أيدي القدر ، فالإحياء النفوس بعثني الله إلى هنا» .

فارتاع الرجال للغاية ، وبخاصة يهودا الذي بهت للكلام المُجفل . أما بنيامين الذي كان في باحة الدار الداخلية فقد سمعهم ، وهرع إلى يُوسيف وألقى بنفسه على صدره وقبله ، وراحا ينشجان بالبكاء . وكذلك تأثر الإخوة الباقون تأثراً بالغاً وتعجب الناس المحيطون بهم ، وسرعان ما نمت أنباء هذا الحدث إلى قصر فرعون . وحسن ذلك في عيني فرعون ، فأرسل وفداً من كبار مقدميه للترحيب بإخوة يُوسيف ، ولكي يطلبوا إليهم باسمه أن يأتوا بعائلاتهم وأشياهم ويقطنوا مصر⁽¹⁾ .

(1) تعود الرواية هنا لتتطابق مع نص التوراه ، سفر التكوين - الأصحاح 45 . وحول أسماء أحفاد يعقوب بالتفصيل من أبنائه الاثني عشر وابنته الوحيدة ديناه راجع سفر التكوين - الأصحاح 46 .

أما يُوسيف فألبس إخوته ثياباً جديدة وأنيقة ، وقدّم لهم العديد من الهدايا الثمينة ، وأعطى كلّ واحد منهم ثلاث مئة قطعة من الفضة . ثم أخذهم إلى قَرْعُوهُ وقدمهم إلى الملك . فلَمَّا رأى قَرْعُوهُ مدى مَلاحة بني يعقوب سُرّت عينه بهم وقابلهم باكرام عميم .

ولَمَّا آن أوان عودتهم إلى أرض كنعان ، أحضر يُوسيف إحدى عشرة عربة من عربات (عجلات لاגלות) قَرْعُوهُ ، وأضاف إليها عربته الخاصّة ، من أجل راحتهم . ووجه إلى أبيه بهدايا ثمينة ، وثياباً وتُحفاً لأبناء إخوته وأخته ، وكذا إلى زوجات إخوته . كما ورافق إخوته في رحلتهم حتى حدود مصر ، وودّعهم قائلاً :

«لا تتخاصموا يا إخوتي على الطريق . ما جرى قدّم بحكمة من الله ، فلم تكونوا أنتم سوى أداة وضعها القدر لإنقاذ الآلاف من النَّاس من آفة المجاعة والجوع القاتل» . وكذلك أمرهم بالترفُّق في إبلاغ النَّبأ العظيم الذي يحملونه إلى أبيهم ، مخافة أن يسارعوا في إبلاغه فيُصاب أبوهم العجوز بصدمة . وآب بنو يعقوب إلى أرض كنعان بفرحة غامرة وقلوب سعيدة .

وحدث أنهم لما شارفوا على أرض كنعان أن بعضهم قال للآخر : كيف نروي هذا النَّبأ لأبينا ؟ ليس بإمكاننا إخباره فجأة أن يُوسيف ما زال حياً .

ولكن صادف عندما بلغوا بِئير شيبع באר שביע⁽¹⁾ أن سيرح⁽¹⁾ ابنة أشير أنت لتلقى أباهاً وعمومها . وكان لسيرح صوتٌ عذب ، وتعزف على القيثارة . فابتدروها قائلين : «خُذي قيثارتك ، وجُوزي فاقعدي قُبالة أينا ، وبينما أنت تعزفين فلتُغنّي ، واذكري في غنائك ابنه يُوسيف ، ودعيه بذلك الشكل يعلم أن يُوسيف حي»⁽²⁾ .

(1) انظر التوراه ، تكوين - 46 : 17 . وفي التوراه المعرّبة : سيراخ ، باللفظ الإشكنازي ، بغير وجه ، مع أن الاسم ينتهي بحيت مُهملة (كالحاء العربية تماماً) .

(2) هذه الرواية ليست أيضاً في التوراه ، بل من أجدها التلمود . وفي هذا أمثلة حيّة حول كيفية نموّ الأجداه على هامش التوراه ، حتى غدت تكملة وتفسيراً لا ينفصم عنهما عن الكتاب الأم ، مع شروح وحواشٍ أدبية وأخلاقية لمرويات قصص الأولين .

فعلت الصبيّة كما طلب منها ، جلست قبالة جدّها ، وراحت تُغنيّه أغنية جعلت تردّد فيها هذا المقطع :

«تراه يُوسيف لم يُمت ، بل هو حيٌّ ،
عمّي المسلط بارض مصر بأسرها»

فسرّ يعقوب لغناء الصبيّة وعزفها ، ووقعت الفرحة في قلبه لسماع صوتها العذب ، فتبسّم لها وباركها . وفيما كان يحادثها وصل أبنائه بالخيل والعربات ، فقام يعقوب ولاقاهم عند الباب ، فقالوا له : «معنا أبناء سارة لأبينا . إن يُوسيف أخانا لا يزال حياً ، وهو مسلط على أرض مصر كلّها» .

غير أن يعقوب بقي جامد القلب لم يتأثر ، لأنه لم يصدّقهم ، حتى رأى الهدايا التي أرسلها يُوسيف ، وجميع علائم مجده . فالتمعت عيناه وانتعشت روحه في أعماقها ، وقال : «حسبي أن يُوسيف ابني ما زال حياً . أمضي وأراه قبل أن أموت» .

وسمع أهالي بئير شيبوع والديار المتاخمة بالخبر ، فقدموا وهنّؤوا يعقوب ، فصنع لهم مأدبة عظيمة . وقال : «سأهبط مصرأ وأرى ابني ، ثم أعود إلى أرض كنعان ، كما قال الربّ لأبرهّام ، فيُعطي هذه الأرض لنسله» .

وجاءت كلمة الربّ ليعقوب قائلاً : «اهبط أرض مصر ، لا تخف ، فإنني معك وإني لجاعلك أمة عظيمة» . فأمر يعقوب بنيه وأهل بيتهم بالتجهّز لهبوط مصر معه ، كما تكلم الربّ ، فقاموا ومشوا في طريقهم . وبعث يعقوب يهوداه في المقدّمة ، ليعلن عن قدومه وليختار مكاناً لإقامته .

فلما علم يُوسيف بأن أباه في الطريق إليه ، جمع أصحابه ومقدّميه وجنود المملكة ، ولبسوا ثياباً فخمة بحليّ ذهبية وفضيّة ، وتسلّح الجنود بكامل عدد الحرب ، وتجمّعوا فشكّلوا فرقة هائلة لاستقبال يعقوب على الطريق ومرافقته إلى مصر . وصدحت الألحان وعمّت الفرحة في البلاد ، وتجمهر الناس والنساء والأطفال على أسطحه الدُّور للفرجة على الاستعراض الرائع .

كان يُوسيف لابساً ثوباً ملكياً ، مع تاج المملكة على رأسه ، ولما صار على بعد خمسين ذراعاً من موكب أبيه ، ترجل من عربته ومشى ليلاقى أباه . فلما رأى الأعيان والأمراء ذلك ، احتذوا حذوه فترجلوا عن خيولهم وعرباتهم فمشوا معه .

فلما رأى يعقوب هذه الحاشية المذهلة تعجب للغاية ، وسرّ لذلك أيما سرور ، والتفت إلى يهوداه فسأله : «من هذا الرجل المتقدم برأس هذه الكوكبة الرائعة في الثوب الملكي؟» فأجاب يهوداه : «هذا ابنك» . ولما اقترب يُوسيف من أبيه ركع أرضاً أمامه ، فركع مقدّموه ليعقوب أيضاً . وركض يعقوب صوب ابنه فألقى بنفسه على عنقه وقبله ، وبكى معاً . وحيّاً يُوسيف إخوته بشوق .

ثم قال يعقوب ليُوسيف : دعني أموت الآن بعدما رأيت وجهك ، وقد رأتك عيناى وأنت حيّ ولك مجدّ عظيم . ورافقت الفرقة يعقوب وأهل بيته إلى مصر ، وفيها أعطى يُوسيف آله أجود أراضيها حتى جُشِن⁽¹⁾ .

وأقام يُوسيف في أرض مصر وأدار شؤونها بحكمة . وكان ابنا يُوسيف أثيرين للغاية عند جدّهما ، فلم يُبارحاه بيته قطّ . وعلمهما يعقوب سُبُل الرّبّ ، ودلّهما على طريق السّعادة والسّلام في خدمة العليّ القدير . وأقام يعقوب وأهل بيته في جُشِن ، وتملكوا أرضها وتكاثروا فيها إلى حدّ بالغ .

* * *

(1) في التّوراه المعرّبة عن الترجمة السبعينية اليونانية ، بطبعتها الكاثوليكية والبروتستانتية : جاسان . وهذا اللفظ العبري أثبتناه (ولو دون تشكيل) ، فبأي وجه يُقرأ كما قرأوه ؟ أمئتنا أن يدلّنا أحد على الآليّة العجيبة التي اشتغل وفقها اولئك التّراجمه !

الفصل السادس

موت يعقوب وأبنائه - موشيه - الخلاص من مصر

أقام يعقوب في أرض مصر سبعة عشر عاماً ، وكانت مدة حياته أجمع مئة وسبعة وأربعين عاماً . ومرض يعقوب مرضاً شديداً ، وإذا أمسى عجوزاً وضعيفاً أرسل إلى ابنه يوسف وقال له :

«ها أنا ذا أموت الآن ، فاسمع إلي يا بُني . لا ريب أن إله آبائك سوف يأتيك في الأيام القادمة ، ويردّ شعبه - كما ألى على نفسه - إلى الأرض التي أعطاها لكم ولنسلكم . لا تدفوني في أرض مصر ، بل في مغارة مكفّلاه في حبرون بأرض كنعان بجانب أهلي» .

وأرغم يعقوب بنيه على أن يُقسموا على دفنه كما طلب ، وقال لهم : «أعبدوا الربّ إلهكم ، وهو يُنجيكم من التوازل كما أنجى آباءكم» . وطلب إليهم أن يأتوا بأبنائهم أمامه ، فباركهم وآبأهم أيضاً ، بحسب البركات المسطورة في الكتاب المقدّس .

وقال يعقوب ليهوداه : «أنت يا بُني أقوى إخوتك كلّهم ، ومن صُلبك تقوم الملوك⁽¹⁾ . فلتعلم أبناءك كيف يحمون أنفسهم من الأعداء والأشرار» . ثم عاود مخاطباً أبنائه⁽²⁾ : «هكذا تحملوني بعد موتي إلى مرقدتي في مغارة مكفّلاه . وأنتم يا أبنائي من يحملني لا أبناؤكم . فليحمل يهوداه ويسّاكر وزبولون الزاوية الشرقية من نعشي ، أما رؤبين وشمعون وجاد فيحملون الزاوية الجنوبية ، وإفرايم ومنشيه⁽³⁾ وبنيامين الزاوية الغربية ، ودان وأشير وفتالي الزاوية الشماليّة» .

(1) راجع وصاياه لباقي أبنائه في التوراه ، التكوين - الأصحاح 49 .

(2) هذه الوصية لا ترد في التوراه ، وتقتصر على أجداء التلمود .

(3) استثنى ابنا يوسف من شرط جدّهما يعقوب ، لسبب يأتي أدناه .

«أما ليوي فلا يحمل نعشي أو يُساعد في حمله ، لأن نسله يكونون حَمَلَة
تأبوت عهد الرَّبِّ⁽¹⁾ أارون בְּרִית־יְהוָה في جيوش يِسْرَائِيل . ويُوسيف لا يُشارك
في الحمل ، لأنه مَلِك ، بل يأخذ مكانه ابناه فيمسيان بالقرب من أخيه بنيامين .
وكما أقول لكم فافعلوا ، ولا تُهملوا شيئاً من كلامي» .

«وسيحذث ، إن فعلتم كما أمركم ، أن الرَّبِّ يتجلّى لكم بالفلاح ويُعطي
السَّلام لأبنائكم من بعدكم . والآن يا أبنائي فليُكرم بعضكم بعضاً ، ولتعيشوا معاً
يوثام ، الأسرة تلقاء الأسرة . علّموا أبناءكم محبة الله وطاعة وصاياه ، لكي تطول
أيامهم ، فالله يحفظ مَنْ يُعمل خيراً ويسلك سُبُل الصَّلاح كما أمر» .
فردّ بنو يعقوب : «سنفعل يا أبانا كلّ ما تأمرنا به» .

فأجاب يعقوب : «الرَّبِّ يكون معكم إن لم تحيدوا عن سُبُلِه يميناً أو يساراً .
وإني لأعلم أن مصاعب عظيمة ستصيبكم أنتم وأبناءكم وأبناءكم في أرض
مصر هذه بالأيام القادمة . لكن فلتعبدوا الرَّبِّ ، وهو يهيء لكم سُبُل النِّجاة .
وإنه لمُخرجكم من مصر حتى تعودوا إلى أرض آبائكم فترثونها ، وتُقيمون بها
آمنين» .

ولما اختتم يعقوب كلامه هذا ، جذب قدميه إلى سريره ، وانضمّ إلى آباءه .
فلمّا رأى يُوسيف أن أباه مات وقع على وجهه البارد وبكى بكاءً مريراً ، وصاح بكل
مالديه من قوّة : «أبتاه ، أوّاه يا أبتاه !» . ومزّق أهل بيت يعقوب كلّهم ، أبناؤه
وزوجاتهم وأبناؤهم ، ثيابهم ولبسوا مُسوحاً وحثوا على أنفسهم الرَّماد ، وناحوا
على الآب الكبير . وكذلك ناح عليه المصريون الذين كانوا على معرفة به .

ثم أمر يُوسيف الأطباء بتحنيط جُثمان أبيه ، وأقام عليه الحداد ، مع أهل بيته
وأقاربه وأصدقائه المصريين ، سبعين يوماً . وبعد مضيّ أيام الحداد هذه تقدّم
يُوسيف من قَرْعُوهُ الملك وقال له : «أتوسّل إليك ، اسمح لي أن أمضي فأدفن أبي
ثم أعود» . فأجاب قَرْعُوهُ : «امضِ بِسَلام فادفن أباك» .

(1) «تأبوت عهد الرَّبِّ» (أرون بُرِيت يهُوا) من المُصطلحات الدنيّة البارزة لدى اليهود .
انظر عنه سفر يهُوشوع (المسمّى يشوع في الترجمة العربية) - 3 : 3 - 11 .

فقام يوسف وتجهّز مع إخوته لحمل جثمان أبيهم إلى أرض كنعان ، كما أمرهم . وأصدر فرعون بياناً أمر فيه أبناء مصر جميعاً بتكريم يوسف عن طريق المشاركة في جنازة يعقوب ، وتقديم آخر فروض الاحترام إليه . واستجاب أبناء مصر بأعداد كبيرة لرغبات الملك . وصعد مع يوسف وإخوته جميع عبيد فرعون وأعيان بيته ، وأعيان أرض مصر ، والأمراء والأشراف ، وكل من يتبع لأهل بيت يوسف .

وحمل بنو يعقوب النعش الذي رقد عليه جثمان أبيهم ، كما أمرهم ، وقد جعل على النعش صولجان وتاج مذهبان . وتبعته جيوش مصر جثمان يعقوب ، مشاةً وخيالة ، ومعهم حرس فرعون الشخصي وحرس يوسف أيضاً .

وحدث عندما بلغ موكب الجنازة بيدرا أطاد⁽¹⁾ 176 702 الذي في عبر نهر الأردن ، أنهم توقفوا عنده وأقاموا مناحةً ونذبوا ندباً عظيماً . فلما سمع ملوك كنعان باقتراب موكب جنازة يعقوب ، توجهوا للانضمام إليها ، تعبيراً عن حزنهم ومحبتهم للآب الراحل .

وكذلك قدم عيسو أخو يعقوب مع أبنائه ومن يتبع إليه من رجال ، ثم تابعت الجنازة طريقها إلى حبرون ، إلى مغارة مكفلاه . لكنهم عندما وصلوا المغارة ، إذا بعيسو وبنوه وأتباعه واجهوا يوسف وإخوته قائلين : «لا يدفن يعقوب كمة ، فهذه المغارة لنا ولأبينا⁽²⁾» . فغضب يوسف وإخوته غضباً جماً ، وقال يوسف لعيسو : «ما هذا الذي تقوله ؟ أو لم يشتر يعقوب أبي منك ، عقب موت يصحاق ، كل أملاكك في أرض كنعان حقاً قبل خمسة وعشرين عاماً ، لقاء مبلغ طائل من المال ، لكي تكون ميراثاً لأبنائه إلى الأبد ؟ فكيف تقول الآن ما تقول ؟» .

فأجاب عيسو : «لم أبع ليعقوب شيئاً» . أجاب يوسف : «لدينا الصكوك وعليها توقيعك الذي يثبت أن ما نقوله لهُو الحق» . قال عيسو : «إذا فلتروني هذه الصكوك ، وكل ما كتبته يدي فأنا به ملتزم» .

(1) انظر التوراه ، تكوين - 50 : 10 .

(2) في التوراه خلاف ذلك تماماً ولا يرد ذكر أي نزاع ، انظر سفر التكوين - 50 : 13 .

فاستدعى يوسف أخاه نَفْتالي ، الذي كان بسرعة خطوه يسبق الأيل ، ولحفة وطئه كان بوسعه أن يجري فوق سُنْبُلَة القمح ذات الذؤابة دون أن تنثني تحت وطء قدميه . فقال يوسف لِنَفْتالي : «امض بسرعة إلى مصر وأحضر لي الصِّكوك المتعلقة بالمغارة ، وكذلك الصِّك الذي باع بموجبه حق بكريته لأينا . هيا أسرع وعُد بالعَجَل» .

فلما علم عيسو بأن نَفْتالي قد مضى بهذه المهمة توقف عن متابعة الشعائر الجنائزية ، وراح يوسف وإخوته يحرسون جثمان أبيهم ومغارة الدفن . ثم في اليوم التالي نشب قتال بين الفريقين ، عيسو وأتباعه من جهة ، ويوسف والعبريون ومن تبع موكب الجنائزة من مصر ، من جهة أخرى .

وكان من بين الفريق الثاني حُشيم⁽¹⁾ שׂוֹמֵן بن دان الذي كان أبكم ، وكان مكلفاً بحراسة التابوت الذي يضم جثمان جدّه . ورغم أنه لم يكن طرفاً في النزاع الناشب ، فقد لاحظ أن أمراً غير اعتيادي كان يجري ، فراح يستفسر بالإشارة ممن يدنو منه لم يتم دفن الميت بعد ، فعلم بتدخل عيسو وبتعطل الشعائر .

وحدث أنه عندما فهم ما جرى بالضبط استشاط غاضباً ، فسارع إلى وسط القتال وانفرد بعيسو ، فأطاح برأسه عن كتفيه بضربة واحدة . فانتصر بنو يعقوب على أعدائهم ، وقُتل من فريق عيسو أربعون رجلاً ، بينما لم يُمن الفريق الآخر بأية خسائر . وهكذا يموت عيسو تحققت صحة مخاوف ريقاه ، عندما قالت يوم نوى عيسو قتل يعقوب : «لثلاثاً أتكلكما في يوم واحد» (تكوين - 27 : 45) .

ثم تم دفن يعقوب في مغارة مكفلاه⁽²⁾ ، وحضر بنو عيسو الدفن . ومكث يوسف وإخوته في بيوتهم سبعة أيام نائحين ولا يزاولون أشغالهم المعتادة . وبعد ذلك الحين ، رغم أنهم كانوا يقومون بأعمالهم اليومية استمروا على حدادهم اثني عشر شهراً ، فأضحى هذا منذ ذلك الحين عُرف اليهود عند موت الأقارب .

(1) هو الابن الوحيد لدان ، انظر التوراه ، تكوين - 46 : 23 . وليست الرواية في التوراه .
(2) انظر التوراه (تكوين - 50 : 13) : « فحملوه إلى أرض كنعان ودفنوه في مغارة حقل المكفلاه التي اشتراها أبرهام مع الحقل ملك قبر من عفرون الحثي حذاء ممراً» .

أما بنو عيسو المهزومون فقد هربوا مع إلفاز بن عيسو ، حاملين جثمان عيسو معهم . أما رأسه فقد دُفن في حبرون حيث سقط ، لكنهم دفنوا جسده في جبل سِيعير .

وحدث في السنة الثانية والثلاثين بعدما هبط بنو يسرئيل مصرأ أن قرعوه ، صديق يوسف ، قد مات . وكان يوسف آنذاك في الحادية والسبعين من العمر . وقبل موته ، أمر قرعوه ابنه الذي خلّفه في الحكم أن يطيع يوسف في جميع الأمور ، كما ترك مثل هذه التعليمات مدوّنة . وسرّ ذلك شعب مصر ، لأنهم أحبّوا يوسف ووثقوا به تمام الثقة . ولذا فخلال مدة حكم هذا القرعوه على مصر كانت إدارة البلاد تتم وفق إدارة يوسف ومشورته . وكان الربّ معه ، فكانت أعماله بأسرها موقّعة . وكانت حكيمته تزداد يوماً إثر يوم ، وطاب لمصر بأكملها أن تُبادره بالاحترام والتشريف . وحكم يوسف مصر ثمانين عاماً ، وأقام إخوته في جُشنٍ بسلام ونعموا بالوفرة وتكاثروا إلى حدّ بعيد ، وعبدوا الربّ وفق التعاليم التي لقنّهم إياها يعقوب أبوهم .

وأقام يوسف بأرض مصر ثلاثاً وتسعين سنة ، فكان فيها بمثابة الأمير الحاكم مدة ثمانين عاماً . ثم دنت منه الأيام التي أحسّ فيها باقتراب يد الموت . فأرسل إلى إخوته وأبنائه أجمع ، فتحلّقوا حول سريره .

قال : «ها أنا ذا أموتُ ، لكن الربّ سيأتيكم لا ريب ويُخرجكم من هذه الأرض إلى الأرض التي أقسم إلى آبائكم أن يُعطيها لكم . والآن عندما يأتيكم العليّ القدير لذلك ويقودكم خارج مصر ، فأصعدوا عظامي من ها هنا» .

وألزم يوسف بني يسرئيل بالقسّم ، على أنفسهم ووعلى نسلهم ، بأن يحملوا معهم عظامه عندما يصعدون خارجين من مصر .

ومات يوسف وهو ابن مئة وعشر سنين ، في السنة الحادية والسبعين من بعد دخول بني يسرئيل مصر ، فحنّط جسده ودُفن بعده في الأرض بقُرب ضفّة النيل . وناحت مصر كلّها على يوسف سبعين يوماً ، أما إخوته فناحوا عليه سبعة أيام كما فعلوا ليعقوب أبيه .

ثم أخذ قَرْعُوهُ المملِكة إلى يديه ، وحكم الشعب برُشد وبيمان حَسَن .

وفي السنة ذاتها مات زَبُولون بن يعقوب ، بعُمر مئة وأربعة عشر عاماً .
وبعد بـخمسة سنين مات شَمْعُون ، بعُمر مئة وعشرين عاماً . وبعد ذلك بأربع
سنين مات رُؤبين ، بعُمر مئة وخمسة وعشرين عاماً . ومات دان في السَّنة التالية
عن مئة وأربعة وعشرين عاماً . وَيَسَاكِر مات بعد سنة منه ، معمرًا مئة واثنين
وعشرين . فتبعه أَشِير ، بعُمر مئة وثلاثة وعشرين . ورحل جاد في السنة التالية ،
عن عُمر مئة وخمسة وعشرين عاماً . ويهوداه في السنة التالية ، عن عُمر مئة وتسعة
وعشرين عاماً . وعاش نَفثالي سنة بعدها ، فمات بعمر مئة واثنين وثلاثين عاماً .
ومات ليوي في السنة التالية ، عن مئة وسبعة وثلاثين عاماً ، فعمر إلى سن فافت
أعمار أخوته كلَّهم⁽¹⁾ .

وبعد موت يُوسيف وإخوته ، شرع المصريون في إيذاء اليسرئيليين ، وراحوا
من ذبَّاك اليوم ينغصون حياتهم ، إلى اليوم الذي خرجوا فيه أخيراً من أرض مصر .
وحرموهم من الأرض الخصيبة التي أعطاها يُوسيف لهم ، ومن البيوت التي بنوها
والدَّور التي صنعوها لأنفسهم . وقَسَّت أيادي المصريين باطراد على الشعب ، حتى
أضحت حياتهم لا تُطاق .

وفي السنة الثانية بعد المئة بعد هبوط يسرئيل لمصر ، كان قَرْعُوهُ الملك وذاك
الجيل بأكمله قد بادَ وانقرض ، فقام ملك جديد وشعب جديد لم يدركوا يُوسيف
أصلاً ، فملكوا البلد وحكموها .

وكان قَرْعُوهُ الأصغر هذا في التاسعة والأربعين من العُمر عندما تُوجَّج ملكاً ،
وكما جرت العادة عند تولي عاهل جديد السُّلطة ، مثَّل وزراؤه بين يديه ليُطلعوه
على شؤون مملكته وقضاياها . فكلَّمه هؤلاء قائلين : «هاهم أولئك الشعب بنو
يسرئيل قد أضحوا أكثر منا عدداً ونفيراً . نتوسَّل إليك مُرنا أن نُهلكهم بالتدريج
وإلا أربوا في البلد وأضحوا شركاً لنا وحجر عثرة في طريقنا . ولربما إن أصابتنا
حربٌ ضمُّوا قواهم إلى صفوف أعدائنا فيخرجوننا من وطننا» .

(1) ليس في التُّوراه (خروج - 1 : 6) هذه التفاصيل كلها ، بل هذا من أجده التلمود .

فأجاب الملك : «هذه هي نصيحتي ، وأريد منكم أن تلتزموها جيداً . إن قلعتي فيتوم ورعمسيس ليستا على قدر كافٍ من القوة والتحصين ، وينبغي إعادة بنائهما بعناية كبيرة . فلنعمل الحيلة ، انشروا باسمي بياناً يقول :

«مرسوم من فرعون مصر : على كل مواطن مطيع أن يشارك في إعادة بناء وتحصين قلعتي فيتوم رمسيس ورعمسيس اللتان ، لكي نكون على أتم التجهيز لأي عدو في زمن الحرب . وعلى كل مواطن الامتثال إلى هذا الأمر ، وله يُعين في كل يوم من الخزينة مرتب على ما ينجزه من عمل» .

«في البداية عليكم أن تمضوا أتم أيضاً إلى العمل ، وسيحدث عندما يأتي الإسرائيليون للمشاركة معكم أنكم تدفون لهم جُعالاتهم في كل يوم ، كما قد وعدنا . ثم شيئاً فشيئاً ، تستكفون أتم وباقي المصريين عن العمل ، إلى أن يقع تنفيذ على عاتق الإسرائيليين بمفردهم . ثم تُعينون عليهم مشرفين مصريين ، وأخيراً عندما يأتون مطالبين بأجرتهم ، تخبرونهم أنه من الآن فصاعداً عليهم أن يعملوا بغير أجر . فإن أحجموا عن ذلك أو ثاروا ، كونوا متأهبين فأرغموهم على العمل بالقوة . أطيعوا كلامي بحذافيره ، وفي الختام أتم المُفلحون . بهذا تتقوى بلادنا ، وأما العمل الشاق فيقلل من القوة العددية لهؤلاء الناس» .

فأعجب هذا الرأي المصريين إلى الغاية ، واتبعوا ما جاء فيه بالتفصيل . فتم نشر البيان ، وامتلأ لأوامره جميع الإسرائيليين ، ما خلا بني ليوي . وشارك في العمل أيضاً عديد من المصريين ، وكانوا ينالون جُعالاتهم اليومية ، بيد أنهم كانوا يُصرفون من العمل تدريجياً ، إلى أن بقي الإسرائيليون بعد ثلاثة أشهر يعملون بمفردهم . ثم عمد نُظار العمل الذين عيّنوا عليهم إلى الإمساك عن دفع مُرتباتهم لهم ، فلما أحجموا عن العمل أرغموهم على متابعته بالقوة .

وهكذا فإن بني إسرائيل كلهم ، خلا سبط ليوي منهم ، الذين عانوا من عنت المصريين ورفضوا العمل مقابل أجر ، ثم ما عاد بالإمكان إجبارهم على العمل بغير رواتب ، تم دفعهم بالإكراه إلى هذا العمل ، فقفوا حصون مصر كلها بعمل الأجر ويفلاحة الأرض ، إلى أن ذكرهم الربّ وأنجاهم من البلد .

ولكن كلما ازداد العبء على كواهل اليسرئيليين ، لاح أن أعدادهم كانت تزايد بسرعة . وفي السنة المثة والخامسة والعشرين من دخول بني يعقوب أرض مصر ، رأى سكان البلاد أن ما قصدهم من خلال اضطهادهم قد أخفق ، وذلك أن يسرئيل ما برح ينمو . ولهذا ، مثل الأعيان والحكماء بين يدي الملك وقالوا :

«أيها الملك فلتعش للأبد ! بحسب الرأي الذي أعطيتنا بخصوص هذا الشعب يسرئيل قد تصرّفنا ، لكنه مع ذلك لم يُجد قتيلاً . فكلما شدّدنا عليهم الوطأة ، ازداد عددهم ونموهم ، وأرض جُشِن الآن تعج بهم . فمن حكمتك نطلب ، نحن وشعبك أجمع ، الرأي في كبح هذا الشعب وإنقاص عدده» .

فأجاب الملك : «هاتوا ما عندكم من رأي بخصوص الحيلة في هؤلاء ، فإني أودّ سماع آرائكم» .

أجاب أيوب⁽¹⁾ ، وهو من نواحي أرض عُوز لا ، وأحد مُستشاري الملك ، فقال : «إن كان يحسُن أمام الملك ، فبأني أتجرأ على الكلام . إن الرأي الذي قدّمه لنا الملك بخصوص هذا الشعب كان صائباً ، والأسلوب الذي اتبعناه في تنفيذه سنستمرّ عليه ، وما الرأي الذي أطرحه الآن ، بإذن الملك ، إلا إضافة إلى الرأي ذاته . فها نحن منذ سنوات عديدة ما برحنا نخشى وقوع حرب علينا ، كما أننا خشينا بالمثل أمر انتشار اليسرئيليين في البلاد وامتدادهم عبرها ، لثلاً يخرجونا من أوطاننا . فالآن إن حسُن أمام الملك ، فليصدُر أمرٌ ملكي وليتمّ تدوينه بين شرائع مصر ، لثلاً يطاله نقض أو تعديل . ولينصّ هذا الأمر على سفك دم كل الذُكران المولودين لهؤلاء العبريين . فإن اتبعنا هذا الرأي وقتلنا الذُكران أجمع ، لا نبقى نخشى خيانة هذا الشعب في المُستقبل» .

وحاز هذا الرأي على قبول الملك ومُستشاريه وحُكَمائه ، ففعل الملك ما أوصى به أيوب . وتمّ إصدار بيان ونُشر عبر البلاد ، يقضي بسفك دم كل مولود ذكر يُولّد للعبريين .

(1) هو ذاته أيوب صاحب السفر المعروف باسمه (وهو الثالث) من أسفار الكتوبيم (أي القسم الثالث من الكتاب المقدس لدى اليهود) ، وهو فيه مجرد صديق وليس نبياً .

وكان يعيش بأرض مصر رجل اسمه عَمْرَام لَامَرَم ، بن قَهَات كِهَات بن ليوي بن يعقوب . تزوج هذا الرجل بعمته⁽¹⁾ يوكييد «וּכְיִיד בַּנְת לִיְוִי» ، فولدت ابنةً سمّتها مريم⁽²⁾ מֵרִים ، لأنها وُلدت في الأيام التي جعل بها المصريون ينغصون حياة العبريين . ثم بعد ذلك ولدت ابناً ، فسّمته أهرُون אֱהֲרֹן .

وحدث في السنة المئة والثلاثين من دخول يسرئيل أرض مصر أن قرعوه ملك البلاد حلّم بأنه كان جالساً على عرشه ، فلما رفع عينيه شاهد أمامه رجلاً عجوزاً يُمسك بيده ميزاناً كبيراً . فعلق العجوز الميزان ، وأخذ أعيان مصر جميعهم وأمرأها ومقدميها ، فأوثقهم معاً وجعلهم في إحدى كفتي الميزان ، أما في الثانية فقد جعل خروفاً ، وإذا بالملك الحالم يرى الخروف الواحد يزن أكثر من خيرة رجال مصر بأسرهم .

أفاق قرعوه ، وأرسل في طلب وزرائه فروى لهم هذا الحكم ، الذي أصابه بالخوف والتعجب في آن معاً . فكان من بين سخرة مصر رجل يعدّه الملك حكيماً أكثر من سواه ، اسمه بلعام بن يعور⁽³⁾ בְּלַעַם בֶּן-בְּעוֹר . فأرسل الملك في طلبه ، وسأله تعبيراً للرؤيا . أجاب بلعام بن يعور : «إن شراً مُستطيراً سوف ينال من مصر في الأيام التالية . سيولد لبني يسرئيل غلام ، يكون دمار مصر على يديه ، فيهلك شعبها ويخرج بقومه منها . فيا سيدي ومولاي الملك ، دونك الأمر ، ولتهلك نسل يسرئيل ومصالحهم من الآن ، قبل أن تحلّ بلاياهم على أرض مصر» .

(1) انظر التوراه ، خروج - 6 : 20 . والزواج في الدين اليهودي من العم أو الخال أو العمّة أو الخالة غير محرم ، ونظنّه كان يشيع بخاصّة في سبط ليوي ، لاختصاصه بالرئاسة الدينية والخبرة العظمى لديهم . ومما يروي الأقدمون عن الطائفة اليهودية في مدينتنا دمشق أنهم كانوا يؤكدون مشروعية الأمر ، إلا أنهم يعدّونه نقيلاً ، ولهم في ذلك قول مأثور : «يلّي بتاخّد عمّها ياكبر همّها ، ويلّي بتاخّد خالها يا شغلان بالها» ! قلنا : قد تعاف النفس الزواج بين الأقارب فكيف بالأصول ؟ لا ننسى عجوزاً چركسياً قدم الشام فسأل عريساً شاباً من جيرانه عن عروسه فقال : «هي بنت عمّي» . فارتجف العجوز مستنكراً بلهجته الطريفة : «أستغفر الله» ! ولم تفلح جهود آله في التسكين من روعه ، حتى سافر قائلاً وهو يتعوذ بمرارة : «أهل الشام لا يراعون محارم الله» !

(2) مريم اسم عبري ، يتوافق مع : מֵרִים ، أي : الثورية ، روح التمرد والعصيان .

(3) انظر التوراه ، عدد - 22 : 5 ، وما يليها في أخبار بلعام ، لكن ليس فيها ما يرد هنا .

فاستفسر فرعون: «ماذا يسعنا أن نفعل؟ قد جربنا أكثر من حيلة فلم يفلح منها شيء» .

أجاب بلعام: «أرسل في طلب أخص اثنين من مستشاريك، فتداول الأمر معاً. فأرسل فرعون في طلب مستشاريه رعوئيل⁽¹⁾ واللاوي⁽²⁾ المديني وأيوب، ومثلاً بين يديه». فقال الملك: «قد سمعنا حلمي وتعبيره، فهلماً أعطيانى رأيكما. كيف لنا أن نهزم شعب يسرائيل قبل أن يحل بنا شرهم المتربص؟» .

أجاب رعوئيل المديني قائلاً: «أيها الملك، فلتعش للأبد! إن كان يحسن في عينك، أيها الملك، فكف عن تعذيب هذا الشعب! إنهم أصفياء الله من سالف الأيام، ولم يقع قط أن نجا من يضطهدهم من العقاب. لقد جوزي فرعون السالف بما آذى ساره، كما جرى لأيمملك الفلسطينيين للسبب عينه. كما نجا يعقوب من كمان عيسو أخيه ولابان أيضاً. ولقد كان جدك الأكبر يكرم جدهم الأكبر يوسف، حيث أدرك مدى الحكمة التي خصه بها الله، والتي أنقذت شعب هذه الأرض من الموت جوعاً. لذا أيها الملك، فلتمط عنهم أذاك ودعهم يمضون من هنا إلى أرض كنعان، مقام آبائهم الأولين» .

فأسخطت كلمات رعوئيل المديني فرعون، فطرده من مجلسه خائباً. فبارح رعوئيل مصر في ذلك اليوم عائداً إلى موطنه، حاملاً معه عصا يوسف .

ثم قال الملك لأيوب مستشاره: «ما رأيك بخصوص هؤلاء العبريين؟»، فأجاب أيوب: «أليس جميع سكان مصر في يدي الملك؟ فما تراه حسناً في عينك فافعله بهم» .

ثم تكلم بلعام فقال: «إن آياً من هذه السبل المقترحة لخضد شوكة العبريين لن ينفع. فالتار لا طاقة لها بهم، إذ نجا أبرهام من ضرامها. والسيف فيهم لا يفلح، فيصحاق نجا من حده القاطع وافتدي بكبش ذبح عنه. كما لا يمكن إفناؤهم بالأشغال الشاقة، إذ عمل يعقوب ليلاً نهاراً في خدمة لابان وهو مع ذلك أترى. فاستمع أيها الملك إلى الرأي الذي أسديه لك! وبهذه الوسيلة فحسب

(1) ثم يغدو رعوئيل هذا يهودياً ويسمى يثرو، ويتزوج موشيه من ابنته صيفراه .

يكون بوسعك أن تتغلب عليهم . فلتأمر بأن المواليد الذكور المولودين لهؤلاء العبريين ينبغي طرحهم كلهم في النهر وإغراقهم ، إذ لم يسبق أن نجا أحد من أسلافهم من الموت غرقاً⁽¹⁾ .

سرّ هذا الرأي فرّعه وأمره ، وتصرف الملك بحسب كلام بلعام . فتمّ نشر بيان بالأمر ، وأوفد فرّعه مقدّمه عبر أرض جُشن حيث يُقيم السّرّثيليون ، ليشتبوا من أن كل المواليد الذكور كانوا يُطرحون في النهر عند ولادتهم ، فيما تُترك الإناث على قيد الحياة .

وحدث في تلك المدة أن مريم بنت عمّرام ، أخت أهرون ، تنبأت فقالت : «سيولد لأبي وأمي ابن آخر ، وهو يخلص السّرّثيليين من يد المصريين» . فولد لهما ابن آخر كما قالت ، فلما رآته أمه غلاماً حسناً جميل الهيئة ، أخفته ثلاثة أشهر في داخل مخدعها .

وكان التفتيش في تيك الأيام شديداً على بيوت العبريين عن الأطفال الذكور ، وتمّ استخدام عدّة وسائل لكشف الأماكن التي كان آباؤهم يخفونهم فيها . فكانت النساء المصريات يحملن أطفالهن إلى بيوت جُشن ويلجئنهم إلى البكاء ، فكان الأطفال المخبّرون يكون لبكاء هؤلاء فتكشف مخابثهم . وتبادر النساء إلى إخطار فرّعه ، فيأتي المقدّمون للقبض على الطفل الذي يستमित أبواه في سبيل إنقاذه سدى .

وحدث أنه بعدما أفلحت يُوكيد في إبقاء ابنها مخبوءاً مدة ثلاثة أشهر ، ذاع خبر ولادته بالطريقة المذكورة ، فأخذته أمه بسرعة قبل وصول المقدّمين ، وأخفته في صندوق الصندوق مصنوع من البردي ، وخبّأته بعناية في القصب ٩١٥ الذي ينمو على حافة النيل . ووجهت بابنتها مريم لتراقب الصندوق على مبعده ، وتبصر ما يكون من شأنه .

(1) بحسب ما جاء في التلمود ، عومل كل من هؤلاء المستشارين الثلاثة بما هو أهل له . فرعونيل (يترو) الذي رغب بتخليصهم وإراحتهم نجا من الهلاك واعتنق اليهودية . وأما أيوب فنال العقاب المذكور في السفر المدعو باسمه . أما «بلعام بن بعور فقتلوه بالسيف» (سفر العدد - 31 : 8) .

وكان يوماً حاراً وورطباً وكان الهواء ثقيلًا ، فأتى كثير من الناس يتردون من الحرارة المُنْضِية في مياه النيل الرائقة . فجاءت بَتِيَاه⁽¹⁾ בתִּיָּה ابنة قَرْعُوهُ بهذا الغرض وحولها جواربها ، فلما نزلت الماء صادف أن أبصرت بصندوق البردي ، فرق قلبها للطفل وأنجته من الموت .

وأطلق العديد من الأسماء على هذا الطفل الذي نجا بأعجوبة ، فسمته بَتِيَاه⁽²⁾ «مُوشيه» מוֹשֶׁה قائلَةً : «لأنني قد انتشلته» من الماء . بينما سمّاه أبوه «حبر» חֵבֶר⁽³⁾ لأنه اجتمع بأهله . أما أمّه فسمته «يقوتيل»⁽⁴⁾ قائلَةً : «قد أمّلتُ بالله» . وسمته أخته «يارد»⁽⁵⁾ יָרֵד قائلَةً : «هبطتُ النهر كي أرقبه» . أما أهرون أخوه فقد سمّاه «أينجدور» אֵינְגְדוֹר ، لأن الله سدّ به ثلْمَةً في بيت يعقوب ، فالمصريون كانوا منذ ذلك عن طرح الأطفال بالماء . وسمّاه جدّه «أيسوكو» אֵיסוּקוֹ ، قائلًا : «ثلاثة أشهر قد خبئ» . وسمّاه بنو إسرائيل «شمعياه بن تثنيل»⁽⁶⁾ שמעִיָּה בֶן תַּתְנַיִל ، لأن في أيامه سمع الله شكواهم وخلصهم من أيدي ظالمهم .

وأضحى مُوشيه بمثابة الابن من بَتِيَاه ابنة قَرْعُوهُ ، وكأنه طفل ينتمي رأساً إلى قصر الملك .

* * *

ثم حدث أن قَرْعُوهُ لما تبين أن رأي بلعام لم يُجد ، بل راح اليسرئيليون على العكس ينمون ويتكاثرون أسرع حتى من ذي قبل ، فرض عليهم أشغالات شاقة إضافية ، وأصدر أوامر بأن أي رجل لا يفي بإنتاج عمله اليومي كاملاً يُدفن أولاده أحياء في المبنى الذي يعمل فيه . واستمر هذا النظام معمولاً به سنين عديدة .

* * *

- (1) المعنى الحرفي لاسمها في العبرية : בתִּיָּה (بَت - يَاه) : بنت الله .
- (2) في العبرية فعل מוֹשֶׁה (ماشاه) يعني : انتشل ، أنقذ .
- (3) في العبرية فعل חֵבֶר (حبير) يعني : وحدّ ، جمع ، ربط .
- (4) في العبرية فعل קוּוָה (قواه) يعني : أملّ ، رجا ، تمنى .
- (5) في العبرية فعل יָרֵד (يارد) يعني : هبط ، نزل ، انحدَر .
- (6) معنى الاسم في العبرية : الله سمع - بن - الله أعطى .

وفي هذه المدة ، عندما بلغ موشيه سنته الثالثة ، كان فرعوه جالساً إلى مائدة طعامه ، وإلى يمينه الملكة ويثياه إلى يساره ، وحوله ابناه وبلعام وأمراء مملكته ، وكان موشيه قاعداً في حضنه . فمدّ الطفل يده وجذب التاج الملكي من رأس فرعوه واضعاً إياه على رأسه .

فما كان من فرعوه والقوم الذين حوله عندما رأوا ذلك إلا أن عدّوه أمراً إذا دلالة ، فسأل فرعوه : «بِمَ يُعاقَب هذا الصبي العبري ؟» .

فقال بلعام بن بعور السّاحر : «لا تظنّ أن هذا الطفل فعل ما فعل بغير قصد لأنه صغير . فتذكّر أيها الملك الحُلم الذي عبّره لك عبدك ، حُلم الميزان ! إن روح الفهم مغروسة منذ البداية في نفس هذا الطفل ، وهو يحتجّن مملكتك لنفسه . فهذا كان يا مولاي أسلوب شعبه ، إنهم يدوسون بأقدامهم من أحسن إليهم ، ويغضبون بالحيلّة سلطان من دَعَمَهُم وحمّاهم . فأبرهّام جدّهم السّالف خدع فرعوه قائلاً عن ساراه : «هي أختي» . ويصحاق ابنه فعل الشيء ذاته . أما يعقوب فاستحوذ خلصةً على البركات التي تخصّ أخاه بالأصل ، ثم رحل إلى بلاد النهرين وتزوَّج بابنتي خاله وانهزم بهما خفيةً ، أخذاً لنفسه قطعان مواش هائلة وممتلكات عظيمة . وكذلك باع بنو يعقوب أخاهم يوسف إلى ريقة العبوديّة ، ثم نال بعدها تشرّيف جدك السّالف فعينه نائباً له بمصر ، ثم لما حلّت المجاعة بالبلاد جلب إليها أباه بآله كلّهم ليأكلوا من خيراتها ، فيما كان المصريون يبيعون أنفسهم طلباً للغذاء . والآن يا مولاي ، يقوم هذا الصبيّ مقلداً أفعالهم . إنه يهزأ بك أيها الملك ، وبأعيانك وأمرائك ! لذلك فلتهرق دمه ، ليتمّ هذا الآن من أجل مصلحة مصر في الأيام القادمة» .

ردّ الملك على كلام بلعام : «سننادي قضاةنا أجمع ، فإن أدانوا الصبي بحكم الموت أمرنا بإعدامه» .

فلما تجمّع القضاة والحكماء حسب أوامر الملك ، أتى يترو «١٦٦٦ [رعوثيل] كاهن مدين معهم . فروى لهم الملك فعلة الصبي والمشورة التي أسداها إياه بلعام ، طالباً آراءهم حول الشأن ذاته .

فقال يترو ، راغباً بإنقاذ حياة الصبي : «إن حَسُنَ أمام الملك ، فليُقدِّمَ أمام الصبيّ طبقان ، في أحدهما جَمْرٌ وفي الآخر ذَهَبٌ . فإن مدّ الصبي يده قابضاً على الذهب ، علمنا أنه عاقل مُدرك ، وعددناه قاصداً ما بدر منه تجاهك ، فيستحقّ بذلك الموت . أما إذا قبض على الجمر فليُبقَ على حياته» .

فوافق الملك على هذه المشورة ، وقُدِّمَ أمام مُوشيه الطفل طبقان : في أحدهما ذهب وفي الآخر جَمْرٌ . فمدّ الصبي يده وأمسك بجمرة جعلها في فيه ، فأحرق لسانه وأضحى مُنذ ذلك الحين «بطيء التُّطق وثقيل اللِّسان» ، كما هو مذكور في نصِّ التوراه . ولكن هذا التصرف الصِّباني أنقذ حياة مُوشيه⁽¹⁾ .

وشبَّ مُوشيه فصار فتىً حَسَناً في قصر الملك ، وكان يلبس ثياب الملوك ويحظى بتشريف النَّاس ، وتلوح عليه مخايل الدَّم الملكي . وكان يتردّد إلى أرض جُشِن يوماً ، مُلاحظاً العسف الذي كان يلقاه إخوته ، فلما استفسر منهم عن سبب إلزامهم بالعمل المرهق وتعرّضهم للظلم ، دري بالأمر التي وقعت قبل مولده كلّها بما في ذلك جميع ما يتعلّق ببني يسرّئيل وجميع ما يتعلّق به شخصياً . ولما علم برغبة بلعام بإهلاكه في طفولته ، جاهر بعداوته لابنِ بَعُور ، الذي بادر لخشيته من سلطته وحظوته لدى ابنة الملك فهرب إلى الحبشة .

ورجا مُوشيه ملك مصر أن يمنح أهل جُشِن يوم استراحة من أشغالهم في الأسبوع ، فوافق الملك على طلبه . وكان قول مُوشيه له : «إن أجبرتهم على الشغل المستمرّ خارت قُواهرهم ، فمن أجل منفعتك ومصالحتك اسمح لهم بيوم واحد في الأسبوع على الأقل ، طلباً للراحة وتجديد العزائم» .

وكان الرّبّ مع مُوشيه ، وذاع صيته عبر البلد كلّها . ولما كان في حوالي الثامنة عشرة من العمر ، زار أباه وأمه في جُشِن ، ولما مضى حيث كان إخوته يشتغلون أبصر رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرياً ، فقتل المصري وهرب من أرض مصر ، كما تردّ الحادثة في نصِّ التوراه .

(1) هذه الرواية برمتها لا تردّ في التوراه ، فيما خلا ذكر أن مُوشيه كان ثقيل اللِّسان ، راجع سفر الخروج - 4 : 10 .

وحدث في تلك الأيام أن الآشوريين ثاروا على قيقانوس ملك الحبشة ، الذي كانوا يدفعون له الجزية . فعين قيقانوس بلعام بن بَعُور ، الهارب من مصر ، نائباً عنه في غيابه ، وزحف بجيش كجب فأخضع الآشوريين ، وفرض عليهم أتوات كبيرة .

أما ما كان من أمر بلعام فإنه خان الثقة واحتجج السلطة التي أوكل إليه الحفاظ عليها ، وحثّ شعب الحبشة على تنصيبه ملكاً عليهم بدلاً من قيقانوس الغائب . وقام بتحسين أسوار العاصمة ، وبنى قلعة عظيمة وحفر الخنادق والحُفَر بين المدينة ونهر جيحون (٦٦٦) (١١٦) ، الذي يحيط بكامل بلاد الحبشة .

فلما عاد الملك قيقانوس بجيشه تعجّب لرؤية التحصينات المبنية في غيابه ، فظن أن الشعب خشوا من هجوم يشنه ملوك كنعان في خلال غيبته ، فعملوا على التجهّز له . ولكن عندما أوصلت بوابات المدينة في وجهه ، وصاح طالباً فتحها سدىً ، اشتبك في حرب مع الموالين لبلعام . واستطالت الحرب بين قيقانوس وبلعام تسع سنين ، فمُنِي بها الأول بخسائر جسيمة .

ولما هرب مُوشيه من مصر انضمّ إلى جيش قيقانوس ، وسرعان ما أمسى محبوباً للغاية من قبل الملك وأعوانه كلهم .

ومرض قيقانوس فمات ، فدفنه جنوده قبالة المدينة ، وأقاموا على جثمانه صرحاً نقشوا عليه ثبت الأعمال الجليلة التي أتى عليها في حياته . ثم قال بعضهم للآخر : «ماذا نفعل ؟ تسعة أعوام مضت ونحن غائبون عن ديارنا ، فإن هاجمنا المدينة كرة أخرى فمن المحتمل أن نُصدّ دُونها ثانية ، وإن مكثنا ها هنا فإن ملوك إدوم عندما يبلغهم موت قائدنا سيهاجمونا فلا يُيقون منا على أحد . خير لنا أن نُعيّن ملكاً آخر سوى قيقانوس» .

فقام الجيش بتنصيب مُوشيه عليهم ملكاً وقائداً ، في السنة المئة والسابعة والخمسين من هبوط يسرئيل مصر^(١) .

(١) لا أثر لهذه الرواية كلها في التوراه . وهنا يلاحظ الدارس مدى غموتراث الأجداء الشفهي على هامش التوراه ، حتى غدا منها التكملة لا مجرد التفسير .

ووجد مُوشيه حُظوة في عيني الرَّبِّ ، وبثّ الجرأة في قلوب جنوده بكلامه وبأفعاله . وهاجم القلعة بحملة قويّة ، مع نفخ الأبواق والعزيمة الصادقة ، ففتحت المدينة على يديه ، وصُرع في المعركة من أعدائه ألف ومئة رجل . غير أن بلعام بن بَعُور نجا بنفسه وهرب عائداً إلى مصر ، فغدا فيها واحداً من السّحرة المذكورين في التّوراه (الشّريعة) .

ونصّب الأبحاش مُوشيه ملكاً على عرشهم وجعلوا تاج الملك على رأسه ، وزوّجوه بأرملة قيقانوس . لكن مُوشيه تذكّر مع ذلك تعاليم آبائه ، كيف دفع أبرهّام عبده إلى القسّم بالأّ يجلب إحدى بنات الكنعانيين لتكون امرأة ليصّحاق ، وكيف قال يصّحاق لابنه يعقوب : «لا تأخذ لنفسك امرأة من بنات الكنعانيين ، ولا تصاهر أحفاد حام» . وعلى ذلك ، كانت أرملة قيقانوس زوجة لمُوشيه من حيث الاسم فحسب .

ولما أضحى مُوشيه ملكاً على الحبشة ثار الآشوريّون من جديد ، غير أن مُوشيه أخضعهم وفرض عليهم جزية سنويّة يدفعونها لحكّام الحبشة .

* * *

ثم حصل في السّنة المئة والثمانين من هبوط يسرّئيل لمصر ، أن ثلاثين ألفاً من قبيلة إفرايم قاموا فتوزّعوا فرقاً وقالوا : إن الوقت الذي أعطاه الرَّبُّ لأبرهّام في عهد الأَشطار (تكوين - 15 : 13) قد حلّ⁽¹⁾ ، وسنصعد خارج مصر . واتكل هؤلاء على قواهم فغادروا مصر . لكنهم لم يأخذوا معهم أيّة أقوات ، ما خلا لزوم مسيرة يوم واحد . ولم يأخذوا شيئاً سوى ذهب وفضّة ، قائلين : «سنبتاع طعاماً من الفلسطينيين» .

وفيما رحلوا صوب جتّ ٦٦٦ صادفوا جماعة من الرّعيان ، فقالوا لهم : «بيعوننا ماشيتكم ، فنحن جائعون» . غير أن الرّعيان أجابوا : «هذه الماشية حلال لنا ، لا نبيعها لكم» .

(1) يرد في ذلك العهد في التّوراه : «فقال الرَّبُّ لأبرام : اعلم يقيناً أن نسلك يكونون غريباً في أرض ليست لهم ، ويُسْتَعْبَدون ويُعذّبون أربع مئة سنة» .

فاستولى رجال إفرام على الماشية بالقوة ، فتصايح الرعيان بقوة ، وبلغت صيحاتهم أسماع أهالي جت ، فتجمهروا لتيان الأمر . فلما علم أبناء جت بالشكل الذي عومل به إخوانهم تسلّحوا ووزحفوا لقتال المُسيثين ، فسقط الكثير من الطرفين . وفي اليوم التالي وجّه أهل جت رسالةً إلى مُدُن الفلسطينيين قائلين : «هلمّوا فساعدونا على دحر الإفراميين ، الذين جاؤونا من مصر واستولوا على ماشيتنا وقتلونا بغير سبب» .

فتقدّم الفلسطينيون بقوة تعدّ حوالي أربعين ألفاً ، وهزموا الإفراميين الذين كانوا مُرهقين وجائعين ، ولم ينبجُ من الموت الذي أصاب قبيلة إفرام سوى عشرة أنفار . وهكذا عوقب رجال إفرام للصعود من مصر قبل الوقت الذي عينه الربّ . وبقيت أجساد القتلى منهم في وادي جت لم تُدفن ، وكانت عظامهم هي التي قامت تدبّ فيها الحياة ، في زمن يحزّ قثيل ، كما تروي نبوءته⁽¹⁾ .

وعاد هؤلاء التّاجون العشرة إلى أرض مصر ، فرووا لبني إسرائيل ما حصل لهم .

في أثناء ذلك كان مُوشيه يحكم الحبشة بالعدل والصلّاح . غير أن ملكة الحبشة أدونيت⁽²⁾ ، وهي زوجة مُوشيه بالاسم فحسب ، قالت للشعب : «لماذا يبقى هذا الغريب حاكماً عليكم ؟ أليس خيراً منه أن يُقام ابن قيقانوس على عرش أبيه ، وهو واحد منكم ؟» . بيد أن الناس لم يرتضوا رغم هذا الرّأي بالتّركر لمُوشيه الذي أحبّوه ، لكنه عمد إلى التنازل عن السّلطة التي منحوه إيّاها ، من تلقاء نفسه ، ورحل عن أرضهم . فقدّم له شعب الحبشة الكثير من العطايا الثمينة ، وودّعوه بغاية التّكريم .

(1) راجع سفر يحزقئيل من أسفار نبّيم أخرونيم - 37 : 1-11 ، حول إحياء الربّ للعظام البالية وهي رميم . وهو من النّصوص الهامة في هذا السّفر .

(2) المُفترض أن يكون اسمها باللغة الأمهرية السّامية السّائدة في الحبشة ، فإذا به هنا من الفرع الغربي للغات السّامية ! ففيها أدون هو السيّد أو الربّ (تحوّل في الميثولوجيا الإغريقية إلى أدونيس Ἄδωνις) ، أما أدونيت فهي صيغة التّأنيث من أدون . واليهود المتدينون دوماً يتحاشون لفظ اسم الله الأعظم (יהוה) تنزيهاً له (إلا مرةً في العام بيوم كيور) فينطقونه حتى وإن ورد في نصّ التّوراه أمامهم : أدوناي יהוה ، أي : سيدي ، ربي .

أما مُوشيهُ الذي كان لا يزال خائفاً من العودة إلى مصر ، فقد رحل إلى أرض مَدْيَنَ⁽¹⁾ ، وتوسّد مكاناً قعد فيه قرب بئر ماء . وحدث أن وردت بنات رِعُوئِيلَ (أو يَتْرُو) السَّبْعَ هذا البئر للاستقاء لماشيتهنّ . فطردهنّ رُعاة مَدْيَنَ ، بغية إبعادهنّ حتى ترد ماشيتهنّ أولاً ، غير أن مُوشيهُ تدخل لمصلحتهنّ ، فعُدن إلى بيتهنّ مبكرات وروين لأبيهنّ ما قد حدث . فأرسل رِعُوئِيلَ في طلب مُوشيهُ ، وروى له هذا الأخير كل ما جرى له منذ هروبه من مصر . وعاش مُوشيهُ عند رِعُوئِيلَ ، وحظيت في عينيه صِفْراً لا ٦٦٥ ابنة مُضيفه فتزوجها .

* * *

وفي أثناء ذلك ، أصاب الرّبّ فرْعُوهُ ملك مصر بالجُدَامِ . وكان المرض شديد الوطأة ، فعانى الملك من آلام مُبرّحة لا توصف . واشتكى نظار العمل المعيّنين على السِّرِّيَّيْنِ من أن هؤلاء باتوا كسالى يهملون عملهم .

قال الملك في نفسه : «إنهم يستغلّون مرضي» ، فأمر بتجهيز عربته وتجهّز للركوب بنفسه وتوبيخ العمّال ، وليتأكد من عدم تهرّبهم من شغلهم .

وحدث أثناء ركوبه في درب ضيق أن تعثرت خيله وانقلبت به العربة ، فارتقى الملك على الطريق وداست عجلات العربة عليه . فتمزق اللحم الرّخو من جسمه وتكسّرت عظامه التي غدت بسبب المرض هشّة . فسجّاه عبيده على نعش وحملوه إلى قصره ، ولكن عندما مدّدوه على سريره علم الملك أن منيته قد حلّت . فتجمّع كلّ من امرأته وأمراؤه ، وراحوا يبكون حول سريره فبكى فرْعُوهُ معهم ، وطلب إليه مقدّموه أن يُسمّى خليفته .

وكان لفرْعُوهُ ابنان وثلاث بنات . وكان البكر ذا عقلية غير سوّية وشخصية متقلّبة ، بينما كان الآخر ، برغم ذكائه وتمرّسه بعلوم بلاده ، صاحب مخيلة شريرة ودميم الخلق وقزماً . وبرغم ذلك ، مال الملك إلى ابنه الآخر نظراً لذكائه الفائق ، ليكون هو من يليه في سُدّة الحكم .

(1) في أطلس أوكسفورد للكتاب المقدّس أن أرض مَدْيَنَ هذه تقع إلى الشرق مباشرة من خليج العقبة مواجه صحراء سيناء . راجع : *Oxford Bible Atlas*, p. 67 .

ولبت قَرْعُوهُ ثلاث سنين يعاني آلاماً قاسية مبرّحة ، ثم مات ودُفِن في قصر الملوك ، لكنّه لم يجر تحنيطه لأن جسده كان بحالة رِقّة من المرض إلى درجة لا تسمح بتجهيزه بالحنُوط .

وفي السنة السادسة بعد المتين من دخول يِسْرَائِيل مصر ، ارتقى القَرْعُوهُ المذكور إلى عرش البلاد . وسَامَ بني يِسْرَائِيل سُوء العذاب وزاد من أعبائهم ، فألقى يوم الرّاحة الذي كان أعطي لهم باسم أبيه ، متذرعاً بانغماسهم في الكسل والبطالة خلال فترة مرض أبيه .

ورَزَحَ بنو يِسْرَائِيل في قيود عبوديتهم ، وصرخوا إلى الرّبّ . فسمع الرّبّ صُراخهم ، وذكر ميثاقه لأبرهَام ويصحاق ويعقوب .

ولاحظ كان مُوشيه أثناء إقامته عند رِعُوئيل المديني وجود عصا في حديقته ، فأخذها لتكون بيده عصا للمشي . وهي عصا يُوسيف ذاتها ، أخذها رِعُوئيل معه عندما هرب من مصر . وكذلك كانت العصا نفسها التي أخذها آدام عندما خرج من جنة عدن . وكان ورثها نُوح ، فأعطاهَا بعد ذلك لابنه شِيم . وتناقلت عبر أيدي نسل شِيم إلى أن صارت بملك أبرهَام . فلما ترك أبرهَام كل ممتلكاته الدنيوية ليصحاق كانت هذه العصا من بينها ، ولما هرب يعقوب من سخط أخيه إلى بلاد النهرين حمل هذه العصا بيده ، ثم لما أقام بمصر أعطاهَا لِيُوسيف ابنه .

* * *

وحدث بعد انقضاء عامين أن الرّبّ أرسل مُوشيه ثانية إلى قَرْعُوهُ لإحضار بني يِسْرَائِيل من بلده . وتكلّم مُوشيه أمام قَرْعُوهُ بكل ما أمره به الرّبّ ، ولكن قَرْعُوهُ لم يُصغ إلى كلامه . ولذا سلّط جبروت الرّبّ على المصريين ، فأصاب قَرْعُوهُ ومُقدّميه وشعبه بأفات شديدة .

وعلى يدي أهرون ، بدّل الرّبّ مياه مصر إلى دم . فكان من يسحب الماء من ساقية جارية ينظر إلى دلائه فإذا بالماء صار دماً أحمر . وكان من يروم الشرب ويطفئ ظمأه يمتلئ فمه بالدم ، ومن يستعمل الماء في عمل الخبز يجد العجين ممتزجاً بالدم في معجنه .

ثم راحت الأنهار تفيض بالضفادع ، فراحت تجوس في بيوت المصريين ، وفي طعامهم وفي مخادعهم . وبقيت ذراع الربّ مبسوطة بالسّخط على مصر ، فأصاب البلد بجائحة شديدة من القمل . فكان القمل على أجساد الناس والحيوانات ، وعلى الملك والملكة وجميع شعب البلد⁽¹⁾ .

ثم سلّط الله على مصر وحوش الغابات الضارية ، فكانت تدخل المدن المأهولة وتُهلك الحرث والنسل ، وتوقع رُعباً عظيماً في البلاد . وكثرت الحيات والعقارب وكل أنواع الزواحف والهوام ، ما خلا الفئران وابن مقرض ، وجميع أنواع القوارض والذّبان والزناير وأصناف الحشرات ، التي ملأت أرض مصر واغتذت عليها .

ثم أرسل الله طواعين مهلكة في الماشية ، فنفتت كلّها في ليلة واحدة ما هذا عشرها . غير أن الماشية التي يملكها الإسرائيليّون في جُسن لم تتأثر ، ولم يفقدوا منها رأساً واحداً⁽²⁾ .

ثم غدّت أجسام المصريين عليلة مؤذية المنظر ومليئة بالقروح ، وأصاب لحومهم الالتهابات . ولكن غضب الربّ ما برح برغم ذلك يستعر عليهم ، ولبثت يده عليهم مرفوعة بالسّخط . فأرسل الله زخّة برّد أتلفت الكُروم والأشجار والعُشب الأخضر والزروع اليانعة ، أما من اجترأ من الناس على الخروج من بيته ، والماشية المتروكة بلا مأوى ، فقد كان مصيره ومصيرها الموت تحت انهمار البرّد القاسي . ثم اجتاحت البلد أسراب عظيمة من الجراد ، فأتلفت كل ما تركه البرّد وأتت على كل نبت أخضر .

وبعد هذا كلّه ، اكتنفت الظلّمة البلد بأسره ، ولثلاثة أيام وثلاث ليال عجز الناس حتى عن رؤية أيديهم أمامهم . وخلال مدّة الظلّمة هذه أهلك الله من كان عاصي القلب من الإسرائيليّين ، والذين لم يكونوا طائعين لتنفيذ أوامره . وفعل الله ذلك في الظلّمة حتى لا يتهج به المصريّون .

(1) قابل على التّوراه ، سفر الخروج - الأصحاح الثامن .

(2) قابل على التّوراه ، سفر الخروج - الأصحاح التاسع .

ثم بعد ذلك أمر الربُّ مُوشيه وأهرون بتحضير ذبيحة الفصح **٨٥٥** ، قائلاً :
«وأنا اجتاز فوق أرض مصر وأقتل كل بكر من الناس والبهائم» . ففعل بنو يسرئيل
كما أمروا ، وحدث في منتصف الليل أن الربَّ اجتاز فوق البلد وضرب كل بكر في
جميع أرض مصر ، من الناس والبهائم ⁽¹⁾ .

ثم كان صرُاخٌ عظيم في جميع الأرض ، حيث لم يكن بيت إلا وفيه ميت .
فقام فرعون وشعبه من شدة الخوف والحزن الجارف . ومضت بتياه بنت فرعون
تبحث عن مُوشيه وأهرون ، فوجدتهما في منزلهما يرتلان تسيحة للربِّ .

وخاطبت بتياه مُوشيه قائلة ⁽²⁾ : «ها أنا أطعمتك طفلاً على ذراعي وأحبتك
في قلبي منذ طفولتك ، فكيف تكافئ رعايتي وحبِّي ؟ عليّ وعلى شعبي وعلى بيت
أبي جلبت الكوارث والخراب» .

سأل مُوشيه : «أصابك شيء من الآفات ؟ إن كان الأمر كذلك فأخبرني
أرجوك» . فأجابت بتياه : «كلاً» .

فتابع مُوشيه : «ومع أنك بكر أمك ، فهذا أنت الآن أمامي على قيد الحياة
وعلى أتم حال . أريحي بالك ، فلن يلحق بك أي أذى» .

فأجابت بتياه : «فيم تنفني راحة البال إذ أرى الشرَّ المُستطير يُحيق بأخي
الملك وبعبيده وآل بيته» .

أجاب مُوشيه : «لأنهم لم يستمعوا إلى صوت الله ، ولذلك حل بهم هذا
العقاب» .

ثم ظهر فرعون أمام مُوشيه وأهرون ، وصاح بهما : «قوما ، خُذا إخوتكما ،
مع مواشيهم وقطعانهم وكل ما لديهم ، ولا تتركوا شيئاً . اذهبوا ولكن استغفروا
الربَّ من أجلي» .

(1) قابل على التوراه ، سفر الخروج - 12 : 11-12 .
(2) ليس في التوراه كذلك ، إنما أمر فرعون لموشيه بأن يخرج بقومه من مصر (الخروج - 12 :
21-22) . وخبر ابنة فرعون عند ذكر عثورها على موشيه بالنهر ، أما اسمها
فينفرد به التلمود . وفي تراث قصص الأنبياء الإسلامي : «آسيا امرأة فرعون» .

وأطلق المصريون بني إسرائيل لوجههم بثروات عظيمة وماشية وقطعان ، وأمتعة نفيسة ، تماماً كما وعد الرب أبرهَام في رؤياه حول الميثاق بين الأَشْطَار . ولم يُأْرَح بنو إسرائيل مصر في تلك الليلة ، بأنهم قالوا : «لسنا أصحاب حَبَائِل وأسرار حتى نسير في عتمة الليل» . بل لبثوا حتى طلوع الفجر ، وأخذوا أواني من ذهب وفضة ممن كانوا يظلمونهم .

وأخذ مُوشيه عظام يُوسيف معه ، وأخذ باقي الشعب معهم كذلك عظام بني يعقوب الآخرين .

وارتحل بنو إسرائيل من رَعَمْسِيس إلى سَكُوت⁽¹⁾ . ولقد كان رحيل اليسرييليين من مصر بعد مئتين وعشر سنين من دخولهم إليها ، بنحو ست مئة ألف رجل ، مع زوجاتهم وأطفالهم .

ولثلاثة أيام عقب رحيل اليسرييليين ، انهمك المصريون بدفن موتاهم ، ويعد ذلك راحوا يقولون ، بعضهم للآخر : «إن مُوشيه وأهرون قد قالوا لقرعوه : «نود الخروج إلى البرية أياماً ثلاثة ، كيما تقدم ذبيحة للرب إلهنا» ، فهلّموا بنا الآن تقوم بكرة ونلحق بأعقابهم . فإن وجدناهم عائدين إلى مصر علمنا أنهم أصحاب ولاء لنا ، أما إن ألقيناهم غير ناوين على العودة أعدناهم بالقوة»⁽²⁾ .

وخرج جيش عظيم من المصريين في أعقاب اليسرييليين ، فأدركوهم وهم نازلون أمام قم الحيروت פִּי הַחִירוֹת ، حيث كانوا يقيمون شعائر الرب . فصاح بهم المصريون : «مضى على غيابكم عن مصر خمسة أيام ، وكنتم وعدتم بالعودة في ثلاثة أيام . أتراكم لا تنوون الرجوع؟» .

فأجاب مُوشيه وأهرون قائلين : «الرب قد أمرنا أن نتابع طريقنا صوب الأرض التي تدرُّ لبناً وعسلاً ، والتي أقسم لأبائنا أن يعطيها لنا» .

(1) قابل على التوراه ، سفر الخروج - 12 : 37 . واسم الموقع سَكُوت نسبة إلى مظلات (مفردا في العبرية : سَكَاه סָכָה) أقامها يعقوب لما شيبته (التكوين 33 : 17) ، ولها عيد يقع في 15-22 من شهر تشري ، يقيم اليهود به في ظلال تذكرهم بمساكن أجدادهم أثناء إقامتهم بالتيه في سيناء أربعين عاماً . وسنذكر هذا العيد بأخر الكتاب بالتفصيل .

(2) قابل على التوراه ، سفر الخروج - 14 : 5 ، مع اختلاف في الرواية .

فلما رأى المصريون أن الإسْرَئِيلِيِّينَ قد أزمعوا على الخروج عنهم ، شكّلوا قوّاتهم لقتال عبيدهم الآبِقِينَ . ولكن الرّبّ قوّى قلوب شعبه ، فانهزم أمراء مصر من وجوههم عائدين إلى بلدهم .

ولما دري فرْعُوهُ بما حصل لهم ، وكم منهم لقي مصرعه ، قال متأسّفاً : «ماذا صنعنا فأطلقنا هؤلاء العبيد من خدمتنا ؟ سوف نُحْرَمُ من خدمتهم لنا في صنع الأجرّ وتشيد حصوننا . ولما يصل الخبر إلى أتباعنا الذين يدفعون لنا الجزية سيثورون علينا ، ما لم نتخذ إجراءات صارمة تجاه هؤلاء الإسْرَئِيلِيِّينَ ، إذ سيقول هؤلاء الأتباع : «إذا كان في وسع العبيد الثورة عليهم ، فكم بالأحرى يكون من اليسير علينا كأمرء وحكّام أن نرمي عن أعناقنا نير عبوديتهم ؟» .

ولذلك جمع فرْعُوهُ حكّماء وسَحَرْتَهُ وأعيانه ، وتداولوا معاً فقرروا أن يلحقوا بأرْقائهم ويستردّوهم . وأصدر فرْعُوهُ بياناً يدعو كل رجل قادر على القتال أن يتأهب للمسير ، وعلى هذا النحو تجمّعت جيوش مصر .

ثم فتح فرْعُوهُ خزائنه ووهب العطايا لكلّ رجل بحسب رُتبته ، وخاطبهم بنبرة منمّقة ومهيبية ، قائلاً : «إذا قامت الحروب ينال الجنّد الغنائم ، لكنها تعود في الأصل إلى ملكهم بحسب الشرائع . غير أنني هذه المرّة سأقسم الغنائم معكم . وتُحْتَمُ الشرائع على تقدّم الجنّد في المعركة على رأس القوّات لخوض القتال ، لكنني في هذه المرّة سأكون في المقدّمة وأنتم تتبعونني . وتأمّر الشرائع أن يجهّز عبيد الملك مركبته ، لكن ها أنا ذا أجهّزها بنفسني» .

فسرّت كلمات فرْعُوهُ الجنود ، فبادروا بحماس إلى تسليح أنفسهم بالسيف والرمّاح والقسى والسّهام .

وكان الإسْرَئِيلِيُّونَ نازلين عند بحر القلْزُوم (أي البحر الأحمر) (١١٥٥) (١) ، فرفعوا عيونهم فإذا المصريّون منطلقون في أثرهم . فامتلات قلوبهم رُعباً ، إذ كان البحر من أمامهم وعدوهم من ورائهم ، فصرخوا إلى الرّبّ .

(1) قابل على التوراه ، سفر الخروج - 15 : 22 . وفي العبرية (١١٥٥) (يَم سُوْف) تعني : بحر القصب .

وحلّ بينهم نزاع شديد في الرأي . فقسم المختلفون أنفسهم إلى أربع فرق ، وردّ مُوشيه على كل واحدة منها بالشكل المناسب⁽¹⁾ .

فأما الفرقة الأولى ، التي تتألف من أسباط رؤيين وشمعون ويساكر ، فرغبوا أن يقدفوا بنفسهم في اليمّ ، لأنهم لم يروا أملاً بالتّجاة . غير أن مُوشيه خاطبهم قائلاً : «لا تخافوا ، قفوا وانظروا خلاص الرّبّ الذي يُجريه اليوم لكم» .

أمّا أسباط زبولون ونفتالي وبنيامين ففضلوا الإياب إلى مصر . فقال لهم مُوشيه : «كما رأيتمّ المصريين اليوم ، لن تعودوا ترونهم إلى الأبد» .

أمّا أسباط يهوداه ويوسيف فرغبوا ببقاء المصريين والاشتباك بالقتال معهم . لكن مُوشيه قال : «استمسكوا بأماكنكم ، الرّبّ يحارب عنكم ، وأنتم يلازمكم السّلام» .

أما الفرقة الرّابعة ، التي تتألف من أسباط ليوي وجاد وأشير ، فقد تشاوروا على القيام بهجوم خاطف مُباغت على صفوف المصريين ، ظناً منهم أن ذلك قد يُصيبهم بالارتباك ويُضعفهم ، فقال لهم مُوشيه : «لا تتحركوا ولا تخافوا ، بل حسبكم أن تدعوا الرّبّ ليُنْجِكم من أيديهم» .

ثم حدث بعد أن تكلم مُوشيه بهذه الكلمات أنه قام في وسط الشّعب ، ودعا الرّبّ قائلاً : «أُتوسّلُ إليك يا ربّ يا إله الكون ، أن تُنجي هذا الشّعب الذي أخرجته من مصر . ولا تذر المصريين يغلبون فيقولون مُتّبجّحين : «يدنّا قوّة»» .

فقال الرّبّ لمُوشيه⁽²⁾ : «ما بالك تصرخ إليّ ؟ قلّ لبني إسرائيل أن يرحلوا» .

ومدّ مُوشيه عصاه على البحر كما أمره الله ، فانشقّ الماء . وعبر بنو إسرائيل في وسط البحر الأحمر على اليبس ، فلمّا عبروا انطبق الماء على المصريين ، ولم ينجُ من جيوشهم كلّها أحد .

(1) قابل على التّوراه ، سفر الخروج - 14 : 11-14 ، مع اختلاف في الرواية وفحوى النّقاش بين مُوشيه وربه .

(2) يعود هنا التّقابل على نصّ التّوراه ، سفر الخروج - 14 : 15 .

حينئذ سَبَّحَ مُوسَىٰ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ لِلرَّبِّ هَذِهِ التَّسْبِيحَةُ فَرِحِينَ وَقَالُوا⁽¹⁾ :

«أَسْبِحُ الرَّبَّ بِمَجْدِ الْعَظِيمِ
الْفَرَسِ وَرَاكِبِهِ رَمَاهُ فِي الْبَحْرِ»

אשירה ליהוה כִּגְאָה גָאָה
סוֹס וּרְכַבּוֹ רִמָּה בַיָּם

* * *

(1) قابل على التُّوراه ، سفر الخروج - 15 : 1 ، وهذا مطلع ترنيمة تستغرق حتى الآية 19 .
ثم يليها في الآيتين 20-21 : «ثم أخذت مريم النبية أخت هارون الدف في يدها وخرجت
النساء كلهن وراءها بدفوف ورقص * فجاءت بهن مريم : سبحوا الرب لأنه قد تعظم
بالمجد ، الفرس وراكبه رماه في البحر» . وتلفت الانتباه بالأخص هذه العبارة :
«مريم النبية أخت هارون» مريم النبيمة أخت هارون !

القسم الثاني

نماذج لحواشي التلمود التفسيرية على التوراه

الفصل الأول

الخلاص من أرض مصر

«فهرب مُوشيه من وجه فرعون ومكث بأرض مدين وقعد عند البئر»⁽¹⁾ .
ויברח משה מפני פרעה וישב בארץ-מדין וישב על-הבאר .

إن ثلاثاً من شخصيات التوراه البارزين قد قابلوا زوجاتهم للمرة الأولى عند
آبار ماء ، وهم تحديداً : يصحاق ، يعقوب ، مُوشيه .

ففيما يخصّ يصحاق نجد : «وكان يصحاق راجعاً من طريق بئر الحّي
الرّأي» באר לחי ראי (سفر التكوين - 24 : 62) . بالإضافة إلى ذلك كان
إلعيّزر رسول أبيه قابل ريقاه عند البئر . أما يعقوب فأيضاً عند بئر قابل راحيل ،
وقابل مُوشيه بنات يترو عندما ورَدْنَ لسقاية ماشية أبيهنّ .

فطالما أن الرّب يمقّت الوثنية ، كيف بمُوشيه يقصد بيت رجل وثني (يترو) ؟

يقول الحاخامون إن يترو كان قد أدرك ضلال سُبّله ، فاستعفى من منصبه
ككاهن لأوثان مدين من قبل أن يأتيه مُوشيه . ومن أجل ذلك تَبّذه الناس هو
وأهل بيته ، وقطعوا كل علاقاتهم بهم ، ولذلك السبب أحجم الرّعاة عن العمل
لديه ، فاضطرت بناته لسقاية ماشيته ورعايتها .

(1) سفر الخروج - 2 : 15 .

يقول داود⁽¹⁾ النبي في مزاميره : «عيناه تنظران ، أجنفانه تمتحن بنبي آدم» .

ويقول الرّابي يناي : «رغم أن ملكوته في السّماء ، فإن عينيه ناظرتان إلى الأرض . تماماً كالملك الذي بنى برجاً عالياً في بستانه وأقام فيه ، وقال لعماله : «عليكم بالعتاية ببستانني على أحسن وجه ، فلتكن الممرّات نظيفة ولتنل الأشجار عناية لائقة بحيث تطرح ثماراً طيبة . فمَن كان منكم مخلصاً في عمله نال مكافأة مُجزية ، ومَن أهمل أوامري سيلقى العقاب الذي يستحقّه وفاقاً!» . فهذا العالم الواسع والفسيح ما هو إلا بستان ملك الملوك ، الذي أوكل به الإنسان لاتباع أوامره وشرائعه ، وللحفاظ على مُتعة الطاعة . فمَن كان مخلصاً نال الثواب ، أما مَن أهمل الثقة الموكلة إليه فيلاقي ما يوافق أفعاله . ولذلك قال داود النبي : «عيناه تنظران ، أجنفانه تمتحن بنبي آدم» (المزامير 11 : 4) .

الله يبحث عن الصّالحين ، كيف ؟ عن طريق الحكم على الكيفيّة التي يعاملون بها الرّعيّة الموكلة إليهم .

لقد جرّب الله داود بن يشاي (النبي) وفق هذه الطريقة . فداود قدّم للحملان عُشباً طرياً تغذيّه ، وللخراف الهرمة حشائش غضةً وعُشباً طرياً ، أما الخراف الفتية القادرة على المضغ فأعطاهما العشب الذّابل ، فخصّ كلّاً منها بحسب حاجتها وطاقتها . ولهذا قال الرّب : «إن داود القدير على القيام بأوَد القطعان الموكلة إليه بعناية لهو جدير برعاية قطيعي ، أي شعب يسرّئيل» . تماماً كما هو مكتوب⁽²⁾ : «من بعد المرّضعات ، أتى به ليرعى يعقوب شعبه» .

وكذلك أيضاً جرّب الرّب موشيه . فأتاه غدوّه بماشية حميه في البريّة شرد حمّل عن القطيع وعدا مُبتعداً . فما كان من الرّاعي الرّحيم إلا أن تبعه ، ووجده يروي ظمأه من نبع على طرف الطريق . قال موشيه : «يا للحمل المسكين ، ما كنتُ أعلم أنك ظامئ» ، فلما فرغ الحمل من الشّرب حمّله برفق بين ذراعيه وردّه

(1) اسمه في العبرية : 717 (ولفظه : دايد)، والملاحظ أنه يرد كذلك بدقّة في رسم القرآن الكريم بواو واحدة (كما في رسمه الأصلي بالعبرية بحرف 7) . وسبق أن ذكرنا أن هذا لاعتبار القيمة العددية للأسماء وفق ما يُعرف بـ «علم الحرف» .

(2) مزامير داود - 78 : 71 .

إلى القطيع . فقال الله : «يا مُوشيه الرّحيم ، إن كان حبك ورعايتك بهذا القدر لحيوان أعجم ، فكم سيكون أعظم تجاه بني جنسك ! لذا فإنك ستقود شعبك بني يِسْرئيل !» .

لماذا تجلّى الربّ لمُوشيه في العليقة ؟ هذا لأن العليقة وضيفة بين الأشجار ، وكذلك كان بنو يِسْرئيل وضيعين بين أمم الأرض . وكما أن الورد ، أجمل الأزاهير ، ينمو بين الأشواك ، فإن من ضمن بني يِسْرئيل هناك الصّالح والطّالح يدخلان معاً تحت العدّ . ومن يدسّ يده في دغلة الأشواك قد يتمكّن من فعل ذلك دون أن يتأذى ، ولكنه لا يستطيع أن يمدّها ثانية دون أن يجرحها العليق . فهكذا كان شأن بني يِسْرئيل . فلمّا دخل يعقوب مصر تمّ ذلك بسلام ودون أن يلحظه أحد أو يزعجه ، ولكن لما خرج بنوه من البلد ، جرى ذلك بعلامات ومُعجزات وحرب . ولثلا يخطر في بال مُوشيه أن قسوة المصريين قد كسرت شوكة بني يِسْرئيل نهائياً ، تجلّى الله له في شجرة عليق مشتعلة وهي لا تحترق ، لكي يمثّل له وضع بني يِسْرئيل ومستقبلهم ، التّام والفائق ، برغم نار الظلم .

«فقال الربّ إنّي قد رأيتُ ناظراً إلى مدّة شعبي الذين بمصر»⁽¹⁾ .

عندما صرف أبرّهام هاجار ، ولما بكى ولدها صارخاً إليها في طلب الماء بالبريّة ، صرّعت إلى السّماء قائلة : «أيها الآب الرّحيم ، لقد وعدتني قائلاً : «سأضعف نسلك» ، والآن ها هو ابني سيموت من الظمّ» .

وعند ذلك أجابها الملاك : «ما لك يا هاجار ؟» ، إلخ .

فبحسب رأي الرّابي شمعون ، راحت الملائكة تحتجّ على العون المبذول ليشمّعل ، قائلةً لله : «إن لقي منك العون اليوم فسوف يبادر بأذية شعبك بني يِسْرئيل في مُستقبل الأيام» . فقال الله : «كيف كان سلوكه اليوم ؟» ، ولما أجابت الملائكة : «كان صالحاً قويمًا» ، أضاف الله : «فهو إذا يُدان اليوم بحسب ما يبدر عنه اليوم» .

(1) سفر الخروج - 3 : 7 ، والترجماتان العريتان عن السبعينية اليونانية غير دقيقتين ، على اعتبار عدم رجوعهما إلى النصّ العبري .

وهكذا كان الأمر مع اليسرئيليين في مصر . فقد عرف الربّ ماذا سيصدر عنهم من أفعال في المستقبل ، فقال : «إني قد رأيتُ ناظرًا» אַהֲרַאֲתִי ، لا مجرد «إني رأيتُ» ، بل «رأيتُ ناظرًا» ، بمعنى يفيد أكثر من مجرد النظر المحدود أو الملاحظة السريعة .

وقال الربّ لمُوشيه : «أنت ترى أمراً واحداً ، أما أنا فأرى اثنين . فانت تدري أن بني يسرئيل سيتلقون الوصايا العشر عند جبل سيناء ، أما أنا فأعلم سلفاً بما سيقع بعد ذلك ، أي بضلالهم وصنعهم للعجل المسبوك . ولكنني برغم ذلك لست أدبنيهم إلا بحسب سلوكهم الحالي . لقد سمعتُ صراخهم ، ورغم أنني أعلم أنهم سيتقولون عليّ بغير حق في البرية ، فلسوف أستنقذهم . لقد وعدتُ جدّهم يعقوب قائلاً : «إني لردّك صعوداً» ، فالآن أردّ أبنائي صعوداً كما وعدتُهم ، وأجوزُ بهم إلى الأرض التي أعطيتها لأبائهم . لقد أتاني صراخهم وها هي ذي أيام عبوديتهم قد انتهت . لذا فامضِ . . . وأخرج شعبي ، بني يسرئيل ، من مصر . إنك أنت المكلف بردهم» .

فأجاب مُوشيه : «لما هبط يعقوب إلى مصر ، ألم تقل له : «سأهبط معك إلى مصر ، وأنا بنفسني أردّك صعوداً كرتة ثانية؟» ، والآن تقول : «إمض أنت» . فكيف لي أن آتي بهم صعوداً ؟ وكيف أحميهم من قِيظ الصيف وقرّ الشتاء ؟ ثم كيف لي أن أعيل جيشاً من ست مئة ألف إنسان ، بكثير من النساء والأطفال ، ومنهم من هو عاجز ومقعّد ، يلزمه رعاية فائقة وغذاء خاص ؟» .

أجاب الربّ : «الخبز غير المخمّر الذي يحملونه معهم يكفيهم طوال الثلاثين يوماً» .

ثم قال مُوشيه : «فإن قالوا لي : «ما اسمه؟» ، بم أجيبهم؟» .

فأجاب الربّ : «لي أسماء عديدة . فاسمي «الله الجبار» (אֱלֹהֵי יִשְׂרָאֵל شَدّاي) ، و «إله الجيوش» (אֱלֹהֵי לַבְיָאוֹת أدوناي صِبّوت) . فعندما أعاقب ذوي الضلال أدعى «إله الجيوش» ، وعندما أوبّخ المذنبين أدعى «الله الجبار» . وعندما أنزل الرحمة على شعبي أدعى «الأزلي» (יְהוָה יְהוּוָה) .

ثم قال الله لمُوشيه : «أنا هو الكائن ، وهذا اسمي إلى الأبد» .

وعنى الله بذلك : «الكائن معهم في عبوديتهم ، والكائن معهم في أسرهم المقبل» .

ثم قال مُوشيه : «لماذا عليّ أن أنبئهم بأسرهم المقبل ، طالما أنهم يعانون السّاعة ريقة العبوديّة؟» .

فأجاب الله : «أحسنتَ القول ، لا تقل لهم عن مآسيهم المُقبلة» .

«فأجاب مُوشيه وقال : «إنهم لا يصدّقونني»»⁽¹⁾ .

لقد أخطأ مُوشيه بجوابه هذا ، لأن الله قد قال سلفاً : «لصوتك يُصغون» .

لذا قال الله : «ما تلك التي بيدك؟» . وهذا كان توبيخاً ، بمعنى أنه بالعصا التي كانت بيده يستحق أن يُجازى على تشكّكه .

ولماذا صارت عصا مُوشيه حيّة ؟ لأنه تقول باطلاً في حقّ الرّب ، تماماً كما فعلت الحيّة في جنة عدن ١٦٧-١٦٨ .

قال شيخ عشيرة وثني للرّابي يوساه : «ألّهي أقوى وأعزّ سلطاناً من ألّهتك» . فسأله الحاخام : «وكيف يكون ذلك؟» . أجاب الوثني : «ذلك لأنه لما تجلّى إلهك في العليقة ستر مُوشيه وجهه ، أمّا حينما أبصر الحيّة ، وهي إلهي ، هرب من وجهها» .

فأجاب الرّابي يوساه : «عندما يتجلّى إلهنا ليس بمقدورنا الهرب منه ، فهو كائن في السّماء وفي الأرض ، في البحر وفي البرّ ، أمّا إن هرب أحداً من الحيّة إلهك فبضعة خطوات يسيرة تُنجاه» .

وما هو مدلول الحيّة فيما يخصّ رجوع بني يسرائيل ؟ إن لفرّعه وجه شبه بالحيّة ، كما هو مكتوب : «الحيّة المُتحوّية» . فتماماً كلدغة الحيّة كانت عبوديّة فرّعه لبني يسرائيل .

(1) سفر الخروج - 4 : 1 : ويعن مשה ويامر והן לא-יאמינו לי .

قال الربّ مُوشيه : «إن فرّعوه الآن مثله مثل حيّة ، بوسعك أن تُرديه بعصاك ، فيكون عاجزاً كخشبة . ومثلما تكون العصا عاجزة عن الأذى بغير معونة الإنسان وقوته المحرّكة ، فهكذا يكون فرّعوه عاجزاً عن الإيذاء» . ولذلك فقد قال : «مُدّ يدك وأمسك بذنبها» .

ولماذا أمرَ مُوشيه بدسّ يده في جيبه عندما جعلت بيضاء من البرص ؟ ذاك لأن البهتان والباطل يشيعان بالعادة في الخفاء ، كما هو حال الجيب المخبوء .

وكيف أن هذا التحوّل إلى البرص يمثّل إعتاق بني يسرائيل ؟ كما هو الأبرص (المجذوم) يدنس الإنسان النقي السليم ، فإن اضطهاد المصريين دنس يسرائيليين ، وكما أن اليد البرصاء عادت سليمة ، فإن الله قدرّ تطهير شعبه .

وفي المعجزتين الأوليين اللتين أظهرهما الربّ مُوشيه ، عاد الشيطان إلى سيرتهما الأولى ، إنما في الثالثة ، وهي استحالة الماء إلى دم ، لم يعد الوضع إلى سابق عهده . وبذلك كان الله يُنذر بأن ذنب مُوشيه الذي اقترفه في «مرياه» سوف لن يُغفر له .

وفي كل مرة يُذكر فيها موت مُوشيه في الكتاب المقدّس ، يُذكر أيضاً سبب موته قبل دخوله الأرض المقدّسة ، وهو معصيته في مرياه⁽¹⁾ . فما دعوى ذلك ؟

ذات يوم قام أهل الحكم بمعاينة رجلين ، كان أحدهما اقترف جريمة بينما لم يرتكب الآخر سوى جناية بسيطة . فطلب الأخير أن يتمّ الإفصاح علناً عن سبب عقوبته ، لئلا يختلط على الناس أمر جنحته البسيطة مع الجريمة الأفظح منها . فهكذا كان شأن مُوشيه . . قدرّ الله له أن يموت في البريّة ، كما قدرّ أيضاً أن يهلك ذلك الجيل بأجمعه (ما خلا يهوشوع وكاليب) . ولذلك ، لئلا يُصنّف مُوشيه معهم كعاصٍ في وجه الربّ ، تمّ ذكر سبب عقوبته مُرتبطاً بمماته .

(1) سفر الخروج - 17 : 7 . ومعصيته أنه صرخ إلى الربّ لما خاصمه الشعب وطلبوا ماءً للشرب . ولذلك يرد في التوراه : «وسمي ذلك الموضع الامتحان والخصام» ، وفي النص العبري : ויקרא שם המקום מסה ומריבה ، و«مرياه» : الخصام .

«فقال مُوشيه للربّ : «رُحماك ياربّ ، اني لستُ أحسن الكلام»»⁽¹⁾ .

ויאמר משה אל־יהוה בִּי אֲדַנִּי לֹא אִישׁ דְּבָרִים אֲנִכִּי:

وكرر الربّ أمره لمُوشيه لمدة سبعة أيام ، لكن مُوشيه بقي متردداً في الإجابة وقال : «إني لستُ أحسن الكلام اليوم» (فهذا يوم) ، «أمس» (يومان) ، «لا» (ثلاثة أيام) ، «ما قبل» (أربعة) ، «ولا» (خمسة) ، «ولا مُنذ» (سته) ، «خاطبت» (فهذه سبعة أيام) .

فقال الربّ : «لا تخشَ شيئاً ، حتى لو لم تكن تُحسن الكلام ، أفمن إلآي خلق كل الأفواه التي تُحسن الكلام ؟ أليس بمشييتي أن أحولَ من يحسنون الكلام إلى بلهاء ، وأطلق بالفصاحة ألسنة البلهاء ؟ فمشييتي تقضي أن تكون أنت من يُخاطب قرعوه» .

فأجاب مُوشيه قائلاً : «هؤلاء من تريد ردهم أحفاد أبرهام ، فمَن أدنى إلى المرء ، ابن أخيه أم ابن ابنه ؟ فلنُصرة لوط ، ابن أخيه ، أرسلت ملائكةً ، والآن لنُصرة أبنائه ، الذين يعدون ست مئة ألف ما خلا النساء والولدان ، ترسلني أنا . لأجل هاجار أرسلت خمسة ملائكة عندما هربت من وجه سيّدها ساراه ، أمّا إلى ستين ألفاً من أبناء ساراه فلا تُرسل سواي ؟» .

يُخبرنا الرّبانيون أن مُوشيه لم يكن محجماً عن القبول بهذه المهمة بدافع الخوف أو الارتياح من مشقتها ، أو بدعوى معصية الله ، بل لأنه كان يعتقد أنها بالأحرى من حق أخيه الأكبر أهرون . غير أن الله غضب من مُوشيه ، ولذلك منح حق الكهانة الدينية التي كان يخصّه بها إلى أهرون ، قائلاً : «أليس أخوك أهرون اللّيوبي ؟»⁽²⁾ : הלא אהרן אחיך הלוי ..

فعندما قال الله : «أخوك אחיך» ، كانت عبارة «اللّيوبي הלוי» مُقحمة ، لأنه طالما كان مُوشيه ليوياً ، فإن أهرون مثله بالضرورة أيضاً ، لكن مقصد الله من وراء ذلك هو ما يلي :

(1) سفر الخروج - 4 : 10 .

(2) يلاحظ هنا أيضاً خلل في الترجمة العربية للتوراه عن السبعينية اليونانية .

«كان في نيتي أن أجعلك أنتَ كاهني ، وأن يبقى أخوك على مرتبته ليويًا ، ولكن بسبب إحجامك عن تنفيذ مشيئتي سيكون هو الكاهن وأنتَ الليوي» .
«وقال الربُّ لأهرون : «امضِ للقاء مُوشيه»»⁽¹⁾ «ويأمر 'הוה אל-אהרן לך לקראת משה .

وعبارة «مَن لي بكَ كأخ لي ؟» «מי יתנד כאח לי ، هي إحدى التعابير الجميلة في أشودة شلومو (الملك سليمان)⁽²⁾ .

لكن أي أخ هو هذا ؟ ليس كما كان قَيْن لأخيه هَبِل ، فقد «قام قَيْن إلى أخيه هَبِل وقتله» . وليس كما كان يشمعييل ليصحاق ، لأن يشمعييل كان يكره يصحاق ، وليس كعيسو ، لأن «عيسو كان يكره يعقوب» . وليس أيضاً كإخوة يوسف ، لأنهم «لم يستطيعوا أن يكلموه بسلام» . وإنما هو أخ كأهرون لمُوشيه ، كما هو مكتوب : «فمضى (أهرون) ولقيه (مُوشيه) في جبل الله وقبله» (سفر الخروج - 4 : 27) .

«فمضى مُوشيه وأهرون»⁽³⁾ «וילך משה ואהרן .

فأين كان الشيوخ ؟ نجد ذلك مكتوباً في التوراه : «فأنت وشيوخ بني يسرئيل تأتون» . لقد مضى الشيوخ ، لكنهم جعلوا ينكصون شيئاً فشيئاً ، بداعي الفرع ، لذلك فبعد هذا تصبح العبارة المكتوبة ببساطة : «فمضى مُوشيه وأهرون» .

* * *

(1) سفر الخروج - 4 : 27 .

(2) انظر نشيد الأناشيد - 8 : 1 . وهذا السفر «شير هَشِيرِيم» من أصغر أسفار «الكتويم» ، يتألف من 8 فصول مطلعها : «نشيد الأناشيد لشلومو» שיר השירים אשר לשלמה وتحمل معاني رمزية دينية على شكل قصائد تنشد الحب بين بني البشر والإله . وهي من الناحية الأدبية إحدى أجمل مقاطع كتاب اليهود المقدس (تنخ) .

(3) سفر الخروج - 4 : 29 .

«كذا قال الله الأزلي»⁽¹⁾، إلخ כה אמר 'הוה' . .

برأي الرأبي حياً ، أنه جرى في ذلك الحين أن الملوك المجاورين جميعهم كانوا يتوافدون على فرعوه لأداء فروض الطاعة له وتقديم العطايا ، وكان كل حاكم منهم يصطحب معه آلهته . وفيما كان موشيه وأهرون واقفين قرب بوابات القصر ، ظنهما الحراس من بعض الوافدين لتقديم الولاء ، فأدخلوهما . فلما نظر إليهما فرعوه ورأهما غريبين تصوّر أنهما إنما قصدها ببعض العطايا ، وتعجّب لم لم يؤدّيا له التحية كالآخرين . فتكلّم قائلاً : «ماذا تبغيان؟» . فأجابا : «كذا قال الرب : «أطلق شعبي»» ، إلخ .

فقال فرعوه يبابه وسخط : «من هو هذا الرب فأطيعه ، وأسمع لقوله فأطلق يسرائيل ؟ إنه لم يقدم لي عطية ولا تجلّى لي . لا أعرفه ولا أطلق يسرائيل» . وتابع قائلاً : «ها أنا ذا سأرجع إلى سجلاتي المحفوظة وأنظر إن كان فيها اسم إلهكم . ها هنا أجد أسماء الآلهة كلّها ، آلهة آمون وآلهة مؤاب وآلهة زدين ، أما اسم إلهكم فلست أجد» .

فأجاب موشيه : «إلهنا إله حي» .

فقال له فرعوه : «أنتي هو أم عجوز ؟ كم يبلغ عمره ؟ وكم مدينة يحتل ؟ وكم بلداً غزا ؟ وكم من الزمن مضى لحكمه ؟» .

فقال موشيه : إن جبروته⁽²⁾ تملأ الكون . وهو أزلي قديم كائن قبل أن تبصر هذا الدنيا الثور ، وسيبقى على الدوام بعد زوال هذه الدنيا . وهو من أنشأك وخلقك ، ومن نسّمه روحه تتنفس وتحيا» .

فتابع فرعوه مُساءلته : «وماذا لإلهكما من مآثر؟» . فأجابه رسولا الله : «صوت الله يمزق شجر الأرز ، إنه هو من مدّ السموات ، وبسط الأرض مهاداً ، وأرسى الجبال وحطّم الصخر إلى حجارة . قوسه من نار ونباله من شرر . هو من

(1) سفر الخروج - 5 : 1 .

(2) مصدر «الجبروت» في العبرية يرد بصيغة : גבורה جيوراه ، بمعنى : بأس ، جراءة . أما صيغة גבורות جيروت فهي تعني : رجولة ، من الآرامية גברא جيبراحدا .

أرسي الجبال والتلال ، وأخرج المرعى ، فأثبت به فاكهةً وعُشْباً . إنه من ينزع الملك
مَنْ يشاء ويُعزّز مَنْ يشاء» .

فكان ردّ قرعوه : «قد أتيتماني بالزور والباطل ، تقولان إن إلهكما هوربّ
الكون . . فلتعلما أن مصر ملك يُميني ، وأنتي خالق نهر النيل العظيم الذي يجري
في أرجائها» (قارن ذلك بما في سفر يَحزَقئيل : «نهري هو لي وأنا صنعتُه لنفسِي» ،
لا يَأري وَاذني لِأَسِيتنني ، يَحزَقئيل - 29 : 3) .

فانبرى قرعوه إلى سحرته سائلاً : «أسمعتُم بِالهِمَا؟» . فقال السَّحرة :
«نعم ، سمعنا به ، إنه ابن الحكماء ، ابن ملك قديم من سالف الأيام» .

قال مُوشيه : «أنتَ تسأل الآن : «مَنْ هو الرَّبُّ» ، ويأتيك زمان تقول فيه :
«إن الله حقٌّ» . تقول الآن : «أنا لا أعرف إلهكم» ، ويأتيك زمان تقول فيه : «ربُّ
إني كنتُ في حقك من الظالمين» .» .

* * *

«وصادفوا مُوشيه وأهرون . . . وجعلتُمَا في أيديهم سيفاً ليقتلونا»⁽¹⁾ .
ויפגעו את-משה ואת-אהרן ... לתת-חרב בידם להרגנו .

قال بنو يسرئيل المنهكون لمُوشيه وأهرون : «أجل ، إننا كالحمل الذي
اختطفه الذئب من القطيع ، فراح الراعي يجاهد لفكّاه ، وكان مصيره التمزق
بين الاثنين ، وها نحن أولاء ما بينكما أنتما وقرعوه سنلقى حتفنا» .

«فرجع مُوشيه إلى الرَّبِّ وقال : «ياربّ لماذا ابتليت هؤلاء الشعب؟»⁽²⁾ .
ويשב مשה אל-יהוה ויאמר אדני למה הרעתה לעם הזה .

كان الرَّبُّ مُسبقاً قد حدّر مُوشيه بأنه سيقسّي قلب قرعوه ، فيرفض السّماح
لبنو يسرئيل بالخروج . ولذلك أجابه الله الآن : «الآن ترى ما أصنع بقرعوه ،
لكنك لا ترى ما أصنع بمالك كنعان الثلاث» .

(1) سفر الخروج - 5 : 20-21 .

(2) سفر الخروج - 5 : 22 .

«وتجلبت لأبرهَام»⁽¹⁾ إلخ ، وَاَرَأَا أَل-أَبْرَاهِمَ .

قال الرَّبُّ لِمُوشِيهِ : «واهاً ثم واهاً على فناء الصّالحين ، واحسرتاه على الأخيَار من السّكف الصّالح . لقد تجلبت لأبرهَام وليصْحاق وليعقوب بصفتي «الله الجبّار» (אל-שׁדַי إيل شدّاي) ، وليس باسمي «الأزلي» («יהוה يَهُوَاه) كما تجلبتُ لك ، ومع ذلك لم يتذمروا إزاء أوامري أو أفعالي . وقلت لأبرهَام : «قم فامش في الأرض بطولها وعرضها ، فإني لك أعطيها» ، ولما ماتت امرأته لم يكن يبغى سوى قبر لها فاضطرّ لشراؤه بماله ، ومع ذلك لم يتذمّر في وجهي أو يُبدِ آية شكوى قائلاً : «قد وعدت أن تعطيني هذه الأرض كلّها ، فها أنا ذا الآن علي أن أبحث عن رقعة صغيرة منها لأشترها» . كما قلت لِيصْحاق : «أقم في هذه الأرض ، لأنني لك ولذريتك أعطي هذه البلاد كلّها» ، فلما احتاج إلى بعض الماء لم يحصل عليه ، حيث أن رعاة جرار اشتجروا مع رُعاته لمنعهم من حفر بئر . ومع ذلك لم يرفع يصْحاق صوته في وجهي . وقلت ليعقوب : «الأرض التي تمكث عليها أعطيها لك» ، فلما أراد أن يضرب فيها قباء اضطرّ أن يدفع مئة قَسِيْطَاهُ⁽²⁾ קֶשִׁיטָה ، غير أنه لم يتذمّر في وجه الرَّبِّ ، أو حتى أن يسألني عن اسمي ، كما فعلت أنت» .

«فكلّم الرَّبُّ مُوشِيَهُ وَأَهْرُونَ ، وأوصاهما في بني يَسْرَئِيل وقرعوه ملك مصر»⁽³⁾ . . . וידבר יהוה אל-משה ואל-אהרן ויצום אל-בני ישראל ואל-פרעה מלך מצרים .

كان لأحد الملوك بستان حَسَن وبهيّ جعل فيه غراساً من شجر ، كان بعضها مثمرأ والآخر غير ذي ثمر . فقال له خدمه : «ما فائدة غرس الأشجار غير المثمرة؟» ، فأجابهم : «الأشجار المثمرة وغير المثمرة نافعة على حدّ سواء ، فمنّ لنا بالخشب لبيوتنا ولقواربنا ولأدواتنا إن لم تكن لدينا هذه الأشجار الصلبة التي لا تطرح ثمرأ؟» .

(1) سفر الخروج - 6 : 13 .

(2) القسِيْطَاهُ (أو القسِيْطاه) عملة قديمة تساوي ربع شِيقْل . انظر سفر التكوين - 33 : 19 .

(3) سفر الخروج - 6 : 13 .

فكما أن الصّالحين يمجّدون الرّب بنعمائهم ، فالأشرار أيضاً يمجّدون الرّب عندما يقرّون بقولهم : «قد نلنا جزاءنا وفاقاً بما جنّت أيدينا» .

ولما أبدى أهرون الآيات بعصاه ، ضحك منه فرعوه واستخفّ به قائلاً : «من عادة التجّار أن يحملوا بضاعتهم إلى حيث تكون مرغوبة ، فكيف تأتينا بمثل هذه المخاريق إلى مصر التي تعجّ بالسّحر والسّحرة؟» ، وأرسل في طلب بعض الصّبية ، فحوّلوا عصيّهم إلى ثعابين (تد١١٥) .

«فابتلعت عصا أهرون عصيّهم»⁽¹⁾ ، «ויבלע מטה אהרן את מטתם» .

لكن ابتلاع العصي لم يكن الآية الوحيدة ، بل إن عدم كبر حجم عصا أهرون منذ ذلك الحين قد أضاف إلى قيمة الآية .

* * *

(1) سفر الخروج - 7 : 12 .

الفصل الثاني الآفات العشر

«كذا قال الرب ، بهذا تعلم أنني أنا الرب . ها أنا ضاربٌ . . . ماء النهر ، فأقلبه دماً»⁽¹⁾ :

כה אמר יהוה בזאת תדע כי אני יהוה הנה אנכי מכה ...
על-המים אשר ביאר ונהפכו לדם .

عندما يخطط إنسان ليؤذي شخصاً أو أن ينتقم من عدو ، فهو يهاجمه بغتةً
بغير إنذار . أما الله فليست هذه فعالة ، بل أنذر قَرُوعه بجميع الآفات التي أنزلها
على مصر ، كي يتيح له فرصة ليتوب . فلماذا ضُربت المياه أولاً ؟ لأن المصريين
كانوا يعبدون نهر النيل ، وكان الرب قال : «أضربُ الإله أولاً ثم شعبه» ،
وينطبق على ذلك المثل القائل : «أضرب الآلهة أولاً ، فيرتعد الكهنة» .

الدم

لماذا جازى الرب المصريين بأفة الدم ؟ لأنهم سفكوا دماء الأطفال الأبرياء ،
ولذلك تحولت مياه أنهارهم إلى دم .

«ثم قال الرب لمُوشيه : «قُلْ لأهْرُونَ : «خُذْ عصاك ومُدِّ يدك على مياه
مصر»»⁽²⁾ ، كح מסך ונטה ידך על-מימי מצרים .

(1) سفر الخروج - 7 : 17 .

(2) سفر الخروج - 7 : 19 ، وفي الترجمات العربية العريبتين : «على مياه المصريين» ، ظن الترجمة
أن عبارة **מצרים** (مصر) بصيغة الجمع إنما تعني : المصريين ، بينما هي تسمية «مصر»
الشائعة بالعبرية (جمع **מצרים** الآرامية : الحدود والتخوم) حتى اليوم . وثمة مَنْ يرى أن
العبارة تعني المجرى (مجرى النيل المتعرج) ، ومثلها : المصران (الأمعاء) .

فلماذا لم يكن في وسع مُوشيه أن يضرب النهر؟ ذلك لأن المياه حَمَتَه
وَحَرَسَتَه عندما كان طفلاً عاجزاً يهجع في الصندوق المصنوع من البَردي ، وترشدنا
تعاليم الحاخامين إلى أن «البشر التي تستقي منها ماءك لا تقذف فيها الأحجار» .

الضفادع

قد نميل إلى الاعتقاد أن الضفدع حيوان تافه ، لا شأن له في تقويم الكون .
وهذا غلط ، فلكل كائن حي من وجوده غاية . والضفادع أضحت أداة لمعاقبة
فَرَعُوهُ ، فرغم أن نهر النيل يفيض عادة بالضفادع ، لم تكن تبتعد عن ضفتيه . ثم
قال الله : «أنت تقول : «النهر هولي» ، فالآن أريك أن حتى بيتك ليس لك ،
فسوف تجوس به الضفادع ، وتبلغ حتى المعجن وتمكث في عجيبك وتأكله» .

وسببت الضفادع للمصريين رَهَقاً أشد من مجرد الخسائر المادية التي أوقعتها ،
من جرّاء أصواتها المزعجة ، ولذلك ورد في التوراه : «فصرخ مُوشيه إلى الرب في
أمر الضفادع»⁽¹⁾ ، ויצעק משה אל־יהוה על־דבר הצפרדעים .

القمل

«قُلْ لأهْرُونَ . . . واضرب تُراب الأرض»⁽²⁾ ، אמר אל־אהרן ... והך
את־לפך הארץ .

فلماذا لم يضرب مُوشيه بنفسه تُراب الأرض؟

لأن مُوشيه وارى في التراب جثّة المصري الذي ألفاه يضرب رجلاً عبرياً ،
فأخفى التراب فعلته . لذلك فإن الآفتين المتعلقتين بالماء والتراب تم إنزالهما على يد
أهْرُونَ .

(1) سفر الخروج - 8 : 8 . وهذا التقسيم في التوراه المسوراتية بالأصل ، أما في الترجمة
السبعينية (وعنها الترجمات العربية) فترد في 8 : 12 ، بسبب إلحاق 5 آيات من الأصحاح
الثامن بالأصحاح السابع فيها .

(2) سفر الخروج - 8 : 12 ، وفي الترجمتين الكاثوليكية والإنجيلية : 8 : 16 .

ولماذا تمّ تسليط هذه الآفة على المصريين ؟

هذا لأنهم أكرهوا اليسرّئيليين على كنس الطرقات وعلى العمل في الأجر والملاط . ولذلك انقلب تُراب الأرض إلى قمل⁽¹⁾ . وكان السحرة غير قادرين على ابتداع القمل ، لأنهم كانوا يعجزون عن تشبيه الأشياء التي تصغر حجماً عن حبة الشعير ، فلماذا قالوا : «هو أصبح الله»⁽²⁾ אצבע אלהים הוא .

أسراب الوحوش

«بكر في الغداة» ، إلخ⁽³⁾ ، השכם בבקר .

قال الله لموشيه : «هذا الرجل يصرّ على معصيته ، برغم الآفات التي قد أنزلتها عليه . لذلك فقل له إن الآفة الآتية ستكون أدهى من الأخريات كلّها مجتمعة ، وقُل له أطلق بني يسرّئيل» .

تجمهرت أسراب الوحوش⁽⁴⁾ في البداية على بيت قرعوه ، لأنه كان أول مَنْ ظلم يسرّئيل ، ثم على بيوت خدمه ، لأنهم احتذوا مثاله .

لماذا سلّطت هذه الوحوش على المصريين ؟ هذا لأنهم كانوا يُلجِئُون اليسرّئيليين إلى المخاطرة بأرواحهم في صيد الوحوش المفترسة .

ونرى أنه فيما ماتت الضفادع بأرض مصر ، كان شأن الوحوش أنها رُفعت عن القوم ، فما هو وجه هذا الاختلاف ؟ هذا لأن الضفادع لا قيمة لها ، أما الوحوش فيمكن للمصريين أن ينتفعوا من فرائها .

(1) انظر سفر الخروج - 8 : 12 ، وفي الترجمة العربية عن السبعينية : 8 : 16 . والقمل في العبرية : כדם (كجام) ، لكن في الترجمتين الكاثوليكية والإنجيلية للعهد القديم جعلت العبارة بالعربية : البعوض . فكيف تراه يكون ذلك ؟ في العبرية عبارة أخرى مشابهة : כדממה (كجيماه) : حشرات - هوام ، ولكن لماذا البعوض بالذات ؟

(2) سفر الخروج - 8 : 15 ، وفي الترجمتين الكاثوليكية والإنجيلية : 8 : 19 .

(3) سفر الخروج - 8 : 16 ، وفي الترجمتين الكاثوليكية والإنجيلية : 8 : 20 .

(4) العبارة في العبرية : 176 (عارب) أي : أسراب الوحوش ، أو خشرم الذباب . فالطريف أنها في الترجمتين العبريتين : الذبان ! انظر سفر الخروج - 8 : 21-25 .

وباء الماشية

لماذا سلطت عليهم هذه المهلكة ؟

بغية إظهار أن الآفات كانت موجهة ضدّ المصريين فحسب ، لأنه كما تُبيننا التوراه : «ومن مواشي بني إسرائيل لم يمّت واحد»⁽¹⁾ . وحتى المواشي العائدة لأي عبري في حوزة رجل مصري نَجّت ، وكذلك المواشي التي يشترك في ملكها مصري وإسرائيلي في آن واحد .

القروح

لماذا سلط عليهم آفة القروح ؟

لأنهم كانوا يجبرون الإسرائيليين على تنظيف دُورهم وأفئتهم ، ممّا جعل دمائهم مُلثثة تُنفض بالقروح .

ولماذا كان السحرة عاجزين عن الوقوف بين يدي مُوشيه فيما يتعلق بأمر هذه

القروح والالتهابات ؟

لأنهم قدّموا المشورة بالقاء كل صبي يولد لبني إسرائيل في مياه النهر .

«وقسى الرب قلب فرعون»⁽²⁾ ، إلخ ، «חזק יהוה את לב פרעה» .

لما رأى الرب أن الآفات الخمس التي كان قد أنزلها على فرعون لم تؤدّ به إلى

التوبة ، قال : «حتى لو شاء أن يتوب بعد ذلك ، فسأقسى قلبه لكي ينال كامل جزاءه»⁽³⁾ .

(1) سفر الخروج - 9 : 6 .

(2) سفر الخروج - 9 : 12 .

(3) هذا تفسير من أجدها التلمود لما يرد في الآية 16 من الأصحاح التاسع من سفر الخروج : «غير أنني لهذا أبقيتك لكي أريك قوتي ، ولكي يُخبر باسمي في جميع الأرض» . ويلاحظ هنا التشابه الكبير مع رواية القرآن الكريم لقصة النبي موسى عليه السلام وفرعون في سورة يونس - 92 : «فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون» .

البرَد

«ها أنا مُمطر غداً مثل الآن»⁽¹⁾، إلخ : הנני ממטיר כעת מחר .

جعل مُوشيه علامة على جدار بيت فرعوه ، قائلاً : «عندما تشرق الشمس يوم غد ، سيقع البرَد في هذا الموضع ، لذا فابعث واجمع ماشيتك» ، إلخ .

مجدداً تتجلى لنا رحمة الله ، فهو حتى في أثناء غضبه لا يلبث على ميله إلى الأخذ بأسباب الرحمة تجاه الأشرار ومواشيهم . وكان قصده من جائحة البرَد إفناء المزروعات وليس الأرواح ، لذلك قام بتحذير الناس كيما يلجأوا بأنفسهم ومواشيهم إلى المنازل .

«ثم قال الرب . . . مُد يدك نحو السّماء»⁽²⁾ ، إلخ ואמר יהוה ... נטה את ידך על-השמים .

ورغم أن «السّموات سموات للربّ» ، فإن «الأرض أعطها لبني آدام» (المزامير - 115 : 16) .

قد يُصدر إمبراطور روما مثلاً مرسوماً يحرم فيه على الرّومان زيارة سورية ويحرم على السّوريين زيارة روما ، فكَذلك عندما خَلق الله الكون أعلن السّموات سموات الربّ ، ومنزلاً للربّانيين الأخيار .

«أما الأرض فقد منحها لأبناء البشر» ، ولذا فالمفترض أن تكون مكان إقامتهم . غير أن «ما شاء الله فعله فهو لا محالة كائن ، في السّموات والأرض ، في البحور وكل الأعماق» .

فلقد هبط إلى الأرض عند جبل سيناء ، وفي آن التكوين قال : «لتجتمع المياه إلى موضع واحد» ، فلماً رأى ذلك أنه حَسَن ، حوّل البحر إلى يَبس ، تماماً كما هو مكتوب : «وسار بنو إسرائيل على اليبّس في وسط البحر»⁽³⁾ .

(1) سفر الخروج - 9 : 18 .

(2) سفر الخروج - 9 : 22 .

(3) سفر الخروج - 14 : 19 .

فبالطريقة ذاتها أعطى الله مُوشيه الإذن بحكم السموات ، وأن يمدّ يده نحوها ، وأن يُنزل عاصفة البرد على أرض مصر .

ولماذا عُوقبوا بالبرد ؟

لأنهم أُجبروا السيرثيليين على حراثة أراضيهم ، وبذر حبوبهم ، والعناية بأشجارهم ، وتأدية جميع الأعمال الوضيعة الثانوية في فلاحه التربة . لذلك أنزل الله عاصفة البرد هذه ليدمر نتاج الأرض ، بحيث لا يتمكن المصريون من جني أي نفع من الجهد القسري لشعبه . فلما رأى الله أنهم لم يكثرثوا بتحذيره ، وأهملوا إيواء مواشيهم في الملاجئ ، سبّب موت الماشية من جرّاء العاصفة .

وكانت كتل البرد كبيرة جداً ، كل منها بحجم رأس الطفل الرضيع ، وعندما ترتطم بالأرض كانت تتفجّر ناراً وشرراً .

الجَراد

لماذا أنزل الله آفة الجراد على مصر ؟

لقد بَدَر السيرثيليون الحقول بالحبّ ، فتمّ إنزال جائحة الجراد لتُهلك من الزرع كل ما نجا من جائحة البرد .

كانت هذه الجائحة شديدة جداً لإرغام فرعون على الإقرار : «لقد خطئتُ إلى الربّ إلهكما بأن لم أطلق بني إسرائيل» . «وإليكما (أي مُوشيه وأهرون) ، إذ طردتكما من بيتي» .

الظُّلْمَة

«لكن لجميع بني إسرائيل كان نورٌ في مساكنهم»⁽¹⁾ .
ولكلّ بني إسرائيل היה אור במושבתם .

(1) سفر الخروج - 10 : 23 .

فلماذا لم يُكْتَبَ : «كان نورٌ في أرض جُشِن؟» .

لأنه حيثما كان اليسرئيليون كان ثمة نورٌ لهم ، ولكن للمصري وإن كان
ماكثاً في حجرة واحدة مع اليسرئيلي ، كانت ظلمةٌ حالكة .

موت الأبيكار

«لا تعاود النظر إلى وجهي»⁽¹⁾ ، השמור לך אל-תסוף ראות פני .

هذه كانت كلمات فرّعه⁽²⁾ ، عندما وقف موشيه أمامه ليحذّره للمرّة الأخيرة
من الهلاك التّازل به ، إن هو دام معارضاً خروج بني يسرئيل من أرض مصر .
فأجاب موشيه :

«نعم ما قلتَ . لا أعاودُأتي إليك ، لكنك تأتي إليي ، وخدمك وأنتَ
ذاتك تتوسّلون إليّ وتركعون ، طالبين رحيلي من البلد ، فأرحل» .

ولمّا خشي بعض المصريين من مغبة نبوءة موشيه ، ناموا ليلتها في بيوت
اليسرئيليين . لكن ضربة الموت أدركتهم ، فكان اليسرئيلي يفيق من نومه فيلفي
المصري إلى جانبه جثة هامدة .

وكانت النكبة في أرض مصر عظيمة . فتوجّه فرّعه إلى موشيه وأهرُون ،
وقال لهما : «قوما !» . فأجابا : «ماذا يريد فرّعه منا؟» ، فصاح : «قوما
السّاعة فامضيا» .

فمضى اليسرئيليون من أرض مصر عشية اليوم الخامس عشر من شهر
نيسان ١٥٠٠ ، وفي مثل هذه الليلة ذاتها لقي جيش سنحريب المُعسكر أمام يروشلأيم
الهلاك على يدي الرّب . فاحتفل الملك حزقياه وسكّان المدينة المحاصرة بعيد
العبور (الفصح ١٥٠٠) بحسب أوامر الله ، وطفقوا يُرتلون الترانيم والتّهاليل
(هَلّولوا) لاسمه المقدّس .

(1) سفر الخروج - 10 : 28 .

(2) سبق أن ذكرنا أن هذا هو وجه رسم الاسم في العبرية ، وليست المفردة مصرية بالأصل .

غير أن حزقياہ كان يستولي عليه القنوط ، فقال :

«عَدَاةُ غَدٍ قَدْ تَسْقُطُ الْمَدِينَةُ» . ولكن إذا بهم عندما استيقظوا في الصُّبْحِ يرون جيش الغزاة وقد تمدّد جنوده صرعى في مُعسكرهم .

قبل إنزال البليّة الأخيرة ، أُنذر الله فرّعه ، كما هو مكتوب : «وأقتل كلّ بكر في أرض مصر»⁽¹⁾ .

فلو شاء الله أن يفعل ذلك منذ البداية ، بدلاً من أن يجعله في خاتمة البلايا ، لكان هذا في وسعه ، لكنه رغب في زيادة شدّة البلايا واحدة إثر الأخرى ، ولذلك قد أنزل أدناها وطأة في البداية .

«فإن الرّب يجتاز في أرض مصر فيضرب كلّ بكر»⁽²⁾ .

يُحكى أن ملكاً أرسل ابنه إلى بلد بعيد ، فاستقبله شعب ذلك البلد بحفاوة عظيمة ، وأحلّوه مكانة سامية ، ثم جعلوه حاكماً عليهم . فلما سمع أبوه بذلك قال : «كيف أردّ لهم هذا التكريم ؟ سأطلق على هذا البلد اسم ابني» .

ثم بعد مضي فترة من الوقت ، أتته الأخبار من البلد البعيد ، بأن الشعب قد خلعوا عن ابنه مكانته السامية ، وجعلوه عبداً . ولذلك شنّ عليهم الحرب وخلّص ابنه .

ويوسف هبط مصرأ فجعل عليها حاكماً . وكذلك حظي يعقوب بشأن عظيم ، وعند موته «ناح عليه المصريون سبعين يوماً» .

ولذلك ، سمّى الله مصر باسم جنة عدن ، كما هو مكتوب في التوراه : «كجنة الرّب مثل أرض مصر»⁽³⁾ . ولكن عندما اضطهد اليسرثيليون وحولوا إلى عبيد ، شنّ الله الحرب على مصر ، عبر البلايا العشر ، ومن خلال العاشرة قام بتخليص «ابنه» يسرثيل من ريقة العبوديّة .

(1) سفر الخروج - 12 : 12 .

(2) سفر الخروج - 12 : 23 ، 29 .

(3) سفر التكوين - 13 : 10 .

وخلال الليل ، بينما كان العبريون يُرثمون التّهاليل لله ، أتى فرّعه إلى المكان الذي يسكن به موشيه وأهرون ، فصاح : «قم فاخرج» ، إلخ . ثم انتشر الشعب ما بين المصريين ، وراحوا يطلبون على وجه العارية أواني من الذهب والفضة . أما موشيه فطلب ضريح يوسف واصطحب عظامه ، بحسب الوصية التي انتقلت إليه .

«وكان عند انقضاء الأربع مئة وثلاثين سنة»⁽¹⁾ ، إلخ ויהי מקץ שלשים שנה וארבע מאות שנה .

فهذه السّون تُحسب منذ أن تجلّى الله لأبرهّام في الرّؤيا المعروفة باسم : «عهد الأشطار»⁽²⁾ ، وأخبره بأن ذريته ستكون «غرباء في أرض ليست لهم» . لكنهم مع ذلك عاشوا بمصر مئتين وعشرة أعوام فحسب . وفي الشهر واليوم ذاتهما اللذين دخلوا فيهما مصر ، كان خروجهم . وفي ذلك التاريخ أيضاً تم إطلاق يوسف من سجنه ، وفي السنوات التالية شهد حصول معجزات عديدة لصالح شعب الله .

وفي عهد الملك حزقياه نجّت يروشلأيم من غزو سنحريب ، وخلال فترة الأسر البابلي نجا من نار الأتون كل من شدرخ وميشخ وعبد نجو⁽³⁾ ، كما نجا دانييل سالماً من عرين الأسد .

* * *

(1) سفر الخروج - 12 : 41 .

(2) انظر حول هذا العهد : سفر التكوين - 15 : 13 .

(3) حول خبر ذلك انظر سفر دانييل ، الأصحاح الثالث .

الفصل الثالث موت مُوشيه

«ثم قال الربُّ لمُوشيه : «هو ذا أيامك قد قُرُبت لكي تموت»»⁽¹⁾ . وَاَمْر
יהוה אל־משה הן קרבו ימִיד למות .

ترد الإشارة على موت مُوشيه في التوراه عشر مرّات :

«هو ذا أيامك قد قُرُبت لكي تموت» . (تثنية الاشرع 31 : 14) .
«ثم مُت في الجبل» . (تثنية الاشرع 32 : 50) .
«لأنني أموت» .

«لأنني عارفٌ أنه بعد موتي» . (تثنية الاشرع 31 : 29) .

«... فكيف بالحريّ بعد موتي» . (تثنية الاشرع 31 : 27) .

«... بارك بها بني اسرائيل قبل موته» . (تثنية الاشرع 33 : 1) .

«وكان مُوشيه ابن مئة وعشرين سنة حين مات» . (تثنية الاشرع 34 : 7) .

«وكان بعد موت مُوشيه» . (يهوشوع 1 : 1) .

«مُوشيه عبدي قد مات» . (يهوشوع 1 : 2) .

كان مُوشيه نفسه يظن أنه ارتكب ذنباً يسيراً يُمكن الصّفح عنه⁽²⁾ ، لأن بني

يسرائيل عندما أثاروا غضب الله عشر مرّات ، عُفي عنهم من خلال دعائه ، كما

هو مكتوب في التوراه⁽³⁾ : «فقال الربُّ : «قد صفتُ حَسَبَ قولك»» . ولكنه

عندما تيقّن من أنه لن يُصّفح عنه ، توجه إلى الله ضارعاً :

(1) سفر تثنية الاشرع - 31 : 14 .

(2) راجع سفر الخروج - 17 : 7 ، وسفر تثنية الاشرع - 32 : 51 ، حول معصية مُوشيه
وأهرون عند ماء الخصومة (مرياه) ، بأنه صرخ إلى الربِّ لما خاصمه الشعب .

(3) سفر العدد : 14 : 20 .

«يا ملك السموات ، إن شقائي ونصبي من أجل مصلحة يسرئيل شعبك واضح ومعروف أمامك . وتعلم كم جهدتُ لِحْتهم على معرفة طريقك ، وعلى الإيمان باسمك القدوس وتطبيق شريعتك المقدسة . ياربّ ، فكما شاطرْتهم معاناتهم ونكباتهم ، هل لي أن أشاطرهم فرحهم ؟ ها هو ذا أوان انتهاء محنتهم قد حلّ ، وسيطوون أرض البركة الموعودة ، وأنت قلت لي : «لا تعبر نهر الأردن هذا» . يا إلهي الأزلي ، العظيم والعدل ، إن لم تُجز لي دخول هذه الأرض المباركة ، فاسمح لي على الأقل أن ابقى على قيد الحياة في هذه الدنيا!» .

فأجاب الله مُوشيه قائلاً : «فإن لم تُمت في هذه الدنيا ، كيف لك أن تعيش في الحياة القادمة؟» .

فانبرى مُوشيه يقول : «إن لم تسمح لي بعبور هذا الأردن ٦٦٦٦» ، فدعني أحيا كبهائم الأرض التي تأكل من العشب وتشرب من الماء ، وتحمي وترى الدنيا . فاجعل حياتي مثلها تماماً» .

فأجاب الله : «حسبُك ، لا تزدد في الكلام معي في هذا الشأن» . (سفر تثنية الاشرع 3 : 26) .

لكن مُوشيه تضرّع مجدداً يقول : «فدعني إذا أعيش كالطيور ، التي تجمع قوتها في الصباح ثم تعود في المساء إلى أعشاشها . لتكن حياتي مثلها تماماً» . فقال الله ثانية : «حسبُك ، لا تزدد في الكلام معي بهذا الشأن» .

فلما أيقن مُوشيه أن أمر موته محتوم ، انبرى مُعلنأ : «هو الصخر الكامل الصنيع ، الذي كل طرقه حكمة ، إله الحق العدل المستقيم»⁽¹⁾ .
«فمات مُوشيه هناك في أرض مُؤاب ، بأمر الربّ»⁽²⁾ .

والكتاب المقدس يشهد على تقوى مُوشيه : «ولم يقم من بعدُ نبي في يسرئيل كمُوشيه ، الذي عرفه الربّ وجهاً لوجه» . (تثنية 34 : 10) .

(1) سفر تثنية الاشرع - 32 : 4 .

(2) سفر تثنية الاشرع - 34 : 5 .

والسّموات بكت وأعلنت : «الرّجل الصّالح رَحَل ، وليس بين النّاس مستقيم» .

ولما بحث يهوشوع عن صديقه ومعلمه فلم يجده ، انتحب بمرارة وصاح :
«أعني يا ربّ ، فالصّالح لم يعد موجوداً!» .

وأعلنت الملائكة : «لقد قضى بعدل الرّب» ، فأضاف بنو إسرائيل :
«وبأحكام الرّب ليسرّيل» . ثم أعلنوا جميعاً : «سيأتي بسلام ، وفي سريره يرقد
بأمان كل من سار في دروب صلاحه» .

فلتكن ذكرى العدل القويم مُباركة .

* * *

الفصل الرابع مَجَلَّتْ (مِيثاق) إِسْتِير

وحدث عندما مات نَبُوخَدْنَصَّر 605 ق.م ، أن ابنه مِرودَخ الشَّرير طالب بحكم المملكة . لكن الشعب رفضوا تعيينه حاكماً ، قائلين : «كان أبوك فيما مضى انتزع من طائفة بني البشر وأجبر على أكل الحشائش والعُشب كبهائم الأرض لمدة سبع سنين . ولما عددناه ميتاً نصَّبنا في مكانه حكاماً ليتولوا أمورنا ، فإذا به يعود ويحكم على هؤلاء الحكَّام بالموت . فكيف لنا بعدُ أن ننصِّبكَ ملكاً ؟ قد يكون من أمر أيبك كما كان في الأيام الخوالي ، فلعلَّه يعود ثانيةً» .

فلَمَّا تكَلَّم الشعب على هذا النَّحو مع مِرودَخ الشَّرير ، مضى إلى قبر أبيه وانتزع منه جثة الملك . وثبتت سلسلة حديدية حول قدميه ، وسحب جثة أبيه عبر طرقات العاصمة ، لِيُثبت للشعب أنه قد مات حقاً . كما هو مكتوب في سفر يشعياهُ : «أما أنت فطرحتَ عن قبرك كضرع رِجس» (يشعياهُ - 14 : 19) .

عندها نصَّب الشعب مِرودَخ الشَّرير ملكاً ، وقال دانييل للملك : «إن أباك نَبُوخَدْنَصَّر لم يفتح أبداً باب سجنه (أي أنه عندما كان يزجُّ بشخص في السَّجن كان حكمه عليه مؤبداً) ، كما هو مكتوب : «الذي لم يُطلق أسراه من السَّجن» (يشعياهُ 14 : 17) . فلَمَّا أُدين بنو يِسْرئيل من الله بذنوبهم الكثيرة التي اقترفوها ، إذا بأيبك يأتي ويوقع الخراب بأرض يِسْرئيل . لقد دمَّر هيكلنا المقدَّس ، وأرسل شعبنا أسارى ومنفيين إلى بابل . فكان من بينهم يهوياكين ملك يهوداه ، الذي قُبِع في السَّجن اثنين وثلاثين عاماً لأنه تقاعس عن تنفيذ أوامر الله . فالآن إنني لأرجو أن تُطلق سراحه . لا تكُ قاسي الفؤاد ! تذكرُ عقاب أيبك عندما طغى وبغى ، وقال : «إنه لا ملك ولا حاكم سواي» ، كما هو مكتوب : «أصعد فوق مرتفعات السَّحاب ، أصير مثل العليِّ» . (سفر يشعياهُ 14 : 14) .

فأصغى مروءخ الشرير⁽¹⁾ إلى كلام دانييل ونقذ أمر الله ، فأطلق يهوياكين
 «הויכין» ملك سبط يهوداه ، وفتح أبواب السجن للأسرى الآخرين ومنحهم
 حرّتهم . ونصّب يهوياكين ملكاً ، وألبسه أثواباً ملكية ، «وكان يأكل دائماً الخبز
 أمامه كل أيام حياته» (سفر الملوك الثاني 25 : 29) .

وانتقلت مقاليد المملكة من مروءخ إلى داريوش ملك مادي ، وكان ملك
 فارس أحشويرُوش⁽²⁾ ابن داريوش ملك مادي . ومن بيت أحشويرُوش هذا
 طُردت وَشْتِي ابنة مروءخ الشرير ابن نبوخذناصر ، بسبب جورها ، لأنها أُجبرت
 النساء اليهوديات على العمل في يوم شَبَات (السَّبْت) المقدّس .

وأحشويرُوش هذا هو ذاته الذي كان يأمر بتقديم التبيد الآتي من مئة وسبع
 وعشرين كُورة على مائدة طعامه ، بحيث أن أهل هذه الكُور المئة والسبع
 وعشرين كانوا يشربون ، كلٌّ من نييذ بلده وكُورته ، فلا يقربون بذلك شراباً غريباً
 أو ضاراً .

وكان أحشويرُوش ملكاً مجنوناً ، فقد أمر بأن : «فلتُطرد ملكتي ، أما
 أوامري فلا يجوز التقاعس فيها أبداً» . وفي أيام حكم أحشويرُوش هذا تم بيع بني
 يسرائيل بالفعل ، بغير قيمة مالية ، كما هو مكتوب : «مجاناً بعتُم» (سفر يشعياهُ
 52 : 3) .

وفي أيام حكم أحشويرُوش هذا تمّت الكلمات الواردة في متن التوراه : «في
 الصّباح تقول يا ليته المساء ، وفي المساء تقول يا ليته الصّباح» (سفر تثنية الاشتراع -
 28 : 67) . وكان الملك أحشويرُوش هذا هو نفسه الذي صرّف امرأته من أجل
 مصلحة صديقه ، ثم عاد فقتل صديقه من أجل مصلحة امرأته . فلقد طرد وَشْتِي
 امرأته تبعاً لنصيحة قدّمها له صديقه مهومان⁽³⁾ ، ثم قتل صديقه هامان لمصلحة
 إستير امرأته .

- (1) انظر حوله سفر يشعياهُ - 39 : 1 ؛ سفر يرمياهُ - 50 : 2 .
 (2) هو الإمبراطور الأخميني كَيْخُسرو الأول Xerxes I (465-486 ق.م) ابن داريوس الأول
 الكبير ، الذي أعاد تأسيس الإمبراطورية الأخمينية في فارس وميديا (مادي) .
 (3) انظر مجلّت إستير - 1 : 10 ، من أسفار الكتوبيم ، القسم الثالث من أسفار اليهود .

وحدث في أيام أَحشورِيُوش هذا أنه رغب بالجلوس على عرش شلومو ، أي كرسي مُلك شلومو الرائع الذي جُلِب من يروشلَايم إلى مصر على يد شاشق ملك مصر . ومن يده انتقل إلى سَحْرِب ملك آشور ، ثم منه عاد إلى حزقياه ، ليُؤخذ مجدداً بيد الفَرَعوه نخوه ملك مصر . ثم استولى عليه نِبُوخَذْناصِرُ ملك بابل من مُلك فَرَعوه ، ولما افتتح قورُش ملك مادي بلاد فارس ، جُلِب العرش إلى شوشَن وآل إلى مُلك أَحشورِيُوش .

لكن أَحشورِيُوش أمر بصنْع عرش جديد له ، فأرسل الصنّاع إلى مدينة الإسكندرية ، ويقوا يعملون له بعرضه مدة سنتين . «وفي السنة الثالثة من ملكه ، جلس الملك أَحشورِيُوش على كُرسي ملكه ، وما عاد عرش شلومو يُستعمل بعد هذا ثانية»⁽¹⁾ .

«كان رجلٌ يهودي في شوشَن العاصمة⁽²⁾ اسمه مُرْدَخاي»⁽³⁾ ، אִישׁ יְהוּדִי הָיָה בְּשׁוּשַׁן הַבִּירָה וּשְׁמוֹ מֵרְדַכַּי .

فلماذا سُمِّي مُرْدَخاي باليهودي ؟ وهو ليس من سبط يهوداه ، بل من سبط بنيامين ؟ سُمِّي يهودياً لأنه كان مُلتزماً بتقوى الرَّب ، شأن كل مَنْ كان من سبط يهوداه . وكان مُرْدَخاي حفيد شمعي ، الذي أبقى الملك داوِد على حياته عندما استجرَّ على نفسه عقوبة الموت بشفته لقوانينه . ذلك أن داوِد تَنَبَّأ بالمعجزة التي ستقع من خلال مُرْدَخاي في المستقبل الذي كان آنذاك طي الغموض .

وربِّي مُرْدَخاي ابنة عمّه هَدَسَاه أو إستير אִסְתֵּר . وكانت تُسَمَّى «هَدَسَاه» הַדְּסָה (وهذا الاسم يعني «شُجيرة الآس») ، بسبب مزاجها الرائق وطبيعتها اللطيفة ، اللذين يُشَبَّهان بالعرف العُطري والبهاء الدائم الخُضرة لشجرة الآس ، كما ورد في سفر يشعياهُ (55 : 13) : «عوضاً عن الشوك ينبت سَرُو ، وعوضاً عن القُرْأص يطلع آس» .

(1) اقتباس من مجلَّت إستير - 1 : 3 .

(2) كلمة הַבִּירָה (هَبيراه) في العبرية تعني العاصمة أو القلعة ، لكن من غير الصائب ترجمتها بالقصر كما في الترجمة الإنجليزية العربية للكتاب المقدس : شوشن القصر .

(3) مجلَّت إستير - 2 : 5 .

وتأويل هذه العبارة هو كما يلي : عوضاً عن هامان ، أي الشوك ، يزدهر السُّرو ، أي مُردّخاي . وعوضاً عن وَشْتِي ، المُشْبَهة بِالْقُرَاص ، تَبَوَّأَ إِسْتِير ، شُجيرة الآس ، مكانها على عَرش فارس .

كذلك فإن اسمها إِسْتِير Ἰστὴρ ، قد تمّ انتقاؤه بعناية من اللغة الإغريقية : «إستاره»⁽¹⁾ ، وهو يعني النجم السَّاطع . وأعمالها الصَّالحة لم تنقطع طوال مدّة حياتها ، أما جمالها الفَتَان فلم يكن يضارعه إلا محاسنها الرُّوحية .

وقبيل ولادة إِسْتِير مات أبوها ، وسرعان ما لحقت به الأم عندما تنشّقت الطفلة أنفاسها الأولى . فكان أن بناها مُردّخاي ابن أخي أبيها ، وقام على تنشّتها كابتة له .

وبعد أن تزوّج الملك إِسْتِير كان متحرّقاً لمعرفة نَسَبها ، فسألها : «أين هم ألك ؟ ها أنا ذا مُعدّ سماًطاً فليحضروا عندي» . فأجابته إِسْتِير : «إنك للملك حكيم ، ولا ريب أنك تعرف أن أبوي ميتان ، فأرجوك يا سيدي لا تُحزن قلبي بهذه الأسئلة» .

ثم كان أن عمل الملك راحةً للشعب من دفع الضرائب السنوية ، وأعطى عطايا «تليق بمقدرته» إلى كل أعيان دولته ، مُعلنًا أنها تقدمات تُعطى على «شرف إِسْتِير» .

وكان يتوخى من خلال ذلك أن صدى هذا الإجراء واسم إِسْتِير سينتشران عبر الأمم ، فيصل بذلك إلى معرفة شعبها» . فلمّا أخفقت هذه الخطة ، دعى بكل العذارى الحَسَنَات المنظر من مختلف الكُور مجدّداً ، وهو يحسب أن الغيرة قد تدفع إِسْتِير لإخباره عن أسلافها ، لكن ذلك لم يُجدِ فتيلاً . ولم تنبس إِسْتِير ببنت شفة عن حقيقة جنسها وشعبها⁽²⁾ .

(1) في اللغة اليونانية : Ἰστὴρ (أستير) أو Ἄστρο (أسترو) ، ومثلها في اللاتينية : Asteris ، والفرنسية : Astre ، والإيطالية : Stella ، والإسبانية : Astra . كذلك في الإنكليزية : Star ، والألمانية : Stern . لاحظ شبه الاسم مع «عشتار» Astarte .

(2) سبب ذلك أن مُردّخاي كان أوصاها بالتكتم على يهوديتها ، مجلّت إِسْتِير - 2 : 20 .

«وفي تلك الأيام ، بينما كان مُردّخاي جالساً في باب الملك ، غضب بِغَتان وترِش»⁽¹⁾ ، إلخ .

قال الرَّابِي يُوحَنان : «يُحلّ الله الغضب في قلوب العبيد على أسيادهم لتحقيق العدل ، وكذلك يحلّ الغضب في قلوب الأسياد على عبيدهم للغاية عينها أيضاً . والمثال الأخير يتمثل في تاريخ يوسف ، كما هو مكتوب : «وكان معنا في الحبس غُلام عبري»⁽²⁾ ، أما المثال السابق فيتمثل في واقعة بِغَتان وترِش ، حاجبيّ الملك .

«فعلّم الأمر عند مُردّخاي»⁽³⁾ ، «ويُدعا הדבר למרדכי .

تكلّم الحاجبان بلغة غريبة ، وهما يظنّان أن مُردّخاي لا يفهم ما يقولان . غير أن مُردّخاي كان من بعض أعضاء مجلس السّنهدين סנהדרין⁽⁴⁾ ، رجلاً متعلّماً ، فكان يفهم ما يقولان تماماً .

قال أحد الحاجبين للآخر : «مُنذ أن تزوّج الملك إستير لم نعد ننعّم لا براحة ولا بسلام ، فقد صارت حركة الذّهاب والمجيء مرهقة ، وسيكون خيراً لنا أن نقضي على حياته» .

فوافقه الآخر على رأيه ، لكنه أضاف : «ولكن كيف لنا أن نفعل ذلك ؟ أنا في نوبة حراسة ولا يمكنني المغادرة» . فقال الأول : «إذهب ، وأنا أقوم بأمر حراستي وحراستك معاً» .

ولذلك كُتب في متن الكتّوبيم : «فُفحص عن الأمر ووُجد صحيحاً» ، أي أن أحد الحاجبين وُجد متغيّباً عن موقعه .

(1) مجلّت إستير - 2 : 21 .

(2) سفر التكوين - 41 : 12 .

(3) مجلّت إستير - 2 : 22 .

(4) السّنهدين : مجلس قوامه 71 من الحاخامات ، كان يقوم بمهمّة المحكمة العليا والهيئة التشريعية ، له هيتان : السّنهدين الأكبر סנהדרין גדולה (71 عضواً) ، والسّنهدين الأصغر סנהדרין קטנה (23 عضواً) . وراجع ما كنا كتبناه عنه في المقدّمة كعنصر رئيسي في الهيكلية الدّينية اليهودية ، بحسب تشريع التلمود .

«بعد هذه الأمور»⁽¹⁾ ، أחר הדברים האלה . فأية أمور هي ؟

أي بعد أن خلق الله العلاج من قبل أن يوقع الجراح ، وبعد أن أنقذ مُرَدَخاي حياة الملك من قبل أن يتم إعلان الأوامر القاضية بإهلاك شعبه .

بعد هذه الأمور عظم الملك هامان ابن همداتا الأجاخي ، ورقعه إلى مرتبة سامية في المملكة . لكنه لم يُرَقَّع إلا لتحلّ عليه التهلكة . وكان مصيره كمصير الخنزير في مثل الحصان والفلو والخنزير .

كان لدى رجل حصان وفلو وخنزير ، وكان يكيّل للأولين مقداراً محدداً من العليق في كل يوم ، فكان ما ينالانه لا يزيد ولا ينقص ، أما الخنزير فبترك له الحبل على الغارب ليأكل كما يحلوه . فما كان من الفلو إلا أن قال للحصان : «كيف يكون ذلك ؟ أعدل ما يجري ؟ نحن نكدّ مقابل طعامنا ، بينما يتقلب هذا الخنزير العديم النفع في الملدّات . يحقّ لنا أن نظفر بمقدار ما يناله هو من طعام» . قال الحصان : «رُويداً ، وسترى سبب ذلك قريباً بهلاك الخنزير» .

فلما حلّ الخريف تم ذبح الخنزير . قال الحصان : «أرأيت ؟ لم يكونوا يقدمون الطعام للخنزير ليأكل على هواه ويشبع ، بل لتسمينه وذبحه» .

كان هامان من ذرية عيسو مباشرةً ، فأبوه همداتا كان ابن سَرارخ ، وهذا بدوره ابن قوزاه ، ابن إفلوتس ، ابن يوسف ، ابن يوسيم ، ابن بيدوم ، ابن ماديه ، ابن بلاثكان ، ابن إنتمروم ، ابن هریدوم ، ابن شجر ، ابن نجر ، ابن پرمشستاه ، ابن قيزتاه ، ابن أجاج ، ابن سُمكي ، ابن أمالك ، وأخيراً ابن إلفاز وهو بكر أبناء عيسو .

«لماذا تتعدّى أمر الملك؟»⁽²⁾ ، مدوَع اَتَه عوَبَر اَت مَصَوَت هَمَلَمَد .

قال عبيد الملك الذين يباهه مُرَدَخاي : «لماذا ترفض الجشوّ لهامان ، ضارباً بأوامر الملك عرض الحائط ؟ ألسنا نجثوله ونسجد؟» .

(1) مجلّت إستير - 3 : 1 .

(2) مجلّت إستير - 3 : 3 .

أجاب مُرْدَخاي : «إن أنتم إلا حَمَقى ، أجل . . لا عقل لكم . اسمعوا لي : أيجوز تعظيم من كان فانياً ، مصيره إلى التُّراب ؟ أيجوز لي أن أجتولابن امرأة ، أيامه معدودة ؟ في صغره يبكي ويتحب كالطفل ، وفي شيخوخته يتملكه الأسى والتحصّر ، وأيامه مُفعمة بالسَّخَط والغضب ، وفي النهاية يكون مآله إلى التُّراب . أيجوز لي أن أجتولمن كان مثله ؟ لا ، بل أسجد لله الأزلي ، ذي البقاء والخلود . لمن يتوسّد عروش السَّموات ويُمسك الدُّنيا في راحة كَفِّه . بكلمته يستحيل الضياء إلى ظلمة ، وبأوامر يشعّ النور في أحلك الدِّياجير ، بحكمته خلق الدُّنيا ، وأرسي تخوم المحيطات ، فإليه يؤول خَلق الماء ، العَذب منه والمالح ، وهو يأمّر الأمواج المتلاطمة بقوله : «اسكني ، لا تزيدني عن هذا الحدّ في الحركة ، كيما تبقى الأرض جافةً لأجل شعبي» . فله وحده ، خالق الكون ومدبّره ، أجتو وأسجد» .

وحق هامان على مُرْدَخاي ، فقال له : «يا لك من عنيد ! أفلم يجثُ جدك لجديّ؟» .

أجاب مُرْدَخاي : «وكيف ذلك ؟ مَنْ من جدودي جثا لجدك؟» . فقال هامان : «يعقوب جدك ، جثا لأخيه عيسو ، وهو جدّي السّالف» .

أجاب مُرْدَخاي : «لم يكن الأمر كذلك ، لأنني من نسل بنيامين ، ولما جثا يعقوب لعيسو لم يكُ بنيامين قد وُلد بعدُ . ولم يجثُ بنيامين لأحد حتى سجّد نسله في الهيكل المقدّس ، عندما حلّت روح الله في بواباته المطهّرة ، واتّحد معه جميع بني يسرّئيل . ولذا فلستُ جاثياً لهامان اللثيم» .

«في الشهر الأول ، أي شهر «نيسان» ١٥ في السنة الثانية عشرة كانوا يُلقون قُوراً ٦٦٥ (أي قُرعة) أمام هامان»⁽¹⁾ . فكان يُلقى القُور «من يوم إلى يوم» . أولاً اختار اليوم الأول من الأسبوع لأجل إهلاك اليهود ، لكنه فيما بعد قال : «لا ، فالنور قد خُلِق في ذلك اليوم ، وهذا قد يوافقهم . وفي اليوم الثاني خُلقت جنّة عِدن ، مع كل الأعشاب والشجر ، وفي اليوم الرَّابِع خُلقت الشمس والقمر

(1) مجلّت إستير - 3 : 7 .

والنجوم ، وكذلك جميع جيوش السماء ، وهذا أيضاً يوافقهم . في اليوم الخامس خلقت طيور السماء ، وبينها الحمام ، الذي استخدمه اليهود قُرْبَاناً ، ولذا فهو لا يلائم إبادتهم . وفي اليوم السادس خلق آدام وحوّاه ، أما اليوم السابع فهو يوم «شَبَّات» (السَّبْت) المقدس لديهم ، الذي فيه العهد بينهم وبين الله .

ثم جرّب طالعه بعد ذلك مع الشهور . ففي شهر «نيسان» (أبريل) تم إطلاقهم من عبوديتهم بمصر ، ووقعت أثناء ذلك عدّة معجزات لصالحهم . أما في شهر «إيار» ٦٦٤ (مايو) فكان نزول المَنَّاء للمرة الأولى من السماء ، وفي ذلك الشهر أيضاً كانت هناك خمس آفات على وشك الوقوع . وخلال شهر «سيوان» ١١٥٥ (يونيو) تلقوا الوصايا العشر ، وعيدوا لبضعة أسابيع . فلا واحد من هذه الشهور يلائم إذاً . ثم كان أن وقعت القرعة التالية على شهر «تموز» ٢١٥٦ (يوليو) ، غير أنه في ذلك الشهر دُمّرت أسوار يروشلأيم ، فظنّ هامان أن ذلك قد يُحتسب بمثابة الجزاء الكافي لأي من ذنوبهم في غضون هذا الشهر ، فعدل عنه وألقى القرعة ثانية . وقعت القرعة التالية على شهر «آب» ٢١٤ (أغسطس) ، ولكن في ذلك الشهر كان موتان الجيل الأخير من الأجيال المحكوم عليها بالتيه أربعين عاماً . كان زمن جزائهم قد انقضى عندها ، وفي ذلك الشهر ذاته كَلَّمَ مُوسِيه الله وضرّع إليه قائلاً : «أرني عزّتك» . فلهذا هو شهر معظم ليسرئيليين ينبغي عدم اختياره لإفنائهم .

الشهر التالي كان «إيلول» ٢١٤٦ (سبتمبر) ، وفي هذا الشهر كان الصّعود الثالث لمُوسِيه إلى جبل الله ، ليتلقى الألواح الحجرية الثانية . وكذلك خلال هذا الشهر تمت عمارة أسوار يروشلأيم ، كما هو مكتوب في سفر نحemiah 6 : 15 : «وكمل السور في الخامس والعشرين من شهر إيلول» .

أما شهر «تشري» ٢١٤٦ (أكتوبر) فلن يكون ملائماً لهذا الغرض ، لأن يوم الدينونة حينما يخشع بنو يسرائيل جميعهم في الصلّاة يقع ضمنه . وكذلك فلا يوافق الشهر التالي «حشوان» ٢١٥٦ (نوفمبر) هذا المخطط ، لأنه فيه أُطلقت مياه الطوفان على الأرض وتمّ إنقاذ نُوح وأهل بيته . وخلال شهر «كسليف» ٢١٥٦

(ديسمبر) أرسيت أسس الهيكل . وفي «طبيت» ٦١٧ (يناير) حاصر نبوخذناصر يروشلأيم ، وهذا أيضاً كان بمثابة جزاء كاف لذلك العهد . وكذلك خلال هذا الشهر أحلت الأسباط الأحد عشر السّلام مع سبط بنيامين . وكذلك فـ شهر «شباط» ٧١٧ (فبراير) لم يقع فيه أي ذنب يستحقّ سخط الله تجاه شعبه . لكنه لما أتى على شهر «آدار» ٦٦٨ (مارس) انبرى قائلاً : «ها قد نلتك الآن ، كسمكة من البحر» (حيث أن طالع كوكب الشهر تمثله سمكتان) . ففي هذا الشهر مات مؤشيه مؤدّي الشريعة ، فعده هامان شهراً رديء الطالع لبني يسرائيل . لكنه نسي أيضاً أن مؤشيه وُكِد أيضاً في «آدار» ، في اليوم السابع من الشهر .

«فقال هامان للملك أحشوروش»⁽¹⁾ : «وامر המן למלך אחשורוש

«ثمة شعب متشتت ومتفرّق في بلادك ، غير أن سننهم مغايرة للأمة التي يعيشون فيها . فهم لا يختلطون بنا أو يشاركوننا حياتنا ، وهم لا يتزوجون من بناتنا ، ولا يعطون أبناءنا زوجات من بناتهم . وهم لا يسهمون في بناء الدولة ، لأن لهم أعياداً كثيرة يقعدون فيها ويتقاعسون عن الحركة . وهم يخصّصون السّاعة الأولى من كل يوم للصلاة : «اسمع يا يسرائيل ، الربّ واحدٌ أحد» . وفي السّاعة الثانية أيضاً يرتلون الترانيم ، وكثيراً من الوقت يضيّعون في الصلوات والتسابيح . وفي اليوم السابع من كل أسبوع يحتفلون بـ «يوم شَبّات» ، ويمضون نهاره في كُنُسهم يقرأون في توراتهم وكتب نبيّهم ، وكذلك في كنعك أيها الملك . وهم يدخلون أبناءهم في عهد الجسد⁽²⁾ عندما يبلغون اليوم الثامن من العمر ، ويداومون على كونهم شعباً مختلفاً عن سواهم إلى الأبد . وفي شهر «نيسان» يحتفلون بعيد يسمونه «عيد العبور» (الفصح) ، ينبذون فيه الخميرة من بيوتهم ، وينبرون قائلين : «كما نبذ الخميرة من بيوتنا ، لنبذ هذا الملك اللثيم من أمامنا» . ولهم الكثير من مواسم الصّوم والأعياد ، يقومون فيها جميعاً بلعنك أيها الملك ، ويدعون عليك بالموت ويسقوط مملكتك . فها قد قام مرّة ما ملكٌ ، هو نبوخذناصر ، فدمر هيكلهم وخرّب مدينتهم العظمى يروشلأيم ، وساق السّكان

(1) مجلّت إستير - 3 : 8 .

(2) المقصود بذلك سنّة الختان ، راجع سفر الخروج - 21 : 4 .

منها إلى المنفى . ومع ذلك ، بقي غرورهم وأنفة نفوسهم على حالهما . واعلم كذلك أن أسلافهم هبطوا مصرأ ، وعدتْهم سبعون رجلاً ، ولما صعّدوا منها كانوا يعدّون ست مئة ألف بالتّمام والكمال ، هذا ما خلا نساءهم وأطفالهم . وبين هذه الأُمَّة ثَمّة رجال من كبار التجّار ، يتعاطون البيع والشراء ، لكنهم لا يعملون سنن الملك ولا المملكة . فما الجدوى من وجود مثل هؤلاء القوم متفرّقين عبر بلاد مملكتك ؟» .

وتابع هامان قائلاً : «فإن حَسُن في عيني الملك ، فليكتب أمراً بأن يُهلكوا ويُبادوا من بيننا» .

فأجاب أحشوروش : «ليس بوسعنا أن نفعل ذلك . فبالههم لم يتخلّ عنهم ، ولقد تغلّبوا على أقوام هم أعظم منا شأنًا وأقوى يداً . لا يمكننا الأخذ بمشورتك في هذا الشأن» .

لكن هامان بقي مواظباً على الإلحاح بالشكاية على اليهود تجاه الملك ، بُغية حثّه على إهلاكهم بالكلية . وأخيراً ، قال أحشوروش : «طالما أنك ألحفت عليّ إلى هذا الحدّ حول هذا الشأن ، فسأدعو وزرائي ومستشاري وحكّماي ، وأطلب رأيهم» .

فلما استدعي هؤلاء بين يدي الملك ، طرح عليهم الأمر وسألهم : «ما هو رأيكم الآن ، أنهلك هذه الأُمَّة أم لا ؟» .

فأجاب الحكماء بالإجماع قائلين :

«لو أن بني إسرائيل تمّ اجتثاثهم من الوجود فستزول الدّنيا ذاتها بالكلية ، لأنه على فضل بني إسرائيل والشريعة المنزلة عليهم تقوم الحياة الدّنيا⁽¹⁾ . أفلم يُخصّ هذا الشعب بالقرّبي من الله (النّسابة) ؟ «لبنّي إسرائيل الشعب القريب

(1) في هذه النصوص الجدلية المصاغة بطريقة توفيقية نموذج حيّ لعملية النسخ النصّي ، لنسب القدسية والأفضلية لشعب ما دون سواه . وهذا ما نراه بحدّافيره في التراث الديني لكافة الشعوب دون استثناء ، ويسمّيه البعض : فنّ صناعة المقدّس . ومثل هذه النصوص من أجداه التلمود تحمل بجلاء لمسات المفسّرين المضافة إلى التوراه .

إليه»⁽¹⁾ . وليس هذا فحسب ، فهم يُسمّون أيضاً أولاد الرّب كما هو مكتوب :
«أنتم أولاد للرّبّ إلهكم» بني إسرائيل «لئلا تكونوا الهالكين» (الثنائية 14 : 1) .
فمن ذا الذي يُقلت من سخطه إن هورفع تجاه أولاده يداً ؟ لقد جُوزي قرعوه
بسبب سلوكه ضدّهم ، فكيف لنا نحن أن ننجو من هذا الجزء ؟» .

فقام هامان وأجاب على كلامهم قائلاً :

«إن الإله الذي تسبّب بموت قرعوه وجيوشه قد شاخ ودبّ إليه الضعف ،
وقواه خارت ودوّت . أولم يدمّر نبوخذناصر هيكله وساق شعبه إلى المنفى ؟
فلماذا لم يحلّ دون ذلك إن كان على كل شيء قديراً ؟» .

وعن طريق مثل هذه المساجلات والنقاشات ، تمكّن هامان من تبديل آراء
الحكماء ومشوراتهم ، فتمّ له كتابة المراسيم القاضية بإجراء المذبحة ، حسب ما
أمر به .

فلما علم مردّخاي كل ما عمّل⁽²⁾ ، شقّ ثيابه ولبس مسحاً وحثاً على نفسه
الرّماد ، وناح مُرتاعاً ، وقال : «ويلٌ لنا ، ويلٌ لنا على هذا المرسوم الشّديد .
ولا حتى نصف شعبنا ينجو ، لا ولا ثلثه أوريه ، إنما المفروض اجثائه بأكمله .
ويلٌ لنا ، ويلٌ لنا !» .

فلما أبصر اليسرثيليون نواح مردّخاي وسمعوا كلامه ، عقدوا اجتماعاً
يضمّ حشداً كبيراً من الناس ، فخطبهم مردّخاي بما يلي :

«أنتم يا بني إسرائيل ، أيها المُختارون من أيّنا الذي في السّموات ، أستم
تعلمون بما قد جرى ؟ ألم تسمعوا بالمرسوم الصّادر في حقّنا ، بأن هامان والملك
قد أمرا بإهلاكنا من وجه الأرض ؟ ليست لنا الآن روابط وديّة نعتمد عليها ، ولا
أنبياء يدعون لنا ، ولا مدينة نلجأ إليها . بل نحن قطعٌ بلا راع ، ونحن كسفينة
في البحر بلا ربّان ، وكأيتام بلا أب ، أجل ، كرُضّع فقدوا أمهم» .

(1) مزامير داود - 148 : 14 .

(2) انظر مجلّت إستر - 4 : 1 . وهناك بالطبع زيادات كثيرة من أجدها التلمود على أسفار
الكتوبيم ، لذا يحسّن متابعة النّص هنا على متن الأسفار اليهودية (تتخ) .

ثم حَمَلُوا تابوت العهد الذي به تُودَعُ صُحُفُ الشريعة ، في شوارع مدينة شُوشَن ، ووَشَّحُوهُ بِاللَّوَانِ الْأَسْوِي وَالْحَدَادِ . وفتح مُرْدَخَاي الصُّحُفَ وراح يقرأ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مِنْ سَفَرِ تَنْثِيَةِ الْاِشْتِرَاعِ (4 : 30) : «عندما ضَيَّقَ عَلَيْكَ وَأَصَابَتْكَ هَذِهِ الْأُمُورُ كُلُّهَا فِي آخِرِ الْأَيَّامِ ، تَرْجِعْ إِلَى الرَّبِّ إِلَهِكَ وَتَسْمَعْ لِقَوْلِهِ (31) لِأَنَّ الرَّبَّ إِلَهَكَ إِلَهُ رَحِيمٍ» ، بَصَرَ لَكَ وَمِصْرًا كُلَّ الدُّبُرِيِّمِ الْهَالِكِ بِالْأَحْرِيثِ الْيَمِيمِ وَسَبْتِ عُدِّيهِوּהָ אֱלֹהֶיךָ וּשְׁמַעְתָּ בְּקَلּוֹ : כִּי אֵל רַחוּם יְהוָה אֱלֹהֶיךָ .

وقال مُرْدَخَاي : «يا شعب بيت يِسْرَائِيل ، لِنَحْذُو حِذْوَ أَهْلِ نِينَوَى ، عِنْدَمَا أُرْسِلَ يُونَاهُ بْنُ أَمِيَتَايَ لِيُنَادِيَ بِانْقِلَابِ عَاصِمَتِهِمْ⁽¹⁾ . فَلَقَدْ قَامَ الْمَلِكُ عَنِ عَرْشِهِ ، وَاسْتَبَدَلَ أَتْوَابَهُ الْمَلِكِيَّةَ بِمُسُوحٍ وَرَمَادٍ ، وَنَادَى بِصُومٍ . وَلَمْ يَذُقْ بَشَرًا وَلَا بَهِيمَةً وَلَا مَاشِيَةً وَلَا قَطِيعَ طَعْمِ الزَّادِ أَوْ يَنَالُوا شَرِبَةَ مَاءٍ . «فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ أَنَّهُمْ رَجَعُوا عَنِ طَرِيقِهِمُ الرَّدِيئَةِ ، نَدِمَ اللَّهُ عَلَى الشَّرِّ الَّذِي تَكَلَّمَ أَنْ يَصْنَعَهُ بِهِمْ فَلَمْ يَصْنَعْهُ» (سَفَرُ يُونَاهُ 3 : 10) . فَلْتَنْذِرُنَا نَحْنُ أَيْضًا صُومًا عَلَى سَبِيلِ الْاِسْتِغْفَارِ ، فَإِذَا نَجَّاهُمْ هَؤُلَاءِ وَهُمْ وَثِييُونَ ، فَمَا بَالُنَا نَحْنُ أَبْنَاءُ أِبْرَاهِيمَ ، أَلَيْسَ حُرِيًّا بِنَا دُونَ سَوَانَا أَنْ نَتُوبَ عَنِ طَرِيقِنَا الرَّدِيئَةِ وَنُؤْمِنَ بِمَغْفَرَةِ إِلَهِنَا الرَّحِيمِ ؟ أَلَا تَرَاغِبُوا . . تَرَاغِبُوا يَا آلَ بَيْتِ يِسْرَائِيلَ عَنِ طَرِيقِكُمُ الضَّالَّةِ ! فَعَلَامَ تَمُوتُونَ؟»⁽²⁾ .

فَلَمَّا أَمَّ كَلَامَهُ هَذَا ، خَرَجَ مُرْدَخَايَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَصَرَخَ صَرْخَةً عَظِيمَةً⁽³⁾ .

فَكَانَ بَيْتُ يِسْرَائِيلَ مَمْلُوءًا رُعبًا مِنْ أَمْرِ الْمَلِكِ . وَاجْتَاحَ الْأَسَى عَتَبَةَ دَارِ كُلِّ يَهُودِيٍّ ، وَأَنَاخَ جَوْمَ الْكَدْرِ عَلَى كُلِّ كُورَةٍ .

(1) راجع سفر يونا من أسفار النبيين المتأخرين ، 3 : 1-4 . والنبي يونا بن أميتاي هذا يرد اسمه في تراثنا الإسلامي : النبي يونس (كما في الإغريقية : يوناس Iovacs) ، بينما يرد في الترجمات العربية العبريتين للأسفار اليهودية : يُونان . فما هي الحكمة من تصحيف اسمه ، وهو في العبرية «يونا» : «וְנָח בְּרֶאֱמֹתַי» ؟ هذا الأمر بحاجة إلى بحث ، والسبب نراه في اشتهاار الترجمة اليونانية السبعينية وحدها للتوراه إبان تنزيل القرآن الكريم .

(2) هذا كله زيادة على متن مجلّت إستير ، من إضافات أجدها التلمود .

(3) عودة إلى نصّ متن مجلّت إستير - 4 : 1 .

وكان أن قام أحدهم بزيارة صديق فارسي له والتمس منه أن يستخدم نفوذه لإنقاذ حياته وحياة أسرته ، قائلاً : «أنا وامراتي وأولادي نكون لك عبيداً ، لكن أنقذ حياتنا» .

فأجاب الفارسي : «وكيف لي أن أفعل ذلك ؟ إن الأمر الملكي ينصّ على أن أيّ فارسي يؤوي يهودياً سيلاقي حتفه معه» .

فرحل اليهودي بقلب كسير ، وهو يقول : «كيف تُراها ستحقّق إذاً كلمات التّوراه (الشریعة) القائلة : «فَتُبَاعُونَ هُنَاكَ لِأَعْدَائِكُمْ عِبِيداً وَإِمَاءً وَليْسَ مَنْ يَشْتَرِي» ؟» (سفر التثنية - 28 : 68) .

في كل يوم كان الشعب يحسبون مرور الوقت بقولهم : «بقي لليهود في هذه الحياة من الوقت كذا وكذا» ، وهكذا تحققت آية أخرى من التّوراه : «وتكون حياتك معلقة قدامك وترتعب ليلاً ونهاراً ولا تأمن على حياتك ، وفي الصّباح تقول : يا ليته المساء ، وفي المساء تقول : يا ليته الصّباح ، من ارتعاب قلبك الذي ترتعب ، ومن منظر عينيك الذي تنظر» (سفر التثنية - 28 : 66-67) . ومع مرور كل يوم كان التّوايح يتزايد والأمل يلوح ذوايماً أكثر فأكثر .

إن فقدنا قريباً أو صديقاً عزيزاً ، فإن أسانا يكون في بادئ الأمر شديداً ، لكنه مع مضيّ كل يوم يفقد وطأته إلى أن نحوز العزاء والسّلوى . لكن كم كان الأمر مغايراً في حكاية اليهود المُدانين بالموت ! فضي كل يوم كان العويل يشتدّ ، لأن كل يوم يمضي كان يقربهم من ساعة هلاكهم .

ولقد كان عمل أحشويروش بتوكيل خاتمه إلى هامان ذا مفعول أشدّ وأبلغ في إذكاء مشاعر التّوبة لدى شعب يسرائيل من كلام أنبيائهم الثمانية والأربعين . فلقد نها الأنبياء شعب يسرائيل عن عبادة الأوثان وحثّوهم على ضرورة الاستغفار لكن كلامهم مع ذلك لم يلاق آذاناً مُصغية⁽¹⁾ ، أمّا عند انتقال خاتم الملك إلى هامان ، سرعان ما خشعت الأفتدة إلى سماع نداء التّوبة المجلجل .

(1) في تاريخ اليهود القديم بأسفار التّوراه والنبیّیم والکتوبیم سلسلة متّصلة من الانكفاء عن طريق العبادة ، يعقبها ظهور نبي يُنذر عذاباً وخراباً ، ويقع ذلك لتعقّب رحمة .

لكن القدر كان يبيّن لهامان جزاءً وفاقاً . وثمة قولٌ مأثور للربّانيين : «إن سقط حجر على إبريق فإن الإبريق ينكسر ، وإن سقط الإبريق على الحجر فإن الإبريق ينكسر أيضاً» . في الحالين كليهما يكون مصير الإبريق الدمار ، فهذا أيضاً شأن أعداء يسرائيل ، لأنه حتى عندما يضلّ بنو يسرائيل عن جادة الصواب ، فإن من يُسخّرهم الله لعقابهم يلقون هم أيضاً جزاءً أليماً ، كما جرى في حالة نبوخذناصر وتيطس وهامان ، إلخ .

«فدخلت جوارى إستير وحجابها وأخبروها (بحزن مُردّخاي) . . . فدعت إستيرُ هتّاخ ، وأعطته وصيةً إلى مُردّخاي لتعلم ماذا ولماذا . . . فأخبره مُردّخاي بكل ما أصابه»⁽¹⁾ .

ثمة حلمٌ حلم به مُردّخاي في السنة الثانية من ولاية الملك أحشويروش ، تذكره الآن ورواه لهتّاخ : «كان هناك زلزال هزّ الدّنيا ، وظلمة وعواصف عظيمة أرعبت الكائنات . كان هناك وحشان هائلان يخوضان قتالاً مُميتاً ، فأدّت جلبة الصّراع إلى إصابة الأمم بالارتجاج من الرعب . وفي وسط الأمم كان ثمة شعبٌ صغير ومستضعف ، وكانت الأمم الأخرى تضمر له الشرّ وتتمنى زواله من وجه الدّنيا . وحلّ يأسٌ عظيم على هذا الشعب ، فصرخوا إلى الله بقوة طالبين النّجدة والحماية . ثم انبجست عين ماء صغيرة ما بين الوحشين المتقاتلين ، وراح حجمها يتعاطم إلى أن لاح بكبر البحر واتّساعه ، حتى بدّت وكأنها ستُحقيق بالمعمورة . ثم أشرقت الشمس بنورها الوضّاء على الأرض ، وإذا بالأمّة المُستضعفة تنعم بالسلام وتقيم بأمان ، أما الأمم الأخرى العظيمة فقد تلاشت أطلالها وخرائبها حولها» .

وكان قد روى هذا الحلم من قبل لإستير ، فعاد الآن وأرسل للملكة عن طريق رسوله يقول : «دُونكِ فلتذكرى الحلم الذي كنتُ رويتهُ لك في طفولتك . فلتقومى ، ولتضرعى إلى الله وتلتمسي منه الرّحمة ، ثم فلتمثلي أمام الملك وخاطبيه بجرأة في قضية شعبك وأسلافك» .

(1) مجلّت إستير - 4 : 4 - 7 .

وأرسل إلى إستير فوق ذلك يقول : «لا تخيل لك نفسك الأمور فتقولى : «الملك اختارني ملكة له ، ولهذا لست بحاجة أن أدعو بالرحمة لبني يسرائيل» . فإلى المنفى ستحملين كبقية الشعب ، وهذا الأمر القاضي بإهلاك البعض يقضى أيضاً بإهلاك الجميع . لا تفتكري في نفسك أنك تنجين دون جميع اليهود . ولتعلمي أن خطيئة جدك الأكبر شاؤول هي السبب في محتنتنا اليوم . فلو كان أطاع كلام صموئيل لما كان وُلد من ذريته هامان الشرير الذي يتبع عائلة عماليق . ولو أن شاؤول قتل أجاج ، لما كان ابن همدانا اشترانا بعشرة آلاف طالين فضي (وزنة) ، ولما كان الرب أسلم بني يسرائيل إلى أيدي الظالمين . لكن موشيه دعا الرب من أجل يسرائيل ، ويهوشوع أزعج عماليق . لذا ، فقومي وادعي أمام وجه أهلك في السموات ، فإن الله الذي أنزل حكمه العادل بعماليق سيفعل الأمر ذاته بنسله الشرير . من الثلاثة ظالمين لبني يسرائيل ينحدر نَسَب هامان : فأولاً عماليق ، الذي كان أول من حارب يسرائيل ، والذي لاقى الهزيمة على أيدي يهوشوع . وبعده سيسرا ، الذي بسط يداً حديدية على أسلافنا ولاقى جزاءه على يد امرأة ، هي يائيل . وأخيراً جليات ، الذي تحدى جند يسرائيل فأذله ابن يشاي . لهذا ، لا تكفي عن الدعاء والضراعة ، إذ أن الله ما يرحم للواعج القلب التوآب ، وكرماً لأسلافنا سوف يُسقط علينا رحمته . فلقد خلصهم من أعدائهم لما انقطعت بهم السبل . لهذا فاضرعي ، ولا تظني أنك وحدك من بين شعبك جميعه ستؤولين إلى السلامة» .

وفي اليوم الذي أمر فيه مُردخاي إخوانه بالصوم والخضوع أمام الله ، تلا الضراعة التالية :

«يا إلهنا وإله آبائنا ، الجالس بعرش العز! يارب الكون ، أنت تعلم أنني لم أك بسبب التكبر والاستعلاء أحجمت عن الركوع أمام هامان ! إنني لا أخشى إلا إياك ، وأغار على مجد حضرتك ، فلذا لا يجوز لي أن أقدم تشريفك لبشر من لحم ودم ، إلى مخلوق من مخلوقاتك . يا الله ، نجتنا من يده ودع قدميه تقعان في الأحبولة التي نصبها لنا ! ودع العالم يعرف يا مخلصنا ، بأنك لم تنس العهد الذي يشد من أزرنا ويقوينا في شتاتنا» .

«ولكن مع ذلك أيضاً ، متى كانوا في أرض أعدائهم ما آيبتهم ولا كرهتهم حتى أبيدهم وأنكث ميثاقي معهم ، لأنني أنا الربّ إلههم»⁽¹⁾ .

فلما تلقت إستير رسالة مُردّخاي ، أمرت هي أيضاً بصوم ، وأبدلت حللها الملكية بمسوح ورماد حزن ، وطأطأت برأسها أمام الربّ ، بهذا الدعاء المخلص :
«يا إله يسرائيل ، منذ بدء الأيام حكمت الكون ، وكل هذه الدنيا وما فيها خلقتها يد قدرتك . فإليك تضرع أمتك بالرجاء ! إني وحيدة يا الله ، لا أب لي ولا أم ! وحالي كما المعوزة ، تدور بالكدية من باب إلى باب ، فها قد قصدتُ باب رحمتك ، من شبّاك إلى شبّاك في بيت أحشوروش⁽²⁾ . فمنك وحدك يُرتجى العون والخلاص . يا أب من لا أب له ، كُن إلى يمين اليتيمة ، أتوسّل إليك ، أعطها رحمةً ونعمةً في عيني أحشوروش ، لعله يتأثر فيعطى سؤلها في شأن حياة شعبها . «ليكن كلام فمي وابتهال قلبي مقبولاً أمامك ياربّ ، يا صخرتي ومخلصي . آمين» .

«وحدث في اليوم الثالث»⁽³⁾ ، «יהי ביום השלישי» .

بعد أن كانت إستير صامت ثلاثة أيام ، قامت في اليوم الثالث من الرماد الذي اتشحت به ، وخلعت عنها مسوحها ، وتزيّت بحلّلها الملكية البهية ، مُرتدية أروع حلّيها المصنوعة من الذهب والأوفير والجواهر النفيسة ، وتهيأت للمثول بين يدي الملك . غير أنها قبل ذلك ، بصوت ملؤه الأسى والجيشان ، توجهت مرة ثانية إلى العليّ القدير خفية تدعو :

«يا إله أجدادي أبرهام ويصحاق ويعقوب ، ويا إله بنيامين ، إليك أتوجّه وإياك أدعو ! أدعوك قبل أن أطالب زوجي أحشوروش الملك متوسّلةً من أجل شعبك بني يسرائيل ، الذين ميّزتهم عن باقي الأمم ، والذين أعطيتهم شريعتك المقدّسة . شعبك المختار يا الله ، الذي يسبّح اسمك في كل يوم ثلاث مرّات ،

(1) تضمين من سفر التّوبين - 26 : 44 .

(2) كان من عادة اليهود قديماً أثناء الدعاء أن يقفوا قرب شبّاك ويتطلّعوا إلى السّماء . وذلك مدوّن في سفر دانييل (6 : 11) : «وكوّاه مفتوحة في عليّته نحو يروشلايم» .

(3) مجلّت إستير - 4 : 4 - 7 .

قائلين : «قُدّوس قُدّوس قُدّوس ربّ الجيوش ، مَجْدُهُ ملء الأرض كلّها»⁽¹⁾ ،
 קדוש קדוש קדוש 'יהוה צבאות מלא כלהארץ כבודו . فكما نَجَّيْتَ
 حَنِّيَّاهُ ومِيشائيل وعزّرياه من الأتون المُستعر⁽²⁾ ، ودانييل من أشداق الأسود ، نَجَّنَا
 الآن من الأعداء الذين يترَبِّصون بنا لإهلاكنا . أرجوك أن تعطني نعمةً في عيني
 سيدي الملك . من خلال خطايانا ياربّ يحقّ علينا العقاب ، أجل ، نحن من
 تسري في عروقنا دماء أبرهّام ، ولكنّ تمامًا لا ريب فيه أن الأبناء ينبغي ألاّ يتحمّلوا
 خطايا الآباء ! فإنّ أثرنا سخطك ، ما هو ذنب أصحاب الطّوايا الحسنة والصّغار
 الرّضع أن يُدانوا مثلنا بالموت ؟ أوّاه ، فلتذكر كرامة أبرهّام في شأن خلاصنا !
 عشرة مرّات عرضته أمام التّجربة ، فبقي على إيمانه الحقّ بك . فلتحم أبناء
 خُصائلك المحبوبين أبرهّام ويصحاق ويعقوب ، وأمطّ عنهم الأذى الذي أحاطهم
 به هامان» .

وانثالت إستير تبكي وتنشّج بمرارة ، وعجز لسانها عن النّطق بالكلمات
 التي احتبست في شفّتها . فقالت في نفسها : «أمّا الآن فأذهب إلى الملك . أوّاه
 ياربّ ، فاجعل ملائكة الرّحمة تسبق خطواتي ، واجعل بركة أبرهّام تتقدّمني ،
 وكرامة يصحاق تشدّ من عُودي المرتجف . اجعل لُطف يعقوب في فمي ، ونقاء
 يوسف في نطق لساني . وكما استمعت إلى صوت يُوناه عندما ناداك ، استمع
 الآن إلي . يا الله ، يا مَنْ تُدرك أبصاره أدنى خفايا القلوب ، اذكر كرامة الصّالحين
 الذين عبدوك بالتّقوى والإيمان ، وبشفاعتهم لا تردّ رجائي الآن خائباً . آمين» .

واصطحبت إستير معها اثنتين من خادماتها اللتين كانتا بانتظارها ، ودخلت
 بلاط الملك . وكانت تتكئ إلى ذراع الواحدة منهما ، فيما تتبعها الأخرى وهي
 تُمسك بهُدب ثوبها ، لثلاثي مسّ قماشه الموشى بالذهب أديم الأرض . وكتمت
 إستير حزنها في حنايا قلبها ، بينما لاح على مُحيّاها بريق وضاء ، وعلى إهابها
 سيماء بهجة .

(1) سفر يشعيا - 6 : 3 .

(2) انظر خبر ذلك في سفر دانييل ، الأصحاح الثالث .

وحدث عندما أبصر الملك بها واقفة في البلاط أنه استشاط غضباً لما رآها تتجاوز الأنظمة والأعراف . فنظرت إستير ، ولمحت شرر الغضب في عينيه ، فارتاعت بشدة ، وهوت على خادمتها التي تتكئ عليها . فلما رأى الله انهيارها أشفق على ما تعانيه هذه اليتيمة ، وأعطاهها نعمة في عيني الملك . فسرعان ما زال الغضب عن محيآه ، وقام من كرسية ، وتقدم نحو إستير واعتنقها وقبلها . طوق بذراعه عنقها ونظر إلى عينيها ، فلما أبصر فيهما الارتياح قال : «ما لك يا إستير الملكة ؟ مم تخشين ؟ أنظمتنا ليست تسري عليك ، فأنتِ محبوبتي ، لم لم تتكلمي عندما وقعت عينك عليّ؟» .

فأجابت إستير : «لأنني يا سيدي عندما نظرتُ إليك ، ارتعدتُ من روعة سُلطانك وهيبة مُلكك» .

* * * * *

كانت لإستير ثلاث غايات من وراء دعوة هامان إلى الوليمة مع الملك :

فأولاً : لم تكن ترغب بجعل هامان يظن بأنها كانت على علم بمفسدته ، وبأنها كانت تترص به ، وهو ما كان سيسك به فيما لو علم بأن هتأخ قد سعى برسائل بينها وبين مُردخاي .

وثانياً : كانت ترغب ، في سبيل إنجاح خطتها ، بأن تشعل نار غيرة الملك من هامان . فمن حيث المنطق سيسأل نفسه لماذا تقدمت إلى دعوة هامان وحده ، مُفردة إياه عن باقي الأمراء ومُقدمة إياه عليهم .

وثالثاً : لثلا يضع بنو يسرئيل كل ثقتهم بما تفعل ، ويتكلموا كلياً عليها . والمقصد من ذلك هو إيجاد أسباب إضافية لهم ليضعوا ثقتهم كلها بالرّب وحده دون سواه .

«فقلت له زيرش زوجته وكل أحبائه : «فليعملوا خشبة» ، إلخ»⁽¹⁾ .

ותאמר זרש אשתו וכל־אהביו 'עשר־לץ' ..

(1) مجلت إستير - 5 : 14 .

تقول زيرش لهامان : « ليس بمقدورك أبداً الانتصار على مُردّخاي بالوسائل التي تمّ تجربتها مُسبقاً ضدّ شعبه . فليس بوسعك أن تقتله بسكين أو سيف ، لأنّ يصحاق أنجي من مثلهما ، وليس بوسعك أن تُغرقه ، لأنّ مُوشيه وبني يسرّئيل مشوا بأمان عبر البحر . أما النّار فلن تحرقه ، لأنّها فشلت في ذلك مع حنّياه ورفاقه ، والوحوش كذلك لن تفترسه ، حيث نجا دانييل من براثن الأسود ، ولا يمكن لزنزانة أن تحتويه ، لأنّ يوسف خطا إلى المجد عبر بوابة سجن . وحتى لو حرماه حاسة البصر لا يمكننا الانتصار عليه ، لأنّ شِمشُون أعمى بصره وبرغم ذلك أهلك آلافاً من الفلسطينيين . ولم يبق أمامنا سوى وسيلة واحدة ، هي أن نشنقه» .

فحسب هذه المشورة عمل هامان المشنقة بارتفاع خمسين ذراعاً . وبعد أن فرغ من نصب آلة الموت المخيفة هذه ، قصّد مُردّخاي ليتأمّل في انتصاره الوشيك عليه . فألقى اليهودي في بيت المدراش وحوله تلامذته متحلّقين ، وكانت أعطافهم متشحة بالمسوح ، وكانوا آخذين في البكاء للكلام الذي راح معلّمهم يخاطبهم به .

قال هامان : «غداً أهلك هؤلاء الأولاد أولاً ، ثمّ أشنق مُردّخاي على المشنقة التي عملتها» . وبقي في المدرسة ورأى أمّهات التلاميذ يحضرن لهم طعامهم ، لكنهم جميعاً أحجموا عن الأكل ، وقالوا : «بحياة معلّمنا مُردّخاي ، سوف لن نذوق طعاماً أو شرباً ، بل صائمين نموت» .

«في تلك الليلة طار نوم الملك»⁽¹⁾ بليلة الهوا ندده سنت الملد .

راح أحشويروش يتخيّل أن هامان كان عشيّقاً لإستير ، لأنه وحده من بين الأمراء بأسرهم دُعي إلى وليمتها . فلماً غفا حلم بأنه يرى هامان ويده سيف مُصلت يطلب قتله ، فاستيقظ مرتعباً وعجز عن النّوم من جديد . لذا فقد قام ودعا كاتبه شِمشي ، الذي كان من أقارب هامان ، وأمره بفتح أخبار الأيام في فارس ومادي ، وبأن يقرأ له منه .

(1) مجلّت إستير - 6 : 1 .

وكانت أول صحيفة فتح شمشي الكتاب عندها تضم بياناً لواقعة ما أخبر به مُردخاي عن خيانة حاجبي الملك بغتان وترش ومجرى قصتهما . فتحاشى الكاتب قراءة هذه القصة ، وكان على وشك أن يتحوّل إلى موضع آخر من الكتاب ، فلاحظ الملك فعله ، وأمره بأن يقرأ من الصحيفة التي صادف فتحها أولاً .

«فقال هامان للملك : «للرجل الذي يسرّ الملك أن يكرمه فليأتوا باللباس الملكي» ، إلخ»⁽¹⁾ .

لما سمع الملك هذا الرأي من هامان استحالت شكوكه إلى يقين ، وفكّر في نفسه : «إنه يريد أن يرتدي لباسي الملكي ، ويضع تاجي على رأسه ، ثم يعمد إلى إهلاكه ويحكم بدلاً مني» .

ثم قال الملك لهامان : «أحضر من خزائني السلطانية الثوب الأرجواني المصنوع في الحبشة ، الثوب المرصع بالحجارة الكريمة ، وعلى زواياه الأربع سلسلة ذهبية ، وأحضر كذلك الحلّي التي لبستها في يوم تنويعي ، وقبعتي المصنوعة في الحبشة ، وردائي الملكي المطرز بلألئ أفريقيا . ثم اذهب إلى إصطبلاتي وخذ منها أكرم جواد لدي ، وألبس مُردخاي اليهودي الأثواب ، وأركبه الجواد» .

فأجاب هامان : «ثمة عديد من اليهود في شوشن اسمهم مُردخاي ، فأيتهم ينبغي تكريمه؟» .

أجاب الملك : «ما قلته عمّن يُسرّني أن أكرمه ، افعله لمُردخاي اليهودي المقيم في باب الملك ، ذاك الذي تكلم بخير لصالح الملك وأنقذ حياته» .

فلما سمع هامان هذا الكلام جمّد الدّم في عروق قلبه ، وبهتّ لون وجهه وغارت عيناه ، وعجز لسانه عن النطق ، ثم بمشقة قال : «أيها الملك ، كيف . . كيف بوسعي أعرف أي مُردخاي تقصد؟» .

أجاب الملك : «قد قلتُ لك ، المقيم في بابي» .

(1) مجلّت إستير - 6 : 7-8 .

قال هامان متعجباً : «لكنه يكرهني ، يكرهني ويكره أسلافي ، أعفني من تكريمه وأنا أدفع لخزانتك عشرة آلاف طالن فضي» .

أجاب الملك : «حتى ولو أعطيت هذه العشرة آلاف طالن لمردخاي ، وأعطيت أيضاً بيتك ليحكم عليه ، فإن التكريم الذي تكلمت عنه⁽¹⁾ ينبغي لك أن تؤديه له» .

قال هامان متوسلاً : «أبنائي العشرة يجرون قدام عربتك ، ويكونون لك عبيداً ، بمجرد أن تلغي هذا الأمر» .

فأجاب الملك : «حتى وإن أضحيت أنت وزوجتك وأبنائك العشرة عبيداً لمردخاي ، فلا بد أن ينال هذا التكريم أيضاً» .

لكن هامان بقي مستمراً في توسله : «ولكن مردخاي ليس سوى رجل بسيط من رعايا الملك ، فلتعيته حاكماً لمدينة أو كورة أو محلّة ، ليكن هذا مبلغ تكريمه» .

فأجاب الملك مجدداً : «حتى وإن عينته حاكماً على كور مملكتي كلها ، وإن أوكلت إليه حكم كل من يرتهن بطاعتي في البحر والبر ، فلا بد أن يؤدي إليه أيضاً هذا التكريم الذي قلت به . فإن من تكلم في مصلحة ملكه ، وحافظ على حياة الملك ، لا ريب أنه مستحق لكل ما يتعلق بمن يسر الملك أن يكرمه» .

فتابع هامان : «ولكن ماذا عن الرسائل التي تم توجيهها إلى كور مملكتك كلها ، والأمره بإهلاكه هو وشعبه؟» .

فابتدر الملك قائلاً : «رؤيدك مهلاً ، حتى وإن تم تنفيذها فلا بد من تكريم مردخاي على النحو الذي وصفت . حسبك يا هامان ولتكف عن النقاش ، كما تكلمت فافعل بالعجل ، ولا يسقط شيء من جميع ما قلته» .

(1) حول كلام هامان هذا راجع مجلّت إستير - 6 : 6-9 . ولملخص ذلك أن الملك لما قرّر أن يكرم مردخاي عدو هامان ، سأل هامان من غير أن يطلع على ذلك : «ماذا يعمل لرجل يسر الملك بأن يكرمه؟» فظن هامان أنه هو المقصود بالتكريم ، فراح يستفيض في كلامه بما يوافق ما في نفسه ، وإذا بما يتمناه يكون من نصيب عدوه .

فلما ألقى هامان أن كل محاولاته لم تُجد نفعاً ، أطاع أوامر الملك بقلب مرير . فقصد مُردّخاي بالأردية والجواد المُرْكش ، وقال : «قُم يا مُردّخاي الصّالح ، يا سليل أبرهّام ويصحاق ويعقوب ، قُم من مُسوحك ورَمادك ! فيها هي ذي فاقت قيمة وزناتي الفضيّة كلّها ، وها هو ذا إلهك بسط رحمته عليك . قُم يا مُردّخاي وألقِ عنك مُسوحك ورَمادك ، وارْتدِ هذه الحلل الملكية»⁽¹⁾ .

فَعندها أجاب مُردّخاي : «يا لهامان اللّثيم ! قد آن لك الأوان لتأكل العلقم وتشرب المرّ ، يا ابن عماليق» .

ردّ هامان : «تعال ، فارتدِ الثياب وامتطِ الجواد ، فأوامر الملك ينبغي أن تُطاع» .

ودَهَن هامان مُردّخاي بالأطياب النفيسة ، وزياه بالأردية الملكيّة ، وأركبه متن جواد الملك ، بحسب كلامه هو وأوامر أَحشوروش . ثم تمّ تشكيل حاشية موكب ، فخصّص سبعة عشر ألف جندي لمرافقة مُردّخاي وقُسموا إلى كوكبتين : إحداهما تسبقه والأخرى تتبعه ، أما هو فيسير في الوسط على جواد يمسك بعنانه هامان . وفيما كانوا يعبرون بطرقات شوشن ، راح الجنود ينادون : «هكذا يُصنع للرجل الذي يُسرّ الملك بأن يُكرمه» .

فلما رأى اليهود هذا الموكب العظيم ، ومُردّخاي يُكرم في وسطه ، تبعوه وراحوا يردّون على هتاف الجنود قائلين بأعلى صوت : «هكذا يُصنع للرجل الذي يعبد الملك الذي خلق السّموات والأرض ، ومَن رغب الله بتكريمه» . ولما رأت إستير قريبها متزيّياً على هذا النّحو ، شكرت الرّب وحمدته .

وقالت : «مع صاحب الزامير أقول : «المقيم المسكين من التراب ، الرّافع البائس من المذيلة ليُجلسه مع أشرافٍ ، مع أشرافٍ شعبه» (113 : 7-8) .

(1) مثل هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن عدوّ ، ومجرّد عملية فاحصة سريعة بعلم النّقد النصّي text-critique تدلّ على مدى عمق الأسلوب التّوفيقي المصطنع في هذه الحواشي الهجْدائية . وهذا الأمر إن تمّ تعميمه على باقي روايات الأسفار «المقدسة» لخرّجنا بما هو أكثر وأهم ، ولعدنا إلى نظرية : «صناعة المقدس» .

وكذلك حَمَدٌ مُرْدَخَاي الرَّبِّ فقال : «حوَلتَ نوحِي إلى رَقِص ، حَلتَ مسحي وَمَنطقتني بالسُرور . إِيَاكَ أُمجِد يَا رَبِّ ، إذ رفعتني ولم تسمَح لأعدائي أَن يظفروا بي» (المزامير 30 : 12) .

وقام هامان بخدمة مُرْدَخَاي بأربعة صنوف من الخدمة : فأولاً ، كان له حلاقاً ، فقد حلق له وضمّخه بالطيب . وثانياً ، كان له خادماً شخصياً ، فقد تولّى خدمته في الحمام . وثالثاً ، كان له سائساً ، فقد أخذ بعنان الجواد الذي يركبه مُرْدَخَاي . ورابعاً ، كان له مُنادياً ، فقد راح يهتف أمامه : «هكذا يُصنع للرجل الذي يُسرّ الملك بأن يُكرمه» .

«وَقَصَّ هامان على زِيرش زوجته ، إلخ»⁽¹⁾ .

لم يتلقَ هامان سوى تعزية يسيرة من خواصّه ، وقالت زوجته : «إنك تسقط سقوطاً ، لأن من حاولوا إحراق حنّياه وميشائيل وعزّرياه في الأتون المُستعر هلكوا أنفسهم في اللهب ، فحذار إنك لساقطٌ قدام هذا اليهودي سقوطاً» .

ولما رأى عبيد الملك أن هامان راح يفقد مكانته ، بدأوا هم الآخرون ينقلبون عليه . وأخطر حربونه **חַרְבוֹנָה** الملك بأن هامان بيّت مؤامرات على حياته هو شخصياً . فقال هذا المتملّق : «إن كنت لا تصدّقني فأرسل إلى بيته ، وفيه ستعثر على مشنقة قائمة ارتفاعها خمسون ذراعاً ، نصبها مُرْدَخَاي ، لأنه تكلم بالخير نحوك وأنقذ حياتك» .

فقال الملك لمُردخاي : «اذهب فأحضر عدوك هامان وعلّقه على المشنقة ، وافعل به ما يحلو لك» . فترامى هامان على مُردخاي ورجاه أن يتمّ الإجهاز على حياته بالسيف ، غير أن مُردخاي لم يُصخ إليه سمعاً . وقال هذا الأخير : «مَنْ حَفَرَ لامرئ حُفرةً حُقّ عليه أن يقع فيها . ومَنْ دحرج حجراً على امرئ ، فعليه ألا يتشكّى إن انقلب الحجر عليه فهَصَره»⁽²⁾ .

(1) مجلّت إستير - 6 - 7 - 8 .

(2) من الضّرورة بمكان متابعة هذا النصّ بالقصة الأصلية في مجلّت إستير من أسفار الكتويم اليهودية ، بغية ملاحظة آية تطوّر نسيج القصة واستجازة قولبتها توفيقاً .

وتمّ تحرير رسالة تحمل ختم الملك ، بُغية إبطال الأمر الصادر مُسبقاً ضدّ اليهود⁽¹⁾ :

«إلى كل المرازبة والولاية والأهلين في جميع بلدان مملكتنا ، سلام . إن حكومتنا لا يمكن أن تزدهر ما لم يتم توحيد شعوبها ، ولذا فنريد أن نراكم جميعاً تعيشون بوئام أخوي . ليتعامل كل شعوب بلدان مملكتنا سواسية كأمة واحدة ، وليضمروا المودة والإحسان للأمم الأخرى والأديان الأخرى أجمع ، وليكرموا جميع ممالك الأرض المحبّة للسلام . وإن من يعمد إلى تضليل الملك بإخباريات شريرة تتعلق بأي شعب من شعوبنا ، ويعمل على استصدار الإذن بإبادة أشخاص مسلمين ومطيعين للقانون ، فهو مستحقّ للموت ، وسيلقاه حتماً . فليهلك مثل هؤلاء ، وليعيش الباقون في وئام تحت ميثاق سلم لا تنفصم عُراه ، مضاعف المتانة لا يدبّ إليه وهن ولا كلال . ولا يجوزنّ السّماح بإهانة أي شعب .

«أما إستير فهي إنسانة صالحة وعالية الشأن ، وهي ملكتنا ، ومردّخاي هو أحكم أهل عصره ، بريء من الذّنوب هو وشعبه على حدّ سواء . ومن خلال مشورة هامان ابن همّداتا ، كان صدر مرسومنا السّابق ، وهو الآن لاغ وباطل . وعلاوة على ذلك ، فنحن نرسم بأن لليهود الحقّ في أن يقوموا ويحموا أنفسهم ، ويثأروا لأنفسهم ممّن يرفع في وجههم يداً للشرّ .

«إن خالق السّموات والأرض قد أنزل هذه الكلمات على قلوبنا وأفواهنا ، وعلى ذلك نُصدرها ونرسمُ بها بحسب دساتير فارس ومادي» .

* * *

(1) قابل ذلك على الأصحاح الثامن من مجلّت إستير .

الفصل الخامس الملك شلومو الحكيم

«أرأيتَ الرجل الذي يُجدُّ في عمله ؟ إنه أمام الملوك يقف ، ولا يقف أمام
الضعيفين» (سفر الأمثال - 22 : 29) .

חזית איש מהיר במלאכתו לפני מלכים יתיצב
בלתי יתיצב לפני חשכים:

في هذه الآية يشير شلومو للسلامة إلى نفسه . فقد بنى هيكل الرب المقدس
في سبعة أعوام ، بينما استغرق أربعة عشر عاماً في تشييد قصره . لكن هذا ليس
بسبب أن قصره كان أكثر نيافة أو أرفع شأنًا في ريازته من الهيكل ، بل لأنه كان
مُجددًا أكثر في عمله على إقامة بيت الله ، بينما ترك بناء بيته لما يُتاح له من الوقت
ومن الظروف .

ثمة أربع حالات مُقارنة ما بين الآباء والأبناء يمكن تدوينها :

أولاً : رجل صالح يخلف ابناً صالحاً .

ثانياً : رجل خبيث يخلف ابناً خبيثاً .

ثالثاً : رجل خبيث يخلف ابناً صالحاً .

رابعاً : رجل صالح يخلف ابناً خبيثاً .

وحول كلٍّ من هذه النماذج بوسعنا أن نجد دليلاً من الكتاب المقدس ،
وعلى كل واحد منها يمكن أن نضع مثلاً وقصة مأثورة .

فحول الأب الصالح والابن الصالح ، نجد الآية التالية (سفر المزامير 45 :

17) : «عوضاً عن آبائك يكون بنوك» . ويمكن لنا أن نضيف مثال شجرة التين
الطيبة التي طرحت ثماراً لذيذة .

وحول الأب الخبيث والابن الخبيث لدينا في سفر العدد 32 : 14 : «فهو ذا أنتم قد قُمتُم عوضاً عن آبائكم تربية أناسٍ خُطاة» .

وثمة مثل قديم يقول : «الخبيث لا يخلف إلا خبيثاً» ، وكذلك تنطبق عليه القصة الماثورة عن الحية التي تلد أفعواناً .

وفي النموذج الثالث ، يخلف الأب الخبيث ابناً صالحاً ، كما هو مكتوب في الكتاب المقدس : «عوضاً عن الشوك ينبت سرو»⁽¹⁾ . وإلى ذلك يمكن أن نضيف القصة الماثورة عن الورد التي تفتح براعمها على شجيرة التوت البري .

وأخيراً ، الأب الصالح ذو الابن الخبيث ، كما هو مكتوب : «فِعِوَضَ الحنطة لينبت شوك» (سفر أيوب 31 : 40) . ولدينا كذلك القصة الماثورة عن شجرة الدرّاق البهية التي أنبتت ثماراً مرّة .

أما شلومو⁽²⁾ فكان ملكاً ابن ملك ، ابن حكيم لأب حكيم ، ولد صالح لأب صالح . وكل أحداث حياة الملك داود وجميع مزاياه ، لها ما يماثلها في حياة شلومو .

فلقد حكم داود 777 أربعين عاماً ، كما هو مكتوب : «والزّمان الذي ملك فيه داود على يسرائيل أربعون سنة»⁽³⁾ . أما عن شلومو فمكتوب : «وملك شلومو في يروشلايم على يسرائيل كلّها أربعين سنة» . وكان داود يعبر عن نفسه عن طريق «الكلام» ، كما هو مكتوب : «وهذا كان آخر كلام داود» . فكذلك كان شلومو يعبر عن نفسه بواسطة «الكلام» : «كلام قُهِلِت (الجامعة ، أي شلومو) ابن داود» (سفر الجامعة - 1 : 1) .

قال داود : «كل شيء باطل» ، كما هو مكتوب : «إنّما باطلاً يضحجون» (سفر المزامير - 39 : 7) . فاستخدم شلومو في كلامه العبارة ذاتها «الباطل» : «باطل الأباطيل ، قال قُهِلِت (الجامعة)» (سفر الجامعة - 1 : 2) .

(1) سفر يشعيا - 55 : 13 .

(2) نذكر مجدداً أننا أثّرنا رسم أسماء شخصيات التلمود بصورتها العبرية كما وردت فيه .

(3) سفر أخبار الأيام الأول - 29 : 27 .

وكتب داود أسفاراً ، هي تحديداً أسفار المزامير الخمسة ، وكذلك كتب شلومو ثلاثة أسفار : سفر الأمثال ، وسفر الجامعة⁽¹⁾ ، ونشيد شلومو .

وألف داود أناشيد : «وكلم داود الرب بكلام هذا التشيد» (سفر صموئيل الثاني - 22 : 1) . فذلك ألف شلومو نشيداً كما يرد في مطلعته : «نشيد الأناشيد الذي لشلومو»⁽²⁾ .

وكان هو الملك الحكيم الذي وردت الإشارة إليه في سفر الأمثال 16 : 23 : «قلب الحكيم يُرشد فمه ويزيد شفثيه علماً» . بمعنى أن قلب الحكيم مليء بالمعرفة والفهم ، لكن ذلك كله يخرج إلى الناس عن طريق الكلام الخارج من فمه . ومن خلال نُطق شفثيه لأفكار عقله (أو قلبه) فهو يزيد في معرفة الناس . فإن كان لامرئ ما دُرر وجواهر نفيسة ، وخبأها عن الناظرين ، لما التفت أحد إلى قيمتها ، لكنه إن أظهرها للناس فإن شأنها يشتهر ، وتزداد متعة تملكه لها .

فلدى تطبيق هذا التشبيه على وضع شلومو ، نرى أن الحكمة عندما كانت حبيسة في صدره لم يدرك قيمتها أحد ، لكنه عندما قدّم للملا كتبه الثلاثة⁽³⁾ ، اطلع الناس على قدراته العظيمة . «وكلام شفثيه يزيد في معرفة شعبه» ، وكان صيته رفيعاً إلى حد أن أي من واجه شكاً في تفسير فقرة توراتية كان يقصد الملك من أجل التفسير الصحيح .

ولقد رفع الملك شلومو مستوى التربية ليس على مستوى المعارف المقدسة فحسب ، فلقد تفوق ودرّس في علوم الفلسفة الطبيعية ، والجسم البشري ، وعلم النبات ، والزراعة ، والرياضيات بكافة فروعها ، وعلم الفلك ، والكيمياء ،

(1) اسم هذا السفر في الكتاب اليهودي المقدس (تنخ) : سفر قَهْلِت 760 קהלות ، تُرجم في النسخ المعربة إلى عبارة : سفر الجامعة ، وراح التراجمة يتعجبون من هوية كاتب السفر الذي يسمي نفسه «قَهْلِت بن داود» ، ويعربون عن غموض التسمية وصاحبها . قلنا : بكل بساطة ، ليس «قَهْلِت» هذا سوى لقب لشلومو بن داود نفسه ، ومعناه في العبرية : الرابطة والجامعة ، كناية تعني هنا : لسان حال الجماعة ، الناطق باسمها .

(2) هو السفر الرابع من أسفار الكتوبيم .

(3) هذا الأمر جديد على دارسي الثقافة الإسلامية ، فمن كان يدري أن للملك النبي سليمان الحكيم ابن داود ~~ثلاثة~~ كتب : الأمثال - قَهْلِت (الجامعة) - نشيد الأناشيد ؟

وبالإجمال في جميع الدراسات النَّافعة . ودرّس كذلك فنون البلاغة وقواعد الشعر . كما كان مُردّداً في فن النّظم اللفظي من جناس وحساب جُمَل .
«وعدا عن كون قُهِلتُ حكيماً ، كان دائماً يَعْلَمُ الشعب»⁽¹⁾ ، «יתר שהיה קהלת חכם עוד למודדות אתהעם .

فإذا كان ما يقوله الآخرون يجتذب اهتمام النَّاس ، فكم كانوا بالأحرى يُنصتون لشُلوמו ، وكم كانوا يستوعبون كلامه بسهولة أكبر !

يمكن لنا أن نصوّر أسلوبه في التدريس بهذه التشبيه التالي : كان ثَمّة سلّة بغير عروتين ، مليئة بأحسن الثمار ، غير أن صاحبها ما كان قادراً على حملها إلى بيته من جرّاء تعذّر حملها ، إلى أن تقدّم رجل حكيم عندما رأى المعضلة فجعل للسلّة مقبضين ، فصار يمكن حملها بسهولة بالغة . فهكذا كان شُلوמו يميّط المصاعب عن طريق التلاميذ .

وكذلك قام الرَّابّي هُونًا بتصوير الأمر بشكل آخر : «كان هناك فيما مضى بئر ماء فيه أعذب الماء وأنقاه ، غير أنه كان عميقاً للغاية بحيث أن النَّاس كانوا غير قادرين على بلوغ الماء ، إلى أن تقدّم رجل ذو حكمة فأخذ دلوّاً وربط به جبلاً تلو الآخر إلى أن صار الجميع بما يكفي لبلوغ الماء . فهكذا كان شأن تدريس شُلوמו أيضاً . فإن الثُّوراه بئر للحقيقة ، غير أن تعاليمه أعمق من فهم البعض . بيد أن شُلومو راح يطرح القصص والأمثال الموافقة لاستيعاب الجميع ، ومن خلالها أمكن الحصول على معرفة يسيرة لقوانين الشريعة» .

وروى الرَّابّي شمعون بن حَلَفْتا القصة المأثورة التالية : «كان لبعض الملوك وزير ، وكان الملك متعلّقاً به كثيراً ويطيّب له كثيراً أن يعامله بالتكريم . ويوماً ما قال لوزيره الأثير : «دُونك ، فلتمنّ أمنيّة ، وكل ما هو بوسعي فأنا لك باذله» . ففكّر هذا الوزير : «إن طلبتُ من الملك ذهباً أو فضةً أو جواهر ، أعطانيها كلّها ، وحتى إن رغبتُ بتكريم أرفع أو منصب أكثر سموّاً نلتُهُ دونما تشريب ، لكنني أطلب منه يد ابنته ، فإن مَنَحني هذا السُّؤل حُزّتُ الباقي جميعه» .

(1) سفر الجامعة - 12 : 9 .

فلما تراءى الرب لشلومو في جبعون ١١٧١ ، وقال له في حلمه : «اسأل ماذا أعطيك؟»⁽¹⁾ ، فكّر شلومو : «إن طلبتُ ذهباً أو فضةً أو جواهر أعطانيها الرب ، لذا سأطلب الحكمة ، فإن أوتيها حُزتُ كل شيء دونها» . ولذلك أجاب : «أعطِ عبدك قلباً فهِمماً» .

فعندها قال الرب : «من أجل أنك سألتَ لنفسك حكمةً ، ولم تسأل غنىً أو سلطاناً على مُبغضيك في حياتك ، يكون لك الحكمة والمعرفة ، ومن خلالهما تحوز الغنى والسلطان»⁽²⁾ .

«فاستيقظ شلومو ، وإذا هو حُلُمٌ»⁽³⁾ ، «١٧٢ سلמה وحنة حلوم . فراح يتلفت في الحقول ، فسمع أصوات البهائم : نهيق الحمار ، وزئير الأسد ، ونباح الكلب ، وصياح الديك ، فإذا به يفهم كل ما يقول واحدها للآخر .

ولو أن ثوراً ذُبِحَ وقُصِّلَ ، كان له إقامة من جديد ، بشرط ألا تكون الأوتار قد قُطعت ، لكن إن تم فصلها تلزم الأريطة لإيثاق الجسد ببعضه . وطالما حافظ شلومو على نقائه من الذنوب كانت دعواته تُستجاب بما يحب ويرضى ، أما عندما كان يُجانب سبيل الحق ويعمل الشرّ ، فإن الرب كان يقول له : «لا أنزع عنك الملك في أيامك من أجل أبيك داود عبدي» .

قال شلومو : «باطل الأباطيل ، الكل باطل كالظل» . ظلٌّ من أي نوع ؟ إن ظلّ البُرج أو الشجرة يُمكث ظلاً لفترة من الوقت ، ثم يتلاشى ، غير أن ظلّ الطير يطير فلا يبقى طيرٌ ولا ظلٌّ⁽⁴⁾ . ولقد قال داود : «أيامنا كظلّ عابر» ، وقال الرّابي هُونا : «أيامنا تجوز منا بسرعة ، كظلّ طير يطير» .

(1) سفر أخبار الأيام الثاني - 1 : 7 .

(2) سفر أخبار الأيام الثاني 1 : 11-12 . «رأس الحكمة مخافة الرب» (مزامير 111 : 10) . وفي القرآن الكريم : «وَمَنْ يُوْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا» (البقرة - 269) .

(3) سفر الملوك الأول - 3 : 15 .

(4) من يقرأ سفر الجامعة وما به من حكم ورؤى فلسفية ، يجد فيه انعكاساً جلياً لفكر فلسفي غنوصي . هذا الفكر نجد له مضارعة عرفانياً فيما بعد في تراثنا الصوفي الإسلامي ، ومن الممكن عقد مقارنة في التشابه بين الأسلوب البلاغي لهذا السفر القديم ، ورائعة الإمام المتصوف محمد بن عبد الجبار التّقي : «المواقف والمخاطبات» .

وبعبارة «باطل» يعبر شلومو عن المراحل السبعة من حياة الإنسان . فالطفل يشبهه بالملك ، الذي يستقل مركبته الصغيرة ، ويتلقى من الجميع القبل والإعجاب والمديح . أما الطفل في سنته الثالثة أو الرابعة فيشبهه بالخنزير ، المغرم بالأقذار والذي يمرغ نفسه في طعامه . والولد ابن العاشرة متولع بالأردية ، أما الشاب فيتأق في شكله ويبحث عن زوجة . والرجل المتزوج كالكلب الباحث عن قوته وقوت عياله ، أما العجوز فيشبهه بالقرد .

«وأعطى الله شلومو حكمة»⁽¹⁾ ، ויתן אלהים חכמה לשלמה .

عندما كان شلومو عازماً على بناء الهيكل ، طلب إلى ملك مصر مده بالرجال لمؤازرته في العمل . فبعد أن استشار قرعوه عرافيه ، انتقى الرجال الذين يقع مמתهم في غضون السنة ذاتها . فلما بلغوا يروشلايم ردهم الملك الحكيم على الفور ، وأرسل مع كل منهم كفنًا ، وأوصاهم أن يقولوا لسيدهم : «إن عجزت مصر عن توفير الأكفان لموتها ، وترسلهم لهذا الغرض إليّ ، فها هم أولاء ، الرجال وأكفانهم معاً ، خذهم وادفن موتاك» .

كان شلومو أكثر حكمة من كل الناس ، وأكثر حتى من آدام ذاته الذي سمى حيوانات العالم بأسره ، وحتى على نفسه أطلق اسماً قائلاً : «من تُراب الأرض اتُخذتُ ، فإذاً يكون اسمي آدام DTA» . قال الرابي تنحوم : «أين هي حكمتك وفهمك ، أيها الملك شلومو ؟ إن كلامك لا يناقض نفسه فحسب ، بل ويناقض أيضاً كلام داود أبيك» . إذ قال : «ليس الأموات يُسبّحون الربّ» (المزامير - 115 : 17) ، أما أنت فقلت : «فغبطتُ أنا الأموات الذين قد ماتوا منذ زمان ، أكثر من الأحياء الذين هم عائشون بعد» (سفر الجامعة - 4 : 2) . وأنت أيضاً قلت : «فإن الكلب الحيّ خيرٌ من الأسد الميت» (سفر الجامعة - 9 : 4) .

غير أن هذه التناقضات البادية من الممكن تفسيرها بيسر ، قال داود : «ليس الأموات يُسبّحون الربّ» ، بمعنى أننا علينا أن نتدارس شريعة الله إبان حياتنا ، لأن ذلك مُحال بعد انتهائها . وقال شلومو : «فغبطتُ أنا الأموات الذين قد ماتوا منذ

(1) سفر الملوك الأول - 5 : 9 في التوراه المسوراتية ، وفي الترجمة السبعينية : 4 : 29 .

زمان» فعندما أذنب بنو إسرائيل في البرية ، دعا موسى من أجلهم ، فلم يُستجب دعاؤه ، لكنه لما قال : «اذكر أبرهَام ويصْحاق ويسرَّيِّل عبيدك» ، إذا به يلاقي قبولاً فورياً . ولذلك ألم يكن كلام شلومو طيباً عندما قال : «فغبطتُ أنا الأموات الذين قد ماتوا منذ زمان» ؟ فهالكٌ مثلاً آخر : قد يسنَّ ملكٌ شرائع ، لكن عديداً من أتباعه قد يهملونها . وأحياناً فإن هذه الشرائع حتى وإن تمَّ تطبيقها بصدق خلال حياة مَنْ سنَّها ، لربَّما تضحى لاغية أو تصير قديمة بعد موته . أمَّا موسى فقد سنَّ عديداً من الشرائع الصَّارمة ، التي طبَّقت عبر الأجيال كلَّها . لذلك ، أصاب شلومو عندما قال : «فغبطتُ أنا الأموات» .

ولقد شرح الرَّابي يهودا ، باسم الرَّاب ، هذه الآية بشكل أتمَّ فقال : «ما هو معنى الآية التالية : «اصنع معي آيةً للخير فيرى ذلك مُبغضِي فيخزوا» (المزامير - 86 : 17) . وقال داوِد لله إثر خطيئته مع بَشَّع⁽¹⁾ : «يا مالِك الكون ، اغفر لي خطيئتي» . فأجاب الرَّبُّ : «قد غفرتُ لك» . ثم قال داوِد : «أعطني آيةً في حياتي» ، غير أن الله قال : «لا بحياتك ، بل في حياة شلومو ابنك أعطيها» . لذلك ، عندما كرَّس شلومو الهيكل ، رغم أنه دعا بتقوى تامَّة ، لم يُستجب له حتى قال : «أيها الرَّبُّ الإله ، لا تردَّ وجه مسيحك ! اذكر مرَّاحم داوِد عبدك» (سفر أخبار الأيام الثاني - 6 : 42) . وعندها ، استجيب له فوراً ، لأنه في الآية التالية نقرأ : «ولما انتهى شلومو من الصَّلَاة نزلت نارٌ من السماء وأكلت المحرقة والذَّبائح ، وملاً مجدُّ الرَّبِّ البيت» . وبعد ذلك أخزي مُبغضو داوِد جميعهم ، بأن يسرَّيِّل كلَّها علمت بأن الله قد غفر لداوِد ذنبه . أو كم يتكلَّم شلومو إذاً بخير عندما قال : «فغبطتُ أنا الأموات» ؟ ولأجل هذا السبب ، نقرأ في تَمَّة الفصل : «وفي اليوم السابع والعشرين من الشهر السابع ، صرَّف الشعب إلى خيامهم فرحين وطيبين القلوب ، لأجل الخير الذي عمله الرَّبُّ لداوِد وشلومو وليسرَّيِّل شعبه»⁽²⁾ .

(1) هي بَشَّع بنت إلبعام زوجة أوريا الحثي ، التي تزوجها الملك داوِد بعد أن دفع زوجها إلى الموت في الحرب ، فأنجبت له ابنه شلومو . انظر سفر صموئيل الثاني - 11 : 3 .

(2) سفر أخبار الأيام الثاني - 7 : 10 .

قال شلومو : «فإن الكلب الحيّ خيرٌ من الأسد الميت» .

في شرح هذه الآية ، قال الرّابي يهوداه باسم الرّاب : «ما هو معنى الآية : «عرّفني يا ربّ نهايتي ومقدار أيامي كم هي ، فأعرف متى أنا زائل»» (سفر المزامير - 39 : 5) .

«قال داود لله : «عرّفني يا ربّ نهايتي» ، فأجاب الله : «قد حكمتُ لكلّ امرئ بأن تكون نهايته طيّ الكتمان في مُستقبل الأيام» . فقال داود : «فما مقدار أيامي ؟» . أجب الله مجدّداً : «ليس لامرئ أن يعلم مقدار أيامه» . تابع داود : «أحب أن أعرف متى أنا زائل» ، فأجاب الله : «تموت في يوم شَبّات» .

«فتوسّل داود قائلاً : «دعني أموت في اليوم التالي» ، غير أن الله أجب : «لا ، فعندها تؤول المملكة لشلومو ، ولا ينبغي لحكم امرئ أن يأخذ من حكم امرئ آخر ولو بمقدار شعرة» . قال داود : «فدعني أموت إذأ في اليوم السّابق ، لأن يوماً واحداً في دار الحقّ لديك خيرٌ من ألف يوم في أي مكان» ، فقال الله : «يومٌ واحدٌ تمضيه في دراسة شريعتي خيرٌ وأكثر قبولاً من ألف قُربان محرقة يُقدّمها شلومو ابنك» .

«كان من عادة داود أن يمضي كل شَبّات في دراسة التّوراه (الشّريعة) وتعاليمها ، فكان مُشغلاً على هذا النّحو في يوم شَبّات الذي كان مُقدراً له أن يكون الأخير . وكان خلف قصر الملك بُستان ، فسمع داود جلبة فيه ، فمشى ليستبين سببها . وما كاد يلج أرض البستان حتى وقع إلى الأرض ميتاً .

«كان سبب الجلبة في البُستان هو نُباح كلاب الملك ، التي لم تنل في ذلك اليوم طعامها . فأرسل شلومو رسالة إلى مَجْمع الرّبانين يقول فيها : «أبي يتمدّد ميتاً في بُستانه ، فهل يجوز رفع جُثمانه في يوم شَبّات ؟ وكلاب أبي تتوسّل طلباً لطعامها ، فهل من اللائق تقطيع اللّحم لها اليوم ؟» فورد الردّ التالي من المجمع : «جُثمان أهلك لا يجوز أن يُرفع اليوم ، لكن فلتقدّم للكلاب لحمها» . فلذلك قال شلومو : «الكلب الحيّ خيرٌ من الأسد الميت» ، فشبهه على وجه الصّواب ابن يشاي (داود) بملك الغاب» .

كان شلومو المُتَّجِبَ من قِبَلِ الرَّبِّ ، الذي أطلق عليه ، على لسان النبي ناتان : «يديدياه» (חִיבִיָּה (حبيب الله) . وسُمِّي «شلومو» שלמה (سَلَام) لأن في أيامه عَمَّ السَّلَام ، كما هو مكتوب : «وسكَن يهوداه ويسرَّئيل آمنين» (سفر الملوك الأول - 5 : 5)⁽¹⁾ . كما سُمِّي أيضاً «إيتيئيل» אֵיתִיֵּאל (الله معي) لأن الله كان في عونه .

ولما جلس شلومو على عرش أبيه داود ، خافته أمم الأرض كلها ، وأصغت أمم الأرض كلها بلهفة إلى كلامه الحكيم .

بعد ذلك ، عُمِلَ لشلومو عَرَشٌ خاص على يد حيرام ، وهو ابن أرملة من صيدا . كان هذا العرش مكسوًّا بذهب أوفير ، ومطعمًا بجميع أنواع الأحجار الكريمة والتقيسة . وكان يُوصَلُ إلى كرسي العرش بست درجات عريضة . وكان يحرس الجانب الأيمن من الدرجة الأولى ثور مصنوع من الذهب الخالص ، والجانب الأيسر أسد من المعدن الثمين ذاته . وعلى يمين الدرجة الثانية يقوم دبّ من الذهب أيضاً ، وعلى اليسار حَمَلٌ ، بما يرمز إلى عيش الأعداء معاً بسلام . وعلى يمين الدرجة الثالثة وُضِعَ جَمَلٌ ذهبي ، وعلى اليسار نسر . وعلى يمين الدرجة الرابعة كان هناك أيضاً نسر ناشر جناحيه ، وعلى اليسار طائر جارح وكل ذلك من المعدن الثمين ذاته . وعلى الدرجة الخامسة إلى جهة اليمين قطّ ذهبي يجثم في مكانه ، وإلى جهة اليسار دجاجة . وعلى يمين الدرجة السادسة صورة لصقر ، وإلى جهة اليسار حمامة ، وعلى أعلى الدرجة حمامة تقبض على صقر بمخالبها . ولقد تمّ تشكيل هذه الحيوانات لرمز إلى العهد الذي تتحد فيه الكائنات المتغايرة الطباع في سلام ووثام ، كما هو مكتوب في سفر يشعيا (11 : 6) : «يسكن الذئب مع الخروف» .

وبأعلى العرش علّق شمعدان من الذهب ذو سبع شُعَب ، مزين بالورود والحلي والطاسات والملاقط ، وعلى الشُعَب السبع نُقِشت أسماء الأسلاف الكهنة السبعة : آدام ، نُوح ، شيم ، أبرهَام ، يصحاق ، يعقوب ، أيوب .

(1) هذا في النسخة المسوراتية العبرانية ، أما في الترجمة السبعينية فموضعه في 4 : 25 .

وعلى النسق الثاني من شُعب الشمعدان نُقشت أسماء السبعة الصّالحين في الدّنيا : ليوي ، قهات ، عمّرام ، موشيه ، أهرون ، إداد ، ميداد⁽¹⁾ . وفوق ذلك كله تدلّى إناء ذهبي مملوء بزيت الزيتون الصّافي ، نُقشت عليه أسماء : عيلي للاي كاهن الرّب الأكبر ، وابنيه حافني חפני وفتحاس פנחס⁽²⁾ ، وعلى الجانب الآخر أسما ابني أهرون : ناداب נדב وأيهو אביהוא⁽³⁾ .

وإلى الجهة اليمنى من العرش وُضع كرسيّان ، أحدهما لكاهن الرّب الأكبر والآخر لنائب الكاهن الأكبر . وإلى الجهة اليسرى ، من الأعلى إلى حدّ الأرض واحد وسبعون كرسيّاً جعلت مقاعد لأعضاء السّنهدين .
ولقد جعل العرش على دواليب ، بحيث يمكن نقله يُسر حيثما شاء له الملك أن يكون .

وأعطى الرّب شلومو القُدرة على فهم طبيعة وخصائص الأعشاب البرية وأشجار الأجرّاج ، كما هو مكتوب : «وتكلّم عن الأشجار ، من الأرز الذي في بُنان إلى الزّوفا الثّابت في الحائط . وتكلّم عن البهائم وعن الطير ، وعن الدّيبس وعن السّمك» (سفر الملوك الأول - 5 : 13)⁽⁴⁾ .

وقيل إن شلومو حكم العالم بأسره ، وُستدلّ على ذلك بهذه الآية : «وكان شلومو مُتسلّطاً على جميع الممالك . . . وكانوا يقدّمون الهدايا ويخدمون شلومو كل أيام حياته» (سفر الملوك الأول - 5 : 1)⁽⁵⁾ .

وراحت جميع الممالك تهنّئ شلومو كخير خَلْف لداود أبيه ، الذي طبّقت شهرته الأمم ، كلّها ما خلا واحدة هي مملكة شبا ، التي عاصمتها قطوره .

(1) هذه أسماء سلسلة نسب موشيه وأخيه أهرون ابني عمّرام بن قهات بن ليوي بن يعقوب بن يصحاق بن أبرهام . أما إداد وميداد فهما رجلان كانا يتبنّان أثناء تيه سيناء . انظر حول ذلك سفر العدد - 11 : 26 .

(2) انظر سفر صموئيل الأول - 1 : 3 .

(3) انظر سفر الخروج - 6 : 23 .

(4) هذا في النسخة المسورانية من التّوراه ، وهو في السبعينية : 4 : 33 .

(5) هذا في النسخة المسورانية من التّوراه ، وهو في السبعينية : 4 : 21 .

فأرسل شلومو إلى هذه المملكة رسالة يقول فيها :

«مني أنا ، شلومو الملك ، سلامٌ لك ولحكومتك . ليكن معلوماً لديك أن الله القدير قد مكّنتني من حكم العالم بأسره ، بما فيه من ممالك بالشّمال والجنوب والشرق والغرب . فها هم قد جاؤوني مهتئين ، كلهم ما عداك أنت .

«فأرجو منك أن تأتي أنت أيضاً ، ولتخضعي لسُلطاني فينالكَ مني تكريمٌ عظيم . لكن إن تمنّعتِ تراني أفرض عليك الإقرار بسُلطاني بالقوّة .

«إليك يا ملكة شبا מלכות שבא تُوجّه هذه الرّسالة بسلام ، مني أنا الملك شلومو بن داود» .

فلما تلقّت ملكة شبا⁽¹⁾ هذه الرّسالة ، أرسلت متعجّلة في طلب أعيانها ومُستشاريها لطلب مشورتهم حول كيفية الردّ اللازم .

تكلّم هؤلاء بنوع من الاستخفاف حول الرّسالة ومَن أرسلها ، غير أن الملكة لم تكثرث لكلامهم ، بل أرسلت مركباً يحمل لشلومو هدايا كثيرة تتضمّن عدّة معادن ، وجواهر وأحجاراً كريمة . واستغرقت الرحلة مدّة عامين حتى وصلت هذه الهدايا إلى يروشلّايم ، وذكرت الملكة في رسالة أوكلتها إلى مقدّم الركب : «بعد أن تسلّم رسالتي ، آتي إليك بنفسي» . وبعد عامين من ذلك بلغت ملكة شبا يروشلّايم .

فلما سمع شلومو بأن الملكة كانت قادمة ، أوفد بنيياهو بن يهوياهو قائد جيشه ليلاقياها . فلما رآته الملكة ظنّت أنه الملك ، فترجّلت من عربتها .

فسأل بنيياهو : «لماذا تترجّلين من عربتك ؟» ، فأجابت : «ألست صاحب الجلالة الملك ؟» .

فقال بنيياهو : «لست سوى مقدّم من رجاله» .

(1) نعرفها في تراثنا الإسلامي ببليقيس ملكة سبّا ، واسم «بليقيس» لا يرد أصلاً في سفر الملوك ولا حتى في التلمود . وفي القرآن الكريم (النمل - 22) لا إشارة له ، بل مصدره التراث الشفاهي لقصص الأنبياء ، المستند إلى الإسرائيليات والأساطير المحليّة .

فالتفت الملكة إلى وصفاتها وقالت لهنّ : «إن كان هذا مجرد واحد من المقدمين ، وهو بهذه الهيئة الثيّلة والفارحة ، فكم بالأحرى يكون عظيماً سيده الملك !» .

واصطحب بنياها هو بن يهويادها ملكة شبا إلى قصر الملك . وكان الملك تهيأ لاستقبال ضيفته في قاعة كانت جدرانها وأرضها منزلة بالزجاج ، فخذعت الملكة في البداية بمنظرها وتوهّمت أن الملك إنما كان جالساً في الماء⁽¹⁾ .

ثم لما اختبرت الملكة حكمة شلومو⁽²⁾ ، وخبرت عظمته ، قالت :

«لم أصدق الأخبار حتى جئتُ وأبصرت عيناى ، فهو ذا النصف لم أخبر به . طوبى لرجالك وطوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائماً السامعين حكمتك . ليكن مباركاً الربّ إلهك ، الذي جعلك على كرسي يسرّئيل لتجري حكماً وبرا⁽³⁾» .

فلما تناهت كلمات ملكة شبا إلى أسماع الممالك الأخرى ، تعاضمت هيئة شلومو في نفوس أفرادها ، وأضحى أعظم وأرفع شأناً من ملوك الأرض جميعاً بحكمته وغناه .

وكان مولد شلومو في سنة 2912 للخلقة ، وقد حكم على يسرّئيل أربعين سنة . هذا ومضت ما بين عهد حكم شلومو وزمن خراب الهيكل أربع مئة وثلاث وثلاثون سنة .

* * *

(1) من المهم جداً عقد دراسة مقارنة نقدية بين التراث الروائي اليهودي (في أجدها التلمود والمدراش) ، وبين سير الأقدمين وقصص الأنبياء في تراثنا الإسلامي .
(2) امتحنته بمسائل ، كما هو مذكور في سفر الملوك الأول ، الأصحاح العاشر .
(3) انظر سفر الملوك الأول - 10 : 7 .

القسم الثالث تعاليم الحاخامات ونبذ من تراجم حياتهم

الفصل الأول

الرابي يهوداه هنأسي «الرئيس»
רבי יהודה בן שמעון (הנשיא)

كان الرابي يهوداه المقدس - المعروف أحياناً باسم «الرابي» اختصاراً لعلو شأنه - قد تلقى تعليمه في مجامع دينية عدة ومن جميع مصادر المعرفة المتنوعة المتاحة للطالب ، منذ نعومة أظفاره . وكان الرجل ذا ثروة طائلة ، فلما ترقى إلى شرافة منصب الرئيس أو الكاهن ، أنفق طرفاً كبيراً من ثروته على الفقراء وإعالتهم . وكانت مرجعيته بين أبناء عصره تفوق كل من سبقه ، فحاز على احترامهم ومحبتهم معاً ، وكان يُقال إنه لم يجتمع لأحد منذ عصر موشيه النبي ما اجتمع له من معارف غزيرة وعميقة وسلطة مرجعية وسمو مكانة . ولقد كان أيضاً ، كما كان موشيه ، يتحلى بالتواضع ويتجنب الأبهة ومظاهر السلطة .

وكان يجعل كرسيه بالقرب من باب مجلسه ، لكي يوقر على مستمعيه أمر القيام له عندما يربينهم ، وهو نوع من تكريم كان يمارسه غيره من الكهنة . ومن خلال نفوذه لدى أنطونيوس ، كان يُسمح لشعبه بدراسة الشريعة علناً ، كما حازوا جملة من الامتيازات كانوا في السابق محرومين منها ، وحصانة من العديد من إجراءات القمع التي كانوا يعانون منها في السابق . وفي خلال المدّة التي شغل بها منصبه الرفيع بالفضل وفيض العطاء ، قام بجمع شروحات الرّبانين السابقين وأطروحاتهم ، مما يؤلّف في يومنا الحاضر مجموعة «المشناه» בשנה .

يُحكى أن الإمبراطور أرسل مرةً للرّابي يهوداه جوهرة ألماس ثمينة ، طالباً منه عربون صداقة بالمقابل . فأرسل إليه الرّابي رُقعة «مِيزُوزاه» מִיזוּזָה⁽¹⁾ . فقال الإمبراطور : «يا صاحبي إن هديتك زهيدة القيمة بالقياس إلى العطية الثمينة التي أرسلتها إليك» .

أجاب الرّابي : «إن ثمةً فارقاً كبيراً ما بين هديتي وهديتك ، حيث أن ما أعطيتني إياه عليّ أن أحافظ عليه وأحترز لئلا يُسرق مني ، أما ما أرسلته إليك فهو يحافظ عليك ويحميك ، تماماً كما هو مكتوب : «إذا ذهبتَ تهديك ، إذا نمتَ تحرُسك»⁽²⁾ .» .

ورغب الرّابي يهوداه بأن يتزوَّج أرملة الرّابي إليعيزر ، فأرسل إليها رسولاً يحمل طلب الخطبة ، فكان جوابها له كما يلي : «أيجوز أن يُضحى الوعاء المخصوص من قبل بالشؤون المقدسة مُستعملاً الآن لأجل أمور أدنى اعتباراً؟» مُلمحةً إلى أن الرّابي إليعيزر بن شمعون كان أسمى شأنًا من الرّابي يهوداه . فكان لجوابها نفس فحوى المثل السائر : «أبحقّ للرّاعي تعليق أوانيه حيث يعلق صاحب البيت نفائسه؟» .

فلما تلقى الرّابي يهوداه هذا الجواب ، أرسل برسالة أخرى إليها يقول : «أصبت ، كان زوجك أكثر مني علماً ، غير أنني على الأقل أجاريه بالفضل» . أجابت الأرملة : «مازلنا مختلفين ، لا أدري إن كان زوجي أكثر علماً من الرّابي يهوداه ، لكنه كان يفوقه بالصلاح» .

ولكن هل كان الرّابي إليعيزر حقاً يفوق الرّابي يهوداه بعلمه ؟

جرت العادة في المدارس أن أهل العلم من مدرّسين وربّانيين كانوا يجلسون على كراسي مرتفعة ، بينما يقعد التلاميذ على مقاعد واطئة على الأرض . فلما كان الرّابي شمعون بن جَمَلِيئِيل والرّابي يهوشُوع بن قَرَحَا وبعض الرّبّانيين

(1) الميزوزاه هي رُقعة من الرّق تكتب عليها مقاطع من التّوراه (سفر التثنية 6 : 4-10 ؛ 11 : 13-22) ، وتوضع كحرز على ساكفة باب البيت ، تبعاً لإرشادات التّوراه .

(2) سفر الأمثال - 6 : 22 .

الآخرين المشهورين جالسين على الكراسي ، كان الرأبي إيعيزر بن شمعون والرأبي يهوداه جالسين قرب الأرض . فرغب الرأبي شمعون بن جَمَلِيثِيل ، وهو والد الرأبي يهوداه ، بأن يجعل لابنه سمة تميز ، فحثّ المدرّسين على رفعه إلى أحد الكراسي . ولما تمّ ذلك ، تكلم الرأبي يهوشوع قائلاً : «مَنْ كان له أبٌ يتكلّم عنه يحيا ، أما مَنْ لم يكن له فليفعل ما يوسعه ويموت» .

فلما سمع الرّبانيون هذا القول قاموا برفع الرأبي إيعيزر بن شمعون أيضاً ، غير أن الرأبي إيعيزر ألقى نفسه مُزدرى ومُهملأ ، لأن الكلام المذكور صدر قبل رفعه ، فقال : «هل الرأبي يهوداه خيرٌ مني ؟» .

ومنذ ذلك اليوم لم يشعر بأية مودة تجاه الرأبي يهوداه . وكان فيما سبق يساعد هذا الأخير في تحضير المسائل المطروحة أمام المدرسة ، لكنه الآن راح يستخفّ بأسئلة يهوداه قائلاً : «إنها لا تستحقّ عناء المناقشة» .

كانت هذه المعاملة شديدة العنت على مشاعر الرأبي يهوداه ، فاشتكى لأبيه أمر الإهانات التي كان يتعرّض لها . فقال هذا الأخير : «لا تبتئس يا بُنيّ ، ولا تغضبَنَّ من كلام إيعيزر . فهو أسد ابن أسد (رجل فائق العلم ابن رجل فائق العلم) ، بينما أنت أسد ابن ثعلب (أي أنك أنت عالم ، لكن أباك ليس بذاك) ، ولذا فهو خيرٌ منك» .

ولعل هذا هو السبب الذي دفع الرأبي يهوداه ليقول : «ظهر في هذه الدنيا ثلاثة رجال كانوا مثالاً للحلم والتواضع : أبي ، وأبناء بيتيرا ، ويُوناتان بن شاؤول» .

أما ابنا بيتيرا فقد تخلياً عن رئاسة الكنيسة الكبرى כנסת הגדולה «كنيسة هَجْدُولاه» لصالح هَلِيل لكونه رجلاً فائق العلم ، ولهذا تواضعا له . أما يُوناتان بن شاؤول فقال لداود : «أنت تحكم على يسرئيل وأنا أكون نائبك» ، فهذا وجه تواضعه . وكذلك الرأبي شمعون بن جَمَلِيثِيل ، إذ سمى نفسه ثعلباً .

هذا ولقد عانى الرأبي يهوداه للغاية من آلام الجسد ثلاثة عشر عاماً قبل موته ، ولما شعر بدنو نهايته دعا بأبنائه إليه وكلمهم بما يلي :

«أطيعوا كلام والدتكم يا أبنائي ، واذكروا تعاليم الله العليّ . وحافظوا على قنديل مُضاء في حجرتي ، واجعلوا يوسيف الأوفني وشمعون الإفرائمي ، خادمي الوفيين في حياتي ، يحضران كذلك مراسم موتي . أما الآن يا أبنائي ، فدعوني للمرة الأخيرة أرى حكماء يسرائيل» .

فلما جاء الحكماء ، بحسب طلبه ، قال : «لا تعملوا لي خُطباً أو تأييناً في المدن . بل افتحوا أبواب مدرستي ، وتابعوا مهامكم المقدّسة فيها ثلاثين يوماً بعد موتي . ورغم أن ابني شمعون رجل حكمة وفهم ، فأنا أرغب بأن يكون خليفتي ابني جَمليئيل . وليجلس حَيناه بن حاماه في الكرسي الثاني بعد الرئيس . وإني لمحزون لعدم قدرتي على دراسة شريعة الرّب بعد اليوم» .

وبعد ذلك ، رفع يديه إلى السّماء وقال :

«يا ربّ يا إله الكون ، أنت تعلم إن كنتُ عملتُ بإخلاص بهاتين اليدين من أجل مجدك ، لتحصيل العلم بشريعتك ! فليكن مقبولاً لديك يا مالك الكون أن أرقد الآن بسلام !» .

وفي يوم موت الرّابي ، أعلن الرّبانيّون عيداً ويوماً للصّلاة على روح رئيسهم المحبوب . وحرصوا كذلك على ألا يتسبّب نبأ موته بتعطيل عبادتهم ، فظلّوا يصلّون حتى أتتهم إشارة من بيت الرّابي ، فقد شعروا جميعهم بهدّة ، وكان طامة أصابتهم ، فكفّوا عن الصّلاة .

وتمّ دفن الرّابي يهوداه عشية يوم شبّات (السّبت المقدّس) ، فمات معه التّواضع ومخافة الله بين النّاس .

وقيل إن الرّابي كان لديه خادم أغنى من الإمبراطور⁽¹⁾ . ولقد حاز على ثروته من بيع فضلات إصطبلات الرّابي ، ممّا يعطي فكرة عن عدد المواشي التي كان الرّابي يهوداه يمتلكها .

* * *

(1) مثل ذلك يُعقل ؟ وهل ينبغي لرجال الدّين تكريس جهودهم لتحصيل الثروات ؟

الرابي شمعون الصالح רבי שמעון הצדיק

كان الرابي شمعون يقوم بمنصب الكاهن الأكبر خلال فترة عهد الإسكندر الظافر ، حوالي عام 3000⁽¹⁾ . ولم ير بنو يهوداه من داع لمحاربة هذا الملك المقاتل ، ولما قدم إلى سورية في طريقه إلى مصر ، بعد انتصاره الأول على جيش الفُرس ، انضموا إلى المملكة التي قدّمت له فروض الطاعة .

فقام شمعون الصالح ، كمثّل عن الأمة ، بالتوجّه إلى ساحل البحر لتحيّة الفاتح ، وهو يرتدي ملابس الحبريّة ، ويحيط به ليف من الكهنة والأعيان بكامل أبهة أثوابهم .

فتقدّم الإسكندر فوراً إلى الكاهن الأكبر وحيّاه بحرارة ، فلما عبّر ضباطه عن دهشتهم لهذا الترفق أخبرهم الإسكندر بأن هذا الكاهن بهيئته وصفاته بعينه ، وهو يرتدي هذه الثياب التي عليه بذاتها ، قد تراءى له في منام وبشره بالنصر في حروبه .

وقام شمعون باصطحاب الإسكندر إلى الهيكل ، فلما همّ بالدخول قال : «ليكن مباركاً ربُّ هذا البيت» . ولقد تملكه الإعجاب بروعة البناء ، وعبر عن رغبته بأن يجعل له تمثال يُنصب على سبيل التذكار ، ما بين الرّواق والمذبح . فأعلمه شمعون بأنه ليس من المسموح نصب أي تمثال أو صورة ضمن جدران المعبد ، لكنه وعده بغية تخليد ذكره بأن جميع الولدان الذكور المولودين في شعبه بذلك العام سيُسَمون بالإسكندر . وعلى هذا النحو حصل الرّبانيون المسمون بالإسكندر على أسمائهم .

وأقام الإسكندر على مودّته للكاهن الأكبر ، وبشفاعته منح اليهود حرّيتهم الدّينية وأعفاهم من ضرائب الجزية في خلال السنة السّبّئية (آخر كل سبع سنين) ، كما دخل اليهود في جيش الإسكندر ، وأسهموا في فتوحاته .

(1) هو الإسكندر الأكبر ملك مقدونيا والفتح الشهير (356-323 ق.م) . والتاريخ المذكور حسب التقويم العبري الذي يُصطلح عليه أنه يبدأ ببداية الخليقة .

لكن هذه العلاقات لم تستمر للأسف بعد موت الإسكندر . ففي غضون النزاعات التي استمرت بين قواده والتي أعقبت ذلك ودامت عقدين من الزمان ، عانى الشعب اليهودي التّباريح . فقام جيش أنتيغونوس وابنه ديميتريوس بإهلاك الحقول الزراعيّة الخصيبة كلّها ، وقوّضوا السّلام المقدّس ، وملأوا أهالي مقاطعة اليهوديّة יהודה (باللاتينية Judaea) بالرّعب والفرع .

وكان أن اجتاحت يروشلّيم في يوم شبّات . أما أسوارها الهائلة وتحصيناتها التي لا تُرام منذ أيام نحميا ، فقد تمّ ثانية اختراقها وكسر صمودها ، وفُتحت المدينة على مصراعها أمام أعدائها .

ولقد عاش الرّابي شمعون ليشهد بأّم عينيه هذه الأحداث ، وخضعت ثقته بالله ومحبّته لشعبه إلى محنة أليمة . لكن إيمانه مع ذلك لم يتزحزح أبداً . فقام بتدعيم الهيكل ، ورمّم أركانه المتضرّرة ، وأرسى أسس المحاكم الخمس . كما قام بتوسيع خزّان المياه في الهيكل ، للاحتراز من العوز في أيام الحصار ، ومنذ ذيك الحين أضحت للهيكل مؤنثته الكافية من المياه ، وفي هذا إشارة تتعلّق بمناخ يروشلّيم وطبيعة تربتها .

وكذلك لم يُغفل شمعون الشؤون الرّوحية لشعبه . فلم يتركهم يتوهّمون أن قوتهم وأمنهم إنما كانا يستندان فقط إلى العوامل الدنيوية . بل كان متذكّراً تماماً لتعاليم أسلافه : على ثلاثة أمور يقوم خلاص يسرّيل : «على طاعة أوامر الشريعة ، وعلى تقوى الله المتمثلة بالبركة المتأتية من العبادة في الهيكل ، وعلى أعمال الخير والصدّقة» .

هذا وإن الحروب والاضطرابات العديدة التي عصفت بالفترة التي عاشها ، كانت حافلة بالشّرور المتعدّدة والفائضة ، فراح ذوو النّفوس الفائقة التّقوى ، كما في عهود الأنبياء ، ينزعون إلى الاعتزال عن الدّنيا ، وتكريس أنفسهم لله عبر «نذر النّذير»⁽¹⁾ .

(1) النّذير ٦٢٤ في اليهوديّة شخص يلتزم صوماً وتبتلاً معيّناً ، غايته تطهير النّفوس عن طريق إقصائها عن الشهوات . راجع ما يرد عنه في سفر العدد - 6 .

بيد أن الرأبي شمعون لم يقرّ ذلك ، وراح يعترض عليه بعدة طرق . غير أنه مع ذلك أتى على استثناء في إحدى الحالات ، وهي حالة راع شاب ووسيم ، ألفاه مُخلصاً حقاً في رغبته . فلما أتاه هذا الأخير ، راغباً أن يضحى نذيراً استجوبه الكاهن الأكبر على النحو التالي :

«ما الذي يدعوك ، وأنت بهذا الصبّا والوسامة ، وبذلك الذوائب الحريية المُسدلة ، إلى إخفاء هذا الجمال كلّه وإلى اتّضاع ما يُبهج عيون الناظرين؟» .

فأجاب الشاب : «ذلك لأن ذوائبي المُسدلة كادت توقعني في الخطيئة من أجل الباطل وحسب . لقد رأيت انعكاس صورة وجهي في جدول صافٍ ، وإذا بميل جارف لعبادة الرّب يستولي عليّ ، فها أنا ذا أرغب في الحال بتكريس شعري للرّب ، عن طريق نذر النذير» .

فما كان من شمعون إلا أن قبل الراعي الشاب ، وقال له : «ليته كان لله في يسرّئيل عديد من النذيريين مثلك» .

ولقد اشتهر الرأبي شمعون بحفظه الدقيق لأحكام الشريعة ، وبخدماته كرئيس وعضو في المجلس الأعلى ، وبالأسلوب الفعّال الذي قوّى به الحماس الديني للشعب ، كما أسهم في أعمالهم ومؤسّساتهم جميعها .

ولقد شغل منصب الكاهن الأكبر مدة أربعين عاماً ، وأعلن بنفسه دنوّ موته باستكمال واجباته في يوم الغفران ٥١٠ ٦١٥٥ (يوم كپور) . فكان لدى دخول قُدس الأقداس في هذا اليوم المقدّس من كل عام ، معتاداً على رؤية طيف يلبس ثياباً بيضاء ، كان يُحصي عليه أعماله خلال تنفيذ مهام منصبه . ففي هذا اليوم بالذات لم يره ، وعدّد ذلك بمثابة النذير على موته . وبالفعل مات بعد مضي سبعة أيام على اليوم المقدّس .

ولقد كرّمته الأجيال باعتباره الأقدس بين الناس ، وكان ثمة تأكيد جازم على حصول آيات الكرامات الإلهية خلال مدة حياته بلا توقّف . غير أن أحفاده تخلّوا عن الدين اليهودي بالكلية ، وكانوا مثلاً حياً لتلك الأفعال التي استجرت على يسرّئيل الخراب في عهد أنطيوخوس إيفانيس .

وحصل بعد موت شمعون بمدة قصيرة ، وعلى ضوء الانحلال الذي تفسى في الشعب ، أن الأتقياء قرروا أن استخدام اسم الله الأقدس ينبغي أن يكون حُكراً على الكهنة فحسب . وتم استبدال الحروف الأربعة للاسم المقدس نفسه⁽¹⁾ ، الذي بقي يُنطق فقط على لسان الكهنة عندما كانوا يختتمون صلاة الأضحية اليومية ، فيتلقظون بالباركة للشعب ، وكذلك على لسان الكاهن الأكبر في يوم الغفران .

الرأبي يشمعييل ، الكاهن الأكبر רבי ישמעאל כהן הגדול

كان الرأبي يشمعييل واحداً من أبرز وأرقى آباء الأدب التلمودي . وكان صافي العقيدة ، سامي الفكر ، ذا شروح جلية ودقيقة . ولقد قضى شهيد العسف الروماني ، فكانت هذه النهاية توجباً للحقيقة والمصادقية لأعمال حياته ومقولاته كلها .

إن كان ثمة خلود تاريخي وخلود للروح ، فإن الرأبي يشمعييل قد حاز الأول وكان راسخ الإيمان بالثاني . إن من يظن أن عقيدة خلود الروح هي نتيجة لأباطيل الإنسان الذي يدعي لنفسه أفضلية مُتخيَّلة على باقي الكائنات ، ومن يظن أنها مبدأ خيالي قديم في التاريخ لا يمكن دونه لمحاكم الشريعة أن تثبت من نزعة الإنسان الطبيعية لفعل الشرّ ، لا يمكنه أبداً السمو إلى جراءة الاستشهاد وشرفه . أما بالنسبة للرأبي يشمعييل ، فإن الإدراك العام ومبادئ الفطرة تثبت صحة هذا المعتقد .

فأولاً : ما من ذرة من المادة في وسع الكون بأسره يمكن أن تضيع ، فكيف يمكن إذاً لروح الإنسان أن تتلاشى ، وهي تؤلف العالم بأسره في فكرة واحدة ؟
ثانياً : في الطبيعة بأسرها ، ليس الموت سوى عملية تحوّل ، وأما مع الروح فهو المدخل إلى مملكة جديدة وأكثر سموّاً .

(1) ذكرنا أن اسم الله الأعظم في العبرية : יהוה ينبغي لليهود عدم التلقظ به إلا مرة في السنة (يوم كيبور) تعظيماً له ، ويُستعاض عنه بلفظ : אדוני (أدوناي) : ربي ، مولاي .

ثالثاً : إن أفكارنا ومشاعرنا ، التابعة أصلاً من الرّوح ، ليست ذات طبيعة دُنويّة .

كذلك فإن الرّابي يشمّعل دافع بحماسة عن عقيدة التّخيير لدى الإنسان . قال الرّابي : «عندما يدخل امرؤُ درب الحقّ والعدل ، فإن الله يكون في عونه ، لكنه عندما يختار طريق المعصية فإن الله يقول : «أما وقد أعطيتك العقل وحرية الإرادة ، فامض إذأ لما تشاء» ، وهذا كشأن البائع الذي يخدم الزّبون الذي يشتري بضاعة وأشياء مفيدة ، أما الذي يطلب الزّفت أو الكبريت فيقول له : «إمض فاحمله بنفسك» .

وهنا يسأل كثير من النّاس : «فلماذا إذأ يسمح الله بوقوع كل ذلك القدر من الفساد والشرّ؟» ، يجيب الرّابي يشمّعل : «هذا ليس من فعل الله ، بل منكم ، فأنتم بالذّات مصدر الشرور الأخلاقية والدّاعمون لها . فإن كان حقلٌ ما مُرعاً بالأعشاب الضّارة ، هل يتدّمّر الفلاح إلى الله ؟ لا ، بل ليُلم نفسه على إهماله وكسله . أما من يمتلك حساً قويماً صادقاً ، فهو يُقرّب أن فضائله إنّما تعود إلى عمله هو ، وأما المُسرف على نفسه فهو لا يعرف إلا أن خطيئته هي له فحسب ، فواهاً له . إن عبارة «للتقي الصّالح يأتي العون من العلى» هي التي كانت تشدّ من أزر أجدادنا الأتقياء ، وهي التي ينبغي أن تقوي نفوسنا» .

وكذلك فإن تعريفه للإثم⁽¹⁾ أيضاً هو أعلى وأسمى من الأفكار المشوّشة للعديد من اللاهوتيين .

إن الإثم بمثابة الحاجز في القلب ، وهو عجز عن الشعور والإدراك بكل ما هو نبيل وأصيل وعظيم ، وعن المشاركة في الخير . إن كان للمرء أن يتحرّر من ربة الآثام ، فينبغي أن يكون عقله وقلبه مفتوحين لتأثير الإشراق . وينبغي لذلك خضد وطأة أهواء النّفس ، والتّطهّر من التّحامل والآثرة والتّيه .

أما من يحلو له ترديد الرّأي المغلوط بأن الدّين اليهودي يعدّ الله غير متسامح وحقود ، فيكفيه أن يتلو توصيف الرّابي يشمّعل لفضائل يوم الغفران :

(1) سبق أن ذكرنا أن عبارة «الإثم» مأخوذة عن الإغريقية ، لكننا نُوردها لاشتهارها .

«إن مَنْ يعصي أمراً واجباً لله ، ثم يتوب ، تجوز له المغفرة للتو» .

«إن مَنْ يأتي أمراً محرماً ثم يتوب ، يُغفر له في يوم الغفران» .

«إن مَنْ يقترب ذنباً جزاؤه الطرد أو القتل ، يجوز أن يُغفر له عن طريق

المعانة . وأما مَنْ يدنس اسم الله فلا عقوبة له إلا الموت» .

وما هو تدنيس اسم الله ؟ هو كما يرى الرأبي عمل مَنْ يقترض ثم لا يردّ ما

اقترضه ، فهو مقترب لهذا الذنب . يقول الرأبي أبايا : «فِعْلُ الرَّجُلِ الَّذِي يَأْتِي

ذلك ، فلا يكون اسم الله مكرماً في فمه» .

ويقول الرأبي يُوْحَنَانُ : «هُوَ فِعْلٌ مَنْ يَحْقِرُ نَفْسَهُ» .

لكن لماذا يكون عصيان الأوامر الواجبة من الممكن التكفير عنه بسهولة ،

كما يُظنّ عموماً ، وهي بهذه الأهمية البالغة ؟ يقول الرأبي إن الذنب الذي يُقْتَرَفُ

في حق النَّاسِ أَشَدُّ فِي عَيْنِي اللَّهِ مِمَّا يُقْتَرَفُ فِي حَقِّهِ هُوَ .

الرأبي مثير

רבי מאיר

«كل ما يفعله الله حسناً جداً 710 711» .

إن الرأبي شمعون بن إلعيزر يعمد إلى استخدام عبارة «حَسَنٌ جداً» للإشارة

إلى النَّوْمِ . فيقول : «ينام الإنسان ، ثم في بضعة ساعات يستعيد قوّة جديدة» .

والرأبي صموئيل بن نَحْمَانِ يقول : «إن الدّافع الذي يحثّ الرَّجُلَ إِلَى النِّسَاءِ

«حَسَنٌ جداً» ، لأنه من خلال ذلك تُشَيَّدُ البيوت وتولّف الأسر» . وكان من رأي

الرأبي هَمُونَا أَنَّهُ مَا مِنْ مَعْنَى أَكْثَرَ فَاعِلِيَّةٍ يُمْكِنُ نَسْبُهُ إِلَى عِبَارَةِ «حَسَنٌ جداً» كَمَا هُوَ

الحال فيما يتعلّق بالثأر ، والرأبي شمعون بن لكيش ينسبها إلى الحُكْمِ السِّيَاسِيِّ ، أما

تعاليم الرأبي مثير فتتصّ على أن موت الإنسان «حَسَنٌ جداً»⁽¹⁾ .

(1) التلمود يحفل إلى الغاية بذكر المسائل الفقهية والمطارحات الجدلية الكلامية ، وهنا لم

نعمد إلى الإطالة في مثل ذلك ، لأنه فوق حدود طاقة القارئ .

إن غاية الدين اليهودي ليست التفرقة العنصرية وإنما توحيد البشرية⁽¹⁾ ، وذلك كان أحد أعظم المبادئ التي قامت عليها حياة الرأبي مثير .

وفيما يتعلّق بنص الآية القائل : «ليطيع الإنسان الشريعة ويعيش فيها» ، يقول : «إن النص المقدس لا يحدّد اليسرّثيليين ، ولا اللّيويين ولا الكهنة ، إنّما الناس عموماً ، ولذا فإن الشخص الأممي الذي يطيع الشريعة يكون على حدّ سواء مثل الكاهن الأكبر» .

وفضلاً عن ذلك قال : «إمشر أمام الجميع بتواضع ورفق ، لا أمام من يتبع دينك فحسب ، بل أمام الجميع» .

وكان الرأبي مثير عالماً لا يُجارى في حقل القصص الرّمزيّة ، ويُقال إنه كان يحفظ حول الثعلب وحده ثلاث مئة قصّة . ومن هذه القصص لم يصلنا سوى ثلاث بُد فقط .

«قال بعض الثعلب لدبّ : «تعال بنا نذهب إلى ذاك المطبخ ، فهم يقومون بالإعداد ليوم شبّات ، وسيكون بوسعنا أن نحصل على الطعام . فتبع الدبّ الثعلب ، لكن لكبر حجمه قُبض عليه ونال جزاءً مريراً . فلغضبه من جرّاء ذلك نوى أن يمزق الثعلب إرباً ، بحجّة أن أسلاف الثعلب كانوا مرّة قد سرقوا طعامه ، ومن هنا أتى القول الأول : «الآباء يأكلون الحُصْرُم ، والأبناء يضرّسون» .

«قال الثعلب : «لا ، بل امض معي يا صاحبي العزيز ولا داعي لتشاجر ، سأخذك إلى مكان آخر حيث نجد الطّعام دون ريب» . ثم أخذ الثعلب الدبّ إلى عين ماء ، حيث كان ثمة دلوان مربوطين معاً بحبل ، على هيئة ميزان . وكان الوقت ليلاً ، فأشار الثعلب إلى انعكاس صورة القمر على الماء ، قائلاً : «ثمة جين طيّب ، فلتنزل وتناولوه بكل متعة» . ودخل الثعلب الدلو أولاً ، لكن بما أنه كان خفيفاً للغاية بالمقارنة مع وزن الدبّ ، أخذ معه حجراً . ولكن حالما قفز الدبّ إلى الدلو الآخر رمى الثعلب بالحجر ، فإذا به يرتفع ، بينما غاص الدبّ إلى قعر البئر» .

(1) ليس هذا بصحيح أبداً ، بل إن مبدأ اليهوديّة يضع اليهود فوق بقية البشر كلّهم .

فهنا يجعل مقولته الثانية : «الصالح ينجو من الأزمات ، ومكانه يقع الشرير» . وعلى كل امرئ أن يعاني مما جنته يدها من ذنوب ، وبما كسبته نفسه من خطايا . وإن من يتبع نجوم الليل ومراتع الفجور مصيره الهلاك دون ريب ، أما الصالح وإن كان يحمل حجراً (ذنبا) ، فبوسعه أن يتبذره قبل فوات الأوان ، وينجو من الموت .

كان إيشاع بن أبويه العتيق (عبد روماني أعتق) ، الملقب باسم «أخير» אמר (الآخر - الكافر) ، رجلاً ذا علم راسخ ، وكان واحداً من أساتذة الرابي مثير ، وكاننا مراراً ما يتساجلان في شؤون المقاطع التوراتية .

وكان الناس غير راضين عن معاشرة الرابي مثير له⁽¹⁾ ، فدعوه لذلك باسم «أخيريم» אמרימ ، وهي كلمة مؤلفة من أحرف مثير وأخير . غير أن الرابي مثير كان يُحيلهم إلى المثل القائل : «أصغ بأذنك إلى كلام الحكماء ، ولكن وجه قلبك إلى ما في فكري» .

كان الرابي مثير يأكل التمر وينبذ النوى ، ومرة صادف شجرة رمان ، فلما أكل التمر كان يرمي القشر . غير أن أبناء جيله ما كانوا يفهمونه .

وفي إحدى المناسبات قال أخير للرابي مثير : «لماذا تُشبه الشريعة بالذهب والزجاج؟» .

أجاب الرابي مثير : «لأنها عزيزة المنال كما هو الذهب عزيز في المعادن ، لكنها عرضة للنسيان بالسهولة ذاتها التي ينكسر بها الزجاج» .

أجاب الآخر نقلاً عن الرابي عقيبا : «لا ، بل السبب هو ما يلي : عندما يتكسر الذهب والزجاج يمكن أن يُصهرا معاً ويشكلاً بهيئات جديدة . فكذلك هو شأن طالب الشريعة ، رغم أنه قد يقترف عدة خطايا يبقى منه أمل» .

وكان الرابي مثير يؤثر عمل الخير على الدوام ، وعناية الإنسان بنفسه كما بالآخرين . وكان يؤكد على أن «الغني بالفعل هو من يتمتع بغناه» .

(1) لأن إيشاع ارتد في آخر عمره عن اليهودية ، كما سيرد في الفصل الثالث أدناه ص 305 .

أما الآية الواردة في سفر ملاخي (2 : 6) : «وأرجع كثيرين عن الإثم» ، فقد فسرها على أن المعنى بها هو أهرون ، أول من ولي منصب الكاهن الأكبر ، الذي كان له من المكانة بحيث أن مجرد ذكر اسمه ، أو التفكير بالكيفية التي قد يعتبر بها عملاً ما فيما لو كان حاضراً ، كان يكفي لمنع الكثيرين من الوقوع في الخطيئة .

في إحدى المرآت قال رجل وثني للرابي مثير : «هل يُعقل أن الله ، الذي تؤكد أن جلالته تملأ الكون الفسيح ، يمكن أن يتكلم من بين ضلعي تابوت الحرم المقدس ؟» .

فلإجابة على هذا السؤال ، حمل الرابي مثير أمام الوثني مرأتين ، فرأى السائل في كل واحدة منهما صورته . قال الرابي : «الآن ، في كل مرآة قد صغر حجم جسدك ليتلاءم مع مقياس المرآة . أف يكون مثل هذا الأمر إذاً مستحيلاً على الله ؟ إن الدنيا هي بمثابة مرآة الكبرى ، والحرم المقدس مرآة الصغرى» .

أما بخصوص التعليم ، فكان الرابي مثير يقول دائماً : «علم تلامذتك بشكل مختصر» . وكان يقول أيضاً : «لتكن تطبيقاتك موجزة» ، وكانت نصيحته للأباء هي : «علم ابنك حرفة قويمه» .

أما حكمته المفضلة فكانت : «كُن مصمماً على معرفة طريقي ، وكُن ناهياً على أبواب الشريعة ، واحترز على شريعة قلبك . وليكن نصب عينيك الحشية مني ، واحم فمك من الوقوع في الذنب ، طهر نفسك ونزهاها عن كل إثم وذنوب ، فيكون الله إذاً معك» .

ومن خلال عبارة : «كُن ناهياً على أبواب الشريعة» ، يبين الرابي مثير أن على كل دارس أن يتلمذ على ثلاثة مدرسين على الأقل ، ولكلمة «أبواب» معنى أو مفهوم خاص . فعلى سبيل المثال ، عندما يمر شخص بباب بيت أمضى فيه شهر العسل ، أو بباب دار عدل حكم عليه فيها أو تمت تبرئته ، أو بباب بيت قام فيه باقتراف ذنب ما ، فكم من الخواطر المختلفة والمشاعر والذكريات ستجول في خاطره . فبالوظة ذاتها ينبغي أن تنطبع في ذهنه أوقات تدارسه للشريعة .

يُسمى اليسرَكيون «أبناء الله» ، والرأبي مثير لم ين يقدم هذه الرابطة البنوية بوصفها الحقيقي ، مُترعاً إلى الثمالة كأس السعادة العائلية ، ومظهراً إياها لأعين الشعب . ولقد قال : «النبى يرمياه يسمينا «بنون جاهلون» ، وفي سفر التثنية يُشار إلينا بعبارة «هذا الجيل الشرير» ، لكننا على أي حال ووجه نبقى نحن «أبناء الله» .»

هذا ولقد كانت امرأة الرأبي مثير طيبة وصالحة كزوجها .

كان بجوار الرأبي يقطن بعض أتباع الدين اليهودي ممن يتبعون أعراف الإغريق ، فكان الرأبي يتبرم منهم كثيراً وكاد لشدة غيظه أن يدعو الله ليهلكهم ، غير أن برورياه ברוריה امرأته قالت : «لا تنس تعاليم دينك . لا تدع بموت المذنبين ، بل بأن تزول الذنوب ذاتها ولا يبقى ثمة مجال لدوامها» .

وخلال غياب الرأبي عن بيته في إحدى المرات ، مات اثنان من أبنائه . فما كان من أمهما إلا أن كتمت حزنها ، وانتظرت عودة الأب ، فقالت له :

«يا زوجي ، منذ مدة سلمت إليّ جوهرتان فائقتا القيمة ، يرسم الأمانة . واليوم إذا بمن ائتمنتي عليهما يطلبهما ، فقمْتُ بتسليمهما إلى يديه !» .

قال الرأبي مُثنياً : «هذا والله حقّ ، ينبغي لنا دوماً أن نردّ بكل رضا وأمانة كل ما يوضع في أمانتنا» .

بُعيد ذلك ، سأل الرأبي عن ابنه ، فما كان من الأم إلا أن أخذت بيده ، واصطحبته برفق إلى حجرة الموت . فتفرّس مثير بولديه ، ولما أدرك حقيقة الأمر انفجر يبكي بمرارة ولوعة .

«لا تبك يا زوجي الحبيب» ، قالت الزوجة النبيلة ، «ألم تقل لي إن علينا أن نردّ برضا عندما يطلب منا كلّ ما وُضع في أمانتنا ؟ فإله أعطانا هاتين الجوهرتين وتركهما معنا لبعض الوقت ، فابتهجنا بحيازتهما ، لكنه سُبْحانه الآن طلب ما هو له ، فليس لنا إلا السَّمع والطاعة بغير تدمر» .

* * *

هَلِيلُ هَنَاسِي הלל הנסיא

كان هَلِيلُ «رئيسَ يَسْرَئِيلَ» سَكِيلَ عَائِلَةٍ بَارِزَةٍ ، فَكَانَ أَبُوهُ مِنْ سَبِطِ بَنِيَامِينَ بَيْنَمَا كَانَتْ أُمُّهُ تَتَمَيُّ لِنَسَبِ مَبَاشِرٍ لِلْمَلِكِ دَاوُدَ . وَعَاشَ قَبْلَ حَوَالِي مِئَةِ عَامٍ مِنْ دِمَارِ الْهَيْكَلِ الثَّانِي ، وَسُمِّيَ هَلِيلُ الْبَابِلِيِّ لِكُونِهِ وَكُدَ فِي بَابِلَ .

كَانَ الرَّجُلُ فِي الْأَرْبَعِينَ مِنْ عَمْرِهِ قَبْلَ أَنْ يَبْرَحَ مَدِينَتَهُ الْأُمَّ كَيْمَا يَشْرَعَ فِي دِرَاسَةِ الشَّرِيعَةِ ، فَوَازِبَ عَلَى الدِّرَاسَةِ عَلَى شِمْعِيَاةٍ وَأَبْطَالِيُونَ مَدَّةَ أَرْبَعِينَ عَامًا ، ثُمَّ مِنْذُ ذَلِكَ الْحَيْنَ حَتَّى مَوْتِهِ ، بَعْدَ أَرْبَعِينَ عَامًا ، كَانَ رَئِيسَ الْمَدْرَسَةِ .

وخلال مدة حياته كتلميذ ، كان هَلِيلُ مَرَارًا يَعْانِي الْعُسْرَ فِي مِتَابَعَةِ دِرَاسَاتِهِ . وَثَمَّةُ حِكَايَةٍ مَشْهُورَةٍ عَنْهُ حَوْلَ ذَلِكَ ، أَنَّهُ فِي إِحْدَى الْمَرَّاتِ عِنْدَمَا كَانَ لَا يَمْلِكُ الْقِسْطَ الَّذِي يَطْلُبُهُ الْبُؤَابُ لِلدَّخُولِ إِلَى الْمَدْرَسَةِ ، قَامَ بِتَسَلُّقِ عَتَبَةِ النَّافِذَةِ رَغْبَةً مِنْهُ فِي الْإِسْتِمَاعِ إِلَى الْمَحَاضِرَةِ عِبْرَ مَصْرَاعِي النَّافِذَةِ . وَصَادَفَ أَنَّ الثَّلْجَ كَانَ يَهْطَلُ ، وَلَفَتَ انْتِبَاهَ التَّلَامِيذِ إِلَى حَدِّ بَالِغٍ أَنَّ هَلِيلَ اكْتَسَى بِالثَّلْجِ تَمَامًا دُونَ أَنْ يُلْقِيَ إِلَى ذَلِكَ بِالْأَلَى ، حَتَّى أَنَّهُ فَقَدَ الْحَسَّ مِنْ جِرَاءِ الْبَرْدِ . وَلَقَدْ انْتَبَهَ إِلَيْهِ أَوْلَثُكَ الَّذِينَ فِي الدَّآخِلِ بِسَبَبِ حُلُولِ الْعَتَمَةِ بَاكِرًا فِي الْحِجْرَةِ ، فَقَامُوا بِحَمَلِهِ إِلَى الدَّآخِلِ وَعَمَلُوا عَلَى رَدِّ وَعِيهِ إِلَيْهِ .

هَذَا وَلَقَدْ تَمَّ ارْتِقَاءُ هَلِيلِ إِلَى رِئَاسَةِ الْمَدْرَسَةِ عَلَى نَحْوِ مُبْهَرٍ . فَلَقَدْ حَلَّتْ عَشِيَّةَ عِيدِ الْفَصْحِ فِي يَوْمِ شَبَّاتِ (السَّبْتِ الْمَقْدَسِ) ، وَكَانَ كَبِيرًا الْخَاخَامِيمِ فِي مَدِينَةِ يَرُوشَلَايِمِ (أُورُشَلِيمِ) آنَذَاكَ هُمَا ابْنِي بَيْتِيرَا ، فَسُئِلَا فِي شَأْنِ الْفَتَوَى حَوْلَ مَشْرُوعِيَّةِ وَصَحَّةِ إِعْدَادِ وَجِبَةِ عَجَلِ الْفَصْحِ ضَمِنَ يَوْمِ شَبَّاتِ . وَلَمَّا عَجَزَ الْإِثْنَانِ عَنْ حَلِّ الْمَسْأَلَةِ ، قِيلَ لَهُمَا بِأَنَّ ثَمَّةَ رَجُلًا مِنْ بَابِلَ مِمَّنْ دَرَسُوا عَلَى الْخَبْرِينَ الشَّهِيرِينَ شِمْعِيَاةَ وَأَبْطَالِيُونَ هُوَ الْآنَ فِي الْمَدِينَةِ ، وَيُوسِعُهُ مَسَاعِدْتُهُمَا فِي الْأَمْرِ . فَتَمَّ اسْتِدْعَاءُ هَلِيلِ فَأَجَابَ عَلَى الْمَسْأَلَةِ بِكُلِّ حِكْمَةٍ وَجَلَاءِ ، تَمَّا جَعَلَ ابْنِي بَيْتِيرَا يَنْبِرِيَانِ قَائِلِينَ : «وَاللَّهِ إِنَّكَ لِأَجْدَرُ مِنَّا وَأَقْدَرُ عَلَى تَوَلِّيِّ مَنْصِبِنَا هَذَا» ، وَمِنْ خِلَالِ وَسَاطِطِهِمَا تَمَّ انْتِخَابُ هَلِيلِ رَئِيسًا لِلْمَدْرَسَةِ فِي عَامِ 3728 لِلخَلِيقَةِ .

وكان هليل رجلاً رائق المزاج وطيب السّيرة ، لكنه سرعان ما واجه خصماً حادّ المزاج وعجولاً هو شمّاي⁽¹⁾ . قام شمّاي بتأسيس مدرسة سمّاها בית שמי (بيت شمّاي) ، فاشتجرت بينها وبين مدرسة «بيت هليل» בית הלל المساجلات الفقهية بشكل حاد ودائم ، ولكن في الغالبية العظمى من الحالات كانت الأسبقية في السّجال العلمي لصالح هليل وتلامذته .

وكان عدد تلاميذ هليل ثمانين ، أبرزهم يهوناتان بن عوزيثيل .

في إحدى المرّات أتى مُلحد إلى شمّاي الرّابي ، وسأله بطريق الهزاء أن يلقّنه مبادئ العقيدة اليهودية في خلال الفترة التي يمكنه الوقوف فيها على قدم واحدة . فما كان من شمّاي إلا أن استشاط غضباً ، وانتهره طارداً إيّاه ، فذهب الرّجل عندها إلى هليل ، الذي ابتدره قائلاً :

«ما تكره لنفسك لا تفعله لغيرك» . هذا هو جوهر الشريعة ، وأمّا ما عداها فلا يعدو أن يكون تفسيراً لها» .

هناك كثير من التّلامذة الأغبياء يطرحون أسئلة تدعو إلى الغيظ . سألت أحدهم : «كم قانوناً يوجد للشريعة ؟» .

أجاب هليل : «اثان ، القانون الشفهي والقانون المكتوب» .

قال التلميذ : «فأنا أو من بالآخر ، لكن لماذا علي أن ألتزم الأوّل ؟» .

فعندها سطر هليل الأبجدية العبرية على صحيفة ، وأشار إلى الحرف الأوّل منها ، وسأل التلميذ : «ما هو هذا الحرف ؟» .

قال التلميذ : «ألف» .

قال هليل : «حَسَن ، فما التّالي ؟» ، وأشار إليه .

«بيت» .

«حَسَن أيضاً ، فما أدراك أن هذا «ألف» وذاك «بيت» ؟» .

«هذا ما أخذناه عن معلّمينا وأسلافنا» .

(1) أنشأ شمّاي مدرسته لحكّماء اليهود (الكتّبة) في أورشليم بالقرن الأوّل الميلادي ، وكان ألدّ أعداء فرقة الفريسيين التلموديين التي يتزعمها هليل ، فلهذا يتهمونه بالتشدد .

قال هليل : «فإذاً ، كما ارتضيت ذلك بالإيمان ، عليك أن ترتضي بقانون الشريعة» .

وكدليل على تفكير هليل العملي ، وعلى تفهّمه الواسع لحاجات عصره ومتطلباته ، هاك هذه القصة المعبرة :

بحسب شرائع التوراه ، ينبغي توفية الديون جميعها في السنة السبّئية (آخر سبع سنين) שנה שמטה «شناه شميّطاه» ، كما هو مكتوب : «في آخر سبع سنين تعملُ إبراءً ، . . . مما أقرضَ جاره» ، إلخ (سفر التثنية - 15 : 1-2) . فهذا القانون ، المقصود به الحدّ من تفاوت الثروة ، والموائم للحاجة التي سنّ من أجلها في بعض الأحوال ، كان في عهد الملك هيرود مصدرّاً للإشكالات . فكان الغنيّ يُحجم عن إقراض أمواله لمن هم بأمرّ الحاجة إليها ، خوفاً من فقدانها جرّاء شروط هذا القانون الشرعي . فلدرء هذا الضّرر قام هليل ، دون أن يعمد مباشرة إلى إبطال شرعة التّحديد الإلزامي ، بسنّ حاشية تقضي بأن من حقّ الدائن أن يستصدر إقراراً ممضياً نظامياً قبل السنة السبّئية ، يكفل له حقّه باسترداد ديونه المتراكمة في أيّ وقت يراه مناسباً . فكان هذا التّشريع مفيداً لكلّ من الغني والفقير على حدّ سواء ، وأضحى قانوناً سارياً بإجازة الحاخامات له .

وكانت وفاة هليل حوالي العام 3764 للخليفة .

الرّابي «راشي»

רבי ראשי

«راشي» اسم مُركّب من الحروف الأولى لعبارة : «رابي شلومو يصحّاق» רבי שלמה יצחקי (الحاخام شلومو بن يصحّاق) ، ولقد وُلد حوالي عام 1040 للميلاد في تروا Troyes بفرنسا . ولما كان صبيّاً كان تحصيله الدّراسي متألقاً ، فأجاد في أشدّ العلوم تعقيداً بغير ما عناء ، وحاز إلى جانب تمرّسه الكبير في الفيلولوجيا ، والفلسفة ، والطبّ ، والفلكّ ، والقانون المدني ، على براعة تامّة في حقول المعارف التوراتيّة والتلموديّة الرّجبة .

ولقد شرع راشي في كتابة تفاسيره على أسفار التوراه في سنّ غصّة للغاية ، فأكملها كما يُقال في سنّ الثالثة والثلاثين . لكنه قبل أن يطرحها على الملأ ارتحل سبع سنين ، ليزور جامعات إيطاليا واليونان وألمانيا وفلسطين ومصر ، ويستجمع لصالح الأجيال القادمة كلّ ما يمكن جمعه لعلامة متقن مثله ، ذي عين مدقّقة ، وذهن متقد موهوب ، وعقلية باحثة دؤوبة .

ولدى عودته إلى فرنسا ، نشر راشي تفسيره لأسفار الكتاب المقدّس ، في كتاب لم يتمكّن أحدٌ بعده أبداً من تجاوزه بالقيمة ، وما زال إلى العصر الحاضر يُنشر مُرفقاً بالنسخ العبرية من الكتاب المقدّس (توراه ، نبِيِيم ، كتوبيم) . كما ألحق به بعد برهة من الزّمن تفسيراً لثلاثة وعشرين مَبْحَثاً من مباحث التّلמוד⁽¹⁾ .

وما لبث كثير من كتبه لم يُنشر قطّ ، فيما نُشر بعضها الآخر وأزجي أمام الملأ ، فمنها كتابٌ في الطبّ ، وقصيدة بعنوان : «توحيد الله» . وتوقّي راشي (عام 1105 م) وله من العمر خمسة وسبعون عاماً ، عن ثلاث بنات ، كانت إحداهن (يُوكييد) أمّ الرّابي صموئيل بن مثير ، الذي اضطلع بتحرير أعمال جدّه وأضاف إليها أشياء .

أضحت عبقرية راشي ونفسه الرّيفيّة وعلومه الزّآخرة مضرب الأمثال لدى الأجيال التّالية ، وغداً بطلاً للعديد من الأساطير من النّوع الذي كانت العقول في تلك الأيام السّالفة متعطّشة للاعتقاد بها والمبالغة فيها .

يُروى أن أحد ملوك البلاد دعاه في إحدى المرّات ، وقال له : «لقد جهّزتُ مئة ألف عربة ومثي سفينة ، وأرغب في احتلال بيت المقدّس . وطالما أن جنودي وضباطي يتفوقون بفنونهم القتاليّة وشجاعتهم على الذين يحتلّونها الآن ، فما تراه لي من حظوظ الفلاح ؟»⁽²⁾ .

أجاب راشي : «لستولين على القُدس ، وتحكّمها ثلاثة أيام ، لكنك عائدٌ إلى هذه المدينة ومعك ثلاثة جياد وبقدرها من الرّجال على متنها» .

(1) تُعرف إلى اليوم باسم : شروح الحاخام راشي . راجع مقدّمنا لهذا الكتاب .

(2) الحاكم المذكور هو غودفروا دي بويون Godefroi de Bouillon ، احتل القُدس 1099 م .

فابتدره الملك قائلاً ، والغیظ من نبوءته يأخذ منه كل مأخذ : «إِذَا فَيَاكَ أَنْ
تراني راجعاً بأربعة جياذ ، لأنني إن عدتُ ولو بجواد واحد فقط أكثر مما تقول ،
سوف أطرح لحمك لطيور السماء» .

ودامت الحرب أربع سنين⁽¹⁾ . وعاد هذا الملك أدراجه وليس معه من جيشه
كله سوى أربعة خيالة ، وفيما كانوا يعبرون بوابات المدينة سقط حجر فقتل جواداً
مع راكبه على الفور . فأعاد ذلك إلى الأذهان كلام راشي ، ولكن عندما طلبه
الملك ، ألقى أن الشيخ خلال غيابه قد بارح عالم الأحياء .

ويُزعم أن كرسي راشي الذي كان في المدرسة ما زال موجوداً إلى اليوم .

وكان راشي يُعرف أيضاً باسم «يرحي» «רַחִי» ، المشتق من اسم المدينة التي
كان يعيش فيها (Lunel) ، حيث أن اسم «يريح» «רִיחַ» في العبرية يعني القمر ،
كما هو اسم lune في الفرنسية ، والذي يقابل اسم المدينة .

نجد في تعاليم التلمود : «الصالح لا يموت» ، وكذلك : «ما أسعد من الذي
يجد ضالته في الحكمة ، ويحوز نعمة الفهم» .

الرابي موشيه بن ميمون רבי משה ברמיימון

يُعدّ الرابي موشيه بن ميمون⁽²⁾ (أو «رمبم» רמב"ם ، اختصاراً لعبارة :
راينو موشيه بن ميمون) أحد أعظم علماء التفسير اليهودي ، وهو فوق ذلك من
سلالة الرابي يهوداه جامع المشناه . وُلد في مدينة قرطبة Cordova بالأندلس في 30
أذار من عام 1135 للميلاد . كان أبوه مُسنناً بعض الشيء عندما تزوج ، ويُروى أنه
دخل الحياة الزوجية عن طريق حُلم تراءى له مرآت متتالية بأنه يتزوج ابنة جزار يُقيم
في حيه ، وكانت تلك هي المرأة التي تزوجها بالفعل .

(1) بدأت الحملة الصليبية الأولى عام 1095 م وسقطت القدس 1099 م ، ومات راشي 1105 م .

(2) انظر كتاب إسرائيل ولفنسون : «موسى بن ميمون ، حياته ومصنفاته» ، القاهرة 1936 .

كان موشيه الابن الوحيد الذي أنجته هذه المرأة ، ثم ما لبثت أن توفيت عقب ولادته . والتزم أبوه بالحِداد على رحيلها لحوالي العام ، ثم عاد فتزوج من جديد ، ورزق من هذا الزواج الثاني بعدة أبناء .

لم تبدُ على موشيه في صغره مخايل التجابة أو حبّ العلم ، وهذا ما أحزن قلب أبيه كثيراً . وأخفقت جميع المحاولات لحثه على متابعة التحصيل ، فراح إخوته ينتعونه بلقب «صبي الجزار» ، كنوع من الغمز على بلادته ، وفي نهاية المطاف استبدّ الغضب بأبيه فطرده من منزله .

راح موشيه يرتحل في البلاد ، بغير معين أو رفيق ، فصادف ربّانياً متفقهاً في الدين ، فأعجب بحكمته ومعرفته أيّما إعجاب ، إلى حدّ أنه قرّر أن يدرس مُجدداً إلى أن يُضاهي هذه الدرجة الرفيعة من العلم .

بعد مضيّ عدّة سنوات ، أعلن عن تعيين واعظ جديد ليُلقي خطبة الصلّاة في كنيس قرطبة بأحد أيام شَبّات . وراحت الأخبار والأقاويل تتثال حول علومه الغزيرة وفقهه العميق وفصاحته البليغة ، حتى تملّك الشوق للجميع للاستماع إلى موعظته . ولما حلّ يوم شَبّات ، واستمع الناس إلى الخطبة ، وجدوا فيها مادةً وحُسن إلقاء وصدقاً وتأثيراً تفوق كل ما كانوا عهدوه من قبل ، وكم كانت دهشة ميمون الأب وأبنائه عندما ألفوا أن الرّجل الذي كانوا تواقين للتشرف برؤيته ما كان غير قريبهم الطريد .

كان أول تفسير وضعه موشيه بن ميمون على متن «المشناه» ، واختتمه بهذه العبارة : «أنا موشيه بن ميمون ، شرعتُ في تأليف هذا التفسير لما كنتُ في الثالثة والعشرين من العمر . وفرغتُ منه في سن الثلاثين بأرض مصر» .

وكان أن هرب موشيه بن ميمون إلى قاهرة مصر من الأندلس ، لتفشّي التعصّب والاضطهاد بها ضدّ اليهود . فدرس فيها اللغتين الإغريقيّة والكلدانيّة ، وأتقنهما بعد سبع سنين من المثابرة . وذاع صيته في البلد ، فأقرّ له الجميع بمكانته العلميّة الراسخة وعلومه العامّة ، ولم يقتصر اعتبار مؤلفاته على أبناء دينه ، بل تعدّاهم إلى جميع أهل العلم والمعرفة في عصره .

ويقال إن ملك مصر قد عينه واحداً من بين مجموعة أطبائه⁽¹⁾ . وكان رجال العلم في المملكة آنذاك يُقسمون إلى سبع مراتب ، ولكل مرتبة موقع يوازيها بالقرب من عرش الملك في المناسبات الرسمية . وإذ عدَّ الملكُ مُوشيه بن ميمون متفوقاً على الجميع بمراحل ، فقد خصَّه بموقع متفرد . لكن مُوشيه أبى ذلك لتواضعه ، فيما استشرَّت الغيرة ببقية الأطباء من جرّاء موقعه السّامي ، ولما كانوا عاجزين عن أذيته علانية ، فقد جهدوا للطعن به في الخفاء .

أصيب الملك بمرض شديد ، فأشرف مُوشيه على علاجه . وما كان من الأطباء إلا أن استغلّوا ذلك ، فوضعوا السّم غيلةً في جرعة الدواء الذي أعدّه له مُوشيه ، وأخطروا الملك بأن هذا الأخير متأمر على قتله . ولإثبات صحّة كلامهم قاموا بطرح بعض المركّب لكلب ، فما لبث أن مات .

حلّ الحزن والدهشة بالملك ، أما مُوشيه الذي عقدت المفاجأة لسانه فبهت ومكث عاجزاً عن الكلام .

قال الملك : «الموت جزء كلّ من يتربص بمليكه لاغتياله ، فاختر كيف تلقى جزءك» .

طلب مُوشيه ثلاثة أيام للتفكير ، فأعطاه الملك ما طلب . وخلال هذه المدّة أعدّ تركيباً خاصّاً ، وأوصى تلامذته بتجهيزه واستعماله بحسب إرشاداته ، عندما يؤتى به إلى بيته فاقداً الرُّشد . ثم مثّل أمام الملك ، ورغب إليه بقطع أورده . غير أن الشريان الأساسي بقي بمنأى عن مديّة الجلاّد ، كما توقع مُوشيه ، وكانت النتيجة بالتالي كما رسمها . فبعد تعافيه هرب من مصر ، ولجأ إلى كهف ، حيث ألّف كتابه الشهير «يَد حَزَقَاه»⁽²⁾ (د اليد القويّة) ، الذي يتألّف من أربعة عشر فصلاً ، ترمز إليها كلمة «يَد» التي تبلغ قيمتها العددية 14 أيضاً .

(1) بعد سنة 1160 م نزحت أسرة ميمون من قرطبة إلى فاس في المغرب ، ومنها أبحرت في حوالي عام 1165 م إلى عكا فمصر واستقرت في مدينة القسطنطينية . وفيها مارس مُوشيه الطب وذاع صيته ، فعين طبيباً خاصّاً للسُّلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي ، ثم ابنه الملك الأفضل نور الدين أبي الحسَن علي .
(2) المعروف أن «يَد حَزَقَاه» هو ذاته كتاب «مشنيه ثوراه» الوارد ذكره أدناه .

قام مُوشيه بن ميمون بتبسيط قواعد التلمود والمرويات الشفهية ، فيسرها لأفهام الجمهور . كما ألف مرجعاً شاملاً بعنوان : «مشنيه تُوراه» משנה תורה (أي الشريعة الثانية) ، كان الكتّبة يتهافتون على استنساخه وانتشر انتشاراً عظيماً . وكذلك وضع عدّة مباحث فلسفية موجّهة ضدّ الإلحاد ، ومركّزة على إثبات أن الله خلق الدّنيا من العدم . ثمّ لما بلغ الرّجل الخمسين من العمر ، أتخفّ الناس بمؤلّفه الأكبر الموسوم بـ : «مُوريه نُبوخيم» מורה נבוכים (دلالة الحائرين) باللّغة العريّة ، نقله إلى العبريّة الرّأبي يهوداه الحريزي وذيل عليه .

توفي مُوشيه بن ميمون في سنّ السبعين ، فدُفنت عظامه في القاهرة بمصر⁽¹⁾ ، وبكاه اليهود وأبناء الأمم الأخرى على حدّ سواء . وكان الحُزن عليه بيروشلّايم شديداً ، وتمتّ إقامة صوم لآود ، وفتحت الكُنس أبوابها حيث تمّت قراءة مقاطع من التّوراه (سفر اللّيوين 25 : 12 حتى آخره) ، مع الأصحاح الخامس من سفر صموئيل الأول ، كجزء من صلاة ذلك اليوم⁽²⁾ .

الرّأبي أمنون من ماينتس רבי אמנון איש-מינטس

أثناء ولاية أحد أساقفة ماينتس⁽³⁾ ، كان يعيش في المدينة رجل يهودي يُدعى الرّأبي أمنون . وكان ينتمي إلى أسرة رفيعة القدر وله مزايا شخصية عظيمة ، كما كان غنياً ويحترمه كلّ من الأسقف وبقية الناس . كان الأسقف كثيراً ما يلجّ عليه بترك اليهوديّة واعتناق المسيحيّة ، لكن دون أدنى جدوى . ثمّ في بعض الأيام من جرّاء الضغط عليه أكثر من المعتاد ، ولكي يتملّص من إلحاح الأسقف ، قال على عَجَل : «سوف أفكّر بالأمر ، وأعطيك جواباً خلال ثلاثة أيام» .

-
- (1) يتقلّ محمد بحر عبد المجيد (اليهود في الأندلس ، ص 90) أنه أسلم قبل موته ودُفن بطبريا فكتب على مقامه : «دُفن في هذا القبر مُوشيه بن ميمون الطريد المحروم الكافر» !!
(2) وتما يقول عنه اليهود : מאת משה לאת משה לא קם כמשה «من مُوشيه (النبي) إلى مُوشيه (بن ميمون) لم يظهر كمُوشيه» .
(3) ماينتس Maintz مدينة بجنوب غرب ألمانيا ، تقع على نهر الماين قبالة مدينة فيسبادن .

لكنه بمجرد أن خرج عن الأسقف شعر بغصّة في قلبه ، وراح ضميره يؤنبه بشدّة على إبدائه ، ولو على هذا النحو المصطنع ، أدنى شك بخصوص الدين القويم . فبلغ بيته والأسى يتملكه ، ولما قُدّم له اللحم أبى أن يأكل ، ولما أتى أصحابه لزيارته واستفسروا عن سبب كآبته ، رفض ما أبدوه من مؤاساة ، قائلاً : «تراني أنزل قبري باكياً على هذا الكلام» . وفي اليوم الثالث ، فيما كان لا يزال يتحسّر على تنازله الأرعن ، أرسل إليه الأسقف ، فرفض تلبية دعوته .

وعقب أن رفض تلبية دعوة رُسل الأسقف مراراً ، صدر إليهم الأمر أخيراً بالقبض عليه ، وإحضاره بالقوّة بين يديّ الأسقف .

قال الأسقف : «أمنون ، لماذا لم تحضر إليّ كما وعدتَ ، لتخبرني عن قرارك فيما يخصّ طلبتي ؟» .

أجاب أمنون : «دُرني أتفوّه بعقوبيتني بنفسي على هذا الإهمال . فها هو لساني الذي تفوّه بهذا الكلام الأرعن المشكّك ، فليُقطع . لقد كذبتُ عليك ، فإنني لا أنوي أبداً التفكير بعرضك» .

قال الأسقف : «لا ، سوف لن أقطع لسانك ، بل إن قدميك اللتين أحجمتا عن القدوم إليّ سوف تُقطعان ، وباقى أعضاء جسدك العنيد سوف تُعذب أيضاً وتُعاقب» .

وتحت أنظار الأسقف وبأمره ، تمّ قطع أصابع قدمي الرّابي أمنون كلّها ، وبعد أن تمّ تعذيبه بشدّة أُرسِل إلى بيته بعربة ، وإلى جانبه أعضاءه المبتورة .

وتحمّل الرّابي أمنون كل ذلك بمُطلق الرّضا ، ولديه كامل الأمل والثّقة بأن هذا العذاب الدنيوي سوف يلتبس له المغفرة لدى الله .

كانت بقيّة حياته بالطبع عقب ذلك رهن أيام معدودة . وحلّ عيد رأس السنة «رُوش هسّناه» 7 אב תשנ"ה ، وكان لا يزال على قيد الحياة ، فرغب بأن يُحمل إلى الكنيس . وتمّ نقله إلى بيت الله ، وخلال أداء الصّلاة رغب بالسّماح له بتلاوة دُعاء . فكان كلامه ، الذي تبيّن أنه الأخير ، كما يلي :

«إنني لأسبِّح بالقداسة التامة لهذا اليوم ، فهو مُذهل وجليل . إن ملكوتك يا ربّ يتجلّى فيه ، وإنّ عرشك مُقامٌ على الرّحمة ، وعليه تستقرّ بالحقّ . أنت الحَكَم الذي يُجازي ، ولا يخفى على علمك أيّ شيء . فأنت الشاهد والكاتب والمقرّ والمدوّن ومتذكّر كل شيء بالحقّ ، حتى من نحسبهم دُفنوا قديماً في الماضي . أنت تفتح الكتاب المسطور ، وتأمّر بنفخ الشُّوفار ٦٥١٧ (الصُّور) ، فترتعد حتى الملائكة ، فتصيح عالياً : «يوم الدّين بنا قد حلّ» ، ففي الدّينونة ليست الملائكة عن الخطأ بمعصومة» .

«كلّ من دخل الحياة الدّنيا أمامك يَجُوز ، تماماً كما يجعل الرّاعي القطيع الذي يعده يمرّ تحت صخرته ، فإنّك يا ربّ تأمر كل روح حيّة بالمرور أمامك . أنت تعدّ ، وأنت تتفقّد ، وتعيّن نواقص كل مخلوق بحكّمك وأمرك» .

«في رأس السنة يكتب وفي يوم الغفران يُقرّر . أجل ، كل أوامرك تُسجّل ، من يحيا ومن يموت . أسماء من يلاقون حتفهم بالنّار ، أو بالغرق ، أو بالسّيف ، أو بالجوع ، أو العطش ، أو بالطّاعون ، كلّها مدوّنة لديك . وكل من يلاقون الأمان ، وكل من يلاقون النّعمة . وكل من يلاقون العذاب ، وكل من يُباركون بالدّعة . وكل من يُقدّر لهم النّعمة ، ومن يحلّ بهم البلاء . ومن سيكونون من الأغنياء ، ومن من الفقراء ، ومن يُعزّون ومن يُذلّون . غير أن التّوبة والدّعاء والإحسان يا ربّ ، قد تُبعد كل مصيبة مُقدّرة !» .

فلما اختتم هذا البيان ، الذي صاغه للاعتراف بذنبه وبعدالة الجزاء الذي أصابه ، خمدت أنفاس الرّابي أمنون ، ومات على نحو لائق في بيت الله ، ما بين بني يسرّئيل المتجمّعين فيه .

لتبقى تقوى الرّابي أمنون ذكرى عطرة في بني يسرّئيل⁽¹⁾ ، وليجهدنّ كلّ منّا أن يحتذّيها بالخير ، آمين .

* * *

(1) عاش أمنون في القرن العاشر ، وقصّته ترد بكثرة لتربية الناشئة في المدارس اليهوديّة .

الفصل الثاني تعاليم الحاخاميم

فضيلة الإحسان

حسب أمثال السلف الصالح ، يُعدّ الإحسان من الرُكائز التي يستند إليها العالم . فيقولون : «بقاء العالم يقوم على فضائل أشياء ثلاثة : الشريعة ، توحيد الله وعبادته ، والإحسان الفعّال» . وأسفار الشريعة الخمسة (التوراه) تبتدئ وتختتم بإحسان ، كما هو مكتوب : «وصنّع الربّ الإله لآدم وامرأته أقمصه من جلد وأبسهما» (التكوين - 3 : 21) ، وكذلك : «ودفنه - أي الله -» (تثنية - 34 : 6) . وإن تأديّة معروف أو فضل تجاه إنسان تبتدئ في الإحسان إليه دون أي تoux أو رغبة بالحصول على مقابل ، ويمكن تأديته في حالتين : التكرّم بفضل على شخص ليس له علينا فضل سابق ، أو تأديّة خدمة أو فضل لشخص رغم كون ذلك يترتب عليه استجرار قدر من المشقة علينا ومن الكسب له أكبر مما يستحقّ . والرّحمة المذكورة في أسفار التوراه هي ما يُقدّم دون مقابل ودون رفض من طرف الشخص الممنوحة إليه . والصدقة كذلك نوع من الإحسان ، لكنه يوجّه فقط إلى الفقراء والمحتاجين ، أما الإحسان ذاته فيمكن توجيهه على حدّ سواء إلى الفقير والغني ، وإلى ذي الشأن والوضيع . حتى أن بوسعنا أيضاً أن نمارس الإحسان تجاه الأموات بأن نحضر شعائر جنازتهم ، وهذا هو عين الرّحمة والصدق . فإن تكرّمنا على امرئ ما ، من الممكن عبر توالي الأيام أن يقوم بردّ الجميل ، أما الإحسان تجاه الأموات فهو منتهى الرّحمة ، إذ أنه غير قابل للردّ . وفي ثلاثة أمور يكون الإحسان خيراً من الصدقة : فقد يتمّ تأديّة الإحسان عن طريق المال ، أما الإحسان فبالمال أو بغيره . والصدقة موجهة للفقير فحسب ، أما الإحسان فللفقير والغني . والصدقة تتمّ للأحياء ، أما الإحسان فللأحياء والأموات .

«خلف الربّ إلهك تمشي». فكيف يكون بإمكاننا أن نمشي خلف الله ؟ إن ذلك يكون من خلال اتباع صفاته واحتذاء أفعاله . الله كَسَى جسد الإنسان العاري ، كما هو مكتوب : «وصنع الربّ الإله لآدم وامرأته أقمصَةً من جلد وألبسهما» ، فلذا علينا أن نفعل الأمر ذاته . والله عادّ المريض : «تجلى الله له في غياض مَمْرًا» (وذلك بعد ختانه مباشرة) ، ولذا فعلينا أن نفعل الأمر ذاته . والله عزى النَّائح بِحِداد «وحدث بعد موت أبرهَام أن الله بارَك ابنه يصحاق» ، ولذا فعلينا أن نفعل الأمر ذاته . والله دَقَّن الميت ، كما هو مكتوب : «ودقنه - أي الله -» ، ولذا فعلينا أن نفعل الأمر ذاته . وإن حضور جنازة الميت وتشيع جثمان إخواننا الرّاحلين إلى مثواهم الأخير ، لهو عمل خير لكلّ من الحيّ والميت ، أي للروح الرّاجعة إلى بارئها وللمشيّعين على حدّ سواء .

قال الرّابي يهوداه : «إذا انتحب شخص ما وناح على نحو زائد لوفاة أحد أقرباه ، فإن حزنه يضحى نوعاً من التذمر على مشيئة الله ، وهذا ما يؤدي به إلى أن ينوح قريباً على وفاة عزيز آخر». بل علينا أن أن نقبل أمر الله ، ونقول كما قال أيوب : «الربّ أعطى والربّ أخذ ، فبارك اسم الربّ»⁽¹⁾.

وحسن الضيافة صفة أخرى من صفات عمل الخير . لقد قيل عن أبرهَام : «وغرس حديقة» . فهذه ليست حديقة عادية بالمفهوم الذي نعرفه ، وإنما هي نُزكٌ ضيافة . وفتح أبرهَام بيته لعابري السبيل ، وقدم لهم القوت بكل كرم . وكان لما يشكره الضيوف على أريحته يجيبهم : «لا تشكروني ، إذ أنسي لست مالك هذا المكان ، بل اشكروا الله خالق السموات والأرض» . وبهذه الطريقة أشاع اسم الله بين الوثنيين . ولذلك أعطانا مثلاً في كرم الضيافة علينا أن نحتديه ، كما هو مكتوب في أمثال الأجداد : «فليكن بيتك مفتوحاً كملجأ ، وليلاقي الفقير مأواه بين جدرانه بكرم وطيب» . فعندما يدخل أولئك بيتك فتلقاهم بعين السّماح وعاجل ببذل خبزك وملحك أمامهم . فلعل الفقير يكون جائعاً ، ويحجم مع ذلك عن طلب الطعام .

(1) الترجمة العربية من سفر أيوب (1 : 21) : «الربّ أعطى والربّ أخذ ، فليكن اسم الربّ مباركاً» . ولا نجد من داعٍ للالتزام بنصّها ، بل يمكن الخروج بما هو خير منها .

وحتى إن كان ثمة كثيراً من المزعجات التي تورق ذاتك ، فعليك أن تخفي شؤونك عن ضيوفك ، و عليك أن تواسيهم إن كانوا بحاجة إلى الكلم الطيب ، ولكن لا تُلِقْ بمشاكلك الخاصة أمامهم . وتذكركم تصرف أبرهام بلطف أمام الملائكة الثلاثة وهو يحسبهم من بني البشر ، وكم عاملهم بحسن الضيافة ، قائلاً : «يا أسيادي إن كنتُ وجدتُ نعمةً في أعينكم فلا تتجاوزوا عبدكم ، إلخ» (سفر التكوين - 18 : 3) . عليك أن تكون على الدوام ودوداً ، وعندها إذ تدعو الله يستجب لك .

والله يعرف إن كان القلب الذي يتجه إليه بالدعاء قد أدى إليه كل ما بوسعه من إمكانات . فخلال المدة التي كان فيها الهيكل قائماً ، كان الله يتلقى بالنعمة ذاتها قربان التقدمة بمن يقدم حفنة من الطحين أو ثور أضحية . ولذا فالآن أيضاً تُعدّ تقدمة الفقير مقبولة بالدرجة ذاتها التي تُقبل بها أقصى تقدمة يمكن للغني أدائها ، إذا كان القلب صافياً منحازاً إلى الربّ .

قيل إن الرأبي طرفون ١١٥٦٧ ، رغم كونه غنياً للغاية ، ما كان مجباً للصدقة بالنظر إلى إمكاناته المادية . فيوماً ما ، قال له الرأبي عقيبا لا NCPK : «ألعلك تود أن أستثمر لك مالا في تجارة العقارات ، على نحو مريح للغاية؟» . فأجاب الرأبي طرفون بالقبول ، وجلب للرأبي عقيبا أربعة آلاف دينار ذهباً ، لتتفق على ذلك . فما كان من الرأبي عقيبا إلا أن قام على الفور بتوزيع هذا المبلغ على الفقراء . وبعد مضي مدة من الوقت ، صادف الرأبي طرفون المذكور الرأبي عقيبا ، فسأله عن موضع العقار الذي ابتاعه له . فاصطحب عقيبا صديقه إلى المدرسة ، وأراه صيياً صغيراً راح يقرأ لهما المزمور رقم 112 ، إلى أن بلغ الآية التاسعة : «فَرَّقَ أعطى المساكين ، برّه قائم إلى الأبد» .

«هناك» ، قال عقيبا ، «مُلكك مع داود ملك يسرئيل ، الذي قال : «فَرَّقَ أعطى المساكين»» . سأل طرفون : «فلماذا فعلت ذلك؟» .

أجاب عقيبا : «ألا تدري بأن تقديمون بن جورثون جوزي لأنه لم يُعطِ بحسب ما يملك من إمكانات؟» .

أجاب الآخر : «أجل ، ولكن لِمَ لم تقل لي ذلك ؟ ألم يكن بوسعي أن أفرّق ما لدي بغير مساعدتك ؟» .

«لا» ، قال عَقِيْبَا ، «فهني فضيلة أعظم عندما يُعطي المرء شخصاً آخر ليفرّق عنه ، بدلاً من أن يفرّق هو بذاته» .

فمن خلال هذه القصة نتعلّم بأن مَنْ لم يقدّم الصدّقة بحسب إمكاناته سوف يلقى جزاءه وفاقاً .

في مرّة من المرّات ، كان الرّأبي يُوْحَنان بن لَكّاي راكباً بظاهر يروشلّايم ، وكان تلامذته يتبعونه . فشاهدوا امرأة فقيرة تتبّع الحبّ الذي يسقط من أفواه وجوالق ماشية ترعى ، تعود للعرب . فلما أبصرت بالرّأبي ، خاطبته بهذه العبارة المقتضبة : «يا رابي أغثني !» ، فأجاب : «يا ابنتي ، ابنة مَنْ أنت ؟» .

أجابت : «أنا ابنة تَقْدِيمون بن جُوريون» .

فسأل الرّأبي : «كيف ؟ ماذا جرى لمال أبيك ؟ ذاك المال الذي نلته نَحْلَةً يوم زواجك ؟» .

قالت : «آه ، أليس ثمة مثلٌ في يروشلّايم يقول : «المال يعوزه الملح» ؟»⁽¹⁾ .

فتابع الرّأبي كلامه : «ومال زوجك ، ما جرى له ؟» .

«الآخر تبع الأوّل» ، أجابت المرأة ، «قد أضعتُ الاثنين» .

فالتفت الرّأبي إلى تلاميذه وقال : «أذكرُ عندما أمضيتُ عُقد زواجها ، أن أباهما نَحَلْها صدّاقاً يبلغ ألف دينار ذهباً ، كما كان زوجها بالإضافة إلى ذلك رجلاً غنياً» .

ورق قلب الرّأبي للمرأة ، وتصدّق عليها ، وبكى لحالها . وقال : «يا بني يسرّئيل ، طوبى لكم ما دُمتم تنفّذون وصيّة الرّبِّ ، فلا يطالكم شرٌّ . وأمّا إن توائتم عن الالتزام بأوامره ، فالبهائم خيرٌ منكم» .

(1) أي أن الملح يلزم لحفظ اللحم ، وبغيره يفسد . فكذا الصدّقة للمال بمثابة الملح للحم .

وَمَنْ يَسْتَكْفِ عَن آدَاءِ الصَّدَقَةِ يَقْتَرِفْ ذَنْباً عَظِيماً ، وهذا ما برهنته قصّة حياة الرّابي ناحوم . كان ناحوم ، مهما أصابه من صُرُوف الدَّهر ونكباته ، معتاداً على القول : «هذا كلّهُ لخيرٍ أرادهُ اللهُ» . ولما أسنّ أمسى ضريراً ، وبُترت يداهُ ورجلاه ، وكان جذعه مبتلىً بالقروح الأليمة . قال له تلاميذه : «ألست امرءً صلاح وتقى ، فما دعوى بلواك ؟» .

أجاب : «تَرَوْنَ ، هذا ما استجررته على نفسي ولم أظلم . ففي بعض الأيام كنت مُرتحلاً صوب بيت نسيبي أبي امرأتي ، ومعني ثلاثون جحشاً محملاً بالمؤن والخيرات ، فصاح بي رجل من قارعة الطريق : «يا رابي أغثني !» ، فقلت له ليتريث ريشماً أنزل حمولة الجحاش . فلما تمّ الأمر وفرغتُ من تنزيل الأحمال عن دوابي ، ألفتُ لشقوتي وبلواي الرّجل سقط وهلك لشدّة الجوع والإعياء . فارتميتُ على جثته ورحتُ أنتحبُ بمرارة ، وقلتُ : «العينان اللتان لم ترقا لحالك ليكن مصيرهما العمى ، واليدان اللتان تلكأتا عن معونتك ليكن مصيرهما البتر ، مع الرّجلين اللتين أحجمتا عن إغاثتك» . وفوق ذلك ، لم أكتف حتى دعوتُ بأن يُصاب بدني كلّهُ بالقروح الأليمة . والرّابي عقيبا قال لي : «واهاً لي وويلاً إذ أراك في هذه الحال !» ، لكنني قلتُ له : «بل ليُساعدك أن تراني في هذه الحال ، لأنني من خلالها أرجو أن يُغفر لي ذنبي ويُمحى ، وأن تبقى حسناتي في ميزان أعمالِي ، لكي أحوز نعمة الحياة الأبدية في الآخرة» .

* * *

عندما أبصر الرّابي يتّاي رجلاً يهب الصدقات في مكان عام ، قال : «كان خيراً لك ألا تُعطي على الإطلاق ، من أن تُعطي الصدقات بهذا الشكل العكسي وتعرض الفقراء للذّلّ والمهانة . فخيرٌ للمرء أن يتلظى في نار مُوقدة من أن يتسبّب في مدّة الناس» .

ويصرّ الرّبانيون ويؤكدون على أن علينا أن نتجنّب قصر عمل الصدقة على شعبنا فحسب ، لأن شريعة موشيه تحضّ على الرّفق بالغرّباء المقيمين بين ظهرانينا وإكرامهم . وحتى البهائم لم تُغفل في دُستوره الفائق الرّحمة .

قال الرَّابِّي يهوداه : «لا يجلسن أحدكم إلى طعامه ، حتى يطمئنَ إلى أن جميع الحيوانات العائدة إلى رعيتِه قد نالت قوتَها» .

وكان الرَّابِّي يُوحَنان قال يانه يحسُن في نظر الله أن نكون طيبين وكُرماء تجاه الغُرباء ، بالدَّرَجَة ذاتها التي يحسُن بها في نظره أن نبكّر في الفجر لدراسة شريعته ، وذلك لأن الخصلة السَّالفة ليست إلا تطبيقاً محضاً لشريعته . وقال كذلك : «مَنْ كان رَفِيقاً بأبناء قومه تُغفَر له ذُنُوبُه» .

وكان كلٌّ من هذا الرَّابِّي والرَّابِّي أباً قالاً بأن من الخير إقراض الفقراء بدلاً من إعطائهم ، لأن ذلك يعصمهم عن الشعور بالكمهانة من فقرهم ، وهو بالحق أسلوب معونة لهم أكثر إحساناً . والرَّبَّانِيون يُرشدون على الدَّوام بأن الرِّفق هو أكبر من مجرد إعطاء الحَسَنات ، ذلك بأنه يضمّ كَلِماً طيباً يفوق بكثير قيمة الدَّعم المادِّي المُجرّد .

فضيلة التَّواضع

نجد في الكتاب المقدَّس عدَّة أمثلة على مدى رضا الخالق عن خلقه عندما يتمثلوا فضيلة التَّواضع وخَفَضَ الذَّات . ولقد كان أسمى أجدادنا شأناً هم أولئك المنزهون بالكلِّية عن الغرور والخيلاء .

فأبرهَام ، النقيّ السَّريرة ، كان يُدرك تماماً أنه لم يكُ سوى شيء من تُراب الأرض ، ولما خاطبه أبناء حِتّ بلقب «رئيس من الله»⁽¹⁾ سجد لهم .

وها هما مُوشيه وأهرون ، رئيسا شعب يسرائيل ، يقولان : «وما نكون نحن ؟» . وبدلاً من أن تستبدَّ الغيرة بمُوشيه عند سماعه بأن رجلين كانا يتبنَّان⁽²⁾ في المخيم ، إذا به يقول بتواضع جَمّ : «يا ليت كلَّ شعب الرَّبِّ كانوا أنبياء» (سفر العدد - 11 : 29) .

(1) انظر سفر التكوين - 23 : 6 .

(2) هذان هما إلهاد ومياد اللذان تنبَّأ أثناء تيه سيناء . انظر سفر العدد - 11 : 26 .

ولما راح داود يكرّس لخدمة الله الأشياء الثمينة التي جمعها لأجل الهيكل ، قال بكل تقوى : «ومن يدك أعطيناك» (أخبار الأيام الأول 29 : 14) .

ومن الله الأزلي العظيم ذاته تتعلّم التواضع ، فمن على جبل سيناء اختار تنزيل وصاياه ، وهذا الجبل ليس أعلى الجبال على الإطلاق . وكذلك خاطب مُوشيه لا من شجرة سامقة بل من شُجيرة واطئة . ولما كلّم إياهو⁽¹⁾ ، جعل الرياح تثور ، والأرض تتزلزل ، والنار تستعر ، أما بالنسبة إليه فقد اختار «صوتاً مُنخفضاً خفيفاً» (سفر الملوك الأول 19 : 12) .

قال الرّابي هونا : «مَن كان الغرور يملأ قلبه فهو مُذنب كالوثني» .

وقال أوبرا : «مَن كان مغروراً فجزاؤه الاتضاع» .

وقال حزقياه : «دُعَاء المغرور قاسي القلب وصلاته لا تُسمع» .

وقال الرّابي أشي : «مَن يُقسّي قلبه بالغرور ، فإنما يُوهي به عقله» .

وقال الرّابي يهوشوع : «التواضع خير من التّضحية» ، لأنه أليس مكتوباً :

«ذباح الله هي رُوح مُنكسرة» ، القلب المُنكسر والمُنسحق يا الله لا تحتقره»⁽²⁾ ؟

فضيلة تقوى الله

قال ابن الرّابي هونا : «مَن كان لديه علمٌ بشريعة الله دون أن يخافه ويتّقيه ،

فهو كمن أوكلت إليه المفاتيح الدّاخلية لحزنة مال ، دون المفاتيح الخارجية» .

وقال الرّابي ألكسندر : «مَن كانت لديه حكمة دنيوية وكان لا يخشى الرّبّ ،

هو كمن ينوي بناء بيت ثم لم يكمل سوى بابه ، لأنه كما كتب داود الملك في المزمور

111 : «رأس الحكمة مَخافة الرّبّ» .

(1) النبي إياهو يُدعى أيضاً : «إيليا» ، وهو في التراث الإسلامي : «إلياس» عليه السلام ، بالصيغة اليونانية للاسم : Elias . ونذكر دوماً أن مردّ ذلك أن التوراه الشائعة في عصر تنزيل القرآن الكريم كانت باليونانية حصراً ، أي الترجمة السبعينية السكندرية .

(2) سفر المزامير - 51 : 17 .

عندما كان الرَّابِي يُوحَنان⁽¹⁾ مريضاً ، زاره تلاميذه وطلبوا منه مُباركته . فقال الرَّابِي بصوته المُحتضِر : «أدعو لكم بأن تخافوا الله كما تخافون البشر» . فقال التلاميذ : «مه ! ألا يجدر بنا أن نخاف الله أكثر من البشر؟» .

أجاب الحكيم : «إنه لمن دواعي سروري أن أرى أعمالكم تدلّ على أنكم تخافون الله بهذا المقدار حقاً . فعندما تأتون شيئاً إمرأً فإنكم تتحرّون ألا تكون عين بشر قد اطلعت عليكم ، إذا فعليكم أن تتحرّوا الأمر عينه وتخشوا الله الذي يطلع على كل شيء ، وفي كل مكان ، وفي كل زمان» .

ويقول أباً إن بإمكاننا إظهار مدى خشيتنا لله من خلال معاملاتنا بين بعضنا . فيقول : «فلتخاطبوا الناس باللين والرّفق ، واعملوا على قمع الغضب ، واجنحوا إلى السّلم وتحرّوه أينما ثقفتموه مع إخوانكم ومع النَّاس أجمعين ، وبهذه الوساطة تكسبون تلك «النّعمة والفهم الحسّن في عيني الله والنّاس» ، اللّتين نالهما شلومو بكل جدارة» .

كان الرَّابِي يُوحَنان سمع الرَّابِي شمعون بن يُوحاي ، وهو يصوّر على شكل قصّة هذه الآية من سفر يشعياهُ : «لأنني أنا الرّبّ مُحبّ العَدل ، مُبغض المُختلس بالظلم»⁽²⁾ .

يُروى أن ملكاً استورد إلى مملكته بضاعة ما ، يضع في العادة عليها رسوماً ، فأمر عمّاله عندما يجتازون بدار المكوس أن يتوقّفوا ويدفعوا الرّسوم المعتادة . فلمّا استبدّت بهم الدّهشة ، خاطبه خُدّامه بهذا الكلام : «مولاي ، هذه البضائع كلّها تعود إلى مُلك جلالتك ، فلماذا يتعيّن أن يُدفع عنها ما سيؤول بالنتيجة إلى خزانتكم؟» .

أجاب الملك : «هذا لأنني أودّ حمل التجّار المسافرين على أن يتعلّموا من وراء العمل الذي أمركم الآن بتنفيذه كم أن الكذب والمخادعة خصلتان مقيّتان مبغوضتان في عيني» .

(1) أي الرَّابِي يُوحَنان بن زكّاي ، مؤسس مركز السّنهدرين في يَبني بعد خراب الهيكل 70 م .

(2) سفر يشعياهُ - 61 : 8 .

فكذلك هو الأمر فيما يخصّ معاملة الله العظيم لنا ، على اعتبارنا كحُجّاج زائرون في هذه الحياة الدّنيا . فرُغم أن كل ما نملك يعود بالأصل إليه ، فهو يزيدهُ ويُثمرهُ باستمرار ، بُغية زيادة سعادتنا الدّنيوية المؤقتة . ولذا فإنّ تصوّر أحد ما أن من الممكن خداع النَّاس بُغية تقديم الهبات لله ، تمامًا هو حصرأله ، يكون مصيره التّقرّيع في نصّ الكتب المقدّسة ، حيث أن الله العادل يُدين هذا الفعل ، ويعدّه شائناً .

من خلال ذلك نستطيع أن نستنتج مثلاً ، أن سُف النّخل المسروقة لأجل استعمالها في تنفيذ الشّعائر المنصوص عليها في عيد «سُكوت» (المظال⁽¹⁾) ، هي غير مُلائمة للاستعمال شرعاً ، بسبب الطريقة المشبوهة وغير المشروعة التي تمّ عبرها الحصول عليها .

قال الرّابي إليعيزر : «مَنْ كان الصّلاح والاستقامة يوجّهان أعماله كلّها ، فليكن على يقين بأن يتّبع مثال الله في إحسانه الغير محدود . لأننا نقرأ عنه (تبارك اسمه) : «يحبّ العدل والاستقامة»⁽²⁾ ، أي امتلأت الأرض من رحمة الرّب»⁽³⁾ . ولكن هل نظنّ أن اتّباع مثل هذا المنهج أمر يسير هيّن ؟ بالطبع لا ! إن فضيلة الإحسان لا يمكن التوصل إليها إلا ببذل جهود عظيمة . ومع ذلك ، فهل يصعب على مَنْ كان يضع تقوى الله نُصب عينيه أن يحصل على هذه المزيّة ؟ لا ، بل يمكن تحصيلها بيسر لكن كانت أعماله كلّها تنبع عن تقوى الله ومخافته .

«الشيبة تاجُ نعمة ، مادامت على طريق البر»⁽⁴⁾ . هكذا علّمنا شلومو في أمثاله . ومن خلال ذلك ، كان عدّة ربّانيين طعنوا في السنّ قد سألهم تلامذتهم عن السبب المحتمل الذي نالوا بموجبه هذه البُشرى على الكرامة الإلهية . فأجاب الرّابي نحوماه حول ذلك بما يخصّ نفسه ، بأن الله قد أنعم عليه بإدراك ثلاثة مبادئ ، تمثّلها وجهد في السّير عليها لإصلاح شأنه .

(1) سيرد ذكر هذا العيد في آخر الكتاب .

(2) سفر المزامير - 11 : 7 .

(3) سفر المزامير - 33 : 5 .

(4) سفر الأمثال لشلومو بن داود الملك - 16 : 31 .

فأولها : أنه لم يعمد البتة إلى رفع مقامه على حساب اتّضاع جيرانه . وهذا الأمر مُستحسنٌ وفق المثال الذي وضعه الرَّابِي هُونًا ، لأن هذا الأخير حينما كان يحمل على كاهله مجرافاً ثقيلاً ، صادفه الرَّابِي حُونًا بن حَيَلَاي ، فلمّا شعر بالعبء المُضني والحاطّ من شأن هذا الرَّجُل الرَّفيع القدر ، أصرّ على مساعدته في حمل الآلة لتخليصه من عبثها . غير أن الرَّابِي هُونًا رفض ذلك قائلاً : «لو كانت هذه صنعُك الأساسية لربما تركتُك تفعل ، ولكنني بالتأكيد سوف لن أدع أحداً يقوم بأمر ، إن قمتُ أنا به بنفسِي قد يُنظر إليه على أنه وضعٍ» .

وثانيها : أنه لم يأوِ البتة إلى نوم ليله وفي قلبه أيّ حقد على أحد ، على نحو العادة التي يتخذها مار سَطُرا ، الذي يتلو الدّعاء التالي قبل نومه : «يا ربّ اغفر لِمَن أساء إليّ!» .

وثالثها : أنه ما كان بخيلاً ، بل يقتدي بمثال أيوب الصّالح ، الذي يروي الحكماء عنه أنه كان يرفض أخذ ما يتبقّى له من مال حينما يبتاع شيئاً .

وثمة رابِي آخر ، اسمه أيضاً نحوماه ، أجاب الرَّابِي عَقِيبا بأنه يظنّ نفسه قد أُنعِم عليه بحياةٍ مديدة لأنه في خلال وظيفته الرّسميّة قد وضع نُصب عينيه عدم قبول الهدايا ، متمثلاً في ذلك ما كتبه شلومو : «ومَن يكره الهدايا يعيش»⁽¹⁾ . ومن مزاياه الأخرى برأيه عدم تحامله على مَنْ يسيء إليه ، متمثلاً بكلام رابّا : «مَن كان مُتسامحاً حيال عثرات النَّاس ، عامله الدّيّان الأكبر بالرّأفة» .

وقال الرَّابِي زيرا إن نعمة بلوغ سنّ الشيخوخة بالنّسبة إليه ، بفضل الله ، هي نتيجة سلوكه في حياته . فلقد كان يعامل أهل بيته بالرّأفة والرّفق ، وكان يُمسك عن تقديم رأيه على مَنْ يفوقه بالحكمة ، وكان يتجنّب ترديد كلام الله في الأماكن غير المنزهة عن النّجاسة . وكان يشتمل بالتّفلّين طوال النهار ، ليتذكّر على الدّوام واجباته الدّينيّة . ولم يكن يتخذ المدرسة ، حيث تُدرّس العلوم المقدّسة ، مكان راحة للنّوم مثلاً ، لا بشكل عارض ولا مُعتاد . وهو لم يبتهج قطّ بموت أحد ، ولم يُسمّ أحداً باسم يعافه هو أو آله الذين ينتمي إليهم .

(1) سفر الأمثال لشلومو بن داود الملك - 15 : 27 .

فريضة إكرام الأبوين

يضع الكتاب المقدس الأبوين بمنزلة موازية لمنزلة الله العليّ ، من حيث الاحترام والتكريم . وتنصّ الوصايا العشر على مبدأ : «أكرم أباك وأمك» ، كما جاء أيضاً في متن الكتاب : «أكرم الله من مالك» . وكذلك فإن «فَخَفَ الْآنَ مِنَ أَبِيكَ» ، و«تخافوا الربّ إلهكم» هما من الوصايا الإلهية ، بينما نرى أن جزاء الابن العاق الذي يبادر بالخطيئة إما إلى أبويه الأرضيين أو تجاه الأب الأعظم للكون هو الجزاء عينه ، تماماً كما هو مكتوب : «مَنْ يَلْعَنَ أَبَاهُ وَأُمَّهُ فَجَزَاؤُهُ الْقَتْلُ» ، وأيضاً : «كلّ إنسان يجدف على الله بالباطل يحمل وِزْرَ موته على عاتقه» .

ويقول الرّبانيون : «للإنسان ثلاثة رفاق في حياته : الله ، وأبوه ، وأمه» . والله يقول : «مَنْ يُكْرِمُ أَبَوَيْهِ فَقَدْ أَكْرَمَنِي ، كما لو كنت معه مقيماً» .

قال الرّابي يهوداه : «إن طُرُقَ الإنسان معروفة ومكشوفة . كالأمّ تلاطف طفلاً بالكلمات الرقيقة والأساليب الخنونة ، فتكسب التكريم والمحبة . ولذلك فالكتاب المقدس يقول : «أكرم أباك» ، قبل عبارة «أكرم أمك» . وأمّا بخصوص الخشية ، فبما أن الأب هو مُلقِّن الابن ومَنْ يعلمه الشريعة ، فالكتاب المقدس يقول إذاً : «ليخش كل إنسان أمه» ، قبل عبارة «أبيه» .

سُئل الرّابي أولاً مرّة : «فما هو إذاً مدى هذا التكريم الواجب إيلاؤه تجاه الأبوين ؟» .

فأجاب : «اسمعوني فأروي لكم كم تمّ إيلاء هذا الواجب من قبل رجل وثني ، هو داماه بن نيتنا . كان الرجل تاجر جواهر ، فرغب الحاخامون يوماً بابتياح جوهرة منه لأجل الثوب الحبري (الإيفود TIZON) الخاصّ بكبير الكهنة . فلمّا وافوا منزله ألفوا مفتاح الخزنة التي يحتفظ فيها داماه بالجوهرة مودعاً مع أبيه ، وكان آنذاك نائماً . ورفض الابن رفضاً قاطعاً إيقاظ أبيه للحصول على الجوهرة ، رغم أن الحاخامين النافذي الصبر عرضوا عليه فيها ثمناً أعلى بكثير ممّا طلب . وفضلاً عن ذلك ، لمّا أفاق أبوه فسلمهم الجوهرة ونقدوه الثمن الباهظ الذي بذلوه ، اقتطع منه الثمن الأول وردّ البقية قائلاً : «لا أتكسّب على حساب كرامة أبي» .

ليس بمقدور الإنسان دوماً أن يحكم على أعمال الناس ، وحول موضوع إظهار الاحترام تجاه الأبوين من الأبناء ، قد لا يتمكن عامة الناس من فهم حقيقة الأمر . فعلى سبيل المثال ، لربما يقدم بعض الأبناء أطيب الطعام لوالديه ، ومع ذلك يحقّ عليه حكم الابن العاقّ ، بينما قد يلجئ ابن آخر أباه إلى العمل الشاق ويستحقّ برغم ذلك الثواب . فكيف يكون ذلك ؟

يُحكى أن رجلاً وضع طعاماً لذيذاً أمام أبيه ، وطلب إليه أن يأكل منه . فلما فرغ الأب من طعامه قال : «أي بُنيّ ، قد هيات لي ألدّ طعام ، فمن أين نلتّ هذه الأطياب ؟» .

فأجاب الابن بازدراء : «كُلّ كما تأكل الكلاب أيها العجوز ، وكفّك تطرح الأسئلة» .

فاستحقّ هذا الابن عقوبة العقوق .

ويُحكى أن رجلاً كان طحّاناً وكان أبوه يُقيم معه ، في فترة كان يُجبر فيها من لا عمل له أن يعمل بضعة أيام لصالح الحكومة . فلما شارف الوقت الذي ينبغي فيه طلب هذه الخدمة من العجوز ، قال له ابنه : «اذهب فاعمل بدلاً عني في الطاحون ، وأنا أمضي لأعمل من أجل الحكومة» .

وكان الابن قال ذلك بسبب أن من كان يعمل لأجل الحكومة كان يتعرّض للضرب إن وُجد عمله غير مُرضٍ ، فراح يفكّر : «خير لي أن أعرّض نفسي لاحتمال الضرب من أن أضع أبي تحت هذا الخطر» . فلذلك ، استحقّ ثواب الابن «الذي يُكرم أباه» .

ويؤكد الرايبي حياً على أن الله يفضلّ التّكريم المبذول للأبوين على التّكريم المبذول له شخصياً . ويقول : «مكتوبٌ : «أكرم الرّبّ من مالك» ، فكيف يكون ذلك ؟ عبر بذل الصّدقات ، وفعل الخير ، ووضع الميزوزاه على عضائد بيتك ، وأن تنصب ظلّة لنفسك في عيد السكّوت ، وما إلى ذلك . وهذا كلّه في حال كنت قادراً ، أما إن كنت فقيراً فإن الاستنكاف عن ذلك لا يُحتسب عليك بمثابة الذّنْب أو الإهمال . غير أنه مكتوبٌ أيضاً : «أكرم أباك وأمك» ، فهذا الواجب

مفروض على الغني والفقير على حد سواء لزوماً . وحتى إن لزمكم الأمر لتأمين أودهما بتعاني الكدية (التسول) من باب إلى باب ، فافعلوا» .

وقال الرَّابِي أَبُوهُ : «قد اتَّبَع وكَلدي أَيْبني هذه الوصِيَّة كما يَنْبغي لها حقّ الاتِّباع» .

كان لأبيني خمسة أبناء ، لكنه لم يكن يسمح لأيّ منهم بفتح الباب لجدّهم أو القيام على حاجاته عندما يكون هو ذاته في البيت . وكما كان يودّ منهم أن يكرموا هو في حياتهم ، كان يتعامل بالإكرام مع أبيه . في إحدى المرّات طلب منه أبوه كأس ماء ، فلمّا مضى لإحضارها غلب النوم أباه فغفت عينه ، ولما عاد أبيني إلى الغرفة ، بقي واقفاً إلى جانب أبيه والكأس في يده إلى أن أفاق هذا الأخير وشرب الماء .

يسأل الرِّبانيون : «ما هي الخشية؟» و «ما هو الإكرام؟» .

اخشَ أَمَك وأباك ، بعدم الجلوس في مقعديهما وعدم الوقوف في مكانيهما وبالانتباه الشديد لكلامهما وعدم مقاطعة حديثهما . وكن مُضاعف الحذر من انتقاد أو محاسبة آرائهما وتناقض أفكارهما .

أكرم أباك وأمك بالقيام بحاجاتهما ، وتقديم الطعام والشراب لهما ، وألبسهما ثيابهما واربط لهما حذائهما ، في حال كانا عاجزين عن أداء ذلك وحدهما .

سُئِل الرَّابِي إلبعيزر عن مدى الإكرام الواجب أداؤه تجاه الأبوين ، فأجاب : «خيرٌ لك أن تطرح مالك كلّه في البحر من أن تُغضبهما» .

وقال شمعون بن يوحاي : «كما أن ثواب مَنْ يُكرم أبويه عظيم ، فكذلك هو عظيم عقاب مَنْ يهمل هذه الوصِيَّة» .

إن كل وصِيَّة في الكتاب المقدّس تحدّد مدى الثواب الحاصل عن القيام بها ، فحول هذه الوصِيَّة بالذات يُقال لنا : «لكي تطول أيامك على الأرض» ، ومغزى طول الأيام ليس في هذه الدّنيا فحسب ، بل وفي الآخرة أيضاً .

الشريعة ودراساتها

«الرَّبّ خلَقني أوّل طريقه» (سفر الأمثال - 8 : 22) . هذا يعني أن الله خلق الشريعة قبل أن يخلق الدنيا . فعديد من الحاخاميم جعلوا حياتهم سوداء كالغُراب الأسحم ، ومعنى ذلك أنهم يقسون على أنفسهم كما تقسو أنثى الغُراب على فراخها ، من خلال الدراسة المستمرة ، آناء الليل وأطراف النهار .

قال الرّابي يُوحنان : «أفضل الدّراسة هي التي تتمّ في الليل ، عندما يسود السكون ، كما هو مكتوب : «وبالليل تسيحه عندى صلاة»⁽¹⁾ .

وقال الرّابي لكيش : «ادرسوا في النهار وفي الليل ، كما هو مكتوب : «وفي ناموسه يلهجُ نهاراً وليلاً»⁽²⁾ .

وقال الرّابي حُونان من مدينة صِفُوري⁽³⁾ لا 719 : «يمكن لنا تشبيه دراسة الشريعة بكومة كبيرة من التراب ينبغي إزالتها . فالجاهل يقول : «هذا مُحال ! لا طاقة لي بنقل هذه الكومة الهائلة ، لذا سوف لن أبذل جهداً للمحاولة» ، أمّا من أوتي حكمة فيقول : «سوف أنقل بعضها اليوم ، والمزيد غداً ، والمزيد بعد غد ، وعلى هذا النحو بمضي الوقت أكون قد نقلتها بكاملها» .

فهكذا هو شأن دراسة الشريعة ، ترى التلميذ الكسول يقول : «يستحيل عليّ أن أدرس الكتاب المقدّس . فكم هذا الأمر صعب : خمسون أصحاحاً⁽⁴⁾ في سفر التكوين ، وستة وستون في سفر يشعيا ، ومئة وخمسون مزموراً ، إلخ . إن هذا فوق طاقتي بكثير» . غير أن التلميذ المُجدّ يقول : «سأدرس ستة أصحاحات في كل يوم ، وعلى ذلك تراني بمرور الوقت قد استوفيته بأسره» .

ونجد في سفر الأمثال (24 : 7) هذه العبارة : «الحكّم عالية عن الأحمق» .

(1) سفر المزامير - 42 : 8 .

(2) سفر المزامير - 1 : 2 .

(3) مدينة بالجليل الأعلى (صقورية) نافست طبرية كمركز ديني للجليل ، وصارت مدّة مقرأاً للسنّهدرين ، أقام بها يهوداه هتاسي . من أشهر التنايم فيها : يوحنا بن نوري .

(4) عبارة الأصحاح ترجمة عربية اعتمدها تراجمة التوراه لتسمية فصول الأسفار .

ويصور الرّابي يوحنا هذه الآية من الكتاب المقدس بتفاحة تتدلى من السقف . فالأحمق يقول فيها : «ليس بوسعي نيل هذه الثمرة ، فهي عالية جداً» ، أما النبيه فيقول : «إنه ليتمكن الحصول عليها بوضع درجة فوق أخرى حتى تصير في متناول اليد» . ويقول الأحمق : «وحده النبيه بوسعه دراسة الشريعة بأكملها» ، فيجيبه النبيه : «ليس عليك فرضاً لازماً أن تدرسها بأكملها» .

ويصور الرّابي لبي في هذا الأمر بالقصة التالية :

مرة في الماضي استأجر رجل خادمين ليقوما بملء سلّة بالماء . فقال أحدهما : «لماذا عليّ أن أتابع هذا العمل غير المُجدي ؟ فما إن أصبّ الماء في الجهة الواحدة حتى يتسرب في الجهة الأخرى ، ما هو جدوى ذلك ونفعه ؟» .

أما العامل الآخر ، الذي كان حكيماً ، فقال : «إن جدواه ونفعه يكمنان في المكافأة التي نلقاها على عملنا فيه» .

فهكذا هو شأن دراسة الشريعة . قال بعضهم : «ماذا تنفعني دراسة الشريعة طالما أن عليّ دوام المتابعة فيها وإلا نسيت ما تعلمت ؟» ، غير أن آخر أجاب : «الله يُجزينا بالإحسان على نيتنا التي في قلبنا ، حتى وإن كنا ننسى» .

وكان الرّابي زعيرا قال إن أي حرف من كلمات الشريعة قد لا نأبه له ، يكون من شأنه في حال نقصه إبطال الشريعة بأسرها . ففي سفر تثنية الاشتراع نقرأ (17) : «ولا يُكثّر له نساءً لئلا يزيغ قلبه» . ولقد انتهك شلومو هذه الوصية ، وقال الرّابي شمعون إن الملائكة قد رأت فعلته الضالّة فخاطبت الذات الإلهية قائلة : «يا مالك الكون ، إن شلومو قد جعل من شريعتك كمثل قانون معرض للتحريف والنقص . فلقد انتهك ثلاث وصايا ، هي بالتحديد : «لا يُكثّر له الخيل» ؛ «ولا يُكثّر له نساء» ؛ «وفضةً وذهباً لا يُكثّر له كثيراً» . فعندها أجاب الربّ : «إن شلومو هالكٌ لا محالة من على وجه الأرض ، هو ومئة شلومو آخريأتون بعده ، ويرغم ذلك فإن أدنى حروف الشريعة لا يحول ولا يزول» .

* * *

كان من عادة الرّبانين مراراً أن يستشهدوا ، بأسلوب المعنى المجازي ، بعدة مقاطع من متن الكتاب المقدّس ، ومن بينها افتتاحيّة الأصحاح الخامس والخمسين من سفر يشعيا : «أيّها العطاش جميعاً هلّموا إلى المياه ، والذي ليس له فضة تعالوا اشترُوا وكُلُوا ، هلّموا اشترُوا بلا فضة وبلا ثمن خَمراً ولبناً» .

فهذه الأشربة الثلاثة ، التي يُدعى النَّاس إلى الحصول عليها بهذا النَّحو ، تُعدّ لدى حاخامات بني يسرئيل ممثلة للشريعة .

سأل أحد الرّبانين : «لماذا يُشبّه كون الله بالماء ؟» .

على هذا السّؤال تمّ تقديم الجواب التالي : «كما أن الماء يجري من الأعلى (أي الجبل) ، ليصير إلى مكان مُنخفض (البحر) ، فهكذا هو شأن الشريعة ، إذ أنها يُوحى بها من علياء السّماء ، ولا يمكن استحواذها إلا لمن كانت نفسه سَمحةً مُتواضعة» .

وسأل رابي آخر : «لماذا رُبطت كلمة الله بالخمر واللبن ؟» . فكان الجواب عليه : «بما أن هذه الأشربة لا يمكن حفظها في أوان ذهبية ، بل حصراً في أوان من الفخار ، فكذلك إن هذه العقول هي خير الأوعية والمكامن لعلوم الشريعة ، وهي العقول التي توجد عادةً في الأجساد البسيطة غير المتكلفة» .

لذا ، على سبيل المثال ، فإن الرابي يهوشوع بن حنينا ، الذي كان بسيطاً للغاية في مظهره ، حاز على حكمة ومعرفة عظمتين ، وكان من بين الكلمات المفضّلة لديه هذه : «رغم أن الكثيرين قد أظهروا مقداراً عظيماً من المعرفة ، بغضّ النظر عن فتنتهم الشّخصيّة ، فلعلهم لو كانوا أقلّ وسامةً ربما بلغ تحصيلهم العلمي شأواً أبلغ وأبعد» .

وثمة سبب آخر لتشبيه كلمة الله بالأشربة المذكورة آنفاً ، وهي أنها بحاجة إلى رعاية وانتباه ، لئلا تُهرق أو يصيبها الفساد ، فعلى النَّحو ذاته نرى أن معرفتنا بالكتاب المقدّس والتراث الشفهي تحتاج إلى رعاية دائمة ، لئلا تُضيع .

* * *

كما وتُشبه الوصايا بمصباح ، وتُشبه شريعة الله بالنور . فنرى أن المصباح يفيض بالضوء طالما كان فيه زيت وحسب ، وكذلك فإن من يلتزم بالوصايا يتلقى ثوابه أثناء أداء هذه الوصايا . وأما الشريعة فهي نور دائم مُستديم لا ينقطع ، وهي حُرُزٌ وحصنٌ دائمان لمن يتدارسها ، كما هو مكتوب :

«إذا ذهبتَ [فإن الشريعة] تهديكَ ، إذا نمتَ تحرسُكَ ، وإذا استيقظتَ فهي تُحدثُكَ»⁽¹⁾ .

وتأويل ذلك يكون على النحو التالي : إذا ذهبتَ تهديكَ (أي في هذه الحياة الدنيا) ؛ إذا نمتَ تحرسُكَ (أي في القبر)⁽²⁾ ؛ وإذا استيقظتَ فهي تُحدثُكَ (أي في الحياة الآخرة) .

يُحكى أن مُسافراً اجتاز في رحلته بغابة في ليلة مُظلمة مُوحشة ، فكان يسير بوجَلٍ شديد ، إذ أنه كان يخشى من قطاع الطُّرُق الذين كانوا يجوسون الدرب الذي يجتازه ، كما كان يخشى من أن تزلَّ به قدمه في حفرة أو شفير لا يظهران للعيان في طريقه ، وكذلك كان يخشى من الوحوش المفترسة التي كان يعرف بأنها تحوم حوله . وبطريق المصادفة ، عثر الرجل على مشعل من خشب الصنوبر ، فأشعله ، فوفر له ضياؤه ارتياحاً كبيراً . وهكذا لم يعد يخشى مخاطر الوقوع في أشواك العوسج أو تزلَّ به قدمه في هاوية ما ، لما صار بوسعه أن يرى أمامه . غير أن فزعه من قطاع الطُّرُق ومن الوحوش بقي يؤرقه ولم يُبارحه إلى أن انبلج الفجر وطلعت الشمس . ومع ذلك فقد بقي غير واثق من اتجاهه إلى أن خرج من الغابة وبلغ مُفترق الطُّرُق ، فعاوده إذذاك الاطمئنان .

(1) سفر الأمثال - 6 : 22 .

(2) في فقه الشريعة اليهودية ما يُعرف بعذاب القبر (في العبرية : חבוט הקבר جُبُوط هَقْبِير) كما هو الحال في العقيدة الإسلامية . وهنا نجد الكثير من تداخلات أحاديث عذاب القبر وأشراف قيام الساعة ، في التراث الشفهي المُقحم على الحديث الشريف . ومصدر هذه الروايات كلها (المتعارف عليها بالإسرائيليات) هو حتماً من أجداء المدراسيم والتلمود ، وجُلُّ ما دخل منها التراث الإسلامي كان عن طريق 3 شخصيات يهودية دخلت الإسلام بُعيد عهد الرسول ﷺ لتبث فيه ما ليس منه : كعب الأبحار (كعب بن ماتع الحِميري من يهود اليمن) ، وهب بن منبه ، وعبد الله بن سلام .

فأما الظُّلْمَةُ التي كان الرَّجُل يسير فيها ، فهي كناية عن نقص المعرفة الدِّينية .
وأما المشعل الذي عثر عليه فهو يمثّل وصايا الله ، التي أرشدته إلى سواء السَّبيل
حتى بلغ نعمة ضياء الشَّمس ، التي تمثّل بدورها كلمة الله المقدّسة ، أي كتابه .
ويرغم ذلك ، طالما كان الرَّجُل ما يزال في الغابة (أي الحياة الدُّنيا) ، لم يكن ينعم
تماماً براحة البال ، فبقي قلبه معتلاً ضعيفاً ، وكان عُرْضَةً للضلال عن الطريق
القوميم . لكنه عندما يبلغ مُفترق الطُّرُق (أي الموت) ، يكون بوسعنا أن نعدّه
رجلاً صالحاً بالحقّ ، وننبري قائلين⁽¹⁾ :

«الصَّيْتُ خَيْرٌ مِنَ الدَّهْن الطَّيِّب ، ويوم الممات خيرٌ من يوم الولادة»⁽²⁾ .

* * *

قام الرَّابِي يُوحَنان بن بَرُوقا والرَّابِي إِيْعيزَر بن حِسْمًا بزيارة معلّمهما ،
الرَّابِي يُوساه ، فقال لهما :

«ما هي أخبار المدرسة ؟ وماذا يجري فيها ؟» .

فأجابا : «لا كلام لنا ونحن تلميذك ، فانتَ مَنْ يتكلّم وما علينا نحن إلا
الإصغاء» .

أجاب الرَّابِي يُوساه : «بغضّ النَّظر عن ذلك ، لا يمضي يوم بغير حصول
أمر ذي شأن في المدرسة . فمَنْ كان يُحاضر فيكم اليوم ؟» .

أجابا : «الرَّابِي إِيْعيزَر بن عازُورياه» .

«فما كان موضوع بحثه ؟» .

(1) هنا مثال حيّ على أسلوب الجدلية الماورائية الغيبية التي ينتهجها أكثر شُرّاح التّراث القديم
في تقديم الخطاب الدِّيني ، بمحاولة الرّبط التلقائي بين واقع الحياة ومتون الدين ، معتبرين
أن ما يفسرونه إنّما هو الخلاصة الوافية في توافق علوم العقل والنقل . ولا ريب أنّنا اليوم
في مطلع القرن الحادي والعشرين بتنا بحاجة ملّحة إلى خطاب ديني عصري مُستنير أكثر
انسجاماً مع ثورة المعلومات ، لي طرح حلولاً جادة لمشاكل الإنسان والمجتمع ، لا أن يكون
مجرد قناع لتمرير مصالح «الديوك الرومية» وأحلافهم من أهل الحكم والبنس .

(2) سفر قهليلت (الجامعة) - 7 : 1 .

أجاب أحدهما : «قد اختار هذه الآية من سفر التثنية⁽¹⁾ : «تجمع الشعب جميعاً ، الرجال والنساء والأطفال» ، وشرَحَها على النحو التالي :

«الرجال يأتون للتعلّم ، والنساء للاستماع ، فلماذا الأطفال ؟ لكي ينال من يحضرهم ثواباً على تعويد أبنائهم على مخافة الربّ» .

«وشرَحَ آية من سفر قهلت (الجامعة) : «كلام الحكماء كالمنايسس وكأوتاد مُغرزة [هي كلمات] أرباب الجماعات ، قد أُعطيت من راع واحد»⁽²⁾ .

«فقال : «لماذا يُشبه كلام الحكماء بالمنايسس (المهاميز) ؟» . هذا لأن المنخس يُجبر الثور على شق الثلم مستقيماً ، والثلم القويم يطرح غذاءً وافرًا لحياة الإنسان . فهكذا هي شريعة الله تُبقي قلب الإنسان قويمًا ، لكي يُنتج عملاً صالحاً يبقى لحياته الأبدية . ولكن لثلاث تقول : «فإن كان المنخس قابلاً للتحرّيك ، للزم أن يكون ذلك شأن الشريعة» ، يرد أيضاً في متن الكتاب : «كأوتاد» ، وكذلك «كأوتاد مُغرزة» ، لثلاث يخطر لك مسألة أن الأوتاد المدقوقة في الخشب تتلاشى عن النظر في كل ضربة تدقّها ، وأنه بالتالي من خلال هذا التشبيه يمكن اعتبار شريعة الله عرضة للتلاشي أيضاً . كلا ، بل هي كوتد مُثبتة أو مغروس ، كما هي الشجرة المغروسة لتطرح ثماراً وتُنتج وفرة» .

«وأما «أرباب الجماعات» فهم من يتجمعون معاً لدراسة الشريعة . ومراراً ما تنشأ الجدالات الخلافية بينهم ، فرمما تقول في نفسك : «بين حشد هذه الآراء المختلفة كيف لي أن أركن إلى دراسة للشريعة ؟» ، فالجواب مكتوب في متن الأسفار المقدسة : «قد أُعطيت من راع واحد» . فمن إله واحد أوحيت الشرائع كلّها . لذا فعليك أن تجعل أذنيك كأنخُل ، وأن توطئ قلبك لتحصيل هذه الكلمات بأجمعها» .

فقال الربّي يواش : «طوبى لجيلٍ تعلّم على يديّ الربّي العييزر» .

* * *

(1) لم يتبين لنا نصّها في سفر التثنية ، فترجمناها كما جاءت في النصّ أمامنا .

(2) سفر الجامعة - 12 : 11 .

عبر حاخامو المجمع الديني في يَينِه⁽¹⁾ «בונה» عن احترامهم للبشر بأسرهم ، سواءً أكانوا من علماء الشريعة أو من الجهَّال ، على هذا النحو :

«أنا مخلوق من عباد الله وكذلك هو جاري ، قد يميل هو إلى الفلاحة في الحقل ، وأفضّل أنا حرفة في المدينة . أقوم في الصّباح الباكر لمصالحى الشخصية ، ويقوم هو باكراً لتدبير مصالحه الخاصّة . وطالما كان غير راغب بانتهاك حقوقي ، فعليّ أن أحرص على عدم القيام بما من شأنه الإضرار بمصالحه . هل يمكنني أن أتخيّل أنني أقرب إلى الله إن كانت مهنتي تدعو إلى تحفيز مسألة تعلّم الشريعة ، فيما كانت مهنته ليست بذاك ؟ كلا ، فسيان ما نتجزه من عمل صالح ، كبيراً كان ذلك أم صغيراً ، يجازينا الله بالثواب بحسب ما لنا من صالح النيات» .

ويقدّم أبيّيه هذه النصيحة الأثيرة لديه :

« . . . وليكن أيضاً لئن الأخلاق ميّالاً إلى إحلال مشاعر الودّ والتّراحم بين النّاس ، فإن فعل ذلك يكسب لنفسه محبة كل من الخالق والخليقة» .

وكان الرّابي راباً دوماً يقول إن حيازة الحكمة ومعرفة الشريعة تؤدّيان بالضرورة إلى التوبة والمبادرة إلى صالح الأعمال . ويقول : «لأنه لا جدوى من تحصيل معرفة عظيمة والتبحر في شرائع التوراه والتلمود ، ثم التصرف بغير احترام تجاه الأبوين ، أو تجاه من كانوا أكبر بالسّن أو بالمستوى العلمي» .

«رأس الحكمة مخافة الرّبّ ، والفطن هو من يمثل لأوامر الله»⁽²⁾ .

وقال راباً : «الكتاب المقدس لا يُبتننا بأن دراسة أوامر الله هي ما يدلّ على حُسن الفهم ، بل إن تنفيذها هو الأصل . لكن علينا أن نتعلّم قبل أن نكون أهلاً للتطبيق ، ومن يفعل في حياته خلاف تعاليم الله العليّ خيرٌ له لو لم يولد» .

* * *

(1) يَينِه (يَقْنه بالإشكنازية) أو يُينى جنوبي يافا والُدّ ، اشتهرت بمجمعها الديني اليهودي بعد خراب الهيكل 70 م ، أقام فيها يُوحنان بن زكّاي مركزاً للسّهدرين ، كما أقام جَمليئيل يشيفا כרם ביבנה . دعاها الرومان يامنيا Jamnia ، والصليبيون إيبلان Ibelin .

(2) مزامير داود - 111 : 10 .

«الرجل الحكيم يبدو في أدنى فعالة عظيماً ، والأحمق يظهر في أعظم فعالة وضيعة» .

سأل تلميذ يوماً معلّمه : «ما هي عين الحكمة؟» ، فأجاب المعلّم : «هي أن تحكم على الأمور بعقل متحرّر ، وأن تفكّر بذهن صافٍ ، وأن تحبّ جارك» . وأجاب معلّم آخر : «نهاية الحكمة أن تعرف ذاتك» .

«إياك والغرور وغلبة التيه الناجمين عن رتبة التعلّم ، وروض لسانك على نُطق عبارة : «لا أدري»⁽¹⁾» .

إن كرّس امرؤ ما نفسه للدراسة ، وأصبح عليمًا بما تقرّبه أعين معلّميه وقلوبهم ، وبقي برغم ذلك متواضعاً عند تبادل الحديث مع الناس الأقل ذكاءً ، وأميناً في معاملاته ، وصادقاً في أعماله اليوميّة ، فإن الناس يقولون في حقّه : «طوبى للأب الذي سمح له بدراسة شريعة الله ، وطوبى للمعلّمين الذين ثقّفوه على دروب الحقّ ، فما أجمل طريقه ، وما أحقّ أعماله بالتقدير ! ألا عن أمثاله ينصّ الكتاب المقدّس بالقول : «قال لي : أما أنت يا يسرّئيل عبدي يا يعقوب الذي اخترته !»⁽²⁾» .

ولكن إن كرّس امرؤ ما نفسه للدراسة ، وأضحى عليمًا ، فازدري من كانوا أدنى منه ثقافة وعلماً ، وكان غير أمين في تعاملاته مع أقرانه ، فالتناس في حقّه يقولون : بؤساً للأب الذي سمح له بدراسة شريعة الله ، وبؤساً لمن ثقّفه ، فكم هو مستهجن سلوكه ، وكم هي طريقه كريهة ممجوجة ! ألا عن مثل هذا تنصّ التوراه بالقول : «بادت الأمم من أرضه»⁽³⁾» .

* * *

(1) لهذه المقولات أشباه في أدبنا العربي بصدر الإسلام ، كما في مجاميع الجاحظ الأدبيّة : «من حاز «لا أدري» حاز نصف العلم» ، وأيضاً : «يظنّ الإنسان عالماً ما طلب العلم ، فإذا ظنّ أنه علّم فقد جهل» .

(2) سفر يشعيا - 41 : 8 .

(3) سفر المزامير - 10 : 16 .

عندما تقف النفوس قبالة كرسي الحكم الذي لله ، يُسأل الفقراء والأغنياء والفسّاق ، كلاً على حدة ، عن عُذْرهم في عدم دراستهم للشريعة . فإن تعلّل الفقير بفقره يتمّ تذكيره بهليل⁽¹⁾ ، فرغم أن تحصيل هليل المالي كان ضئيلاً فهو كان يُنفق نصفه ليدفع رسم الدخول إلى المدرسة .

وعندما يُسأل الغنيّ ، فيجيب بأن شؤون تجارته و ثروته قد ألهته عن تحصيل العلم ، يُجاب بأن الرّابي إليعيزر كان يملك ألف حُرْج وألف سفينة ، ومع ذلك تخلّى عن مُتّع الثروة كلّها ، وراح يرتحل من مدينة إلى أخرى بحثاً عن مسالك الشريعة وتفاسيرها .

وعندما يتحجّج الفاسق بأن الشهوات قد أغوته وحرفته صوب طريق الرذيلة ، يُسأل إن كانت الغواية التي تعرّض لها أكثر مما تعرّض له يوسف ، أو إن كان امتحن بشكل أشدّ وأبلغ ، في السراء والضراء .

ولكن برغم أننا مأمورون بدراسة شريعة الله ، علينا ألا نجعل منها عبئاً ثقيلاً ولا أن نُهمّل في سبيل الدّراسة أي واجب أو ساعة ترفيه مشروع . سأل تلميذ في إحدى المرّات : «لماذا تُعدّ عبارة «والحنطة تجمعها في وقتها»⁽²⁾ واحدة من وصايا التوراه ؟ أليس جمع الناس لمحصلهم من الحنطة أو ان نُضجها أمراً بديهيّاً ؟ وعلى ذلك تكون الوصيّة غير ذات جدوى» .

فأجاب الرّبّانيون : «ليس الأمر بذلك ، فلربّما كانت هذه الحنطة تعود إلى رجل أهمل عمله من أجل الدّراسة . إن العمل مُقدّس ومُكرّم في عيني الله ، فهو لا يشاء بأن يُحجم الرّجال عن أداء واجباتهم اليومية ، حتى وإن كان ذلك من أجل دراسة شريعته» .

* * *

(1) تقدّم ذكر هليل هنّاسي في هذا الفصل ، ص 239 ، فليُنظر .

(2) راجع ما يشابه ذلك في سفر راعوت ، الأصحاح الثاني .

فريضة الصلاة

احمد الله على النعماء كما تحمده على الضراء . وعندما تسمع بوفاة أحد ما فقل : «تبارك الديان العادل» .

الدعاء والصلاة هي السلاح الوحيد لبني إسرائيل ، وهو سلاح توارثوه عن آباؤهم ، سلاح مُجرب في آلاف المعارك . وحتى لما تكون أبواب الدعاء مُوصدة في السماء ، فإن أبواب الدموع تبقى مفتوحة .

فنقرأ (في سفر الخروج - 17 : 11) أنه في الحرب مع عماليق ، عندما كان مُوشيه يرفع يده يغلب إسرائيل . فهل كان ليد مُوشيه تأثير على الحرب ، للبدء بها أو إيقافها ؟ لا ، وإنما حينما كان بنو إسرائيل يشخصون بأبصارهم للأعلى بقلوب كسيرة إلى الآب الأكبر في السماء ، لم يكن يتسنى لأي مكروه أن ينال منهم .

«فصنع مُوشيه حية من نحاس ووضعها على الرأية ، فكان متى لدغت حية إنساناً ونظر إلى حية النحاس يحيى» (سفر العدد - 21 : 9) .

فهل كان لحية النحاس القدرة على القتل أو على منح الحياة ؟ لا ، بل حينما كان بنو إسرائيل يرفعون أبصارهم إلى الآب الأكبر في السماء ، كان هو يمنحهم الحياة .

يسأل الأنبياء : «هل يستمتع الله بلحوم الأضاحي ودمائها؟» .

لا ، فهو لم يقيدهم بالأوامر بقدر ما كان يهبهم من النِّفحات . إذ يقول : «لأنفسكم وليس لي ما تقدمون» .

كان لبعض الملوك ابنٌ ، ألفاه يعمه يوماً في القصف والعريضة مع رفاق السوء ، ولا يأكل ولا يشرب إلا معهم . فقال الملك : «كُل على خواني ، كُل واشرب يا بُني كما يحلو لك ، ولكن ليكن ذلك على خواني وليس مع رفاق السوء» .

كان الناس يحبون تقديم القرابين ، وكانوا يقدمون أضاحيهم لآلهة غريبة ، لذا قال الله لهم : «إذا ضحيتُم ، فأحضروا قرابينكم هذه إلي» .

ينصّ الكتاب المقدّس بأن العبد العبري الذي يحبّ عبوديته تُخرز أذنه على ساكفة الباب⁽¹⁾ ، فلماذا ؟

لأن هذه الأذن سمعت من جبل سيناء هذه الكلمات : «لأنهم عبيدي ، لا يُباعون ببيع العبيد»⁽²⁾ . عبيدي ، وليس عبيد عبيدي ، لذلك فاخرز أذن مَنْ يحبّ عبوديته ويرفض الحرية الممنوحة إليه .

إن مَنْ يقدّم قرباناً كاملاً يُجازى عليه بأعطية كاملة ، ومَنْ يقدّم قربان محرقة ينال جزاء قربان المحرقة ، غير أن مَنْ يُخضع نفسه ويتواضع لله وللبرينال ثواباً عظيماً كما لو أنه قدّم قربانين الدنيا كلّها .

* * *

إن إله أبرهام يكون في عون مَنْ يُحدّد مكاناً معيناً للصلاة للرّبّ .

قال الرّابي هينا : «عندما يموت مثل هذا الرجل يقولون في حقّه : «قدمت رجل تقيّ ومتواضع ، كان يتبع مثال أبينا أبرهام» .

فكيف لنا أن نعرف أن أبرهام قد حدّد مكاناً معيناً للصلاة ؟

«وبكر أبرهام في الغد إلى المكان الذي وقف فيه أمام الرّبّ»⁽³⁾ .

قال الرّابي حلبو : «علينا ألاّ نتعجّل عندما نكون على وشك مغادرة مكان للعبادة» .

وقال الرّابي أبييه : «هذا فيما يتعلّق بمغادرة مكان للعبادة ، لكن علينا قطعياً أن نُسارع عندما نتوجّه إلى مثل هذا المكان ، كما هو مكتوب : «لنعرف فلنتبّع لنعرف الرّبّ»⁽⁴⁾ .

(1) انظر حول ذلك ما يرد في سفر الشّبية - 15 : 16-17 : «ولكن إذا قال لك لا أخرج من عندك ، لأنه قد أحبّك وبيتك ، إذ كان له خيرٌ عندك * فخذ المخرز واجعله في أذنه وفي الباب ، يكون لك عبداً مؤبداً ، وهكذا تفعل لأمتك أيضاً» .

(2) سفر اللّيوين - 25 : 42 .

(3) سفر التكوين - 19 : 27 .

(4) سفر هوشع - 6 : 3 .

وقال الرَّابِي زَيْدٌ : «عندما كنتُ أبصر الرِّبَّانِيَيْنِ يَخْفَوْنَ إلى المحاضرة وهم يرغبون بالحصول على مقاعد مناسبة ، كنتُ أفكّر في نفسي : «إنهم ليتهكّون بذلك حُرْمَةَ يومِ شَبَّاتٍ» ، غير أنني عندما سمعتُ الرَّابِي طَرْفون يقول : «على المرء أن يُسارع دوماً إلى تطبيق وصايا الله» حتى في يومِ شَبَّاتٍ ، كما هو مكتوب : «وراء الرّبِّ يمشون ، كأسدٍ يُزْمَجِرُ»⁽¹⁾ ، سارعتُ أنا أيضاً لأبكر في الحضور إلى المدرسة» .

وهذا المكان الذي تكون فيها صلاتنا إلى الله أبلغ وأدنى إلى قبوله هو بيته ، كما هو مكتوب :

«لتسمع الصلّاة التي يصلّيها عبدك أمامك في هذا الموضع»⁽²⁾ ، إشارة إلى إقامة الصلّاة في بيت الله .

وقال راببن بن عاده : «ما مصدر السّند على العرف الشّفاهي بأنه متى اجتمع عشرة رجال للصلّاة في بيت الله ، تنزلت عليهم الذّات الإلهيّة ؟

«في متن الكتاب المقدّس مكتوب : «الله قائمٌ في مَجْمَعِ الله»⁽³⁾ . وحول مسألة شرط كون عدد «الجماعة»⁽⁴⁾ (أو حشد المُصلّين) ينبغي ألا يقلّ عن عشرة رجال ، فتبيّنها من خلال كلام الله إلى مُوشيه بخصوص الجواسيس الذين تمّ إرسالهم لاستطلاع أرض كنعان⁽⁵⁾ . فلقد قال : «حتى متى أغفر لهذه الجماعة الشّريرة؟»⁽⁶⁾ . هذا ولقد كان عدد الجواسيس يبلغ اثني عشر رجلاً ، ولكن لما كان يهوشوع وكالب صادقين ومؤمنين ، فإن عدد «الجماعة الشّريرة» اقتصر بالتالي على عشرة أنفار» .

(1) سفر هُوشيع - 11 : 10 .

(2) سفر الملوك الأول - 8 : 29 ، من صلاة شلومو الاحتفالية بتدشين الهيكل .

(3) مزمور لأساف ، سفر المزامير - 82 : 1 .

(4) مصطلح الجماعة في العبرية : קהילה (عيداه) ، والمفهوم موجود في فقه العبادات الإسلاميّة حول شرط قيام صلاة الجماعة وصلّاة الجمعة . ورغم أنه قد لا تكون ثمة علاقة مباشرة بين المفهومين ، فمن المهمّ عقد مقارنة بينهما ضمن إطار مصادر اليهوديّة والإسلام .

(5) انظر حول ذلك سفر العدد - الأصحاح 13 .

(6) سفر العدد - 14 : 27 .

ويتابع السّؤال : «وما هو مصدر السّند على العُرف الشّفاهي القائل بأنه لما يقوم ولو رجل واحد بدراسة الشريعة ، تنزّل عليه الذّات الإلهية ؟» .
 لأنه مكتوب⁽¹⁾ : «في كلّ الأماكن التي فيها أصنعُ لاسمي ذكراً ، آتني إليك وأباركك» .

* * *

هناك أربع من شخصيات التّوراه تكلّوا ادعيتهم بغير تدبّر أو تفكير ، ومع ذلك أبرّ الله ثلاثة منهم ، بينما خاب الرّابع . وهم : الإيعيزر خادم أبرهّام ، وكاليب بن يَفْنَه ، وشاؤول بن قيش ، ويفتاح الجلعاوي .

أما الإيعيزر فقد دعا : «ليكن أن الفتاة التي أقول لها : «أميلي جرّتك لأشرب» ، فتقول «اشرب وأنا أسقي جِمالك أيضاً» ، هي التي عيّنتها لعبدك يصحاق» (سفر التكوين - 24 : 14) .

فهبّ أن عبدة قامت بأداء المطلوب كما دعا الإيعيزر ، أكان أبرهّام ويصحاق يرضيان ؟ غير أن الله أبرّ بمُرادِه ، وجرى أن «رَبّقاء كانت خارجة» .

أما كاليب فقد دعا : «الذي يضرب قرية سيفر 7777 7777 وبأخذها أعطيه عكسّاه 7777 ابنتي امرأة» (سفر القضاة - 1 : 12) .

فهل كان جاهزاً لإعطاء ابنته لعبد أو لوثنى ؟

غير أن الله أبرّه ، فكان أن «أخذها عاتنيشيل بن قناز 7777 7777 ، أخو كاليب 7777 الأصغر منه ، فأعطاه عكسّاه ابنته امرأة» .

وأما شاؤول فقال : «فيكون أن الرّجل الذي يقتله (أي جُليات) يُغنيه الملك غنيّ جزيلاً ويعطيه بنته» (سفر صموئيل الأول - 17 : 25) .

فترى أنه خاض الرّهان ذاته الذي خاضه كاليب ، فأبرّه الله أيضاً ، وتمكّن داود بن يَشّاي من تحقيق ما دعا به .

(1) سفر الخروج - 20 : 24 .

وأما يفتاح فقد أفاض عمّا بصدره على هذا النحو : «إن دفعت بني عمّون ليدي ، فالخارج الذي يخرج من أبواب بيتي للقائي عند رجوعي بالسّلامة من عند بني عمّون ، يكون للرّبّ وأصعده مُحْرَقَةً» (سفر القضاة - 11 : 31) .

فلنفترض أن جحشاً أو كلباً أو قطاً كان أول خارج للقائه عند رجوعه ، هل كان يُقدّمه قربان محرقة ؟ إن الله لم يُبرِّ هذه المراهنة ، فيرد في الكتاب المقدّس : «ثم أنى يفتاح إلى همِصْفَاهِ הַמַּלְאֵכָה إلى بيته ، وإذا بابته خارجة للقائه»⁽¹⁾ .

قال الرّابي شمعون بن يوحاي : «لقد تحقّقت مطالب ثلاثة أشخاص من قبل أن يتمّوا تلاوة دعائهم ، وهم : إلبعيزر ومُوشيه وشلومو .
«ففيما يخصّ إلبعيزر نقرأ : «وإذ كان لم يفرغ بعدُ من الكلام ، إذا ريقاه خارجة»⁽²⁾ .

«وفيما يخصّ مُوشيه نجد : «فلما فرغ من التّكلم بكلّ هذا الكلام انشقت الأرض التي تحتهم ، وفتحت الأرض فاها وابتلعهم»⁽³⁾ « (أي قورح وربعه) .
«وفيما يخصّ شلومو نجد : «ولما انتهى شلومو من الصّلاة ، نزلت نارٌ من السّماء وأكلت المحرقة والذبائح» (أخبار الأيام 2 - 7 : 1) .

تقدّيس يومِ شَبَات

قال الرّابي يوحانان ، نقلاً عن الرّابي يوسيه : «المبتهجون بقدوم يومِ شَبَات (السّبب المقدّس) يُورثهم الله من فضله بغير حساب . كما هو مكتوب : «فتفرح بالرّبّ» ، و «أجعلك تفرح بميراث يعقوب أهلك» . لا كما كان وعد أبرهّام : «قُم فامش في الأرض طولها وعرضها» . ولا كوعد يصحاق : «أعطيك كل ما في هذه الأرض» ، بل كما كان وعد يعقوب : «وتمتدُّ غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً» .

(1) سفر القضاة - 11 : 34 .

(2) سفر التكوين - 24 : 15 .

(3) سفر العدد - 16 : 31 .

قال الرّابي يهوداه إنه لو كان اليسرئيليون قد راعوا تماماً حرمة يوم شبّات الأول ، بعدما صدر الأمر الإلهي بتقدّيس اليوم السّابع ، لكانوا نجوا من ربقة العبوديّة ، كما هو مكتوب : «وحدث في اليوم السّابع أن بعض الشعب خرجوا ليلتقطوا (المتنا) ، فلم يجدوا»⁽¹⁾ . وفي الأصحاح التالي نقرأ : «وأتى عماليق وحارب يسرئيل في رفيديم»⁽²⁾ .

والقصّة التالية هي واحدة من قصص كثيرة وُضعت لتبيّن أن الحفاظ على حرمة يوم شبّات يعود على صاحبه بالثواب :

يُحكى أن يهودياً ، اسمه يوسف ، كان يحافظ على حرمة يوم شبّات ، وكان له جار بالغ الثراء ، له اعتقاد كبير بالتنجيم . وكان ثمة منجم عراف محترف قال له إن ثروته ستؤول بأجمعها إلى يوسف . ولذلك ، قام الرجل ببيع أطيانه وأملاكه ، واشترى بثمنها جوهرة عظيمة ، قام بإخاطتها في عمامته قائلاً : «سوف لن يتسنّى ليوسف على الإطلاق الحصول عليها» . لكن الذي جرى أنه عندما كان الرجل في بعض الأيام واقفاً على متن سفينة تقلّه في البحر ، هبّت ريح قوية وأطاحت بالعمامة من على رأسه . والتفتت الجوهرة سمكة ، فلما اصطيدت وعُرِضت للبيع في السوق ، صادف أن يوسف اشتراها لتكون طعام مائدته عشية يوم شبّات . وبالطبع لما شقّ جوفها ألقى الجوهرة بداخلها⁽³⁾ .

سُئل الرّابي يشمعييل بن يهوشوع : «كيف أضحى أغنياء أرض يسرئيل بهذا الغنى الفاحش؟» ، فأجاب : «كانوا يؤدّون ضريبة العشر الواجبة في وقتها ، كما هو مكتوب : «تؤدّي الأعشار لكي تصير غنياً» . فابتدر السائل قائلاً : «ولكن الأعشار كانت تُدفع لليوبين ، فقط أيام قيام الهيكل . فما الفضيلة التي حازوها أثناء إقامتهم في بابل ، حتى أضحوا هناك أغنياء أيضاً؟» .

-
- (1) سفر الخروج - 16 : 27 .
(2) سفر الخروج - 17 : 8 .
(3) قصّة رمزية تتكرّر مراراً في آداب الشعوب ، وفيها مثال مهمّ على وجوب دراسة الفارق بين التراث الأدبي الرّمزي والتراث الدّيني الناتج عن وحي . وسنرى في الفصل القادم نماذج أخرى مهمة تُلقَى أضواءً جليّة على هذا المفهوم .

فأجاب الرأبي : «ذلك أنهم رفعوا مكانة الشريعة المقدسة عن طريق العمل في تفسيرها» . «ولكن في البلاد الأخرى ، حيث لم يعملوا في تفسير الشريعة ، كيف استحقوا ما أتاهم من ثروة؟» ، فكان الجواب : «استحقوه بما كانوا يبدون من تقديس ليوم شبّات» .

قال الرأبي أحياناً بن أبّا : «مكثتُ في لوديك مرّة من المرّات ، فاستضافني رجل غني في يوم شبّات . كانت مائدته حافلة بأنواع الأطعمة الباذخة ، وكانت الصّحاف مصنوعة من الفضة والذهب . وقبل القيام بتلاوة مباركة للطعام ، قال صاحب البيت : «لله مُلك الأرض وما عليها» . وبعد تلاوة المباركة قال : «السّموات سمواتُ للرّب ، أما الأرض فأعطاها لبني آدم»⁽¹⁾ . قلت لمُضيفي : «يخال لي أنك تعذرني يا سيّدي العزيز ، إن أنا سمحتُ لنفسي أن أسألك عن موجب استحقاقك لهذه النعماء؟» ، فقال : «قد كنتُ فيما مضى جزّاراً ، وكنتُ دوماً أحرص على انتقاء خيار الماشية لأذبحها لأجل شبّات ، لكي يحصل النّاس من اللّحم على أحسنه في ذلك اليوم . ومن جرّاء ذلك ، كما أعتقد جازماً ، نلت هذه النعم» . فأجبتُ : «فتبارك الرّب الذي أعطاك هذا كلّهُ» .

في إحدى المرّات سألتُ ثرنوسروبيس الحاكم الرأبي عقيبا : «ما هو هذا اليوم الذي تدعوه شبّات وتتغالي في ذكره مزاياه؟» ، أجاب الرأبي : «وما هي مزايك أنت على باقي النّاس؟» ، أجاب : «أنا أسود على الجميع ، إذ أن الإمبراطور قد عينني حاكماً عليهم» .

فقال عقيبا : «فإن الرّب إلهنا ، الذي هو أعظم من إمبراطورك ، قد عين يوم شبّات يوماً أقدس من باقي الأيام» .

وما أجمل ما يؤثر حول عشية يوم شبّات :

عندما يبرح المرء الكنيس قافلاً إلى داره يرافقه ملاك للخير وملاك للشّر . فإن ألقى الخوان مزجى في داره ، ومصاييح شبّات تشعّ بالأنوار ، وامراته وأولاده يرتدون ثياب العيد لمباركة يوم الرّاحة المقدّس ، يقول ملاك الخير :

(1) سفر الزمير - 115 : 16 .

«ليكن شَبَّات القادِم وكل شَبَّات لَكم يَأتي على هذه الشَّاكِلة . سَلامٌ لهذا المسكن ، سَلام» ، وينبغي لملاك الشَّرِّ أن يُجيب : «آمين!» .

ولكن إن كان الدَّار غير مَجهَّز ، ولم تكن التَّرتيبات أُعدَّت لاستقبال يَوم شَبَّات ، وما من قلب في الدَّار أنشد : «تعالوا يا أَحِبَّتِي نَسْتَقْبِل العَروس ، ونحتفي بقدوم شَبَّات» ، فعندها يتكلَّم ملاك الشَّرِّ ويقول :

«ليكن كلَّ شَبَّات لَكم يَأتي على هذه الشَّاكِلة» ، فيجيب ملاك الخير باكيًّا مُتَّحِبًّا : «آمين!» .

الثَّواب والعقاب

أذنب شمشون تجاه الرَّبِّ بعينه ، كما هو مكتوب : «قد رأيتُ امرأةً من بنات الفِلسطِينيين . . . إياها خُذ لي ، لأنها حَسُنَّت في عيني» (سفر القضاة - 14 : 3) . ولذلك فإنه بعينه قد عُوقِب ، كما هو مكتوب : «فأخذهُ الفِلسطِينيون وقلعوا عينه»⁽¹⁾ .

وأبشالوم بن داود كان يفتخر بشعره ، «ولم يكن في كل يسرئيل رجلٌ جميل كأبشالوم ، ولهذا كان ممدوحاً جداً ، فمن باطن قدمه حتى هامته لم يكن فيه عيب . وعند حلقه رأسه - إذ كان يحلقه في آخر كل سنة ، لأنه كان يثقل عليه - كان يزن شعر رأسه متي شِقْل بوزن الملك»⁽²⁾ . ولذلك ، فبشعره شُنق⁽³⁾ .

أمَّا مريم فقد انتظرت موشيه ساعةً (لما كان في صندوق البردي) . ولذلك ، فإن اليسرئيليين انتظروا مريم سبعة أيام ، عندما أصابها البرص . «ولم يرتحل الشعب حتى أرجعت مريم» (سفر العدد - 12 : 15) .

(1) سفر القضاة - 16 : 21 .

(2) سفر صموئيل الثاني - 14 : 25-26 .

(3) سفر صموئيل الثاني - 18 : 9 ، وذلك بأنه كان بوغر أفرام «راكباً علي بغل ، فدخل البغل تحت أغصان البُطمة العظيمة الملتفة ، فتعلق رأسه بالبُطمة وعلق بين السماء والأرض ، والبغل الذي تحته مر» .

ويوسف دَقَّنَ أباه ، «فصعد يوسف ليدفن أباه»⁽¹⁾ . لم يك ثمة أعظم من يوسف بين بني إسرائيل ، غير أن موشيه فاقه شأناً فيما بعد ، لذلك نجد : «وأخذ موشيه عظام يوسف معه»⁽²⁾ . غير أن هذه الدنيا لم تشهد أعظم من موشيه ، لذلك فهو مكتوب : «ودَقَّنَه (الله) في الجواء في أرض مُواب»⁽³⁾ .

* * *

عندما أضحت المشقة والحسرة نصيب بني إسرائيل ، وتم إقصاء الضعفاء عن شعبهم ، كان ملاكان يربتان بأيديهما على رأس من ينسحب ، قائلين : «لا يشهد هذا خلاص الشعب» .

ف عندما تحمل المشقة بالرعية لا يحسن بالمرء أن يقول : «أنا ذاهب إلى بيتي ، فأكل وأشرب ، وأموري تكون بخير» ، فعن مثل هذا يتحدث الكتاب المقدس : «فهو ذا بهجة وقرح ، ذبح بقر ونحر غنم ، أكل لحم وشرب خمر . لناكل ونشرب ، لأننا غدا نموت . فأعلن في أذني رب الجنود : «لا يُفقرن لكم هذا الإثم حتى تموتوا» (سفر يشعيا - 22 : 13-14) .

أما معلّمنا موشيه ، فقد حمل نصيبه على الدوام من مشقة الشعب ، كما هو مكتوب : «أخذنا حجراً ووضعناه تحته» (سفر الخروج - 17 : 12) . أفلم يكن ممكناً لهما أن يقدماً له مقعداً أو وسادة ؟ لكنه بعدها قال : «ما دام اليسرئيليون في شدة (خلال الحرب مع عماليق) فيها أنا ذا أتحمّل ما يقع على عاتقي إلى جانبهم ، لأن من يتحمّل ما يقع عليه في زمن البلاء يعيش ليهتج بساعة السلوان . وويل لمن يقول في نفسه : «لعلّي أترك واجبي ، فمن تراه يدري بي إن أنا تحمّلت واجبي أم لم أتحمّل ؟» ، فحتى حجارة بيته وأغصان الأشجار تراها تكون شاهدة عليه ، كما هو مكتوب في الأسفار : «لأن الحجر يصرخ من الحائط ، فيشهد له الجائر من الحشَب»⁽⁴⁾ .

(1) سفر التكوين - 50 : 7 .

(2) سفر الخروج - 13 : 19 .

(3) سفر تثنية الاشتراع - 34 : 6 .

(4) سفر حبقوق - 2 : 11 . لكن كيف يقول موشيه بما لم يكن مكتوباً بعد في عصره !؟

السعي في الرزق

قال الرّابي مثير : «عندما يعلم امرؤُ ابنه حرفةً ، ينبغي له أن يدعو مالك الكون ومُعطي الغنى والفقير ، لأنه في كل حرفة ويا ب رزق ثمة أغنياء وفقراء لا محالة . فمن الغباء أن يقول شخص ما : «هذه حرفة رديئة ، سوف لن توفّر لي معاشي» ، لأنه سوف يجد الكثيرين قد أجادوا وأفلحوا في المهنة ذاتها . وكذلك لا ينبغي لرجل مُنعم في عمله أن يتباهى ويقول : «هذه حرفة ممتازة ، خير الصنائع ، لقد جعلتني موسراً» ، لأن الكثيرين تمّن يعملون في الحرفة ذاتها سواء لم يلاقوا إلا الفقر . بل ليذكر الجميع أن كل شيء في الحياة إنما يتأتى من خلال رحمة الله وحكمته الواسعتين» .

وقال الرّابي شمعون بن إليعزّر : «تراني ألاحظ طيور السماء ودواب الأرض كيف يأتيها رزقها ، وهي مع ذلك مخلوقة لخدمتي ، فأقول : «ألا يحقّ لي أن أحظى بحياة مثلها أو أقلّ منها مشقةً ، حيث أنني خلقت لخدمة إخواني من الناس ؟ ولكنني للأسف قد أخطأتُ في حقّ خالقي ، ولذلك عوقبتُ بالفقر والحاجة إلى العمل !» .

وقال الرّابي يهوداه : «غالبية المكاريين (البغالين) قُساء القلوب ، فهم يضرّبون دوابهم المسكينة بغير رحمة . ومعظم الجمالين مُستقيمون ، إذ أنهم يجوبون البوادي والمفاوز الموحشة ، ويجدون مُتسعاً من الوقت للتأمل والتفكير في الله . ومعظم البحارة متمسكون بأهداب الدين ، فحياتهم اليومية المحفوفة بالأخطار تدفعهم إلى ذلك . وخير الأطباء قمينون بالعقاب ، إذ أنهم في أثناء تحصيل علومهم يتعاطون التجارب على مرضاهم ، فتكون عاقبة ذلك مراراً الموت . أما خير الجزّارين فيستحقّون أن يُصنّفوا مع العماليقين ، فهم معتادون على الدّم والقسوة ، كما هو مكتوب في حقّ العماليقين : «اذكُر ما فعله بك عماليق في الطريق عند خروجك من مصر . كيف لاقاك في الطريق وقطع من مؤخرتك كلّ المُستضعفين ، وأنت كليلٌ ومُتعبٌ»⁽¹⁾ .

(1) سفر تثنية الاشتراع - 25 : 17-18 .

حول الموت

يولد الإنسان ويدها مطبقتان ، ويموت ويدها مبسوطتان . فهو عندما يدخل مُعترك الحياة يودّ لو يقبض كل شيء ، أما عندما يبارح الحياة فإذا بكل شيء ينسلّ غيلةً من يديه .

مثل الإنسان كمثّل الثعلب ، فقد أبصر ثعلبٌ كرمًا فتملّكته الشهوة إلى الأكل من أعنابه . بيد أن السّياح كان ضيق الثغرات ، وكان جسم الثعلب أضخم من أن يتمكن من التّفاذ عبرها . فكان أن صام ثلاثة أيام ، ولما نحل جسمه واستدقّ ولج الكرم ، وراح يولم بكامل شهيتّه على عناقيد العنب ، ناسياً أمر الغد وما سيأتي به ، ولم يكثرث إلا للانغماس فيما هو فيه من متّع . فإذا به يغدو مكتنزاً من جديد ، ويعجز عن الخروج من ساحة وليمته . ولذا ، لم يجد بُدّاً من الصّوم ثلاثة أيام أخرى ، فلماً أمسى نحيلاً من جديد عبّرَ من خلال السّياح ونفذ إلى خارج الكرم ، نحيلاً كما دخله .

فهكذا شأن الإنسان ، يلج الحياة ضعيفاً وعرياناً ، ثم يغادرها ضعيفاً وعرياناً بالمثل .

وكم هي معبرة هذه الحكاية التالية ، مما يؤثّر عن الإسكندر⁽¹⁾ :

يُروى أنه حام حول أبواب الجنة ، وطرق الباب للدخول .

«من الطارق؟» . . سألت الملائكة السدنة .

«أنا الإسكندر» .

«ومن هو الإسكندر؟» .

«أنا الإسكندر بذاته ، الإسكندر الأكبر ، فاتح الدنيا» .

أجابت الملائكة : «لسنا نعرف هذا الاسم ، فهذا باب الله ، لا يدخله إلا

الصالحون» .

(1) أي الإسكندر الأكبر المقدوني Alexander (356-323 ق.م) الفاتح الشهير وأحد عباقرة الحرب على مرّ العصور .

فراح الإسكندر يرجو إعطاءه شيئاً ليبرهن على أنه قد بلغ أبواب الجنة ، فطرح له شظية من عظم جُمجمة . فأراها الحكماء ، فوضعوها في إحدى كفتي ميزان . كال الإسكندر ذهباً وفضة في الكفة الأخرى ، غير أن شظية العظم بقيت أثقل ، فكال المزيد بما فيه تاجه وقلاداته المرصعة بالجواهر وإكليله الملكي ، غير أن كسرة العظم الصغيرة ظلت تفوقها جميعاً بالوزن . عندها ، أخذ أحد الحكماء ذرة من تراب من الأرض وجعلها على قطعة العظم ، فإذا بالميزان يثبُ إلى أعلى .

لقد كانت شظية العظم تلك من العظام المحيطة بعين الإنسان ، وأما عين الإنسان هذه فليس ثمة شيء يُرضيها أو يملأها إلا التراب الذي يطمرها في القبر . عندما يموت الصالحون فالأرض هي التي تتحسّر . فالذرة تبقى دوماً ذرة ، بخلاف أنها انتقلت من مُلك صاحبها السابق . ولذا فليكن الخاسرون .

ما الحياة الدنيا إلا كطيف زائل ، كما يقول وحي الكتاب المقدس . كظل بُرج أو شجرة ، أهو ظلُّ يبقى وقتاً ؟ لا ، بل هو كظلُّ طير يطير ، يمضي من ناظرنا فلا طيرُ يبقى ولا ظلُّ .

موعظة جنازية لموت حاخام

«حييي نزل إلى جتته إلى خمائل الطيب ، ليرعى في الجنّات ويجمع السوسن»
 דודי ירד לגנו לערגות הבשם לרעות בגנים וללקט שושנים:

(نشيد الأناشيد - 6 : 2) .

فما الدنيا إلا جنة حييي ، وحييي هو ملك الملوك . وكخمائل الطيب هو يسرائيل ، حيث يفوح عبير الرحمة الزكي ، ويتضوع أريج العلم مع النسائم العليلة ، وتحفّ بخمائل الطيب دعة السلام ورغده . حيث تُزهر النباتات وتُورق ، فتوقر أوراقها وغصونها الوارفة حِرزاً أميناً لمن أمضَ به لهيب الحرّ أو مكابدة الحياة . وحيث حييي يطلب أجمل الرياحين ويقطف الأزاهير ، التي هي طلاب الشريعة ، من يجدون في عقائد دينهم غاية النعيم .

عندما يشتدّ لهيب النّار بخشب الأرز ويستعر ، أفلا يجدرُ بنبات الزُّوفا
(أشنان داود) أن يخاف ويرتعد ؟ وعندما يسحب الزّبانية بالشّصّ حيّة لُوَيَاتان⁽¹⁾
وَعَمَّا الرّهية من أعماقها السّحيقة ، فما يبقى من أمل لأسمك المناقع الضّحلة ؟
وعندما يُلقى بخييط صيد السّمك في السّيل الجارف ، فكيف تشعر بالأمان أمواه
السّواقي الرّقاقة ؟

فلنرثي لحال أولئك الباقيين على قيد الحياة ، ولا نرثين من اصطفاه الله من
وجه الأرض . فلقد آل هو إلى السّكينة الأبديّة ، بينما نمكثُ نحن ها هنا خاضعين
للأسى والحسرات .

* * *

(1) وحش بحري يرمز إلى الشرّ ، يذكر في سفر أيوب - 41 : 1 ؛ ومزامير داود - 74 : 14 ؛
والمزامير - 104 : 26 ؛ وسفر يشعيا - 27 : 1 .

الفصل الثالث

وقائع من سير حياة الحاخاميم

الرأبي عقيبا⁽¹⁾

רבי עקיבא

من واجب الإنسان شكر الله على ما يصيبه من ضرر ومكروه ، كما يشكره على ما يصيبه من خير ، كما هو مكتوب : «فَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ ، وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ»⁽²⁾ .

«من كل قلبك» . أي من كل نزوع طبيعي لك ، سواء تجاه الخير أو الشر .

«ومن كل نفسك» . حتى وإن لزم الأمر أن تعطيه روحك .

«ومن كل قوتك» . كل ما تملكه لشخصك . وبغض النظر عما يُقدَّر لك

من الخير أو الشر ، فعليك أن تكون شكوراً .

كان الرأبي عقيبا في إحدى المرّات مرتحلاً عبر البلد ، وكان معه جحش وديك

ومصباح . فلما حل الظلام كان قد بلغ قرية حاول فيها البحث عن مأوى ، لكنه

لم يُصب في ذلك فلاحاً .

(1) عقيبا (بالعبرية أكيبا أو أكيفا) بن يوسف (50-135 م) مؤسس اليهودية الحاخامية وشارح المشناه (القانون الشفهي) . عاضد ثورة شمعون بار كوخبا ضد الرومان (132-135 م) ، وكان يعتقد المسيح المنتظر ، وإثر فشل ثورته قُبض على عقيبا فعُذَّب حتى مات .

(2) هذه آية من أهم صلاة في التوراه : «اسمع يا يسرئيل» (شماع يسرئيل שמע ישראל) ، سفر التثنية - 6 : 4-9 ، ونصّها الكامل : «اسمع يا يسرئيل ، الربّ إلهنا رب واحد . فَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ . وَلتَكُنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الَّتِي أَنَا أَوْصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ عَلَى قَلْبِكَ ، وَقَصِّهَا عَلَى أَوْلَادِكَ ، وَتَكَلِّمْ بِهَا حِينَ تَجْلِسُ فِي بَيْتِكَ ، وَحِينَ تَمْشِي فِي الطَّرِيقِ ، وَحِينَ تَنَامُ ، وَحِينَ تَقُومُ . وَارْبِطْهَا عَلَامَةً عَلَى يَدِكَ ، وَلتَكُنْ عَصَائِبَ بَيْنَ عَيْنَيْكَ . وَارْبِطْهَا عَلَى قِوَامِ أَبْوَابِ بَيْتِكَ وَعَلَى أَبْوَابِكَ» .

قال الرّابي : «كلّ ما يأتي من الله فهو خير» ، وحزم أمره على التوجّه إلى الغابة ، عازماً على المبيت فيها . أشعل مصباحه ، فأطفأته الريح ، فقال : «كلّ ما يأتي من الله فهو خير» . وما لبثت الوحوش الضّارية أن افترست الجحش والديك ، فلم يزد الرّجل على مقولته : «كلّ ما يأتي من الله فهو خير» .

في اليوم التالي سمع بأن فرقة من جنود الأعداء كانت قد اجتازت بالغابة في تلك الليلة . فلو أن الجحش كان نهق ، أو أن الديك صاح ، أو لولمخ الجنود ضوء مصباحه ، لكان لاقى حتفه دونما ريب ، ولذلك عاود مقولته : «كلّ ما يأتي من الله فهو خير» .

* * *

وجرى مرّة عندما كان الرّابي جَمليثيل ، والرّابي إليعيزر بن عازورياه ، والرّابي يهوداه ، والرّابي عقيبا ، كانوا يسرون معاً ، تناهت إلى أسماعهم أصوات صياح وضحك وصخب فرح صادرة عن حشد من الناس على مَبعدة . فبكى أربعة من الحاخاميم ، ما خلا عقيبا الذي ضحك بقوة .

فقال الآخرون له : «عقيبا ، ما الذي يضحكك ؟ هؤلاء الوثنيون الذين يعبدون الأصنام يُقيمون في أمان وسلام ، وينعمون بالسعد والحُبور ، بينما تمكث مدينتنا المقدّسة خراباً ياباً ، فلتبكِ بدلاً من أن تضحك» .

أجاب الرّابي عقيبا : «لهذا السّبب بعينه أضحك وأشعر بالسّعادة ، فإن كان الله يسمح لهؤلاء الذين يعصون أوامره بالحياة سُعداء على الأرض ، فكم تكون بالأحرى عظيمة السّعادة التي يدخرها في الحياة الآخرة لمن يتبعون أوامره وينتهون عن نواهيه !» .

في مناسبة أخرى ، كان هؤلاء الحاخامون يتجهون صعوداً إلى يروشلّايم ، فلما بلغوا جبل صُوفيم ورأوا الإفقار الذي يخيم على المكان مزقوا ثيابهم . ولما بلغوا الموضع الذي كان يقوم فيه الهيكل ، رأوا ثعلباً ينفر من البقعة التي كان بها قدّس الأقداس ، فراح أربعة منهم يبكون بمرارة ، إلا عقيبا بدأ بالمثل جدّلاً . فراح زملاؤه يوتخونه مجدّداً على شعوره هذا الغير ملائم في نظرهم .

فقال : «تُكثرون فرحي ، فقولوا أنتم أولاً : ما الذي يُبكيكم ؟» .

«لأن الكتاب المقدس يُخبرنا بأن أي غريب (من غير نسل أهرُون) يقترب من قدس الأقداس ، ينبغي أن يُقتل ، والآن فما هي الثعالب تتخذها وجاراً لها . أفلا نبكي لذلك ؟» .

أجاب عقيبا : «فأنتم تبكون إذاً للسبب ذاته الذي يُفرح قلبي . أليس مكتوباً : «أشهد لنفسي شاهدين أمينين ، أورياً الكاهن وزكرياً بن بِيْرخياهُو»⁽¹⁾ ؟ فما هي علاقة أورياً بزكرياً ؟ لقد عاش أورياً عندما كان الهيكل الأول قائماً ، بينما عاش زكرياً في أيام الثاني . أفلا تعلمون بأن نبوءة أورياً تُشبه نبوءة زكرياً ؟ فمن خلال نبوءة أورياً نجد : «لذلك بسبيكم تُفْلح صهيون كحقل ، وتصير يروشلأيم خرباً ، وجبل البيت شوامخ وَعَر»⁽²⁾ ، وفي سفر زكرياً نجد : «سيجلس بعد الشيوخ والشيوخات في أسواق يروشلأيم»⁽³⁾ . فقبل أن تتحقق نبوءة أورياً ، قد كان يمكن لي أن أشك في حقيقة كلام زكرياً المُطمئن ، ولكن بما أن الأولى قد تحققت بالفعل ، أراني واثقاً أن وعود زكرياً سوف تتحقق أيضاً ، فلهذا السبب أنا فَرِحُ جدلان» .

أجاب الرفاق : «إن كلامك هذا يعزينا يا عقيبا ، فأدام الله علينا عزاءه» .

ومرة أخرى بعد ، لما كان الرأبي إليعيزر طريح الفراش وقد برّحت به أسقام المرض ، وجعل أصحابه وتلامذته يبكون عنده ، إذا بالرأبي عقيبا يظهر فَرِحاً ، ويسألهم علام يبكون . فأجابوا : «لأن راينا المحبوب مُلقى بين الحياة والموت» . أجابهم : «لا تبكوا ، بل على العكس ابتهجوا . فإن كان نبذه لم يُمس حاذقاً ، ولم تُنكس رأيتهُ ، لظننتُ أنه في الحياة الدنيا قد نال ثواب صلاحه ؛ ولكنني إذ أرى الآن معلّمي وهو يعاني لما قد يكون اقترفه في حياته من آثام ، فإنني أبتهج وأزهو . فلقد علمنا بأن أكثرنا صلاحاً وتُقَى لا بد أن يكون ارتكب ذنوباً ، ولذا فهو في الحياة الآخرة ينال سلاماً» .

(1) سفر يشعيا - 8 : 2 .

(2) سفر ميخا - 3 : 12 ، وقبل ذلك ترد النبوءة في سفر يرميا - 26 : 18 .

(3) سفر زكرياً - 8 : 4 .

وعندما كان الرّابي إلبعيزر مريضاً ، قام بعبادته أعيان الحاخاميم الأربعة ، وهم : الرّابي طرفون ، والرّابي يهوشوع ، والرّابي إلبعيزر بن عازورياه ، والرّابي عقيبا .

فتكلّم الرّابي طرفون وقال : «أنت لبني يسرئيل خيرٌ من وبل المطر على أديم الأرض ، لأن المطر يحيي الحياة في الدّنيا فحسب ، أما أنت يا معلّمي فلقد ساعدت على إنضاج ثمار هذه الحياة الدّنيا والآخرة» .

وقال الرّابي يهوشوع : «أنت لبني يسرئيل خيرٌ من الشّمس ، فإن كانت الشّمس تنير هذه الدّنيا فحسب ، فأنت قد وهبت نورك لهذه الحياة الدّنيا وللآخرة» .

ثم تكلّم الرّابي إلبعيزر بن عازورياه ، فقال : «أنت لبني يسرئيل خيرٌ من الأب والأم للإنسان . فهما يقدمانه إلى هذه الدّنيا ، أما أنت يا معلّمي فترشده إلى سواء السبيل نحو طريق الخلود» .

ثم تكلّم الرّابي عقيبا ، فقال : «من الخير للإنسان أن يُبتلى ، إذ أن مُعاناته تكفّر عن سيئاته» .

قال معلّمه : «فهل في الكتاب المقدّس تأكيدٌ لذلك يا عقيبا ؟» .

أجاب عقيبا : «أجل ، «كان منشيّه ابن اثنتي عشرة سنة حين ملكك ، وملكك خمساً وخمسين سنة في يروشلايم ، وعمل الشّرّ في عيني الرّب» (سفر الملوك الثاني - 21 : 1) . فكيف كان ذلك ؟ أيكون الملك حزقياه علّم الشريعة للعالم بأسره ، ولم يعلم ابنه ؟ حتماً لا ، لكن منشيّه لم يلتفت إلى وصاياها وأهمل كلمة الله حتى ابتلي جسده بالأمراض ، كما هو مكتوب (في سفر أخبار الأيام الثاني - 33 : 10) : «وكلم الرّب منشيّه وشعبه فلم يُصغوا ، فجلب الرّب عليهم رؤساء الجنّد الذين لملك أشور ، فأخذوا منشيّه بخزامة وقيّدوه بسلاسل نحاس وذهبوا به إلى بابل . ولما تضايق طلب وجه الرّب إلهه ، وتواضع جداً أمام إله آبائه ، وصلى إليه . فاستجاب له وسمع تضرّعه ، وردّه إلى يروشلايم إلى مملكته . فعلم منشيّه أن الرّب هو الله» .

«فماذا كان من أمر ملك أشور مع منشيّه؟ لقد وضعه في برميل من نحاس وأضرم تحته ناراً، فلما جعل منشيّه يعانى الآلام المبرحة في جسده، راح عقله يعانى أكثر فأكثر، ففكر: «أصرخ إلى الله القدير؟ واحسرتاه، إن سخطه عليّ لشديد. وإن استصرختُ أوثاني فهذا كله هباء. واكرباه وحسرتاه، أي أمل بقي لي؟».

«فصلّى لأكبر أوثانه، وبقي ينتظر استجابة بلا طائل. فصرخ إلى الأرباب الأدنى شأناً، وبقي ماكنأ بلا صرّيح ولا مجيب. وأخيراً توجه إلى الله الأزلي العظيم، فقال:

«يا يهواه الأزلي! يا إله أبرهام ويصحاق ويعقوب ومن تلاحمهم، يا مبدع السموات والأرض. يا من خلقت للبحار شيطاناً، وضبطت بكلمتك جيروت المحيط العظيم. يا من رحمته تعدل عظمته وسُلطانه، ويا من آلى على نفسه قبول توبة الأوابين إليك بقلب سليم. قد جئتُك بذنوب تعدل رمل الشطّ. قد أسأتُ أمامك، وارتكبتُ كلّ مقيت في حضرتك وعملتُ كلّ شرّ. فها أنا ذا آتي إليك مُسربلاً بقيودي، وعلى ركبتي أتوسّل إليك، طالباً بأسمائك العظمي الرّحيمة، أن ترحم بلائي وشكواي. مغفرتك وعفوك يا ربّ! لا تُهلكني بهذه الشدّة بما اقترفت يداي، ولا تذرّ عذابي يدوم للأبد. ورغم أنني لا أستحقّ رحمتك يا ربّ، خلّصني بمنك وكرمك. ومن الآن فصاعداً سأمجّد اسمك كلّ أيام حياتي، إذ أن مخلوقاتك كلّها تهلّل بتمجيدك، ولك كلّ العظمة والخير دائماً وأبداً، سِلاه⁽¹⁾!».

«فسمع الله صلاته، كما هو مكتوب: «فاستجاب له وسمع تضرّعه، وردّه إلى يروشلايم إلى مملكته».

تابع عقيباً قائلاً: «فمن خلال ذلك نتعلّم أن في البلاء مغفرة للخطايا».

* * *

(1) سِلاه تعبير عبري: سلاه يرد مراراً في مزامير داود، معناه: تسبيح.

قال الرَّابِي إِيْعِزَّرَ الكَبِيرَ : «نحن مأمورون بما يلي : «فَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلَهَكَ
من كلِّ نَفْسِكَ وبكلِّ ما هو مُحِبِّبٌ إِلَيْكَ» .

«أفلا تتضمَّن عبارة «من كلِّ نَفْسِكَ» مغزى «بكلِّ ما هو مُحِبِّبٌ إِلَيْكَ» ؟

«لربما يحبُّ بعض النَّاسِ نَفْسَهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَحِبُّ مَالَهُ ، فله يُقال : «من كلِّ
نَفْسِكَ» ، بينما بخصوص مَنْ كان يَحِبُّ مَالَهُ أَكْثَرَ من نَفْسِهِ فالأمر الإلهي ينصّ :
«وبكلِّ ما هو مُحِبِّبٌ إِلَيْكَ» .

غير أن الرَّابِي عَقِبَيا على الدَّوام يشرح عبارة «من كلِّ نَفْسِكَ» على أنها
تعني : «حتى وإن طُلِبَت منك حياتك» .

وماذا كان موقف الرَّابِي عَقِبَيا إبان صدور ذلك المرسوم الذي حرَّم على
اليسرِّيَّليين دراسة الشَّريعة ؟ لقد أسَّس عدَّة رعويا ت سرِّيَّة ، وراح يدرِّسهم
خفِيَّةً .

فقال له پاپوس بن يُوْداه : «ألسْتَ خائفاً يا عَقِبَيا ؟ قد تُكتشف أفعالكَ ،
فَتُعاقَب على مُخالفتكَ للمرسوم» .

أجاب عَقِبَيا : «اسمع ، سأروي لك قصَّة . يُحكى أن ثعلباً كان يسير
بجانب النَّهر ، فأبصر بالسَّمَكِ يسبح ويسبح جيئةً وذهوياً ، دون توقُّف ، فقل
لنفسه : «علامَ أنتنَّ في عجلة من أمركنَّ ؟ ما الذي يخيفكنَّ ؟» .
أجن : «شباك الصَّيَّادين» .

«فقال الثَّلَب : «تعالينَ إذأ ، وعشنَ معي علي اليابسة» .

«فضحكت الأسماك ، وقُلن : «ويقولون إنك أكثر الحيوانات حكمة ؟
الحقَّ أنك أكثرها غفلةً . فإن كنا تحت الخطر حتى في موطننا الأصلي ، فكم
بالأحرى نكون في خطر أدهى إن نحن تركناه ؟» .

«فشأننا هو كذلك بالضبط . إذ يُقال لنا عن الشَّريعة إنها «حياتنا وطول
أيامنا» . فهذا عندما تكون أمورنا بخير وأمان ، فكم هي حاجتنا إليها أكبر
بالأحرى في أوقات كهذه ؟» .

ويقال إنه لم يمض كثير من الوقت بعدها ، حتى زُجَّ بالرَّابِّي عَقِيْبَا فِي السَّجْنِ بسبب تدرسه الشريعة ، وإذا به فِي السَّجْنِ الَّذِي حُبْس فِيهِ يَجِدُ پاپوس ، الَّذِي كَانَ مُدَانًا بِجُنَايَةٍ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ .

فَقَالَ لَهُ الرَّابِّي عَقِيْبَا : «پاپوس ، مَا الَّذِي أَتَى بِكَ إِلَى هُنَا ؟» .

فَأَجَابَ پاپوس : «مَرَحَى لَكَ مَرَحَى ، بِأَنَّكَ تُسَجِّنْ لِتَدْرِيسِكَ شَرِيعَةَ الرَّبِّ ، أَمَا أَنَا فَعَارًا لِي وَسِنَارًا ، إِذْ أَتَيْتُ هُنَا بِسَبَبِ أُمُورٍ الْبَاطِلِ» .

فَلَمَّا سِيقَ الرَّابِّي عَقِيْبَا إِلَى الْإِعْدَامِ ، كَانَ وَقْتُ صَلَاةِ الصُّبْحِ قَدْ دَخَلَ . فَصَاحَ بِصَوْتِ جَهْوَرِيٍّ ثَابِتٍ : «اسْمَعْ يَا يَسْرَائِيلَ ، الرَّبُّ إِلَهُنَا رَبُّ وَاحِدٍ» .

فَرَاخَ الْجَلَادُونَ يَمْزِقُونَ لَحْمَهُ بِالْمَنَاخِسِ الْمُدْبِيَّةِ ، غَيْرَ أَنَّهُ بَقِيَ يَرُدُّدُ : «الرَّبُّ وَاحِدٌ» (أَدُونَايَ إِحَاد) .

وَتَابَعَ : «كَنتُ دَوْمًا أَقُولُ إِنَّ الْآيَةَ «مَنْ كَلَّفَ نَفْسَكَ» تَعْنِي : حَتَّى وَإِنْ طَلَبْتَ مِنْكَ حَيَاتِكَ ، وَكَنتُ أَتَسَاءَلُ إِنْ كَانَ فِي وَسْعِي حَقًّا أَنْ أُبْرَّ بِكَلَامِي هَذَا . فَهَا أَنَا ذَا الْيَوْمِ أَفْعَلُ ، وَإِنَّ «الرَّبَّ وَاحِدًا» .

وبهذه الكلمات الأخيرة فاضت روحه إلى بارئها .

فَنُعْمَى لَكَ يَا أَيُّهَا الرَّابِّي عَقِيْبَا⁽¹⁾ ، بِأَنَّ رُوحَكَ خَرَجَتْ طَاهِرَةً ، وَأَنَّ سَعَادَةَ الْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ تَكُونُ مُلْكًا لَكَ بِتَمَامِهَا .

الرَّابِّي الْيَشَاعُ بْنُ أَبُويَاهِ רבי אלישע בן אבויה

الرَّابِّي الْيَشَاعُ بْنُ أَبُويَاهِ ، الَّذِي كَانَ عَلَامَةً لَا يُجَارَى فِي فِقْهِ الشَّرِيعَةِ ، بَاتَ فِي أَوَاخِرِ حَيَاتِهِ مُرْتَدًّا مَشْمُومًا . وَكَانَ الرَّابِّي مَثِيرًا وَاحِدًا مِنْ تَلَامِيذِهِ ، لَمْ يُثْنِ شَيْءٌ عَنْ مَحَبَّتِهِ الْفَائِقَةِ الَّتِي يَكْتَنُهَا لِمُعَلِّمِهِ .

(1) نَحْنُ الْمُسْلِمُونَ نَنْظُرُ إِلَى كُلِّ إِنْسَانٍ مُؤْمِنٍ مُوَحَّدٍ بِأَنَّهُ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ ، وَلَا نَقُولُ بِاقْتِصَارِ الْإِيمَانِ عَلَى شَعْبٍ دُونَ آخَرَ ، بَلْ «إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» .

وحدث في إحدى المناسبات عندما كان الرَّابِّي مثيرٌ يحاضر في المدرسة ، أن دخل بعض التلاميذ وقالوا له : «ها هو معلّمك الإشاع يمتطي صهوة حصان في يوم شبّات المقدّس» .

فخرج الرَّابِّي مثير من المدرسة ، ولما أدرك الإشاع مشى بجانب حصانه . فحيّاه هذا الأخير ، وسأل : «آية آية من الكتاب المقدّس كنت تفسّر؟» .
أجاب الرَّابِّي مثير : «من سفر أيوب ، الآية «وبارك الرَّبُّ آخرة أيوب أكثر من أولاه»⁽¹⁾» .

قال الإشاع : «فكيف فسّرتَ هذه الآية؟» .

«بأن الرَّبُّ زاد على كلّ ما كان من مال لأيوب ضعفاً» .

أجاب الإشاع : «لكنّ معلّمك عَقيباً قال غير ذلك ، قال إن الرَّبُّ بارك أواخر أيام أيوب بضعفين من التوبة والعمل الصّالح» .

فسأل الرَّابِّي مثير : «فكيف تفسّر إذاً الآية «نهايةٌ أمرٌ خيرٌ من بدايته»⁽²⁾؟ هَبْ أن رجلاً ابتاع بضاعةً ما في شبابه ومُنِي فيها بخسائر ، فهل من الممكن أن يستردّ ثروته في شيخوخته ؟ أو لنفترض أن شخصاً درس شريعة الله في شبابه ثم نسيها ، فهل من المُحتمل أن تعود إلى ذاكرته في أواخر أيامه؟» .

أجاب الإشاع : «معلّمك عَقيباً لم يقل ذلك ، بل شرح الآية بأن «عواقب الأمور تصحّ إن صحّت بداياتها» . وسيرة حياتي تُثبت صواب هذا التفسير . ففي اليوم الذي أُدخلتُ فيه بعهد أبرّهام⁽³⁾ عمل أبي مآدبة عظيمة ، فراح بعض من زوّاره يغتني ، والآخر يرقص ، بينما راح الحاخامون يتبادلون الحديث حول حكمة الله وشرائعه . فراق الأمر لأبي أبوياء ، فقال : «عندما يشبّ ولدي تعلّمونه فيصبح مثلكم» . فلم يك راعباً بتعليمي لوجه الله ، بل ليُشهر اسمه من خلالي وحسب . لذلك في آخر أيامي صرتُ خبيثاً ومُرتدّاً . والآن هيّا عدّ» .

(1) سفر أيوب - 42 : 12 .

(2) سفر الجامعة - 7 : 8 .

(3) المراد بعهد أبرّهام في اليهودية الحثان ، انظر سفر التكوين - 17 : 9-14 .

«ولماذا؟» .

«لأنه في يوم شبّات لا يجوز لك أن تمضي إلى هذا الحدّ ، إذ حسبت المسافة التي قطعتها معي بتعداد خطوات حصاني» .

قال الرّابي مثير : «طلما كنت بهذه الحكمة فتحسب لي المسافة التي يجوز لي اجتيازها من خلال خطوات حصانك ، ولما كنت حريصاً على مصلحتي ، فما بالك لا تعود إلى الله وتتوب عن ردّتك؟» .

فأجاب إليشاع : «ليس ذلك لي . ففي إحدى المرّات كنت أركب حصاناً في يوم الغفران ، وصادف مجيؤه يوم شبّات . فلما عبرت بالكينيس سمعت صوتاً ينادي : «عودوا أيها الأبناء الضالّون ، عودوا إليّ فأعود إليكم ، ما خلا إليشاع بن أبوياء ، الذي عرف مولاه ثم تمرّد عليه» .

فما الذي يدفع رجلاً متفقهاً كالإشعاع بالردّة إلى طرق الضلال ؟

يذكر أنه عندما كان مرّة يدرس الشريعة في وادي جنوسان ، أبصر رجلاً يتسلق شجرة ، وعثر الرّجل على عُشّ طير في الشجرة ، ورغم أنه أخذ الأم وفراخها فقد انصرف دون أن يمسه أي ضرر . ثم رأى رجلاً آخر عثر على عُشّ طائر ، فاتبع تعاليم الكتاب المقدّس وأخذ الفراخ فقط ، تاركاً الأم تطير عنه ، ومع ذلك نهشته حيّة فيما كان نازلاً ، فمات . ففكّر الإشعاع في نفسه : «إذا أين هي حقيقة الكتاب المقدّس ووعوده ؟ أليس مكتوباً : «فلا تأخذ الأم مع الأولاد ، أطلق الأم وخذ لنفسك الأولاد ، لكي يكون لك خيرٌ وتُطيل الأيام»⁽¹⁾ . فأين هو طول الأيام المزعوم لذلك الرّجل الذي اتّبع الوصية ، بينما الآخر الذي انتهكها بقي سليماً معافى؟» .

إنه لم يسمع كيف فسّر الرّابي عقيبا هذه الآية ، بأن طول الأيام إنما هو في الحياة الآتية ، حيث السعادة تعمّ .

وثمة سبب آخر أيضاً يروى حول دافع الإشعاع للضلال والارتداد ،

(1) سفر التثنية - 22 : 6-7 .

ففي غضون الفترة المشحونة بالخوف خلال مرحلة الاضطهاد الديني ، كان الرأبي الفقيه يهوداه ، الذي أمضى حياته في دراسة الشريعة وتطبيق وصايا الله ، قد سلّم إلى أيدي جلاّدي التعذيب الغلاظ القلوب . فوُضع لسانه في فم كلب فقضمه الكلب وانتزعه من فيه .

فقال إيشاع : «إن كان اللسان الذي لم ينطق إلاّ بالحق يُعامل هكذا ، والحكيم الفقيه يُهان على هذا النحو ، فما هو إذاً جدوى تجنب الكذب وزلات اللسان ، أو اجتناب الجهل ومثالبه ؟ فإن كان ما جرى هذا وارداً ومسموحاً ، فمعناه بلا ريب أنه لا الصالح يُجزى بإحسانه ، ولا قيامة بعد الموت» .

ولما أمسى إيشاع عجوزاً وقع طريح المرض ، فلما دري الرأبي مثير بمرض معلمه العجوز ، قام بعيادته .

قال الرأبي مثير متوسلاً : «أواه ، عدّ إلى إلهك ، عدّ!» .

قال إيشاع : «ماذا ؟ أعود ؟ وهل يقبل توبتي ، توبة مُرتدّ تمردّ عليه بهذا الشكل ؟» .

قال مثير : «أليس مكتوباً : «تُرْجِعِ الْإِنْسَانَ إِلَى الْغُبَارِ» ؟ (المزامير 90 : 3) . فمهما كانت نفسُ الإنسان محطّمة ، يبقى بإمكانه الأوبة إلى إلهه والحصول على المغفرة وراحة النفس» .

فاستمع إيشاع إلى هذا الكلام ، وبكى بمرارة ثم فاضت روحه⁽¹⁾ . ولم يمض كثير من السنين عقب موته ، حتى أتت بناته وقد عضّهن الفقر بنابه ، يلتمسن العون من المدرسة . فقلن : «تذكروا محاسن أئينا في تفقيهه الناس ، لا في مسلكه» .

فامتثل القيّمون على شؤون المدرسة لهذا المطلب ، وأعانوهنّ .

(1) ولد إيشاع قبل عام 70 م ، واستهوته الحضارة الهلينية فرمما كان هذا دافع ارتداده ، وقيل كان غنوصياً ، فكان يُلقب بلفظ أخير אחר أي الآخر (الكافر) . وشخصية هذا الرجل تستدعي الدراسة حقاً ، ولم يكتب عنه باللغة العربية غير الماع في موسوعة المسيري . وعنه دراسة للباحث اليهودي بيرديشفسكي .

الرّابي شمعون רבי שמעון

كان الرّابي يهوداه والرّابي يُوسيه (جوزيه) والرّابي شمعون يتناقشون في بعض الأيام ، عندما دخل يهوداه بن جيريم البيت الذي كانوا فيه ، وجلس مع الثلاثة . وكان الرّابي يهوداه يتحدث بمدح صافٍ عن الأعميين (الرّومان)⁽¹⁾ . فقال : «أترون كيف حسّنوا من أمر مُدّتهم ، وكيف رفعوا رونقها وجمالها ، وكم بذلوا من جهد لأجل راحة مواطنيهم ورفاهيتهم : حمامات عامّة ، وجسور ، وشوارع أنيقة وعريضة . لا شك بأن لهم بذلك فضلاً عظيماً» .

أجاب الرّابي شمعون : «لا بل كلّ ما فعلوه كان ناجماً عن دافع الأنانيّة . فالجسور تعود عليهم بالعوائد ، لأن كلّ مَنْ يستعملها تتوجّب عليه ضريبة ، أما الحمامات فهي لتُرفهم الشّخصي . هذه كلّها من ضروب الأنانيّة ، وليس بدافع الحسّ الوطني» .

فراح يهوداه بن جيريم يردّد هذا النقاش على أسماع أصحابه ، حتى وصل أخيراً إلى أذني الإمبراطور ، فلم يضرب على ذلك صفحاً . فأمر بأن يهوداه ، الذي تكلم بخير في حقّ الدّولة ، يُرقى شأنه ويكرّم ؛ وأن يُوسيه (جوزيه) الذي بقي صامتاً بدلاً من أن يُثني على تصرّحات يهوداه ، يُنفي إلى صِفُوري لا ٦٦٥ ؛ وبأن يُعدّم شمعون الذي اعترض على المديح .

فما كان من هذا الأخير إلّا أن هرب مع ابنه واختبأ في المدرسة عندما دري بهذا المرسوم الإمبراطوري . ومكث هناك بأمان نسبي مدّة من الوقت ، وكانت زوجته تجلب له الطعام يومياً . ولكن عندما طُلب إلى الضبّاط القيام ببحث مكثّف خاف ، وتحسّب من أنه عبر قلة انتباه امرأته قد يكشف مكان اختبائه .

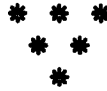
قال في نفسه : «إن عقل المرأة ضعيف ومتقلقل ، فإن استجوبوها وأربكوها أقرّت بمكاني ، وكان الموت مصيري لا محالة» .

(1) يعدّ اليهود الرّومان من أكبر أعداءهم ، عانوا منهم اضطهاداً وتنكيلاً قاسيين طوال حكم روما للمشرق (64 ق.م - 395 م) ، وهدم تيطوس هيكلهم عام 70 م .

فلذا خرج شمعون وابنه من المدينة وأويا إلى كهف ناءٍ في البرية ، وكان بقرب هذا الكهف بضعة أشجار فاكهة كانت تمدّهم بالقوت ، ونبع ماء صافٍ ينبجس بين الصّخور في الجوار القريب . وعاش الرّأيي شمعون هناك مدّة ثلاث عشرة سنة ، إلى أن مات الإمبراطور وألغيت مراسيمه . فعاد عندها إلى المدينة .

فعندما دري صهره الرّأيي فنحاس بمقدمه ، خفّ إلى زيارته على الفور ، ولما آتس انحساراً واضحاً في حالة نسيبه الذهنية والجسدية ، ابتدره قائلاً : «ويلتاه وأواه إذ ألقاك بهذه الحالة التّعيسة !» .

غير أن الرّأيي شمعون أجاب : «ليس الأمر بذاك ، بل الحمد لله أنك تجدني بهذه الحالة ، لأنك لا تراني أقلّ صلاحاً وتقى من ذي قبل . فلقد حفظني الله ، وحافظ على إيماني به ، ولذا فمن الآن وصاعداً لأستفيضنّ في شرح آية التّوراه : «وكان يعقوبُ إنساناً كاملاً»⁽¹⁾ . فهو كاملٌ في حالته الجسدية ، وكاملٌ في حالته الدّنيويّة ، وكاملٌ في معرفته بالله» .



(1) سفر التكوين - 25 : 27 .

أثناء مناقشة أنطونينوس للرأبي يهوداه ، قال له : « في الحياة الآخرة ، عندما تمثّل الروح بين يدي الخالق الأعظم للحساب ، ألا يمكن لها أن تجدد دعوى للتّصلّ من الخطايا الدنيويّة ، بالقول : « إن هذا الخطايا كانت خطايا الجسد ، وإذ أنّي تخلّصتُ من الجسد ، فلستُ مسؤولة عن هذه الخطايا » ؟ » .

أجاب الرأبي يهوداه : « دعني أقصُّ عليك هذه الحكاية⁽¹⁾ : كان الملك بستان تين فاخر ، وكان لديه مفضلاً أثيراً . فثلاثاً تتعرّض ثماره للسرقة أو الأذية ، عيّن على البستان حارسين اثنين ، ولكن ليدراً احتمال ألا تميل نفساهما إلى الأكل من ثمار البستان ، اختار الواحد منهما أعمى والآخر أعرج . ولكن إذ أصبحا في البستان ، قال الأعرج لصاحبه : « إنّي لأرى تيناً فائق الجودة ، وكم هو لذيذ وشهيّ ، احملني إلى الشجرة حتى تتمكنَ كلانا من الأكل منه » .

« فقام الأعمى بحمل الأعرج ، وأكلا من التين .

« ولما دخل الملك البستان لاحظ على الفور أن خير ثمار التين قد اختفت ، فسأل الحارسين عمّا جرى بها . فأجاب الأعمى : « لستُ أدري . وليس في إمكاني سرقتها ، فأنا أعمى ولا أستطيع رؤيتها » . وأجاب الأعرج : « ولا أنا بإمكانني سرقتها ، فلستُ أستطيع أن أطول الشجرة » .

« غير أن الملك كان حكيماً ، فأجاب : « بل قام الأعمى بحمل الأعرج » ، وعمد إلى معاقبتها وفقاً لذلك .

« فهذا هو شأننا . ما الدّنيا إلا بُستان أحلّنا فيه الملك الأزليّ ، لكي نتولّى حراسته ونقوم عليه ، ونفلق تُرابه ونعتني بشماره . أما الرّوح والجسد فما هما إلا الإنسان ، إن انتهك أحدهما الوصايا انتهكها الآخر ، ولذا فبعد الموت ما ينبغي للروح أن تقول : « إنه بسبب الجسد الذي كنتُ لازمةً به ارتكبتُ المعاصي » ، لا فأنه سيفعل كما فعل صاحب البستان ، كما هو مكتوب : « يدعو من السموات من فوق ، إلى الأرض إلى مُداينة شعبه »⁽²⁾ .

(1) نرى في قصص تراثنا الإسلامي تشابهاً ، كما في كتاب «التوآبين» لابن قدامة لمقدسي .

(2) مزموّر لأساف ، سفر المزامير - 50 : 4 .

«يدعو من «السَّمَوَاتِ مِنْ فَوْقَ» ، التي هي الرُّوح ، «إِلَى الْأَرْضِ تَحْتَ» ،
التي هي الجسد ، الممتزج بالتراب الذي منه أتى» .

* * *

قال رجلٌ وثنيٌّ للرَّابِّي يَهُوشُوعَ : «أَتُؤْمِنُ بِأَنَّ اللَّهَ يَعْرِفُ الْغَيْبَ؟» .
أجاب الرَّابِّي : «نَعَمْ» .

قال السَّائِلُ : «إِذَا لِمَاذَا هُوَ مَكْتُوبٌ : «فَقَالَ الرَّبُّ : «أَمْحُو عَنْ وَجْهِ
الْأَرْضِ كُلِّ مَا خَلَقْتَهُ ، لِأَنِّي حَزَنْتُ أَنْيَ عَمَلْتُهُمْ» ؟ (سفر التكوين 6 : 7) ، أَلَمْ
يَعْرِفِ الرَّبُّ مُسَبِّقاً بِأَنَّ الْإِنْسَانَ سَيُفْسِدُ وَيَعْمَلُ الشَّرَّ؟» .

فقال الرَّابِّي يَهُوشُوعَ : «أَلَدَيْكَ أَوْلَادٌ؟» .
فكان جواب الرَّجُلِ : «نَعَمْ» .

«فَمَاذَا كُنْتَ تَفْعَلُ عِنْدَمَا يُوَلِّدُ لَكَ طِفْلٌ؟» .
«كُنْتُ أَعْمَلُ حَفْلاً عَظِيماً» .

«فَمَا الَّذِي كَانَ يَدْفَعُكَ إِلَى الْإِبْتِهَاجِ ؟ أَلَا تَعْلَمُ بِأَنَّهُمْ مَائِتُونَ يَوْمًا؟» .
«بَلَى ، هَذَا حَقٌّ ، لَكِنِّي فِي سَاعَةِ الْإِبْتِهَاجِ لَا أَفَكِّرُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ» .

قال الرَّابِّي يَهُوشُوعَ : «فَهَذَا هُوَ إِذَا شَأْنُ اللَّهِ ، فَهُوَ يَعْلَمُ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ سَوْفَ
يُخْطِئُ ، لَكِنِ عِلْمُهُ هَذَا لَمْ يَحُلْ دُونَ تَنْفِيذِ غَرَضِهِ الطَّيِّبِ فِي خَلْقِهِ إِيَّاهُ» .

* * *

قال أحد الأباطرة للرَّابِّيونَ جَمَلِيثِيلُ :

«مَا إِلَهُكَ إِلَّا لَصٌّ ، كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ : «فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الْإِلَهَ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ
فَنَامَ ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلَاعِهِ»⁽¹⁾» .

فقالَت ابْنَةُ الرَّابِّي : «دَعْنِي أُجِيبُ عَلَى هَذَا الطَّعْنِ الْبَاطِلِ . فِي اللَّيْلِ دَخَلَ
اللَّصُوصُ غُرْفَتِي فَسَرَقُوا مِنْهَا آنِيَّةً فُضِيَّةً ، لَكِنَّهُمْ تَرَكَوْا بَدَلَهَا آنِيَّةً ذَهَبِيَّةً» .

(1) سفر التكوين - 2 : 21 .

فقال الإمبراطور : «ليت مثل هؤلاء اللصوص يأتون كل ليلة» .
فهذا كان شأن آدم ، أخذ الله منه ضلعاً ، لكنه ترك بدله امرأة .

* * *

قال الرّابي يهوشوع من سكّنين ، نقلاً عن الرّابي ليقي : «أخذ الرّب يفكّر من أيّ جزء من جسم الرّجل يخلق المرأة : ليس من الرأس ، لثلاً تكون مغرورة . ولا من العينين ، لثلاً ترغب برؤية كل شيء . ولا من الفم ، لثلاً تكون ثرثارة . ولا من الأذن ، لثلاً ترغب بسماع كل شيء . ولا من القلب ، لثلاً تغلب عليها صفة الحسد . ولا من اليد ، لثلاً ترغب باستكشاف كل شيء . ولا من القدم ، لثلاً تكون جوّالة لا يقرّها قرار . وإنما من أكثر مكان احتجاجاً ، وهو الذي يبقى مستوراً حتى وإن كان الرّجل عارياً . . ألا وهو الضّلّع» .

* * *

في إحدى المرّات ، سألت تلاميذ الرّابي شمعون بن يوحاي معلّمهم :
«لماذا لم يهب الرّب بني يسرّئيل ما يكفى من المّنّا ، لتقوم بأودهم حوّلاً كاملاً مرّة واحدة ، بدلاً من إنزاله يومياً؟» .

فأجاب الرّابي : «سأجيبكم بحكاية : كان هناك في بعض الأيام ملك وله ابن كان يعطيه مصروفاً سنوياً معيّناً ، وكان يدفع المبلغ بأكمله لنفقاته السنوية في يوم محدّد . وسرعان ما أصبح الأمر على نحو أن هذا اليوم الذي ينبغي فيه دفع المبلغ كان اليوم الوحيد الذي يرى الأب فيه ابنه . فلذا قام الملك بتغيير ترتيباته ، وصار يعطي ابنه في كل يوم ما يقوم بشأنه لذلك اليوم حصراً ، ولذا صار الابن يزور أباه عند طلوع شمس كل صباح .

«فهذا كان شأن بني يسرّئيل ، وكان كلّ ربّ عائلة معتمداً على المّنّا التي ينالها في كل يوم من فضل الله ، لقوّته وقوّت عياله ، وهذا ما جعل بطبيعة الحال تفكيره مكرّساً للوهّاب العظيم وسنّد الحياة» .

* * *

عندما كان الرَّابِّي إلبعيزرَ مريضاً عادَهُ تلاميذه ، وقالوا : «أيها الرَّابِّي ، علّمنا طريق الحياة كي نرث الخلود» .

فأجاب الرَّابِّي : «كرّموا أقرانكم . واعرفوا لمن تصلّون . امنعوا أبناءكم من المجادلات العبثية ، واجعلوهم بين المتعلّمين لكي يحصلوا الحكمة . فهذا لكي تستحقّوا الحياة في العالم الآخر» .

ولمّا كان الرَّابِّي يُوحَنان مريضاً زاره تلاميذه أيضاً . فلما رآهم طفق يبكي ، فقالوا له متعجبين : «يا راينو⁽¹⁾ ! يا نُور يسرّكئيل ! يا عمادنا الأكبر ! ما الذي يُبكيك ؟» .

فأجاب الرَّابِّي : «لو كنتُ مُقبلاً على المثل بين يدي ملك من لحم ودم ، يعيش اليوم وغداً يُمسي إلى رَمسه ؛ مَنْ قد يسخط عليّ ، ولكن ليس إلى الأبد ؛ مَنْ يسجنني ، ولكن ليس للأبد ؛ مَنْ قد يقتلني ، ولكن في هذه الدنيا فحسب ؛ مَنْ قد أُرشيه أحياناً ، حتى وإن خفت منه ؛ كان ذلك كلّه ليهون . ولكنني أمثل الآن بين يدي ملك الملوك ، القدّوس الأكبر ، تبارك اسمه ، الذي يبقى إلى أبد الدهر . الذي إن غضب ، كان غضبه أبدياً ؛ وإن سجنني ، فللأبد ؛ وإن أمر بقتلي ، ففي الحياة الآخرة ؛ وليس بوسعي رشوته لا بالكلام ولا المال . ليس هذا فحسب ، بل أمامي طريقان ، أحدهما يُفضي إلى حوَمة العذاب ، والآخر إلى الثّواب ، ولست أدري على أيهما أسير . أفلا أبكي إذا؟» .

* * *

سأل تلاميذ الرَّابِّي يُوحَنان بن زكّاي معلّمهم هذا السّؤال :

«ما السّبب في أنه ، بحسب الشريعة ، تكون عقوبة قاطع الطريق أخفّ وطأة من عقوبة السّارق النّقاب ؟ فحسب شريعة مُوشيه : «إذا سرق إنسانُ ثوراً أو حَملاً فذبحه أو باعه ، يُعوّض عن الثور بخمسة ثيران ، وعن الحَمَل بأربعة من الغنم» (سفر الخروج 21 : 37) .

(1) الصيغة في العبرية : 277 ، وتعني : سيّدنا .

أما عن قاطع الطريق فنجد : «فإذا أخطأ وأقرّ بذنبه ، يردُّ المسلوب الذي سلبه ، يُعوّضه برأسه ويزيد عليه خُمُسَه»⁽¹⁾ . ولذلك ، فمن يرتكب عمل سلب يُغرّم بخُمس قيمة المسلوب ، بينما يُغرّم السارق النَّقَاب عن الثور بخمسة ثيران ، وعن الحَمَل⁽²⁾ بأربعة من الغنم . فلماذا يكون ذلك ؟» .

فأجاب المعلم : «ذلك بأن قاطع الطريق السّلاب يعامل العبد كمعاملة السيّد ، فهو يقوم بالسلب بحضور العبد ، أي الإنسان المسلوب ، والسيّد ، أي الله . أمّا السارق المتسلّل النَّقَاب فيتصور أن عين الله غافلة عنه ، فيقوم بأفعاله خفية ، وهو يحسب كما يقول صاحب المزامير : «ويقولون : الربّ لا يُبصر ، وإله يعقوب لا يُلاحظ» (المزامير 94 : 7) . اسمعوا هذه الحكاية : «عمل رجلان وليمة احتفال ، فبادر الواحد منهما إلى دعوة سكان المدينة بأجمعهم ، وأهمل دعوة الملك . أما الآخر فلم يدعُ لا الملك ولا رعيّته . فمن تُراه منهما يستحقّ الإدانة ؟ لا ريب أنه الذي دعا الرعيّة دون الملك . وطالما كان أهل الأرض رعيّة الله ، فإن السارق المتسلّل يخشى عيونهم ، ولكنه لا يأبه لعين الملك ، أي عين الله المطلعة على أفعاله كلّها» .

قال الرّابي مثير : «إن هذه الشريعة تعلّمنا كيف يقدر الله قيمة العمل . فإن سرق إنسان ثوراً يعوّض عنه بخمسة ثيران ، لأنه عندما كان الثور في حوزته بغير وجه حق لم يكن يؤدّي عملاً لصاحبه الشرعي . وأما الحَمَل فلا عمَل له ، ولا إنتاج له على هذا النحو ، ولذلك فهو يعوّض عنه بأربعة فقط» .

* * *

تعشى الرّابي نَحمان مع معلمه الرّابي يصحاق ، ولما قام بعد الأكل قال : «باركني يا معلّمي !» . فأجاب الرّابي يصحاق : «اسمع . كان مُسافرٌ يجتاز بالصّحراء يوماً ، فلما أخذ منه التعب والجُوع والعطش كلّ مأخذ ، بلغ حاجة بها شجرة مُثمرة وارقة الأغصان ، يجري تحتها نبع ماء صافٍ رقيق .

(1) سفر اللّيوين - 6 : 4 .

(2) ترد العبارة في الترجمة العربية : الشاة ، وهو غلط ، فالعبارة العبرية لا تعني الحَمَل .

«فأكل الغريب من الفاكهة اللذيذة الطيبة ، واستمتع وتقبل في الظل الممتع ، وروى ظمأه من الماء الفوار الذي كان ينبجس رقراقاً تحت قدميه . ولما تاهب لمتابعة رحلته ، توجه إلى الشجرة وقال لها :

«أيتها الشجرة المباركة ، بأية كلمات أباركك ، وأي خير أتمناه لك ؟ لا أقدر أن أتمنى لك طيب الثمار ، فهي لك بالأصل وعلى كل حال ؛ وكذلك فبركة ووفرة الماء صائرة إليك سلفاً ، والظل الممتع الذي تمنحه الأغصان الجميلة قد وهبه الله الأزلي لك من قبل ، من أجلي أنا ومن أجل كل مسافر على هذا الدرب . فذّرني إذا أدعو الله لك ، بأن يكون كل خلف لك طيباً مباركاً مثلك» .

«فهكذا هو شأنك يا تلميذي . كيف تراني أباركك ؟ فأنت ممتاز في معرفة الشريعة ، ووجيه في الأرض ، ومبجل ومبارك في معاشك . فليهبك الله أن تكون ذرّيتك كلّها صالحة على مثلك» .

* * *

كان جبّاه بن يسيساه رجلاً حكيماً ، كما يقول الحاخامون . فلما قاضى أبناء كنعان اليسرئيليين بدعوى سرقة أرضهم ، قائلين : «أرض كنعان لنا ، كما هو مكتوب : «أرض كنعان . . أرض كنعان بتخومها» (عدد 34 : 2) ، وطالبوا بردها ، تصدّى جبّاه لرافعة القضية أمام الحاكم .

فقال جبّاه لهؤلاء الأفارقة : «إن كنتم تأتون ببرهانكم من أسفار التوراه ، فمن التوراه أيضاً أدحضه لكم . ففيها : «ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لإخوته» (سفر التكوين 9 : 25) . فأملك العبد تعود في هذه الحالة لمن ؟ لسيده طبعاً . حتى وإن كان ملك الأرض أصلاً لكم ، فمن خلال العبودية آل إلى بني يسرئيل .

قال الحاكم : «دُونَكُمْ فَرَدُّوا عَلَيْهِ» .

فطلب المدّعون ثلاثة أيام لإعداد ردّهم ، ولكنهم في ختام الأيام الثلاثة تواروا عن الأنظار .

ثم تقدّم المصريون قائلين : «وأعطى الربُّ نعمةً للشعب (اليسرئيليين) في عيون المصريين ، حتى أعاروهم فضةً وذهباً»⁽¹⁾ . فالآن هلّموا أعيّدوا لنا الذهب والفضة التي أعارها لكم أجدادنا» .

ومجدداً تقدّم جبعاه بالتيابة عن حاخامي يسرئيل ، فقال : «أقام بنو يسرئيل في مصر أربع مئة وثلاثين سنة ، فهلّموا الآن ، ادفعوا لنا أجور الست مئة ألف رجل الذين عملوا لكم مجاناً ، فتردّ لكم الذهب والفضة» .

ثم تقدّم بنو يشمعييل وقطوراه أمام الإسكندر المقدوني ، فقالوا : «بل أرض كنعان لنا ، كما هو مكتوب : «فهؤلاء هم نسلُ يشمعييل بن أبرهام» ، تماماً كما هو مكتوب : «فهؤلاء هم نسلُ يصحاق بن أبرهام» . ولما كان الابن يعدل الابن الآخر ، فهلمّ أعطنا نصيبنا» .

فقام جبعاه ثانيةً نائباً عن الحاخاميم ، وقال : «من التوراه التي تأخذون منها برهانكم أردّ دعاوكم . أليس مكتوباً : «وأعطى أبرهامُ يصحاقَ كلّ ما له ، وأما بنو السّراري اللّواتي كانت لأبرهام فأعطاهم أبرهام عطايا»⁽²⁾ . فالرجل الذي يعطي لأبنائه ميراثهم خلال فترة حياته ، لا يقصد من خلال ذلك أن يعطيهم إياه ثانيةً بعد موته . فليصحاق أعطى أبرهام كلّ ما يملك ، ولأبنائه الآخرين سواء أعطى عطايا ، ثم صرفهم .

يقول الحاخامون : «كان الملك مُنماص من سلالة الملوك الحشمونيين رجلاً صالحاً حقاً . وهب للفقراء خلال فترة من فترات المجاعة كلّ ما في خزانته وخزانه أبيه ، فلامه أقرباؤه وانتقدوه قائلين : «كلّ ما جمعه أبوك ضيَعته وبددته» .

فأجاب مُنماص : «أبي كوّم هذه الكنوز هنا على الأرض ، أما أنا فأجمعها فوق في السّموات . و«كَمَر الصّدّيق شجرة حياة ، ورابعُ النّفوس حكيماً»⁽³⁾ . فأبى اختزنها حيث يمكن أن تصل إليها أيدي الناس ، أما أنا فقد جعلتها حيث لا

(1) سفر الخروج - 13 : 26 .

(2) سفر التكوين - 25 : 5 .

(3) سفر الأمثال - 11 : 30 .

تبلغها يدُ بشر . وإذ جاء في الكتاب : «العدلُ والحقُّ قاعدةُ كُرسِيك»⁽¹⁾ . فلأبي لم يُثمر هذا الكنز آية ثمار ، لكنه أثمر لي وأكثر أضعافاً مضاعفة . «قولوا للصدِّيق خيراً ، لأنهم يأكلون ثمرَ أفعالهم»⁽²⁾ . لقد ادَّخر أبي مالاً ، وادَّخرتُ أنا حياة . «ثمرُ الصدِّيق شجرة حياة ، ورايحُ النفوس حكيمة»⁽³⁾ . أبي ادَّخر لغيره ، وأنا ادَّخرتُ لنفسي ؛ وكان ادَّخاره لهذه الحياة الدُّنيا ، بينما ادَّخرتُ للأخرة . «ويسيرُ بركُ أمامك ، ومجدُ الربِّ يجمعُ ساقَتَكَ»⁽⁴⁾ .

* * *

-
- (1) من قصيدة لإيتان الأزراحي في سفر المزامير - 89 : 14 .
(2) سفر يشعيا - 3 : 10 .
(3) سفر الأمثال - 11 : 30 .
(4) سفر يشعيا - 58 : 8 .

القسم الرابع

من أمثال الحاخامات وأقوالهم ونماذج من أساطير التلمود

- ويلُّ للأبناء المحرومين من مائدة أبيهم .
حفنةٌ من الطعام لا تقوم بأوَد أسد ، وتراب الحفرة لا يكفي ملئها .
ادعُ الله لنيل رحمته ، حتى يُهال الكوم الأخير من التُّراب على قبرك .
لا تكفَّ عن الصلَاة حتى وإن جرت السكّين في مجرى نحرِكَ .
لا تفتح فاكْ بكلمة سوء .
طولُ الأناة خيرٌ من وفرة المال .
الحصان الذي يُعلَف بالشعير على هواه يضحى حروناً .
طوبى للتلميذ الذي على مقاله يُثني مُعلِّمه .
من ساعة كون الخيار غضاً يمكن الحكم على صلاحيته لاحقاً للأكل .
لا تفعل بالآخرين ما تكره أن يفعله بك الآخرون .
يتشكَّى الجحش من البرد حتى في تموز .
تعلّم أولاً ثم فلتعلّم الآخرين .
قلّة من النَّاس مَنْ يُبصرون عيوب نفوسهم .
الضوء الفرد ينير لمئة رجل كما ينير لرجل واحد .
الطعام الذي يطبخه عدّة طبّّخين لا يكون حارّاً ولا بارداً⁽¹⁾ .
ما الحياة الدنّيا إلا عُرْس .
الصبا طاقةٌ من الزهر .

(1) وفي المثل العبري السائر : دשהטבחים מרבים נקדח התבשיל : «إذا كثر الطبّّاخون شاطَّ الطعام» .

- شُجيرة الآس تبقى حتى في الصَّحراء شُجيرة آس .
 رَوْضُ لسانك على مقولة : «لست أُدري» .
 الدَّار الذي لا يستقبل المسكين يستقبل الطبيب .
 حتى الطيور في سمائها تزدرى البخيل .
 قرى الضَّيف من علائم عبادة الرّب .
 لصديقك صديق ، ولصديق صديقك صديق ، فكُن كتوماً .
 لا تستجرّن على نفسك المثالب والعيوب .
 دَع عنك غشيان المزايدات إن لم يكن لديك مال .
 سلخ الذَّبائح بأجر في قارعة الطريق خيرٌ لك من التَّراخي والاستجداء .
 أكثر من التَّعاطى مع ذوي الحظِّ والفلاح .
 المُقدَّر في قسمة جارك لا يكون أبداً لك .
 هزالة جدران دارك تُغرّي اللّص بسرقتك .
 المكان لا يُشرف الإنسان ، بل الإنسان يُشرف المكان .
 حتى أدنى الرّجال شأناً يكون في بيته حاكماً .
 إذا أضحى الثَّعلب ملكاً فأنحن له .
 إن كانت الكلمة في موضعها بدرهم ، فالسكوت في موضعه بدرهمين .
 طوبياه يقترف الذنوب وجاره يتلقّى الصَّفع .
 قد يلوح للفقير بهاءٌ على بعض النَّاس ، كسرج أحمر على فرس بيضاء .
 لا تستهلك ماء بثرِكَ كلّه إن كان للنَّاس فيه حاجة .
 الطبيب الذي يصف الدَّواء مجاناً لا قيمة لوصفته .
 الوردة منبتهُا بين الأشواك .
 الخمر خمر صاحب الدَّار ، أمّا الثَّناء فمن نصيب السَّاقى .
 من يشوب الأشياء يضحى مشوباً ، ومن طابت أعلاقه زاد نُبله .
 لن تجد رجلاً ضيق الصَّبر بدائنيه .
 حسبك أن تبيع مرّة ليعدك النَّاس تاجراً .
 لا تتغالى بتعداد مثالب جارك ، إن كان مثلها فيك .
 إن لم تجد ضالتك في مكان ما ، فأولى لك طلبها في مكان آخر .

مَنْ يقرأ الرّسالة عليه أن ينفذ ما جاء فيها .
 الإيذاء المستخدم لغايات نبيلة لا يجوز تدنيسه في أغراض وضيعة .
 أصلح شأن زينتك أولاً ثم فلتعتن بمظهر الآخرين .
 درهمان في كيس يُجلجلان أكثر من مئة .
 المرء يرى الذرّة في عين جاره ، لكنه لا يرى في عينه هو عموداً .
 تنافس العلماء مدعاة لترقي العلوم .
 إن أفضيتَ بسركٍ إلى ثلاثة ، دري به عشرة .
 إبان المودة كان لوحٌ مقعد يكفيننا ، فالآن تضيق بنا ساحةٌ ذرّعها ستون ؟
 إذا ركبت الخمرة متن الرأس تطايرت منه أسرارُ النفس .
 إذا تكلم كاذبٌ بصدق ، فجزاؤه عدم تصديق الناس له .
 تمنى الجملُ قروناً ، فإذا به يفقد أذنيه .
 واحسرةً على مَنْ ينطفئ ذكْرُه فلا يعود له ظهور .
 الموظف عند ملك يناله من التّشريف حظّ .
 لا يمكن لدارس مزاولة التجارة ، ولا لتاجر تكريس وقته للدرس .
 لا فائدة لك تُرجى من إشعال مصباحك في غمرة ضوء الهاجرة .
 ذر الثمرة من تلقاء نفسها تدعو بالخير للأوراق .
 اللحم بلا ملح لا يصلح إلا للكلاب .
 لا تأخذنك الثقة بذاتك حتى يحين يوم ممالك .
 ويلٌ لبلد فقد رئيسه ، وويلٌ لمركب لم يبق له ربّان .
 من يكثر أكداً اللحم في جسده فطعاماً للدود يدخرها .
 اليوم قصير ، والعمل اللازم كثير ، والعامل كسول .
 كُن لرؤسائك مهطعاً ، وبالصغار رفيقاً ، ومع الناس أجمع ودوداً .
 الصمتُ سياجٌ للحكمة .
 من دون الشريعة تنعدم الحضارة .
 لكلّ امرئ يومه لا محالة .
 كُن ذليلاً بين الأسود ولا تكنُ رأساً بين الثعالب ⁽¹⁾ .

(1) وثمة مثل في التلمود يناقضه : كُن رأساً بين الثعالب ولا تكنُ ذليلاً بين الأسود .

- البئر الذي منه شربك لا يجدر بك أن تلقى فيه الحجارة .
كثيراً ما يفصل جلدُ الفلوسِ سرجاً ليوضع على ظهر أمه .
وطأة الحقيقة ثقيلة ، لذا قد قلّ من يحملها .
أقلل من القول وأكثر من الفعل .
من يكثر من الكلام يزداد ولوغُه في المعاصي .
ضحّ بمصلحتك في سبيل سواك ، تجدهم يضحون بمصالحهم في سبيلك .
الشرعية ادرسها اليوم ، ولا تؤخرها لغد أبداً .
لا تتخذ صلاتك عبثاً ثقيلاً ، بل لتكن ابتهالاً لك صادقة من القلب .
من أحبه الخلق أحبه الخالق .
كرم أبناء المساكين ، فبهم يُشرق للعلم بهاؤه .
لا تتخذ لنفسك جاراً يجمع بين الصلاح والجهل .
الفلس الصغير في الجرّة الكبيرة مصدرٌ لقرعة عظيمة .
استخدم إناءك الثمين اليوم ، فلعله ينكسر غداً .
القطّ والجرذ يتصالحان على جيفة .
من جال في أرضه كل يوم عشر على قطعة نقد يومياً .
الكلب يتبعك من أجل الفتات الذي في جيبيك .
الجند يقاسون ويلات الحروب ، أما المجد فمن نصيب الملوك .
عندما يسقط الثور يكثر جزأروه .
انزل عند اختيار الزوجة خطوةً ، وخطوةً اصعد عند اختيار الصديق .
اضرب الآلهة يرتعد الكهنة .
الشمس من تلقاء ذاتها تغيب ، بغير معونتك .
لا تؤاخذن إنساناً باللغو في كلامه إبان بلواه .
بعض الناس يأكل وترى سواه يحمد الله .
الكاظمون الغيظ أهلٌ لمغفرة الذنوب .
من يرتكب المعصية مرتين لا يراها عقب ذلك معصية .
يوم تحابينا كنا ننام على حد سيف ، فالآن تضيق بنا أريكة عرضها ستون ؟
دراسة الشريعة أعلى شأنًا من التوضيح .

حلّ بيروشلأيم الخراب من جرّاء إهمال تعليم النّسئ .
 هذه الحياة يُنجيها الله بكرامة أنفاس أطفال المدارس .
 حتى من أجل إقامة الهيكل لا يجوز إقفال المدارس .
 طوبى للابن الذي تفقّه على أبيه ، ومبارك الأب الذي يفقه ابنه .
 تجنّب الغضب تنأ عن المعاصي ، ولا تمادّ تنأ عن غضب الرّبّ .
 عندما يُقبل الآخرون أعرِض وتولّ ، وعندما يفترقون فلتقبّل .
 إذا كنتَ الشاري الوحيد فاشترِ ، فإن حضر الشّارون فأمسك .
 السّقيّه لا تؤثر فيه الشّتيمة ، كما لا يؤثر حدّ السّكّين في جسد الميت .
 الديك والبومة يلبثان سهرأين بانتظار الضّياء ، فيتعجّب الديك : «الضّوء
 يُبهجني ، ولكن ليت شعري ماذا تُراكِ تنتظرين؟» .

السّارق الذي لا يتسنّى له سرقة شيء يدعي في نفسه الشرف⁽¹⁾ .
 قال رجل جليليّ : «إذا حلّ سخط الرّاعي على قطيعه ، عيّن عليه كرازا⁽²⁾
 أعمى» .

حتى إن لم يكن لزاماً عليك إكمال العمل ، فلا تكفّن عن متابعته . فإن
 كان العمل عظيماً تكون المكافأة عظيمة ، ولو قى سيّدك بدفعاته .
 ثمة تيجان ثلاثة : تاج الشّريعة ، وتاج الكهانة ، وتاج المملكيّة . ولكن ما
 يفوقها جميعاً هو تاج السّمعة الطّيبة .

مَنْ تراه يحوز الحكمة ؟ مَنْ كان راغباً بتلقّي العلم أتى كانت مَظانّه . ومَنْ
 هو القويّ ؟ مَنْ يكظم انفعاله . ومَنْ هو الغنيّ ؟ مَنْ رضي بنصيبه . ومَنْ هو
 المستحقّ للتكريم ؟ مَنْ كان يكرّم الناس على اختلاف درجاتهم .
 لا تُحقّر شأن أحد ولا تحكّم على شيء بالاستحالة ، فلكلّ امرئ يومه
 ولكل شيء موضعه .

(1) الأنكى من ذلك كثيرٌ من أهل الصّدارة في عصرنا : يسرقون كل شيء ثم يتنازعون ألقاب
 الشّرف ، وبينهم وبين الشّرف آلاف من الأميال .

(2) الكرازا كبش كبير يجعل في عنقه جرس مجلجل ، يتبعه القطيع في سيره للمرعى .

الحديد يكسر الحجر ، والنّار تصهر الحديد ، والماء يُخمد النّار ، والغيوم تبتلع الماء ، والعاصفة تبدّد الغيوم ، والإنسان يصمّد للعاصفة ، والخوف يقهر قلب الإنسان ، والخمر يمنع الخوف ، والنّوم يغلب الخمر ، والموت سيّد للنّوم .
«أما البرّ» - كما يقول شلومو - «فإنّجي من الموت»⁽¹⁾ .

كيف يتسنّى لك النّجاة من ربيّة المعاصي ؟ ضع نُصب عينيك ثلاثة أشياء : من أين أتيت ، وإلى أين تمضي ، وأمام من ينبغي لك أن تمثّل . أما المُستهزئون ، والكذّابون ، والمنافقون ، والمُفترّون ، فلا نصيب لهم في نعيم الحياة الآخرة .
وجُرم القذف وتشويه سُمعة النَّاس لا يقلّ عن القتل .
تُبّ ولو قبل موتك بيوم⁽²⁾ .

أُنزلت على هذه الدّنيا عشرة أجزاء من الحكمة ، فنالت شريعة بني يسرّئيل تسعة أجزاء ، ونالت بقيّة الدّنيا جزءاً واحداً . وأُنزلت على الدّنيا عشرة أجزاء من البهاء ، فنالت يروشلايم منها تسعة أجزاء⁽³⁾ ، وبقية الدّنيا جزءاً .
قال الرّأبي شمعون : «تقوم هذه الدّنيا على عمُد ثلاثة : الشّريعة ، والعبادة ، والإحسان» .

وقال الرّأبي آدا : «إنّ تعودّ رجلٌ على حضور الجماعة في الكنيس بانتظام ، وتخلّف عن الحضور لسبب قاهر ، فإنّ الله يفتقده ويسأل عنه» .
وقال الرّأبي شمعون بن يهوئشوع : «أيّ من بنى مكاناً للعبادة تواضع له أعداؤه» .

وقال الرّأبي لكيش : «مَنْ كان قادراً على حضور الصّلاة في الكنيس ولم يفعل ، فأبى جارٌ سوء هو» .

(1) سفر الأمثال - 10 : 2 .
(2) حاشية على النصّ : سئل الرّأبي الذي قال : «تُبّ ولو قبل موتك بيوم» من قبل تلاميذه عن كيف يمكنهم تنفيذ نصيحته ، طالما أنّ الإنسان يجهل متى يكون يوم موته . فقال : «عدّ كلّ يوم يأتيك آخر أيامك ، وتزوّد على الدوام بالتوبة وفعل الخير» .
(3) ما برح قدسنا الشريف مدينة مقدّسة لدى الجميع ، ولكن ليت شعري متى نراها ؟

قال الرَّابِي يُوسِيه : «ينبغي للمرء ألا يرتقي للصلاة عالياً ، لأنه مكتوب : «من الأعماق صرختُ إليك يا رب»» (المزامير 130 : 1) . والرَّابِي ذاته يحظر الحركة أو الكلام في أثناء تأدية الصلاة ، وذلك عملاً بتوجيه شلومو : «احفظ قَدَمَكَ حين تذهبُ إلى بيت الله ، فالاستماع أقرب من تقديم ذبيحة الجهال» (سفر الجامعة - 5 : 1) .

وقال الرَّابِي حِيَّا بن أبا : «الصلاة بصوت عال ليس أمراً من ضرورات العبادة ، فالأهم عندما نُصَلِّي أن نتوجّه بقلوبنا إلى السماء» .
عندما تحقق لأجدادنا البرء في الصحراء عند نظرهم إلى الحية النحاسية⁽¹⁾ ، لم يكن الأمر أن الحية هي التي كانت تُميت أو تُحيي ، بل كانت التوجه الصادق إلى الآب في السموات .

قال الحاخامات : «احمد الله في السرء كما تحمده في الضراء» ، وكانوا يأتون على ذلك بمثال داود : «كابدتُ ضيقاً وحزناً ، وباسم الرب دعوتُ» (المزامير 116 : 3-4) .

وقال الرَّابِي آشي : «فضيلة التصدق تفوق كل ما عداها» .

قال الرَّابِي إيعيزر : «المتصدق في السرء أعظم من موشيه» . يستجيز مقولته هذه من كلام موشيه (الثنية 9 : 19) : «لأنني فزعتُ من الغضب» ، ومن كلام شلومو : (أمثال 21 : 14) بمثابة الجواب : «الهدية في الخفاء تفنأ الغضب» .

وقال الرَّابِي يهوشوع : «ذو الشح خبيث كعابد وكن» .

وقال الرَّابِي إيعيزر : «الصدقة خير من التضحية» .

وقال الرَّابِي يوحنا : «من يُعطي (صدقة) يمسي غنياً» ، أو كما هو مكتوب : «والصديقون يُجزون خيراً»⁽²⁾ .

(1) انظر سفر العدد - 21 : 9 : «فصنع موشيه حية من نحاس ووضعها على الرابة ، فكان متى لدغت حية إنساناً ونظر إلى حية النحاس يحيا» .

(2) سفر الأمثال - 13 : 21 .

في أحد الأيام سأل بعض المناطق (الفلاسفة) الرابي عقيبا : «إذا كان إلهك يحب المساكين ، فعلام لا يكفيهم؟» .

أجاب عقيبا : «إن الله يُبقي بيننا أهل الحاجة والفقير ، لثلاً تضيع الفرصة للإحسان وعمل الخير» .

فرد المنطقي : «ولكن كيف عرفت أن فضيلة التصدق هذه تُرضي الله ؟ فلو أن سيّداً عاقب عبيده بحرمانهم من الطعام والكساء ، أكان يرضيه أن يطعمهم غيره ويكسوهم؟» .

قال الرابي : «ولكن افترض بالمقابل أن أبناءً لأب حنون ، لم يعد في وسعه إعالتهم فأضحوا مساكين ، أيزعجه أن تحنّ لهم بعض النفوس الرحيمة فتمدّ إليهم يد العون ؟ نحن لسنا عبيداً لسيّد قاسٍ ، بل الله يدعونا أبناءه ، كما أننا ندعوه - سبحانه - أبانا» .

قال ربّاه : «عندما يقف المرء أمام عرش الحساب الذي يُقيمه الله ، يُسأل هذه الأسئلة :

أصادقاً كنتَ في مُعاملاتك كلّها ؟
أخصّصتَ طرفاً من وقتك لدراسة الشريعة ؟
أحافظتَ على الوصية الأولى (لا يَكُنْ لك آلهةٌ أخرى أمامي) ؟
أكنتَ في ساعاتِ المَحَنِّ مُحافظاً على صلّتك بالله وإيمانك به ؟
أكنتَ تنفّوه بلسان الحكمة ؟» .

* * *

«بركات البيت بأسرها مصدرها الزوجة ، لذا فعلى زوجها تكرمها» .

قال الراب : «ينبغي للأزواج أن يحرصوا على عدم جعل نسايتهم يبيكين ، لأن الله يُحصي دموعهن» .

«في أحوال الصدقة التي بها رجال ونساء ، تجب إعانة النساء أولاً . فإن لم يكن ثمة كفاية للطرفين ، وجب على الرجال أن يتنازلوا لهن» .

«موت المرأة لا يشعر بوطأته أحد كما يشعر به زوجها» .

«تذرف الدموع على مذبح الله على فعل من ينبذ حبه الأول» .

«من أحب زوجته كنفسه ، وكرمها أكثر من نفسه ، فهو يهذب أبناءه على نحو حسن ، كما يكون موافياً للآية : «فتعلم أن خيمتك آمنة ، وتتعهد مريضك ولا تفقد شيئاً» (أيوب 5 : 24) .

قال الرأبي يوسيه : «أنا لا أنادي زوجتي «يا امرأتي» ، بل «يا بيتي» ، لأنها بالفعل أساس بيتي» .

«من كان لديه معرفة بالله ومعرفة بالإنسان ، مُحال أن يزل ويذنب» .

«أنزلت علينا التوراه لإحلال السلام في الأرض» .

«من ظلم الناس ولو بأدنى من فلس ، فهو خبيث كقاتل النفس» .

«من رفع يده في وجه مُحِب له فهو مُقترف للكبائر» .

«لا تصادق من يشتمل بثوب وكى ليخفي عيوب جهالاته» .

وقال الرأبي شمعون :

«من ترك لنفسه حرية أهوائها كان مثله كعابد وكن» .

«فضيلة كرم الضيافة لا تقل عن دراسة الشريعة» .

وينصح الرأبي يهوداه : «لا تترك نفسك أبداً أمام مزلق الغواية ، فحتى

داود ذاته لم يقدر على مقاومتها» .

أمّا الرأبي تيرا فلما سأله تلاميذه أن يعلمهم السرّ الذي كفل له عمراً مديداً

وسعيداً ، أجاب : «لم أكُ أمعن في الغضب مع بيت أهلي ، ولم أحسد أبداً من

كان أعلى مني ، ولم أبتهج أبداً لسقوط أحد ما» .

«بئس من يُنكر على الشجرة أغصانها ، وعلى الشيء ظله» .

«أمسك ماضيك ، ويومك مستقبلك ، وغدك سر في علم الغيب» .

«كفى بالقلب واعظاً ، وكفى بالزمان معلماً ، وكفى بالدنيا كتاباً ، وكفى

بالله خلاً» .

«ما الدنيا إلا دَيْنٌ في رقبة الإنسان ، والموت دائنٌ مُطالبٌ بها يوماً» .
«أَسعَ إلى فهمِ المرءِ من خلالِ فعّاله ومقاله ، فأراءُ النَّاسِ مُضَلَّةٌ» .

وقال الرَّابِي يَعقوبُ :

«مَنْ تَسبَّبَ في عُقوبةِ شَخْصٍ آخَرَ ظُلماً وبُهتاناً يَمكُثُ بظَاهرِ بابِ الجَنَّةِ» .

وقال الرَّابِي يَصْحاقُ :

«خَطاياها صَاحِبُ المِزاجِ الحادِّ أَكثَرُ من مِزايها» .

وقال الرَّابِي لَكِيشُ :

«الرَّجُلُ الحُطَّاءُ جاهِلٌ بِقَدْرِ ما هو خَبِيثٌ» .

وقال الرَّابِي صَموئِيلُ :

«أَفْعالُنا في هَذِهِ الدُّنيا تَتَجَسَّدُ لَنا وتَشهَدُ عَلَينا في الآخِرةِ» .

«تَحْمَلُ الاتِّهامَ الباطِلَ في السَّرِّ خَيْرٌ من الإِفْصاحِ بِفِعْلي امرئٍ مُذنبٍ عَلى

رؤوسِ الأَشهادِ» .

«مَنْ كانَ لَه حَياءٌ لا يُبادِرُ إلى ظُلْمٍ» .

«نَمَّةٌ فَارِقٌ عَظِيمٌ بَينَ مَنْ يَحسَبُ بِالعارِ والحِجْلِ أَمامَ نَفْسِهِ ، وَمَنْ لا يَحسَبُ

بِهما إِلا أَمامَ النَّاسِ» .

وقال الرَّابِي عَقيبا :

يَتضمَّنُ عَهْدُ اللَّهِ إِلَينا أَمَرَ العَمَلِ ، لِأَنَّ الوَصِيَّةَ القائِلَةَ : «سِتَّةَ أَيامٍ تَعْمَلُ ،

وأما اليَوْمُ السَّابِعُ فَفيهِ تَسْتريحُ»⁽¹⁾ ، تُضَعُ «الرَّاحَةُ» شَرطاً عَلى «العَمَلِ» .

وقال الرَّابِي شَمعونُ في المَوْضوعِ ذاتِهِ :

«أوصى اللهُ آدَمَ أَوَّلاً بِجَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلُها وَيَحْفَظُها (تكوِين 2 : 15) ، ثُمَّ

عَقِبَ ذلكَ سَمَحَ لَه بِالأَكْلِ من نَتاجِ عَمَلِهِ» .

(1) سفر الخروج - 23 : 12 .

قال الرَّابِي طَرْفُون ١١٥٦٦٥ :

«لم يُقَمِ اللهُ بين بني يَسْرَائِيلِ حتى عملوا على استحقاق حضوره ، إذ أمر :
«فَيَصْنَعُونَ لِي مَقْدِساً لِأَسْكُنَ فِي وَسْطِهِمْ» (خروج 25 : 8) .

عندما كانت يروشلَايم في أيدي الرُّومان الوثنيين ، تقدّم أحد مَنَاطِقَتِهِمْ
(أي الفلاسفة) فسأل الحاخامات :

«إذا كان إلهُكم يَمُقُّ عِبَادَةَ الأوثان ، فما باله لا يحطّم الأوثان ويستأصل
شأفتها من الأساس؟» .

فأجابه الحكماء : «أتودّ أيضاً لو تُنْسَفُ الشَّمْسُ والقمر من أجل بعض
الجُهَّال الذين يعبدونهما ؟ إن تغيّير مجرى الطبيعة لمعاقبة الخطّاة من شأنه أن يعود
بالمعانة على البريئين أيضاً» .

في سفر قَهْلِيَّتِ (الجامعة) 9 : 14-15 نجد هاتين الآيتين :

«مدينةٌ صغيرةٌ فيها أناسٌ قليلون ، فجاء عليها ملكٌ عظيمٌ ، وحاصرها
وبنى عليها أبراجاً عظيمةً . ووُجِدَ فيها رجلٌ مسكينٌ حكيمٌ ، فنجّى هو المدينة
بحكمته» .

يفسّر الحكماء هاتين الآيتين بشكل جدّ جميل : ف«المدينة الصّغيرة» ما هي
إلا الإنسان ، و«الأناسُ القليلون» مختلف صفات النفس . أما «الملك» الذي
حاصرها فهو نوازع الشرّ ، و«الأبراج العظيمة» التي بناها عليها هي «الآثام» .
وأما «الرجلُ المسكينُ الحكيمُ» فما هو إلا «أعمال الخير» التي يمكن لأدنى مسكين
أن يأتيها .

قال الرَّابِي يَهُودَاهُ :

«مَنْ يُحْجَمُ عن تعليم إحدى الوصايا لتلميذه فهو مُدانٌ بجُرمِ السَّرْقَةِ ،
تماماً كمن يسرق من ميراث أبيه ، كما هو مكتوب : «بِنَامُوسِ أَوْصَانَا مُوشِيَهُ مِيرَاثاً
لِجَمَاعَةِ يَعْقُوبَ» (سفر التثنية 33 : 4) . ولكن إن هو علّمه ، فماذا يكون له من
الثواب؟» .

قال رابا : «ينالُ بركةُ يوسف» .

قال الرّابي إيعيزر :

«البيت الذي لا تُدرس فيه الشريعة بالليل مآله إلى الخراب» .
«الغني الذي لا يُعين طالباً راغباً في دراسة شريعة الله لا يُصيبُ ثروة» .
«مَنْ دَلَسَ كلامه ، فقال غير ما يفعل ، مثله مثل عابد الأوثان» .

قال الرّابي حاما بن پاپا :

«مَنْ أكل وشرب دون أن يُبارك اسم الرّبّ ، هو كمن يسرق ، هذا لأن
«السّموات سموات للرّب ، أمّا الأرض فأعطاها لبني آدم»⁽¹⁾ .»

قال الرّابي شمعون بن لكيش :

مَنْ يُطبّق وصيّة إلهية في هذه الدّنيا يجدها مسجّلة في أعماله بالآخرة ، كما
هو مكتوب : «ويسيرُ بركُ أمامك ، ومجدُ الرّبّ يجمعُ ساقَتَكَ»⁽²⁾ . والأمر ذاته
يكون بالعكس لمن يُذنب . لأن في الكتاب المقدّس : «فاحفظ الوصايا والفرائض
والأحكام التي أنا أوصيكَ اليوم لتعملها»⁽³⁾ ، فعليك أن تعملها - أي الوصايا -
اليوم ، برغم أن الثواب عليها ليس موعوداً اليوم وإنما في المستقبل ، فإن عملتَ
الوصايا فهي تشهد لك ، إذ أن «بركُ يسيرُ أمامك» .

ويُطلق الحاخامات لقب أبرار الله على مَنْ يُؤدّون فلا يفكّرون في الانتقام ،
ومَنْ يسلكون في محبة الله ، ومَنْ يحافظون على طلاقة وجوههم في أوقات
الشّدائد والصّعب . وعن مثل هؤلاء كتب يشعياهُ في سفره : ك «الشمس نوراً في
النّهار»⁽⁴⁾ השמש לאור יומם .

* * *

(1) سفر المزامير - 115 : 16 .

(2) سفر يشعياهُ - 58 : 8 .

(3) سفر تثنية الاشرع - 7 : 11 .

(4) سفر يشعياهُ - 60 : 19 .

أحبّ زوجتك كنفسك ، وكرّمها أكثر من نفسك . فمَن عاش بلا زواج تكون حياته بلا بهجة . وإذا كانت زوجتك صغيرة القَدّ ، فاشن إليها واهمس في أذنها . ومَن يشهد موت زوجته فكأنما يشهد في الواقع خراب الهيكل ذاته . وإن أولاد الرّجل الذي يتزوَّج حبّاً في المال يُضحون لعنةً عليه .

مَن كان علمه يفوق عمّله فهو أشبه بشجرة كثيفة الأغصان واهية الجذور ، فأول عاصفة قوية تأتيها تُطيح بها أرضاً . أما مَن كانت أعماله تفوق معرفته فهو كشجرة يسيرة الأغصان ولكن قويّة الجذور ضاربة في الأرض ، شجرة لا تقدر على اقتلاعها رياح السّماء كلّها .

رُبّ لعنة تندّ عن صالح خيرٌ من مُباركة تصدر عن خبيث . فكانت مثلاً لعنة أخيا الشيلوني خيراً من مُباركة بلعام بن بعور⁽¹⁾ . فهكذا لعن أخيا اليسرئيليين : «ويضرب الرّب يسرئيل كاهتزاز القصب في الماء» (سفر الملوك الأول 14 : 15) . فالقصب ينثني ولا ينكسر ، إذ أنه ينمو في الماء وجذوره صلبة . أما بلعام فكانت مُباركته ليسرئيل هكذا : «كأرزات على مياه»⁽²⁾ כַּأֲרָזִים עַל מַיִם ، لكن بما أن شجر الأرز لا ينمو على المياه فجذوره هكذا تكون واهية ، وإذا هبت عليه ريحٌ قويّة تكسر بدداً .



(1) راجع ما تقدّم من ذكره أعلاه في الفصل السّادس من القسم الأول ، وكان من حكماء فرعوه إبان ولادة موشيه (موسى ~~عليه~~) ، فتنبأ ضده وألب فرعوه عليه ، وكان مصيره في النهاية القتل : «أما بلعام بن بعور فقتلوه بالسيف» (سفر العدد - 31 : 8) .

(2) سفر العدد - 24 : 6 .

الجزيرة المهجورة

يُحكى أن رجلاً غنياً ، كان طيب النفس مجبولاً على الإحسان ، رغب بإسعاد عبده ، فوهبه حرّيته وأعطاه فوقها حمل سفينة من البضائع . وقال الرجل للعبد : « اذهب فأبحر في البلاد ، وبيع هذه البضائع ، فكل ما تحصله منها خذهُ لنفسك حلالاً طيباً مباركاً لك فيه » .

فمضى العبد مُبحراً في عرض المحيط ، ولكنه لم يكد يتوغّل في سفره حتّى هبّت عليه أنواء عظيمة ، فجنحت به السفينة إلى الصّخر وتحطمت أشلاءً ، فضاع كل ما عليها من متاع ، ما خلا العبد نفسه ، فسيح إلى شاطئ جزيرة كانت على مقربة . فراح الرجل ، تحت وطأة الحزن والقنوط وفراغ اليد من حطام الدنيا ، يجول في الجزيرة ، إلى أن أشرف على مدينة رائعة فسيحة ، فخفّ إليه حشدٌ من الناس مُبتهجين وراحوا به يهتفون : « على الرّحّب والسّعة ! حلّلت أهلاً ونزلت سهلاً ! عاش الملك ! » . وجاؤوا بعربة فخمة ، فوضعوه بها ورافقوه إلى قصر فخم ، حيث حفّ به الكثير من العبيد ، وألبسوه حللاً ملكيّة ، وراحوا يخاطبونه بشعار الملّك ، ويُعربون عن انصياعهم التام لرغباته كلّها .

عقدت الدهشة لسان العبد وأخذ العجب كلّ ماخذ ، وخيّل له أن كلّ ما رآه وسمع به وشهده كان محض حلم عابر . فلماً أيقن بحقيقة الأمر وبواقعيّة ما يجري أمامه ، قال لبعض الرّجال حوله تَمَنّ أنس فيهم مودّةً وقرباً :

« ما الأمر بالضبط ؟ لستُ بفاهم شيئاً . ما لكم تُسودون وتشرّفون رجلاً لا تعرفونه ، جوالاً عاري البدن لم تروه في حياتكم قطّ ، فتجعلونه عليكم حاكماً وملكاً ؟ إن هذا لَمَما يُدهشني إلى درجة العجز عن التّعبير » .

فأجابوا : « إن هذه الجزيرة يسيدي يقطنها الجان ، وطالما كانوا يتضرّعون إلى الله أن يُرسل إليهم في كل سنة واحداً من أبناء البشر ليتولّى عليهم . فكان أن استجاب الله لدعائهم ، وجعل يُرسل إليهم في كلّ عام أنسياً ، فكانوا يتلقّونه بالاحترام والتّشريف وينصبّونه على عرش مدينتهم . غير أن شرط هذا التّكريم والسّلطة أنه يزول مع انقضاء الحول . إذ عند اختتام سنة تؤخذ منه حلّله الملكيّة ،

ويُطرح على متن سفينة فيُحمل إلى جزيرة واسعة ومهجورة ، حيث يتعيّن عليه ، إن هولم يهتئ لنفسه أموره بحكمة ، أن يعيش بمفرده حياةً بائسة تعيسة ، بلا رفيق أو أنيس . ثم يُنصبُ ملكٌ جديد ، وهكذا تكرر السنون دواليك . هذا وإن الملوك الذين سبقوك كانوا غير أبهين أو مكترئين للأمر ، فكانوا ينغمسون في ملاذّ سلطتهم ويتقلّبون في نعمائها ما حلا لهم أن يفعلوا ، ولا يتفكّرون في اليوم الذي تزول فيه من أيديهم . لذا فكُن أنت حكيماً ، وانظر ما تفعل .» .

فكان أن استمع الملك الجديد بانتباه إلى مقالهم أجمع ، وندم حتى على الوقت الذي ضيّعه قبل ذلك دون أن يهتئ لنفسه مرفقاً ، من قبل أن يزول عنه سلطانه .

فخاطب الحكماء الذين تكلموا ، قائلاً : «أشيروا علي يا ذوي الحكمة ، كيف لي أن أهتئ من أمري لأيامي القادمة في مُستقبلي ؟» .

فأجاب أحدهم : «كما جئتنا عارياً ، فعارياً تُغادرنا إلى الجزيرة المهجورة التي أنبأتك عنها ، أمّا الآن فأنت الملك وبمقدورك أن تفعل ما يحلو لك ، لذا فأرسل عمّالاً إلى هذه الجزيرة ، ومرهمُ ببناء الدُّور وفلاحة الأرض وتجميل المكان . فتحوّل التربة الجرداء إلى حقول خصيبة ، ويرتحل الناس إليها للعيش ، فتجد لنفسك مملكةً جديدة ورعيةً يتلقونك بالابتهاج والتكريم عندما يزول من هنا سلطانك . إن السنة قصيرة ، والعمل كثير ، لذا فشُدّ العزم وكُن نشيطاً» .

فاتبع الملك مشورته ، وأرسل الفعلة والمواد اللازمة إلى الجزيرة النائية ، التي ما لبثت قبل انقضاء مُدة سلطانه المؤقت أن أضحت مكاناً زاهراً وماتعاً بكل ما تشتهي النفس . كان الملوك الذين سبقوه يتوجسون ويتحسبون ليوم انقضاء سلطانهم بالجزع ، أو يتجنبون التفكير به ، فأما هو فكان يتطلّع إلى ذلك اليوم كيوم فرح وابتهاج ، يدخل فيه حياةً مديدة من الرغد والأمان .

فلما جاء اليوم الموعود ، جرد العبد العتيق الذي أضحي ملكاً من سلطانه ، وزال عنه مع سلطانه هذا لباسه الملكي ، وطرح عارياً على متن سفينة ، ووجهت أشرعتها صوب الجزيرة المهجورة .

غير أن الرَّجُلَ عندما أشرف على ساحلها ، إذا بالنَّاسِ الذين أرسلهم إليها
يأتون لاستقباله بالعزف والتَّهليل والفرحة العارمة . ونصبوه عليهم أميراً ،
فعاش بينهم مقيماً بالرَّضا والحُبور ما شاء له أن يُقيم .

فالرَّجُلُ الغني المُحسن ما هو إلا الله ، والعبد الذي أعتقه ما هو إلا الرُّوح
التي يعطيها الله للإنسان . أما الجزيرة التي أتاها العبد فهي الحياة الدُّنيا ، يأتيها
الإنسان عارياً وباكياً أمام أهله ، يُكْتَى عنهم بسكَّانِ الجزيرة الذين يستقبلونه بكلِّ
حفاوة ويجعلونه ملكاً بينهم . أما الأصحاب الذين يخبرونه عن أمور البلدة فما
هم إلا «نوازع فطرته الطَّيبة» . وسنَّة سُلْطانه هي دور حياته ، وأما الجزيرة النَّائية
فهي العالم الآخر ، الذي ينبغي له أن يجمِّله بأعمال الخير ، أي بـ «الفَعْلَة والمواذِّ
اللازمة» ، وإلَّا عاش وحيداً طريداً إلى أبد الدهر .

* * *

الإمبراطور والعجوز

يُحكى أن الإمبراطور هادريانوس عندما كان مجتازاً ببعض شوارع طبرية
أبصر رجلاً عجوزاً طاعناً في السنِّ يغرس شجرة تين ، فتوقَّف وقال للرجل : «لِمَ
تغرس هذه الشَّجرة ؟ لو عملتُ شاباً لأضحت لك في شيخوختك ذخيرةً تتعيش
منها ، أما الآن فلا ريب أنك غيرُ مُدركٍ ثمار هذه الشَّجرة» .

فأجاب العجوز : «في شبابي عملتُ ، وما زلتُ إلى الآن أعمل . وياذن
الله أكلُ من ثمر هذه الشَّجرة التي أغرسها . فييده هو مصيري» .

قال الإمبراطور : «قُل لي كم عُمرُك» .

«غبرتُ في هذه الدُّنيا مئة عام» .

«لك من العمر مئة عام ، ولا تزال تأمل الأكل من هذه الشَّجرة ؟» .

أجاب العجوز : «إذا كانت هذه إرادة الله ، وإلا تركتها لابني ، كما ترك

لي أبي ثمار عمله من قبل» .

قال الإمبراطور : «طيب ، إن أنتَ عشتَ بالفعل حتى تحمل هذه الشجرة وتثمر ، فأرجو منك أن تُعلمني بهذا» .

ويُحكى أن العجوز امتدّ به العمر حتى حملت الشجرة وأثمرت ، فتذكّر كلام الإمبراطور وقرّر زيارته ، فأخذ بيده سلّة⁽¹⁾ صغيرة ، وملاها بأطيب ثمار تلك التينة ، ومضى لطيته . فلماً وصل وأطلع حراس القصر⁽²⁾ على مسأله ، سُمح له بالمشول بين يدي الملك .

قال الإمبراطور : «أذنُ أيها الشيخ ، ما هو مطلبك ؟» .

فأجاب العجوز : «ما أنا يا مولاي إلاّ العجوز الذي قُلتَ له يوماً : «إن عشتَ حتى تحمل هذه الشجرة وتثمر ، فأعلمني بهذا» . فها أنا ذا أتيتُ وجلبتُ لك بعضاً من ثمارها ، لتأكل منها أيضاً» .

فسرّ الإمبراطور غاية السرور ، فأمر بإفراغ سلّة الرّجل من تينها ، وأمر بملئها له حتى أعلاها بالقطع الذهبية .

فلماً مضى العجوز ، قال بعض أفراد البطانة للإمبراطور : «لماذا أكرمتَ هذا اليهودي العجوز إلى حدّ بالغ ؟» .

أجاب الإمبراطور : «إن كان الله أكرمه ، أفلا أكرمه أنا ؟» .

ويُحكى أنه كانت بجوار هذا العجوز تعيش امرأة ، فلماً نمي إليها خبر سعد جاراها رغبت إلى زوجها بأن يجربّ حظّه في السّياق ذاته . فملأت له سلّة عظيمة بالتين ، وطلبت إليه حملها على كتفه وقالت : «هيا ، احملها إلى الإمبراطور ، فهو يحبّ التين وسيملأ لك سلّتك بالقطع الذهبية» .

فلماً بلغ الزوج أبواب القصر ، أطلع الحراس على شأنه قائلاً : «قد جلبتُ للإمبراطور تيناً كما ترون ، فأرجوكم أفرغوا سلّتي واملاوها بالذهب» .

(1) العبارة في العبرية : כל סל ، تتقاضي مع العربية ، وإن كان بصيغة المذكّر .

(2) هل ترك الإمبراطور هادريانوس روما ليقيم هنا ؟ هذه حكاية أسطورية نعم ، لكن الطامة أن كثيراً من التراث الديني تتم صياغته وقولته هكذا ليصير مقدّساً !

فلما وصل الخبر إلى الإمبراطور ، أمر بالعجوز أن يقف أن يقف في رواق القصر ، وأن يقذفه كل من مرّ بشمار تينه . فعاد إلى بيته طافحاً بالكدمات مكسور الخاطر ، ليلاقي زوجته الخائبة الرجاء .

فقال : « لا تهتم ، ولك ثمة عزاء يرضيك ، فلو كان ما تحمل ثمار جوز الهند عوضاً عن التين ، لكنت نلت من اللطم أضعافاً» .

* * *

بَيِّنَةٌ عَلَى مَلِكِيَّة

يُحكى أن أحد أبناء يروشلأيم كان مُسافراً ، فأصابه المرض في نُزُل على الطريق . وإذا أحسَّ الرَّجُل أن نهايته قد دَنَّت ، دعا بصاحب النُّزُل وقال له : «إنني لا مَحَالَةَ مُلاقٍ حتفي ، فإن أتى بعد موتي أي أحد ليطالب بتركتي ، فلا تسلِّمه شيئاً حتى يُبدي لك ثلاث علامات حكمة تدلُّ على أنه بها جدير ، هذا لأنني أوصيتُ ابني قبل خروجي مُسافراً ، بأنه إن حلَّ بي الموت فعليه أن يُبدي علائم للحكمة قبل أن يرث ممتلكاتي» .

ومات الرَّجُل ، فدُفِن حسب الشَّعائر اليهودية ، وتمَّ إعلان موته على الملأ كيما يحضر ورثته . فلما دري ابنه بوفاته انطلق من يروشلأيم إلى حيث مات ، وقرب أبواب المدينة لقي رجلاً معه حمل حَطَبٍ للبيع ، فاشترى هذا الحمل وطلب تسليمه في النُّزُل الذي كان متوجّهاً إليه . فقام الرَّجُل الذي ابتاع منه بقصد النُّزُل على الفور ، وقال : «ها هو ذا الحطب» .

أجاب صاحب النُّزُل : «أي حَطَب ؟ ما طلبتُ حطباً» .

أجاب الحطَّاب : «بل طلبه الرَّجُل الذي يأتي الآن خلفي ، سوف أدخل وأنتظره» .

على ذلك ، أمّن الابن لنفسه من يتلقاه بالتَّرحاب عندما يصل النُّزُل ، فكانت تلك أولى علائم حكمته .

قال له صاحب المكان : «مَنْ أَنْتَ؟» .

فأجاب : «ابن الرَّجُلِ الَّذِي تُوَفِّي فِي نُزْلِكَ» .

فأعدّوا له عشاءً ، ووضعوا على المائدة خمس حمامات ودجاجة . وقعد معه إلى المائدة كلٌّ من صاحب المكان وزوجته وابنيه وابنته .

قال الرَّجُلُ لِلضَّيْفِ : «فَلتَقْسِمِ الطَّعامِ» .

قال الشَّابُّ : «أَنْتَ السَّيِّدُ هُنَا ، وَهَذَا حَقُّكَ وَلَيْسَ لِي» .

فقال الرَّجُلُ : «أُرْغَبُ إِلَيْكَ أَنْ تَفْعَلَ ، فَأَنْتَ ضَيْفِي ابْنِ التَّاجِرِ ، هِيَ . . أرجوك أن تقسم علينا الطعام» .

فلَمَّا رَأَى الشَّابُّ مِنْهُ إِحْاحاً ، قَدَّمَ حَمَامَةً لِلابْنِ ، وَأُخْرَى لِلبِنْتِ ، وَقَدَّمَ الثَّالِثَةَ لِلرَّجُلِ وَزَوْجَتِهِ ، وَأَبْقَى لِنَفْسِهِ الْحَمَامَتَيْنِ الْبَاقِيَتَيْنِ . فَكَانَتْ هَذِهِ الْعَلَامَةُ الثَّانِيَةَ عَلَى حِكْمَتِهِ .

فبدأ صاحب النُّزْلِ مُتَعَضِّباً بِعَظْمِ الشَّيْءِ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فِي التَّقْسِيمِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَفْتَحْ فَاهُ بِكَلِمَةٍ .

ثم قام ابن التَّاجِرِ بِاقْتِسَامِ الدَّجَاجَةِ ، فَأَعْطَى لِلرَّجُلِ وَزَوْجَتِهِ الرَّأْسَ ، وَلِلابْنِ الْفَخْذَيْنِ ، وَلِلبِنْتِ الْجَنَاحَيْنِ ، وَأَبْقَى لِنَفْسِهِ بَدَنَ الدَّجَاجَةِ⁽¹⁾ . فَكَانَتْ تِلْكَ الْعَلَامَةُ الثَّالِثَةَ عَلَى حِكْمَتِهِ .

(1) يرد أمثال هذه القصة في مجاميع الأدب العربي المؤلفة في عهود الإسلام الأولى ، مثل : «زهر الآداب» للحصري القيرواني ، و«العقد الفريد» لابن عبد ربه الأندلسي ، و«المستطرف» للأبشيهي . فهذا دليل على أن مصدر الرويات كان من التراث القائم في المشرق قبل أن تشيع الكتابة بالعربية ، كقصص التلمود والمدراس (الناقلة عن الهند وفارس) ، والقصص الديني السرياني . ولا ريب أن للتراثين الأدبي والديني تمازجاً أكيداً .
نقول : ليس هذا عيباً ، فلا يسوء بأية لغة الاقتباس والتأثر ، إنما الخطير ظهور طبقة من الباحثين ، كالألمانيين أبرهام كايغر وتيودور نولدكه والمجري إگناتس گولدتسيهر ، وبأيامنا جوزيف قزّي (أبو موسى الحريري) وكريستوف لوكنسبرغ (اسم مُستعار) ، راحوا يرمون النصّ القرآني ذاته بتهمة الانتحال والتقل . فلاقى ذلك أصداءً ، مع فشل لدينا في الردّ ، لئدرة مَنْ يجيد علوم الفيلولوجيا والنقد النصّي وفقه اللغات السامية !

فقال الرَّجُلُ : «أهكذا تكون القسمة في بلدكم ؟ رأيتُكَ وأنت تقسم بيننا الحَمَامَاتِ ، فلم أتكلّم . أما دجاجتي يا سيّدي العزيز ، فلا بدّ لي أن أسألك عن تعبير أمرها» .

فأجاب الشّاب قائلًا :

«سبق أن قلتُ لك إن القسمة ليست من شأنِي ، لكنك عندما أصررتَ فعلتُ ما بوسعي ، ولعلّي أصبتُ في قسمتي هذه . فأنت وزوجتك وحمامةٌ فهذه ثلاثة ، وابناك وحمامةٌ فهذه ثلاثة ، وابنتاك وحمامةٌ فهذه ثلاثة ، وأنا وحمامتان فهذه أيضاً ثلاثة ، فلعمري أنها لقسمةٌ حقّ . أما بخصوص الدّجاجة ، فأعطيتُك وزوجتك الرأس ، لأنكما رأسان في البيت . وأعطيتُك كلاً من ابنيك فخذاً ، لأنهما عمودا البيت ، وبغيرهما لا يدوم اسم العائلة . أما ابنتاك فأعطيتُك كلّ واحدةٍ منهما جناحاً ، لأنهما بطبيعة الحال سوف تتزوّجان ، فيصير لهما أجنحة ويطيران من عشّ الأسرة . وأما بدنّ الدّجاجة فأخذته لنفسِي لأنه يُشبه شكل السفينة ، طالما أنني جئتُ إلى هنا بسفينة وأمل الرجوع بسفينة . وإني لأبْنُ التّاجر الذي توفّي في بيتك ، فهاتِ أعطني ملكيّة أبي المتوفّي» .

قال صاحب البيت : «دُونك هي حلالاً لك ، فامضِ راشداً» . فاستلم الشّاب تركة أبيه ومضى سالماً غانماً .

* * *

ردُّ دين

يُحكى أن رجلاً من أبناء أتينا⁽¹⁾ (مدينة قرب يروشلايم) زار يروشلايم ، وبعد أن غادرها راح يُزري بها وبأهلها . فاغتاظ البيروشلميون أيّما غيظ إذ صاروا عُرضةً لسخريته ، فحثّوا أحد أبناء مدينتهم على السفر إلى أتينا ، ليُغري الرجل بالعودة إلى يروشلايم ، فيتسنّى لهم أن يُفحموه ويردّوا على إهاناته .

(1) كذا بالأصل ، ولعلّ المقصود «تمنات» (باللاتينية Thamna) بين القدس و نابلس .

فقام اليرושلمى قاصداً أتيناً ، وسرعان ما التقى بالرجل الذي يريد . فلماً كانا في بعض الأيام يتمشيان في الطرقات ، قال اليرושلمى : «مهلاً ، قد انقطع سير حذائي ، فأرجوك خذني إلى الإسكاف» .

فأصلح الإسكاف سير حذائه ، وإذا بالرجل يدفع له قطعة نقد تفوق ثمن الحذاء ذاته .

في اليوم التالي ، لما كان الرجل يتمشى مع صاحبه تعمّد قطع سير الفردة الثانية من الحذاء ، فلماً قصداً الإسكاف من جديد ابتدره بالمبلغ الوافي ذاته على إصلاحه .

قال الأتيني : «مه ، لا بُدّ أن الأحذية غالية الثمن للغاية في يروشلايم⁽¹⁾ ، ما دمت تدفع هذا المبلغ الكبير لإصلاح مجرد سير !» .

أجاب الآخر : «نعم ، فهي تساوي تسع دوكات ، وحتى في أيام الرخص لا يقل ثمنها عن سبع أو ثمان» .

«ما دام الأمر كذلك فلا ريب أنها تجارة مُجزية لي بأن أورد أحذية من مدينتي وأبيعها في مدينتك» .

«نعم وأيم الحق ، ولكن لعلك تُبثني بمجيئك أولاً كيما أرتب لك أمر التعرف إلى الزبائن» .

وهكذا ، قام الرجل الذي هزى باليرושلميين بابتياح بضاعة كبيرة من الأحذية ويّم وجهه شطر يروشلايم ، بعد أن أرسل إلى صاحبه يُنبئه بقدمه . فخرج هذا الأخير إلى استقباله ، فلقه قبل وصوله إلى أبواب المدينة ، وابتدره قائلاً :

«يقتضي العرف في يروشلايم أن أيّ غريب يدخلها بغرض الاتجار ، عليه أن يحلق رأسه ويُسخّم وجهه . فهل أنت جاهز لمثل ذلك ؟» .

(1) أشرنا في المقدمة أننا نتهج عند الترجمة مبدأ إيراد جميع المفردات والمصطلحات والأسماء بمنطوقها الوارد في نصّها . أما اسم المدينة لدينا فهو : القُدس الشريف .

أجاب الآخر : «ولمَ لا ؟ طالما أنني أتوخى أرباحاً جزيلة ، فما الذي يمنعني أو يؤخرني عن أمر بسيط كهذا؟» .

وهكذا ، بادر الرجل إلى حلق رأسه وتسخيم وجهه (بما جعل يروشلايم كلها تُدرك بأنه هو مَنْ ازدرى المدينة وأهلها) ، ومكث في السوق وبضاعته أمامه مُزجاة .

فراح الشارون يمرون به ويسألون : «بكم الأحذية؟» .

فيجيبهم : «بعشر دُوكات ، أو ربما بعثُ بتسع ، ولكن ليس أبداً أقلّ من ثمان» .

فكان ذلك يُثير موجات من الضحك والقهقهة والصخب في السوق ، ثم طردوا الرجل منه تحت صيحات السخرية ، ورموا بأحذيته في أعقابه .

فطلب الرجل اليروشلمي الذي غرّبه ، وقال له : «ما حَمَلَك على أن تفعل بي ذلك ؟ رأيَتي أهنتك في أننا؟» .

أجاب اليروشلمي : «فليكن هذا لك درساً ، ولا أظنك تُعاود الهُزء بنا بعد الآن أبداً» .

* * *

ابن عرس والبئر

يُحكى أن شاباً صادف أثناء ارتحاله في البلاد فتاةً صبيّة ، فما لبثا أن وقعا في الهوى . فلما توجّب على الفتى مُبارحة المنطقة التي تُقيم فيها الفتاة ، التقى العاشقان ليقولا كلمة الوداع . فعندذاك تبادلوا العهد بالوفاء ، ووعد أحدهما الآخر بأن يمكث بانتظار حبيبه إلى أن تسمح لهما الأقدار بالزواج . وقال الفتى : «فمَنْ يشهد على خطوبتنا هذه؟» . فإذا بهما يبصران ابن عرس يمرّ أمامهما ويختفي في الأجمة . فأردف الفتى : «أترين ؟ ابن عرس هذا مع البئر الذي نقف عنده يشهدان على خطوبتنا» . ثم تفارقا .

وكرت السنون ، فظلت الفتاة وفيّة على العهد ، أما الفتى فتزوج . وبعد مدة وكلد له ابن ، وراح يكبر تحت أنظار والديه المسرورين . وفي بعض الأيام كان الصبي يلعب فناله التعب ، فاستلقى على الأرض ونام ، فعضّه ابن عرس في رقبته فنزف حتى مات . وكابد قلبا الأبوين من جرّاء هذه الفاجعة غاية الحزن والمشقة ، ولم يستكن بالهما حتى رزقا بطفل آخر . ولكن لما صار بإمكان هذا الابن الثاني المشي بمفرده راح يتجول خارج البيت ، وإذا انحنى أمام البشر ليتفرّج على صورته في الماء فقد توازنه وانقلب في البئر وغرق .

عندها ، تذكر الأب عهده الذي حنث به ، وتذكر شاهده : ابن عرس والبئر . فأخبر زوجته بالقصة ، فوافقت على الطلاق . ثم مضى طالباً الفتاة التي وعدّها بالزواج ، فوجدها ما زالت قائمة على عهدّها تنتظر رجوعه . وروى لها كيف أنّه من خلال إرادة الله قد عُوقب على ما جناه من ذنب ، وبعد ذلك تزوّجا وعاشا بسعادة ووثام .

* * *

الورث الشّرعي

يُحكى أن يسرّئلياً حكيماً ، يقطن على مرحلة من يروشلايم ، أوفد ابنه إلى المدينة المقدّسة لتابعة دراسته . فخلال غياب الابن حلّ المرض بالأب ، ولما أحسّ بدنوّ أجله كتب وصيّته ، تاركاً كل ما يملك لواحد من عبيده ، بشرط أن يسمح لابنه أن يختار أيّ غرض فرديّ يُعجبه من الإرث .

فحالما توفي الأب قام العبد مُبتهجاً بحظه الفائق ، وهرعَ إلى يروشلايم فأخبر ابن سيّده الرّاحل بما جرى ، وأطلعه على الوصية .

فصعق الابن وتألّم للخبر ، وبعد مُضيّ المدة المعيّنة للحداد راح يتفكّر ملياً في أمره . فمضى إلى معلّمه ، وشرح له مُلابسات الأمر ، وقرأ عليه وصية أبيه ، وجعل يندب إليه حظّه بضياح ما كان يؤمّله من أمر إرثه ، متعجباً من أنه لم يأت ذنباً يُغضب أباه ، وراح يتمادى في امتعاضه على هذا الجور .

قال المعلم : «حسبك فاصمت ، ما كان أبوك إلا امرءاً حكيماً ووالدأ عطوفاً . وما هذه الوصية إلا شاهداً حياً على حُسن فهمه وبعُد رؤياه . فلعل ابنه يكون بمثل حكمته يوماً» .

تعجب الفتى قائلاً : «ماذا ؟ لست أرى أية حكمة في وهب ملكيته أجمع لعبد من عبيده ، ولا أي محبة في تجاهله هذا لابنه الوحيد» .

أجاب المعلم : «اسمع ، من خلال هذا الفعل بالذات عمد أبوك إلى أمر واحد فحسب ، ألا وهو تأمين تسليم إرثك إليك دون سواك ، إذا كنت بما يكفي من الحكمة لتستفيد من ذكائه . فلا بد أنه قال لنفسه عندما أحسَّ بيد الموت تقترب منه : «ابني الآن بعيد ، وعندما أموت سوف لن يكون حاضراً ليتولّى شأن ما أملك ، ولا ريب أن عبيدي سيُسارعون إلى انتهاب أملاكى ، وحتى أنهم قد يُخفوا عن ابني خبر موتي ليكسبوا مزيداً من الوقت ، ويحرمونني من طعم العزاء والسلوان بحضور ابني» .

«فليدراً هذا كله ، أوصى بملكه إلى عبده ، موقناً بأن هذا الأخير إذ يظنّ بحقه السّافر في الأمر سيخفّ إلى إبلاغك على وجه الأمر ويحافظ على الممتلكات ، كما رأيته فعلاً بالضبط» .

«طيب . . طيب ، وفيم تراه ينفعني هذا كله الآن؟» . بادر التلميذ النافذ الصبر مقاطعاً .

أجاب المعلم : «أها . . أرى أن الحكمة لا تسكن عقول الشباب ! أما علمت أن ما يملكه أيّ عبد إنما هو ملكٌ خالصٌ لسيدّه ؟ أولم يترك لك أبوك حرية اختيار الشيء الذي ترضاه من تركته كلّها حلالاً طيباً لك ؟ فما عليك إلا اختيار العبد بمثابة حصّتك المترضاة ، فيكون امتلاكك له ضماناً لاسترجاع كل ما كان لأبيك . فهذا هو مقصده الحكيم والرؤوف» .

ف فعل الفتى بنصيحة المعلم ، وأطلق بعدها للعبد حرّيته . ولكنه منذ ذلك اليوم طفق يردّد : «الحكمة حكرٌ على الشيوخ ، والفهم لا يأتي إلا بطول الأيام ومكابدة الحياة» .

لا شيء في الدنيا بغير نفع

يُحكى أن داود ملك إسرائيل كان في بعض الأيام مُضطجعاً على أريكته ، يتفكّر ويتأمل في العديد من شؤون هذه الحياة . فقال في نفسه : «ما هو نفع العنكبوت في هذه الحياة ؟ لا أرى لها شيئاً سوى تكويم الغبار والأقدار في الدنيا ، فتشوه كل مكان ويتأتى عنها كل إزعاج» .

ثم قد يتفكّر بالجنون ، فقال في نفسه : «كم هو تعس منكود الحظ ! أفهم أن جميع الأشياء تُرتّب بأمر الله بنظام وتوفيق تامين ، أما هذا فيخرج عن نطاق مداركي ، إذ كيف يولد بعض الناس حمقى أو يُصابون بالجنون ؟» .

ثم أخذ البعوض يزعجه ، فراح الملك يتساءل : «وما هو نفع هذا البعوض أيضاً ؟ ما هو موجب خلقه في هذه الدنيا ؟ إنه لا يؤدي إلا إلى إقلاق راحتنا ، وليس للدنيا من وجوده أي فائدة» .

غير أن الملك داود عاش بعدُ ليدرك أن هذه الحشرات بالذات ، وأن الحكمة من ترتيب الحياة ، وأن الكائنات ذاتها التي راح يستنكر وجودها ، إنما تمّ تسخيرها لمنفعته الشخصية بالذات .

فلما هرب داود من وجه شاؤول ، ألقى إخوة جليات القبض عليه في أرض الفلسطينيين ، فأخذه إلى ملك جت ، فلم يتسنّ له الإفلات من حومة الموت إلا بادعاء الجنون ، فأقرّ الملك بأن رجلاً كهذا لا يمكن أن يكون الملك داود ، كما هو مكتوب : «فغير عقله في أعينهم ، وتظاهر بالجنون بين أيديهم ، وأخذ يُخربش على مصاريع الباب ، ويسيل ريقه على لحيته» (صموئيل الأول 21 : 13) .

وفي واقعة أخرى ، اختبأ داود في مغارة عدلام (1) ، فكان أن عنكبوتاً أتت إثر دخوله تنسج على باب المغارة خيوطها . فمرّ ملاحقوه المطالبون بدمه بذاك المكان ، فتجاوزوا عنه على اعتبار أنه لا يمكن لأحد أن يلج مغارة قد نسجت عليها العنكبوت ، من غير أن يهتك خيوطها .

(1) راجع حول هذه الواقعة سفر صموئيل الأول - 22 : 1 ، لكن رواية العنكبوت ليس فيه ، بل هي تراث شفهي الأصل من أجداء التلمود والمدراش .

وكذلك كان البعوض في خدمة داود عندما دخل معسكر شاؤول ، لكي يحصل على أسلحة هذا الأخير . فلما كان يتسلل أمام أنبیر النائم ، تحرك هذا وإذا به يضع ساقه على جسد داود . فلو أنه تحرك كان أوقف أنبیر ولاقى حتفه ، وإن بقي على وضعه ذلك لطلع عليه الصبح وكان القتل نصيبه ، فلم يدر ما يفعل وإذا ببعوضة تحطّ على ساق أنبیر ، فهزّها بسرعة ونجا داود .

ولذلك أنشد داود يقول : «جميع عظامي تقول : ياربّ من مثلك»⁽¹⁾ .

* * *

عاقبة الإيمان

كان اليسرئيليّون أمروا بزيارة يروشلأيم في ثلاثة أعياد . فحدث في إحدى الأيام أن الماء شحّ في المدينة ، فمضى واحد من الناس يلتمس من بعض الأعيان الذي كان له ثلاثة آبار بأن يسمح لهم بالاستقاء من مائها ، واعدأ بإعادة ملئها في موعد معيّن ، وتمعهدأ في حال عدم توقّر الماء بدفع مبلغ كبير من الفضة برسم التّعويض . فلما حلّ الموعد المعيّن ، كانت الدنيا مُحلة ولم ينزل المطر ، وكانت الآبار الثلاثة خالية من الماء . ففي الصبح أرسل صاحب الآبار يطلب المال الموعود . فأجاب نقديمون بن جوريون ، وهو الرّجل الذي تولّى هذا الواجب من أجل صالح الناس : «النهار ما زال في أوّله ، وثمة وقت بعد» .

فدخل الهيكل وراح يتضرّع إلى الله بأن يرسل المطر ، ويُقي له ماله الذي غامر بفقده بأكمله . واستجيب لدُعائه بالفعل ، فتجمعت السحب وهطل المطر مدراراً . وفيما كان خارجاً من الهيكل بقلب مُفعم بالرّضا ، إذا به يقابل دائنه الذي ابتدره قائلاً :

«صحيح ، لقد ملأ المطر آباري ، ولكن ها قد حلّ الظلام ومضى النهار ، وحسب اتفاقنا يبقى لزاماً عليك أن تدفع لي المبلغ الموعود» .

(1) سفر الزامير - 35 : 10 .

فدعا نقديون مرة أخرى ، وإذا بالسحب تنجلي ، فبان الشمس المائلة نحو المغرب وألقت بأشعتها الذهبية على المكان الذي كان يقف فيه الرجال ، فدلّت على أن نور النهار لما ينقضي بعد ، ولو أن السحب الماطرة كانت لبعض الوقت أظلمت ألقه .

* * *

أبتينوس وجرماء

كانت عائلة تُعرف بآل أبتينوس ، يجيد أفرادها صناعة البخور المُستخدم في الصلاة . وكانوا يضنون بتعليم أي إنسان معرفتهم ، فخشي قِيمو الهيكل أن تبيد هذه الصنعة عند موت هؤلاء ، فصرفوهم من الخدمة ، وأتوا بناس آخرين من الإسكندرية في مصر بُغية تحضير اللبان المعطر . غير أن هؤلاء لم ينالوا رضا الناس مما اضطرّ القوامين إلى إعادة الخدمة لأيدي آل أبتينوس ، الذين من جهتهم رفضوا قبولها مجدداً ، ما لم تُضاعف لهم مكافأة خدماتهم .

فلما سُئلوا عن سبب إصرارهم على رفض تعليم فنونهم للآخرين ، أجابوا بأنهم يخشون إن هم علّموا بعض الناس غير المُستأهلين ، أن يبادر هؤلاء فيما بعد إلى استخدام معرفتهم في عبادة وثنية . وكان أفراد هذه العائلة حريصين غاية الحرص على عدم التطيب بأيّ من نوع من الطيوب ، لئلا يقر في ذهن الناس بأنهم يستخدمون الأطياب العظرية المُستخدمة في صناعة البخور لأغراض دينية .

وثمة مثال شبيه بذلك فيما يتعلّق بآل جرماء ، الذين كانوا يحتكرون معرفة صنع خُبز التّقدمة المُستخدم في صلوات الهيكل .

وحول هذين المثالين كان قول ابن عزّاي : «باسمك ينادونك ، وفي مدينتك يُسكنونك ، ومن مالك يُعطونك» ، بمعنى أن الثّقات ينبغي لهم ألا يخشوا غصب الآخرين حرفتهم . وعبارة «باسمك ينادونك» ، كما جرى مع آل أبتينوس وجرماء ، «ومن مالك يعطونك» ، تعني أن ما يكسبه المرء يكون له حلالاً طيباً ، لا يحقّ لأحد أن ينتزعه منه .

الوثوق بالله

يُحكى أن الرَّابِي يُوحَنان بن لِيثي صام وصلّى للرَّبِّ لكي يُجيز له رؤية إياهو⁽¹⁾ المَلِك ، الذي رُفِعَ حَيًّا إلى السَّماء . فاستجاب اللهُ لدُعائه ، فظهر له إياهو على هيئة رجل .

توسّل الرَّابِي إلى إياهو قائلاً : «دَعني أتبعك في طوافك عبر البلاد ، وأراقب أحوالك وأفعالك ، فأكسب لنفسي حكمةً وفهماً» .

قال إياهو : «لا ، فأفعالي لا سبيل لك إلى فهمها ، وتصرفاتي لا صبر لك عليها ، فكيف تصبر على ما ليس لك به علم ؟» .

لكن الرَّابِي أقام على توسّله : «لن ترى مني أيّ إزعاج أو تساؤل ، لكن اسمح لي أن أتبعك في دربك» .

قال إياهو : «إِذَا هَلَمَّ ، ولكن ليلزم لسألك الصمت ، وعند أوّل سؤال تسألني ، أو أوّل إشارة تعجّب منك ، فهو الفراق ما بيننا» .

فجال الاثنان معاً عبر البلاد ، وبلغا بيت رجل فقير ، لم يكن يملك من المال وأسباب الرزق سوى بقرة . فلما اقتربا خفَّ الرَّجُل وامرأته إلى استقبالهما واستحلفاهما بالدخول إلى كوخهما وتناول الطعام والشراب من الميسور لديهما ، وبأن يمضيا اللَّيل تحت سقفهما . فهذا ما كان ، فلقيا كل حفاوة من مُضيفيهما الفقيرين الكريمين . وفي الصِّباح قام إياهو مُبكرًا يصلّي ، فما إن فرغ من صلاته حتى وقعت بقرة الفقيرين ميتةً . ومضى الرَّفِيقان في رحلتها .

(1) إياهو أو إيليا التَّشبي من أنبياء إسرائيل ، عارض عبادة البعل التي أتبعها الملك أخاب بن عمري في السَّامرة . ترد سيرته في سفر الملوك الأول - أصحاح 17-22 ؛ وسفر الملوك الثاني - أصحاح 1-2 ، وفيه أنه رُفِعَ حَيًّا ولم يمُت . يتكرَّر ظهوره العجائبي في التلمود لِيُنجِدَ الحاخامات ويعلمهم . يُعرف في تراثنا الإسلامي باسم «نبي الله إلياس عليه السلام» ، يرد في القرآن الكريم : «وَإِن إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٢﴾ (الصافات : 122-124) .

وفي بعض متون الحديث الشريف والتراث الشفهي لقصص الأنبياء يرد باسم «الخضر - أبو العباس» ، ويقرن بعض الناس بالخطأ بين الخضر والقديس جاورجيوس .

فأخذت الحيرة من الرّابي يُوَحّان كلّ مأخذ ، فقال لإلياهو : «لم يكفنا أن نُنكر عليهما أداء حقّ ضيافتهما وخدماتهما الطيّبة بدفع أجره ما ، بل وتبادر إلى إهلاك بقرة هذا الرّجل الطيّب الذي . . .» .

فقاطعه إلياهو : «صه ، فلتسمع أذنك ولتُبصر عينك ، ولكن فلتصمت ! فإن أنا أجبّتك فهو فُراق بيني وبينك» .

وتابعا طريقهما معاً . وعند المساء وصلا دائرة واسعة فخمة ، يسكنها رجل غنيّ متعجرف . فلقي الرّجلان استقبالاً هزيباً ، وقُدّمت لهما قطعة من الخبز وكأس ماء ، حتى أن صاحب البيت لم يكثرث بمجرد التّرحيب بهما أو الحديث معهما ، فباتا ليلتهما هناك مُهمليّن . وفي الصّباح لاحظ إلياهو أن جداراً في البيت بحاجة إلى إصلاح ، فأرسل في طلب النّجار وبذل أجره الإصلاح من ماله ، بأن هذا كما قال ردُّ لكرم الضّيافة التي لقيها .

فتملّك العجب من جديد الرّابي يُوَحّان ، لكنه لم ينطق بحرف ، وتابعا طريقهما قُدماً .

ولما قارب حلول الظّلام ، دخلا مدينة كان فيها كنيسٌ كبير وفخم . ولما كان موعد صلاة المساء قد حلّ فقد دخلا الكنيس وراحا يُمعنان النّظر فيما بالمكان من الزخارف الغنيّة ، والطنافس المُخملية ، والنقوش المُذهّبة . وبعد اختتام الصّلاة ، قام إلياهو وصاح عالياً : «أهنا من يودّ إطعام فقيرين وإيوائهما في هذه الليلة ؟» . فلم يُجب أحد ، وآبوا أن يضيّفوا المُسافرين الغربيين أو يكرمواهما . ولكن في الصّباح ، عاود إلياهو دخول الكنيس ، وراح يصفح أفراد قائلاً : «أتمنّى لكم أن تصيروا جميعكم رؤساء» .

في المساء التالي دخل الرّجلان مدينة ثانية ، فلما سارع شمّاس الكنيس لاستقبالهما ، بعد إخبار أفراد الجماعة بقدم غربيين ، فُتحت أحسن دار للضيافة في المدينة لهما ، وراح الجميع يتنافسون في تقديم الكرم والرّعاية لهما .

ففي الصّباح لدى توديعهما لهؤلاء ، قال لهم إلياهو : «فليعيّن الرّبّ عليكم رئيساً واحداً فحسب» .

فهنا ، لم يعد يُوحَنان يُطبق صبراً ، فقال لإلياهو : «قُل لي ، أنبئني بتأويل هذه الأفعال التي شهدتُها . فأولئك الذين عاملونا بغير اكرثات رُحِت تُغدق عليهم دعوات الخير ، وأما الذين أكرمونا وأحسنوا إلينا فلم توفهم حقهم بالمثل . فحتى إن كان لا بُدَّ من الفُراق ، أرجوك أن تُخبرني بتأويل ذلك كله» .

قال إلياهو : «اسمع ، وتعلّم الوثوق بالله ، حتى وإن لم تفهم طُرُقهُ ! فلما دخلنا أولاً بيت الرّجل الفقير الذي عاملنا بلُطف ، اعلم أنه في ذلك اليوم بالذات كان مُقدراً أن تموت زوجته . فدعوتُ الرّبّ بأن تكون البقرة فداءً لها ، واستجاب الله دعواتي ، وأبقيت المرأة لزوجها . أمّا الرّجل الغني الذي زُرناه بعدها ، فقد عاملنا بغير اكرثات ومع ذلك أصلحتُ له جداره ، وأصلحتُه بغير أساس جديد ، وبغير حفر إلى عمق الأساس القديم . فلو أنه أصلحه هو ، لكان قام بالحفر وكان عشر على كنز مطمور تحته ، لكنّه الآن ضاع عليه إلى الأبد . أمّا أفراد الكنيس الذين أبوا أن يُضيّفونا فقلت لهم : «فلتصيروا جميعكم رؤساء» ، والحق أنه برئيس واحد فقط يُؤمنَ عدم نشوب الخلافات» .

«فافهم وع ما أقول : إن رأيتَ خبيثاً يخوض في النعماء ، فلا تبتسّن أو يستولي عليك نَزَعٌ من حسدٍ ؛ وإن رأيتَ صالحاً قد أمضه الفقر وتقلّبتَه الرّزايا ، فلا يتوجّسن قلبك أو تدّر بجنانك في عدل الله الظنون . فإن الرّبّ كعدل قويم ، وحكمه حقٌ وصواب ، وعينه ترى الخليقة بأجمعها ، وليس لأحد أن يقول له : «ما الذي فعلتَ؟»» .

وعقب هذه الكلمات ، اختفى إلياهو ، وبقي يُوحَنان بمُفرده⁽¹⁾ .

* * *

(1) هذه الرواية من أجده التلمود ، في حين أن أجده المدراس تختصّ بشرح وتذييل المرويات التاريخية والأدبية للتوراه ، بقصص أنبيائها وملوكها ، ثم شخصياتها التاريخية اللاحقة (في أسفار النبيّيم والكتويم) . ويوحَنان (أو يهوشوع) بن ليشي متأخر عن شخصيات الأسفار اليهودية الثلاثة . وبذا يلاحظ القارئ مدى اتساع مساحة التلمود - من حيث حجمه وحقله الزمّني - على الأسفار الثلاثة (تنسخ) ، وعلى ما يليها من شروحات في المدراس ، حتى غدا المصدر التشريعي الأول لليهودية الحاخامية الأرثوذكسية .

العروس والعريس

يُحكى أن رجلاً أحبَّ صبيّةً صادقةً وجميلةً ، فبادلها الوفاء وعاهدها أن يُقيم على محبته لها . ولحين من الزّمان مضى كل شيء على ما يُرام ، وعاشت الفتاة بخير ووثام . ثم حصل ما جعل الرّجل يشغل عنها فتركها ، وجعلت تنتظره طويلاً ولكنه لم يعد . وأخذ مُحبوها يُشفقون لها بينما يهزأ بها العُدّال ، الذين جعلوا يُشيرون إليها قائلين : «ها قد نَبَذَكَ ، ولن يعود مُطلقاً» . فالتمست الفتاة حُجرتها ، وراحت تقرأ في السّرّ الرّسائل التي كان حبيبها يكتبها لها ، وكان في تلك الرّسائل يعدها بالبقاء دوماً على العهد . فراحت تقرأها وتبكي ، لكنها وجدت فيها شيئاً من العزاء والسّلوى لقلبها ، فكفكفت دموعها وأوصدت في وجه الشكّ قلبها .

وفي إطلالة يوم مُشرق مُفرح ، إذا بالرّجل الذي أحبته يعود ، ولما دري بأنّ الناس كانوا يُشككون سألها كيف حافظت على وفائها ، فأرته رسائله وأكّدت له ثقتها المطلقة .

فأمّة يسرائيل ، إبّان نكبتها وسيبها⁽¹⁾ ، كانت الأمم تسخر منها ، وصارت آمالها في الانعتاق مَثاراً للهزء ، يُضحك من حُكمائها ويُزري بأوليائها . لكن أمّة يسرائيل بقيت مواظبة على زيارة كُتسها وارتباد مدراسها . وكانت تقرأ الرّسائل التي كان الله وجّهها إليها ، وتؤمن بما فيها من الوعود المقدّسة .

ولا ريب أن الله سيخلّصها حين يشاء ، وهو عندما يقول لها : «كيف أمكنك البقاء وحيدة على إيمانك برغم هُزء الهازنين؟» ، فهي تُشير إلى كتب الشريعة وتُجيب :

«لولا لم تكن شريعتك لذتي ، لهلكتُ حينئذٍ في مدّلتِي» (المزامير 119 : 92) .

* * *

(1) لا يذكر لنا حاخامات التّلמוד ، لماذا يعاقب الله «شعبه المُختار» (أهل الكتاب لا ٥٣٧٢) مئات وآلاف السنين ، إن كانوا لا يستحقّون العقاب ؟

الحقّ

يُحكى⁽¹⁾ أن الله عندما عزم على خلق الإنسان تجمّعت الملائكة حوله ، فقال بعضها متعجباً : «فلتخلق يا الله مَنْ يُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ عَلَى الْأَرْضِ ، كَمَا نَسْبِحُ نَحْنُ وَنُرْتَمِّمُ لِمَجْدِكَ فِي السَّمَاءِ» .

لكن غيرهم قالوا : «استمع لنا أيها الملك الجبّار ، ولا تخلق هذا الإنسان ! فالانتظام الرائع للسمّوات العلى الذي أحلّته على الأرض سوف يشوشه الإنسان ويُفسد فيه» .

ثم ران الصمّت على الحشد المتنازع ، عندما ظهر ملاك الرّحمة أمام عرش العِزّة وسجد . وكم كان صوته عذّباً رخيماً حينما قال : «أيها الأب ، فلتخلق الإنسان ، واجعله على صورتك الكريمة ! وسأملأ قلبه بالرّحمة الإلهية ، وروحه أطبعها بالرفق المخلوقات جميعها ، فمن خلاله يتمثلون رمز تسييحك» .

وسكت ملاك الرّحمة ، فتكلّم ملاك السّلام والدموع تهمل من عينيه : «بل لا تخلقه يا الله ! فهو ينقض السّلام ، وسيعقب مجيئه إلى الأرض سفكٌ للدماء لا محالة . وتعمّ الأرض الفوضى والرّعب والحرب ، فلا يبقى على الأرض من عمل يدك مكانٌ بهيج» .

ثم تكلم ملاك العدل بصوت حازم : «فعندها تُدينه يا الله ، ويكون مائلاً على الدوام تحت حكمي» .

فاقترب ملاك الحقّ قائلاً : «لا يا إله الحقّ ، لا تخلقته ، فمع هذا الإنسان ينزل إلى الأرض الكذب والبُهتان !» .

ثم سكت الجميع ، ومن قلب الصمّت صدر الوحي الإلهي : «فإلى الأرض تنزل معه يا ملاك الحقّ ، لكنك تبقى مُقيماً في أحواز السّماء ، متردداً بين السّماء والأرض ، مُحكماً بينهما الوصال» .

* * *

(1) لا يرد هذا الحوار أبداً في التّوراه (التكوين ، أصحاح 2) ، بل تفرد به أجده التلمود .

خراب بيتار

يُحكى أنه كان من العادات المُتَّبعة في بيتار⁽¹⁾ عندما يولد لأبوين طفل أن تُغرس باسمه شجرة أرز صغيرة ، لتنمو وتكبر مع الطفل . فحدث في بعض الأيام أن ابنة الإمبراطور كانت تركب عبر المدينة ، فانكسرت عربتها ، وقام مرافقوها باقتلاع أرزة صغيرة لإصلاحها . فما كان من الرجل الذي غرس هذه الأرزة إلا أن هجم على العبيد وأوسعهم ضرباً .

فأثار هذا العمل سخط الإمبراطور بشدة ، فوجه إلى المدينة على الفور جيشاً قوامه ثمانون ألف رجل . فقام هؤلاء باجتياحها وقتلوا سكانها ، رجالاً ونساءً وأطفالاً . وجرت الأنهار حمراء من فيض الدماء ، ويُقال إن الأرض أضحت خصيبة مُثمرة للزراعين مُدة سبع سنين من أجساد الهالكين ، الذين يُقال إن عددهم كان يُناهز الأربع مائة ألف يسرئلي .

* * *

خراب يروشلايم

عندما عظمت ذنوب اليسرئيليين كثيراً وفاقت اصطبار العلي القدير ، ورفضوا الاستماع إلى كلام يرمياه «מִיָּה» وتحذيراته ، غادر هذا النبي يروشلايم وارتحل إلى أرض بنيامين . فطالما كان لا يزال في المدينة المقدسة ، ويدعو لها بالرحمة ، بقيت بمنجاة . لكنه عندما مضى إلى أرض بنيامين ، أتى نبوخذناصر بطلعمة لألسنة اللهب تضطرم بها . وأرسل نبوخذناصر لتدمير يروشلايم قائده نبوزرادان⁽²⁾ ןבזראדן (فيما بقي هو نفسه في ريبلا) .

- (1) كذا بالأصل ، والصواب : بَيتَر ، بلدة محصنة على مشارف القدس بجنوبها الغربي .
- (2) الواقعة في سفر الملوك الثاني ، الأصحاح 25 ، وفيه (25 : 8) : «وفي الشهر الخامس في سابع الشهر ، وهي السنة التاسعة عشرة للملك نبوخذناصر ملك بابل ، جاء نبوزرادان رئيس الشرط عبد ملك بابل إلى يروشلايم ، وكل بيوت العظماء أحرقتها بالنار . وجميع أسوار يروشلايم مُستديراً هدمها كل جيوش الكلدانيين» .

لكنه قبل أن يأمر بتسيير الحملة ، سعى عن طريق علامات الفأل ، بحسب خُرَافات عصره ، إلى التأكد من مآل الحملة . فرمى عن قوسه سهماً وجّهه إلى الغرب ، فحاد السهم صوب يروشلايم . ثم رمى ثانية نحو الشرق ، فانطلق السهم نحو يروشلايم . فرمى ثالثة ، راغباً بمعرفة الاتجاه الذي تقع فيه المدينة العاصية التي ينبغي تدميرها في هذه الدنيا ، وللمرة الثالثة توجه السهم صوب يروشلايم .

فلما تمّ اجتياح المدينة ، سار مع أمرائه وقادته تجاه الهيكل ، وصاح مُستهزئاً بإله يسرائيل : «فأنت إذأ الإله العظيم الذي يرتجف أمامه العالم ؟ ها نحن أولاء هنا في قلب مدينتك وهيكلك !» .

وعلى أحد جُدران المدينة عثر على أثر لسنان سهم ، يدلّ على أن أحداً قد قُتل أو رُمي في هذا المكان ، فسأل : مَنْ قُتل هنا ؟» .

أجاب النَّاسُ⁽¹⁾ : «زَخْرَبًا بن يهوياداه ، الكاهن الأكبر ، كان لا يكفّ عن تقرعنا على آثامنا وكُفْرنا ، فمللنا من كلامه وقمنا بإعدامه» .

ثم قام جنود نبوخذناصر بسفك دماء أهل يروشلايم ، بما فيهم كهنتها وأهلها ، شيوخها وشبابها ، ونساؤها ، وصبيتها الذين يحضرون الدروس في مدارسها ، وحتى الرضع في مهودهم . ودام الاحتفال الدموي حتى اشمازت منه حتى نفس قائد الوثنيين الأعداء ، فأصدر أمراً بإيقاف هذه المذبحة الجماعية . ثم أمر بجمع كافة الأواني الذهبية والفضية من الهيكل ، وأرسلها بمراكبه إلى بابل ، ثم بعد ذلك أمر بطرح النار في الهيكل .

(1) انظر مراثي يرميا 2 : 20 حول مقتله على يد الملك يواش . وفي هذه القصص الأسطورية الرّمزية أمثلة على نتاج الفكر البشري (لكهنة مجهولين) بتأليف مقاطع من أدب كهنوتي يتقوّل وتصفله الألسنة والأقلام عبر العصور ، ليصير يوماً ما جزءاً لا يتجزأ من عقيدة دينية راسخة . فهنا مثلاً : يُعقل أن يلحظ الفاتح المحارب أثر سهم في جدار ويكثر لأمر كاهن أعدم ؟ لا يعدو الأمر كونه رواية أدبية بما فيها من حبكة وعبرة وتشويق ! ثمة علم يختص ببحث المرويّات القديمة هو «التقد النصّي» Textual-Critique ، ظهرت به عشرات المؤلفات حول تأثير التوراه الكبير بتراث بابل وكنعان والزرادشتية . يبقى سؤال : آية أديان هي التي داخلها فن «صناعة المقدّس» هذا ؟

فتقدّم الكاهن الأكبر ، ولبس ثوبه وإيقوده (TODN الحلة الحبرية) قائلاً :
«طلما أن الهيكل حلّ به الخراب ، فلا حاجة لكاهن يتولّى الصلاة» ، وألقى نفسه
في النار فهلك . فلما رأى ذلك الفعل بقية الكهنة تمنّ ظلّ على قيد الحياة ، حملوا
كثاراتهم وآلات عزفهم وخذوا حدوا الكاهن الأكبر .

وأما من تبقى من الناس ممن لم يقتلهم الجند ، فقد أوثقوا بقيود الحديد ،
وحملوا مع غنائم الظافرين ، وسيقوا إلى السبي . أما يرميا⁽¹⁾ النبي فكان عاد
إلى يروشلأيم وانضمّ إلى مصير إخوانه التّعساء ، الذين أخرجوا شبه عرايا .
فلما صاروا إلى موضع يُعرف بـ «بيت كورو» ، ابتاع لهم يرميا ثياباً أحسن ممّا
عليهم . وخاطب نبوخذناصر والكلدانين قائلاً : «لا تظنّوا أنكم بحولكم
وقوتكم تمكّتم من إخضاع شعب الله المختار ، بل هي دُنوبهم وآثامهم التي
جعلتهم مستحقّين لهذه المحنّ والنكبات» .

وهكذا ، تقدّم الشعب في رحلة سبيهم وهم يبكون وينوحون ، حتى بلغوا
أنهار بابل . فقال لهم نبوخذناصر : «غنّوا يا قوم ، واضربوا لي بقيثاراتكم ، هيّا
رتموا الأناشيد التي اعتدّتم ترنيمها لربكم العظيم في يروشلأيم» .

فردّأ على هذا ، علّق اللّيويون كثاراتهم على شجر الصّفصاف قرب ضفاف
النهر ، كما هو مكتوب : «على أنهار بابل هناك جلسنا ، بكينا أيضاً عندما تذكّرنا
صهيون ، على الصّفصاف في وسطها علّقنا كثاراتنا» (مزامير 137 : 1) . ثم قالوا :
«لولا نتوان عن اتباع أمر الله ورتمنا بحمده مُخلصين لما وقعنا بين يديك . والآن
كيف نرتّم لك الصلوات والأناشيد التي لا تنبغي إلا لوجه الله الأزلي ؟ كما قيل :
«كيف نرتّم ترنيمه الربّ في أرض الغُرباء ؟» (137 : 4) .

(1) في الترجمة العربية للأسفار اليهودية يرد اسمه : إرميا ، وهو غلط . فالاعتبار بمنطوق
لغة الأصل وليس قولبات اللغات الأخرى . ولذلك كتبنا هنا : أبرهام وليس إبراهيم ،
ويسرئيل وليس إسرائيل ، وموشيه وليس موسى ، ويروشلأيم وليس أورشليم . هذا
فيما يختصّ بنقل المقاطع العبرية من التلمود ، أما فيما يخصّ ورود هذه الأسماء بترائنا
الإسلامي فاليديهي أن نلتزم المُعرب (مثال : إسحاق ، يونس ، إلياس) ، وأمّا ما له
تسمية عربية مُغايرة فنضبطها أيضاً (مثل : القُدس الشريف) . ونذكر أخيراً أن لكل لفظ
ثلاثة معانٍ معيارية : اشتقائي ، وعرفي ، واصطلاحي .

ثم قال القادة للحراس : «هؤلاء الرجال أهل للموت ، فهم يأبون إطاعة أوامر الملك ، فليموتوا» .

ولكن إذا بفَلطياه بن يهوياداه يتقدم ويخاطب نبوخذناصر قائلاً : «هَبْ أَنْ قَطِيعاً سَلِّمْ إِلَى يَدَيِّ رَاعٍ ، فَخَطَفَ الذَّنْبُ مِنْهُ حَمَلاً ، أَخْبَرَنِي مَنْ يَكُونُ الْمَسْئُولُ أَمَامَ الْمَالِكِ عَنِ الْحَيَوَانَ الْمَفْقُودِ؟» .

أجاب نبوخذناصر : «الرَّاعِي بِالتَّكْيِيدِ» .

فأجاب فَلَطِيَاهُ : «إِذَا أَصَغَ إِلَى كَلَامِكَ الَّذِي قُلْتَهُ : «اللَّهُ أَعْطَى يَسْرَتَيْلَ إِلَى يَدَيَّ» ، فَتَكُونُ مَسْئُولاً إِذَا عَمَّنْ يُذْبِحُ» .

فأمر الملك بفك القيود عن الأسرى ، ولم يتم إعدامهم .

* * *

خراب يروشلايم الثاني

كان مصير يروشلايم الدمار بسبب قَمْصَا وبار قَمْصَا ، وهذا هو مُؤدَى ما حصل :

يُحْكِي أَنْ ثَمَّةَ رَجُلًا عَمِلَ وَليمةً ، وَكَانَ صَدِيقًا لِقَمْصَا ، لَكِنَّهُ كَانَ يُبْغِضُ بَارَ⁽¹⁾ قَمْصَا . فَبَعَثَ رَسُولًا إِلَى قَمْصَا يَدْعُوهُ إِلَى وَليمةِ ، غَيْرَ أَنَّ الرَّسُولَ أَخْطَأَ فَسَلَّمَ الدَّعْوَةَ لِعَدُوِّ سَيِّدِهِ ، بَارَ قَمْصَا .

فَقَبِلَ بَارَ قَمْصَا الدَّعْوَةَ ، وَحَضَرَ فِي الْوَقْتِ الْمَعِيْنَ لَهَا ، لَكِنْ عِنْدَمَا أَبْصَرَ الْمُضِيْفَ عَدُوَّهُ يَدْخُلُ بَيْتَهُ ، أَمَرَهُ بِالْمَغَادِرَةِ عَلَى الْفُورِ . فَقَالَ بَارَ قَمْصَا : «لَا ، طَالَمَا أَنْتَنِي حَضَرْتُ فَلَا تُهْنِي هَكَذَا بِالطَّرْدِ . وَسَوْفَ أَدْفَعُ لَكَ ثَمَنَ كُلِّ مَا أَكَلْتَهُ وَأَشْرِيهِ» .

(1) بار لفظة آرامية : حن ، دخلت العبرية وتعني : ابن . فلذا يُلاحظ في العبرية أن الأسماء قد ترد بصيغة : «بار» أو «بن» (أي ابن) ، هذا ولم تُثبت ألف ابن في النص حيث نقلها بصيغتها العبرية בן وليس العربية . أما اسم قَمْصَا فأرامي : קמץ جرادة .

فقال الرجل : «لست أريد مالك ، ولا حضورك هنا . فانصرف على الفور» .

لكن بار قمصا تمسك بموقفه ، وقال : «أدفع لك جميع تكلفه وليمتك ، لا تدعني أهان في عيون ضيوفك» .

فكان صاحب الدعوة مُصمماً على موقفه ، فلم يعد أمام بار قمصا إلا أن انسحب من صالة الوليمة مغضباً . وقال في قلبه : «عديداً من الحاخامات كانوا حاضرين ، فلم يتدخل واحد منهم لصالحى ، ولذا فإن هذه الإهانة التي حلت بي أمام أعينهم لا بد أنها أرضتهم» .

فما كان من بار قمصا إلا أن بادر بالوشاية ضد اليهود أمام الملك ، قائلاً : «اليهود ثائرون في وجهك» .

فسأل الملك : «وكيف أتبين ذلك ؟» .

أجاب بار قمصا : «أرسل مقدمة إلى هيكلهم ، فترى أنها تُرفض» .

فأرسل الحاكم عندها عاجلاً صحيح البنية ليضحي به من أجله في الهيكل ، ولكن بترتيب من بار قمصا أوقع الرسول بالعجل عيباً ، فكانت النتيجة بطبيعة الحال ، من جراء كونه غير مُلائم للأضحية (كما في سفر اللويين 22 : 21)⁽¹⁾ ، أنه قُوبل بالرفض .

فلهذا السبب بالذات تم توجيه قيصر⁽²⁾ لاحتلال يروشلايم ، فأحكم الحصار على المدينة سنتين . وكان أربعة من أثرياء أهالي يروشلايم قد أذخروا ما يكفي من الطعام للقيام بأود السكّان أكثر من ذلك بكثير ، ولكن لما كان السكّان كارهين لمحاربة الرومان وخائفين منهم ، فقد خربوا الأهرام وتسببوا في مجاعة قاسية للغاية على المدينة .

(1) وهو : «وإذا قرب إنسان ذبيحة سلامة للربّ وفاء لنذر أو نافلة من البقر أو الأغنام تكون صحيحة للربّ ، كلّ عيب لا يكون فيها . الأعمى والمكسور والمجروح والبشير والأجرب والأكلف ، هذه لا تقربوها للربّ ، ولا تجعلوا منها وقوداً على المذبح للربّ» .

(2) اجتاح فلسطين النائب الإمبراطوري فسباسيان ، ثم احتل ابنه تيطوس القدس 70 م .

ويُحكى أن سيّدة من سِراة القوم ، هي مريمَ بنتَ بايتوس ، دفعت بخادمتها لشراء بعض الطّحين للاستعمال المنزلي . فألقى الخادم الطّحين قد بيع كلّه ، ولكن كان هناك بعض الجريش الذي كان بوسعه شراءه . لكنه خفّ إلى الدّار ، لكي يستشير رغبة سيّده أولاً بخصوص ذلك ، فاكتشف عند عودته أن ذلك قد بيعَ أيضاً ، ولم يعد بوسعه شراء شيء سوى بعض جريش الشعير الخشن . فلم يشأ شراء ذلك بغير إذن ، فعاد إلى الدّار ثانية ، ولكنه عندما عاد إلى الهُري للحصول على جريش الشعير ، كان ذلك هو الآخر قد نفذ .

عندها خرجت سيّده بنفسها لشراء الزّاد ، لكنها لم تعثر على شيء . وإذا عضّها الجوع بناه ، التقطت من الطريق قشرة ثمرة تين وأكلتها ، فاعتلت من ذلك صحتّها وماتت . ولكنها قبل موتها رمّت بكلّ ذهبها وفضّتها في الطريق ، وقالت : «ما نفعُ هذه الثروة إن لم يكن بوسعي ابتياع الطعام بها ؟» . وهكذا تحقّق كلام يُحرّق قليل في نبوءته (7 : 19) : «يلقون فضّتهم في الشّوارع» .

فبعد خراب الأهرام ، أبصر الرّابي يوحنا أثناء مشيه في المدينة النّاس يسلقون القشّ في الماء ويشربون منه للتقوّت . فقال متعجباً : «آه ، ويل لي على هذه المحنة ! كيف يقدر مثل هذا الشعب على مقاومة جيش عظيم ؟» . فتقدّم إلى ابن أخيه بن بتيّاح ، أحد زعماء المدينة ، للحصول على إذن بمغادرة يروشلّايم . غير أن بن بتيّاح أجاب : «لا مجال لذلك على الإطلاق ، لا يمكن لكائن حي أن يغادر المدينة» . فقال يوحنا متوسّلاً : «أخرجني إذاً كحجّة» . فأذعن بن بتيّاح لذلك ، وتمّ وضع يوحنا في نعش ، وحُمّل عبر أبواب المدينة ، وكان الرّابي إليعيزر والرّابي يهوشوع وبن بتيّاح يلعبون دور المشيعين . وجعلّ النعش في بعض الكهوف ، فبعد أن عاد الجميع إلى منازلهم ، قام يوحنا من النعش ، وتوجّه إلى معسكر الأعداء . وهناك حصل من القائد على الإذن بتأسيس كليّة عليا للشريعة في يني⁽¹⁾ ، يكون الرّابون جمليثيل رئيساً لها .

(1) اشتهر مجمعها الديني اليهودي بعد خراب الهيكل 70 م ، أقام فيها الرّابي يوحنا بن زكاي مركزاً للسنّهدرين ، كما أقام الرّابي جمليثيل يشيفا (معهداً دينياً) سماه : כרם ביבנה «كرّم بيّنه» (أي كرم ييني) . وكان الرّومان يسمونها : يامنيا Jamnia .

سُرْعان ما اجتاح تيطوس المدينة ، وقتل من أهلها كثيراً ، وأرسل الآخرين سبايا إلى المنفى . ثم دخل الهيكل ، حتى قُدس الأقداس ، وهتَكَ السَّتار الذي يفصله عن الأقسام الأقل قُدسية . واستولى على الأواني المقدسة ، وأرسلها إلى روما .

من خلال قصة قَمْصا وبار قَمْصا هذه ينبغي لنا أن نتعلّم الحرص على عدم إهانة جيراننا ، وخاصةً عندما يؤدي مثل هذا السَّبب البسيط إلى التَّسبب بنتائج وخيمة . ولقد قال حاخامونا بأن مَنْ يعمل على إحراج جاره بإهانة ما ، فهو أشبه ما يكون بَمَن يسفك دمأ .

* * *

حَنَاهُ وَعِيَالُهَا السَّبْعَةُ

في غضون الأيام الرهيبة التي أعقبت سقوط المدينة المقدسة ، زُجَّ بِحَنَاهُ⁽¹⁾ وعياله السَّبْعَةُ في السَّجَن .

وبحسب أعمارهم ، كانوا يؤتى بهم أمام الغازي الطاغية ، فيؤمَّرون بتقديم فروض الطاعة ، بالسُّجود له ولآلهته .

فقال الابن الأكبر متعجباً : «مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ أَسْجُدَ لَوَتْنِكَ . فوصايانا الإلهية تأمرنا : «أنا الرَّبُّ إِلَهُكَ» ، فلغيره أبداً لا أسجد» .

فسُحِبَ مباشرة إلى الخارج لكي يُعَدَمَ ، وتم توجيه الطلب ذاته إلى أخيه ، وهو الابن الثاني . فأجاب : «أخي لم يسجد ، فأنا لا أفعل أيضاً» .

سأل الطاغية : «ولمَ لا ؟» .

أجاب الفتى : «لأن الوصية الثانية من الوصايا العشر تأمرنا : «لا يَكُنْ لَكَ آلَهُةٌ أُخْرَى أَمَامِي»» .

(1) يُعرف الاسم في العربية بصيغة : حَنَّة . كحَنَّة أم مريم البتول ، عليها السَّلَام .

فسرعان ما تلا مصرعه كلماته الجريئة هذه .

وقال الابن الثالث : «ديني يُعلّمني : «فإنك لا تسجد لإله آخر» (خروج - 34 : 14) ، فنعَم المصير الذي ناله أخواي ، دون السّجود لك أو لأوثانك» .

وطلّبت الطاعة ذاتها من الابن الرّابع ، فقال بكل شجاعة وإيمان كإخوته : «مَنْ دَبِحَ لِآلهة غير الرّبّ وحده يهلك» (خروج 22 : 19) ، فبلا رحمة قُتل .

أمّا الفتى الخامس ، فقد قال واهباً نفسه الغضّة تكريماً لشعار بني يسرّئيل : «اسمع يا يسرّئيل ! الرّبّ إلهنا ربّ واحد» .

«لماذا أنت بكل هذا العند؟» ، سئل الأخ السّادس ، عندما مثّل هو الآخر أمام الطاغية وازدرى بالطلب المطروح عليه .

فقال : «لأن الرّبّ في وسطك إلهٌ عظيم ومخوف» (ثنائية 7 : 21) ، ومات في سبيل المبادئ التي اعتنقها .

ثم أحضر الفتى السّابع الأصغر أمام قاتل إخوته ، فخاطبه برفق قائلاً : «أي بُنيّ ، تقدّم فاسجد لآلهتي» .

فأجاب الصّبي : «معاذ الله ! ديننا المقدّس يعلمنا : «فاعلم اليوم ورَدِّد في قلبك ، أن الرّبّ هو الإله ، في السّماء من فوق وعلى الأرض من أسفل ، ليس سِواه» (ثنائية 4 : 39) . فلا يمكن أبداً أن نبدّل إلهنا بسواه ، ولا هو يبدّلنا بأيّ شعب آخر ، لأنه كما هو مكتوب : «قد واعدت الرّبّ اليوم أن يكون لك إلهاً» (ثنائية 26 : 17) ، فمكتوب أيضاً : «وواعدك الرّبّ اليوم ، أن تكون له شعباً خاصاً»⁽¹⁾ .

ومع ذلك ، بقي الطاغية يتكلّم برفق وبكلمات رقيقة : «أنت لم تزل صغيراً ، ولم تر بعد إلا قليلاً من مباحج الحياة ومفاتها ، بل أقلّ ممّا كان نصيب إخوتك . فافعل كما أطلب منك ، فيكون مستقبلك باهراً سعيداً» .

(1) تنمّة الآية : «وتحفظ جميع وصايا ، وأن يجعلك مُستعلياً على جميع القبائل التي عملها في الثناء والاسم والبهاء ، وأن تكون شعباً مقدّساً للرّبّ إلهك ، كما قال» .

قال الصببي : «الرَّبَّ يحكم دائماً وأبداً ، أما شعبك ومملكته فزائلان . وإن كنت اليوم هنا ، فغداً تصير إلى قبرك . وإن كنت اليوم في العلياء ، فغداً في أسفل سافلين . وأما الله العليّ القدير فدائمٌ باقٍ إلى الأبد» .

فتابع الإمبراطور : «أما ترى إخوتك أمامك صرعى ؟ فيكون مصيرك مثلهم إن تمتعت عن فعل ما أريد . أترى ، سأطرح خاتمي إلى الأرض ، فانحنٍ والتقطه ، فأعدُّ ذلك منك ولاءً لآلهتي» .

أجاب الصببي بجنان ثابت : «أتظنتني أخشى تهديداتك ؟ كيف أخشى بشراً أكثر من الله العظيم ، ملك الملوك ؟» .

سأل الإمبراطور : «فأين هو إلهك ، وما يكون بالضبط ؟ أئمة إله يكون على وجه الدنيا ؟» .

أجاب الفتى⁽¹⁾ : «أيكون هناك عالمٌ بغير خالق ؟ عن آلهتك يُقال⁽²⁾ : «لها أفواه ولا تتكلم» . أما عن إلهنا فيقول مُنشد المزامير : «بكلمة الربِّ صنعت السموات»⁽³⁾ . وآلهتك «لها أعينٌ ولا تُبصر» ، أما هو فله «أعين الربِّ الجائلة في الأرض!»⁽⁴⁾ . وآلهتك «لها أذانٌ ولا تسمع» ، بينما عن إلهنا مكتوب : «والربِّ أصغى وسمع»⁽⁵⁾ . وعن آلهتك قيل : «لها مناخر ولا تشم» ، بينما «تسّم الربِّ رائحة الرضى»⁽⁶⁾ . وآلهتك «لها أيدٍ ولا تلمس» ، أما إلهنا فيقول : «بيدي أنا صنعت الأرض»⁽⁷⁾ . وعن آلهتك مكتوب : «لها أرجل ولا تمشي» ، بينما يخبرنا زخرياً عن إلهنا : «وتقف قدماهُ في ذلك اليوم على جبل الزيتون»⁽⁸⁾ .

(1) خطبة بليغة ، بودنا - بعد جهد ساعتين في تخريج آياتها من الكتاب البالغ 1358 صفحة - لو

نهم كيف يلقيها طفل على مسمع إمبراطور يهدده بالقتل بعد مقتل 6 إخوة له !

(2) جميع هذه الإلماعات عن الأصنام مصدرها مزامير داود - 115 : 5-7 .

(3) سفر المزامير - 33 : 6 .

(4) سفر زخرياً - 4 : 10 .

(5) سفر ملاخي - 3 : 16 .

(6) سفر التكوين - 8 : 21 .

(7) سفر يشعيا - 45 : 12 .

(8) سفر زخرياً - 41 : 4 .

ثم قال الإمبراطور⁽¹⁾ الظالم الغشوم :

«فإن كانت لإلهك حقاً هذه الصفات كلها ، فلماذا تُراه لم يخلّصك من سُلطاني؟» .

أجاب الفتى⁽²⁾ : «لقد نجى حَنِيَاهُ ورفاقه من سطوة نبوخذناصر⁽³⁾ ، لكنهم كانوا صالحين ، وكان نبوخذناصر ملكاً يستحق أن يشهد مُعجزة تقع . أما أنا فلست أهلاً للنجاة ، ولا أنت قَمِينٌ باستظهار جبروت الله!» .

عندها ، أصدر الطاغية أمره : «فليقتل الفتى كإخوته» .

فتكلّمت حَتَاهُ ، أم الفتية وصرخت : «أعطني طفلي أيها الملك الظالم ، دعني أضمه بذراعيّ قبل أن تهلك روحه الغضة الطاهرة!» .

وألقت بذراعيها على الفتى ، وحضنته بقوة إلى حضنها ، لاصقةً شفيتها بشفتيه . وصاحت : «خُدْ روحي ، اقتلني أولاً قبل طفلي» .

فأجاب ساخرأبها : «لا ، ليس لي فعلٌ ذلك إذ تحظره شرائعكم⁽⁴⁾ : «وأما البقرة أو الشاة فلا تذبحوها وابنها في يوم واحد» (ليوِين 22 : 28) .

فأجابت الأم : «أواه ، ويلٌ لك من حافظٍ للشريعة حريص عليها!» . ثم شدّت إلى صدرها جسد طفلها ، وقالت : «امض يا حبيبي ، فقل لأبرهَامَ إن أضحيتي فاقت أضحيتي . فإن أقام مذبحاً ليضحّي عليه بيصحاقي ، فأملك أقامت سبعة مذابح ، وضحت بسبعة من أمثال يصحاق في يوم واحد . وهو كان في معرض تجربة فحسب ، أما أمك فقد امتحنت بالفعل»⁽⁵⁾ .

-
- (1) لم يكن تيطوس إمبراطوراً ، بل كان أبوه فسپاسيان (69-79 م) ، خلفاً لنيرون .
 - (2) يلوح لنا أن هذا الفتى لا يتجاوز - بحسب الرواية - 5 أو 6 سنوات ، فيكون منه كل هذه الأجوبة القويّة المُفحمة لتيطوس ؟ عودٌ على نظرية «صناعة المُقدّس» .
 - (3) انظر خبر ذلك في سفر دانييل ، الأصحاح الثالث .
 - (4) إذا كان تيطوس يحفظ أسفار اليهود عن ظهر قلب ، فلا عجب أن يُلقى الطفل خُطبة تتضمن 10 آيات ، كل واحدة منها في موضع مختلف من الأسفار !
 - (5) القصة قاسية جداً ، الهدف من قيمتها الرّمزية في التلمود تجسيد ما وقع لليهود من جورٍ وعسفٍ في تاريخهم ، بغرض الاستفادة من ذلك في شدّ أزهرهم .

وبعد إعدام ابنها الأخير ، غَدَّت حَنَاهُ مجنونةً فاقدةً للعقل ، فألقت بنفسها من سطح منزلها . ولَمَّا سقطت فارقت الحياة على الفور⁽¹⁾ .

فطوبى لكم ، يا أبناء حَنَاهُ السَّبَّعة ، وها هو ثوابكم في الآخرة ينتظركم .
بنعم الإخلاص عبدتُم إلهكم ، وإذ تجتمع أممكم بأبنائها البررة في الآخرة ، ففي
التَّعِيم خالدةٌ مُخلَّدةٌ تُقيم .

* * *

(1) القصة بنسبة عريضة من التفاصيل استعارها التراث الديني البيزنطي بقصة القديسة صوفيا Η,αγία Σοφία ، واستشهاد بناتها الثلاث : إيمان ومحبة ورجاء ، في سبيل الإيمان المسيحي ، ضمن موقف مشهدي مؤثر . نعود دوماً للتذكير بمسألة التواتر والاستنساخ في التراث العرفاني الروائي لقصص الأولياء والصالحين والشهداء بين الأديان ، والخط غير المرئي (أو المهمل) بين كون الرواية مُسندة أم منحولة . لكن المثير أن الرواية المنحولة (رغم وضعها) قد تكون أجمل وأبعد تأثيراً في نفوس المؤمنين !
وبالإجمال فإن صيغة الخطاب الغنوصي الموجه للعامة بين الديانات تكاد تكون واحدة ، ولا يمكن بحال من الأحوال إنكار واقع الاستعارة والاقتراس المتبادل .

القسم الخامس

الشرائع المدنية والجزائية والأعياد المقدسة

«إيان يلتقي كلٌّ من معياري تطبيق العدل وحُسن النوايا ؟ عندما يمكن حثّ الأطراف المتنازعة على التوصل إلى اتفاق بشكل سلمي» .

كان تحقيق هذه الغاية الهدف الأسمى دوماً للشرائع اليهودية القديمة ، غير أن ثمة farkاً مميزاً تراه يفصل ما بين شقي الشرائع المدنية والجزائية . وفي الدعاوى السالفة كان يمكن تجهيز المرافعات مُسبقاً ، والأحكام تصدر إمّا عن الهيئة العامة للقضاء ، أو عن قضاة خصوصيين يُختارون من قِبَل الطرفين المتنازعين ، فيما كان هناك العديد جداً من الضوابط الأخلاقية المُسلطة على القضاة لإبقائهم ضمن حدود النزاهة ، كما في الأمثلة التالية :

«مَنْ يحكّم بملك شخص لغيره ظلماً وبُهتاناً ، تُسأل عنه روحه أمام الله» .

«إذا جلس القاضي للحكم بين الأقران فكان ثمة سيفاً موجهً إلى قلبه» .

«ويلٌ لقاضٍ يُصدر حكماً جائراً ، ويعمل على تحميل مسؤوليته للشهود .

فإن الله يحاسبه عليه هو بالذات» .

«إذا وقف الخصمان أمامك فعاملهما على أنهما مُذنبان ، أمّا عند فضّ

المحكمة فعاملهما على أنهما بريئان ، طالما أن الحكم أبرم وانتهى» .

ولم يكن يحقّ للقاضي الاستماع إلى أية تفاصيل حول دعوى قضائية ، ما

لم يكن جميع القُراء حاضرين ، وعليه فرضُ لازِبٌ بأن يكون بعيداً تماماً عن

التحيز جرّاء مقام الخصوم أو غناهم ، لفقير ضدّ غنيّ أو لغنيّ ضدّ فقير .

وكان شهود الدعوى يتعرضون لأقصى درجات التدقيق ، بما لا يقل عن تدقيق الدعوى ذاتها ، وكانت تُستبعد عنهم اللياقة مباشرة إن كانت لهم أدنى مصلحة شخصية في الدعوى . وكان إذا طالب صاحب الادعاء بأكثر مما يحق له شرعاً ، من باب الطمع بالمزيد ، يفقد دعواه أصلاً .

وفيما كان يكفي ثلاثة قضاة لتشكيل محكمة للفصل في الدعاوى المدنية ، كان يلزم لتأليف المحاكم التي تنظر في الدعاوى الجنائية ثلاثة وعشرون قاضياً ، وبينما كان في الدعاوى المدنية يلزم تحقيق الأغلبية بشخص واحد للتبريء أو للإدانة ، ففي الدعاوى الجنائية يلزم للتبرئة الأغلبية بشخص واحد ، أما للإدانة فيلزم شخصان .

وكان شهود الوقائع في الدعاوى الجنائية يتم تنبيههم على النحو التالي ، لدى حضورهم للشهادة في المحكمة :

«لعلك تنوي النقل عن مصدر إشاعات ، فتكون ناقلاً عن شاهد آخر ، فتروي ما سمعته عن شخص ثقة برأيك ، أو لعلك لا تدري أننا سنختبرك بأسئلة تفصيلية وعبارات تقص . فلتعلم إذاً أن هذه المحاكمة ، التي تقف فيها حياة امرئ على المحك ، ليست كالمحاكمات المتعلقة بشؤون المتاع الدنيوي . فالمال يمكن تعويضه بالمال ، وأما في المحاكمات التي كهذه فليس الأمر مقتصر على دم شخص يُدان ظلماً ، وإنما دم ذريته وذرية ذريته إلى أبد الدهر يكون حملاً ثقيلاً ينوء به كاهل شاهد الزور . لقد خلق آدمٌ وحيداً مفرداً ، فمن يقتل نفساً واحدة بغير حق فهو يؤاخذ كأنما قتل الناس أجمعين . لذلك فعليك أن تتحرى مواقع كلامك ، ولكن من جهة أخرى لا تقولن : «وما علاقتي أنا بهذا كله ؟» ، بل تذكر عبارة الكتاب المقدس : «وإذا سمع أحدٌ وهو شاهدٌ يبصر أو يعرف ، فإن لم يخبر به حملَ ذنبه» ، فضلاً عن ذلك تذكر : «وعند هلاك الأشرار هُتاف»⁽¹⁾ .

وكانت العقوبات تُنفذ بأقصى حد من الرفق ، وكان الدستور الديني يرمته يتجلى العدالة التامة ، مُلطفة بالرحمة بأصدق وأبلغ معانيها .

(1) سفر الأمثال - 11 : 10 . والآية السابقة ترد في سفر الليويين - 5 : 1 .

وبالغثة ما بلغت جرائم الجاني ، كانت تفي عقوبة واحدة لتحتويها جميعاً . وكان لا يمكن أن تُرفق العقوبة بغرامة مالية ، وفي حالات الجُلْد كان عدد الجلّدات مُحدّداً في أشدّ الحالات غَرمًا بتسع وثلاثين جُلْدة .

وكان يلزم القُضاة في القضايا الكبرى أن يصوموا طوال النّهار في الأيام التي ينطقون فيها بأحكامهم ، وحتى بعد الحكم كانت الدّعوى تُدقّق ثانية في المحكمة العليا قبل أن تكتسب الدرّجة القطعيّة .

أما موقع الإعدام فكان يُجعل على بُعد كبير من المحكمة ، وعند سَوّقه إلى هناك كان السّجين يُوقف عدّة مرّات ، ويُسأل عمّا إذا كان بإمكانه أن يفكر بأي شيء لم يُذكر ، قد يكون من شأنه التأثير في رأي القُضاة لصالحه . وكان يحقّ له العودة إلى المحكمة تكراراً كما يرغب لتقديم دُفوع فرعية جديدة ، وكان ثمة مُناد يتقدمه ويصيح عالياً : «هذا الرّجل يُساق إلى الإعدام . . . وجريمته كذا . . . والشّهود عليه فلان وفلان . . . فإذا كان لدى أحد أي شيء يشهد به لصالحه ، فليتقدّم الآن ويُدلي بما لديه» .

وكان يُطالب قَبيل إعدامه بالاعتراف ، فيقول له القوامون : «اعترف بذنوبك ، فكلّ مَنْ يعترف ويتوب له في الآخرة نصيب» . فإن لم يُدلّ باعتراف كان يُطلب إليه ترديد التالي : «فليكنّ موتي كفارةً لذنوبي كلّها» .

غير أن عقوبة الإعدام مع ذلك كلّه كانت شيئاً نادر الحدوث⁽¹⁾ ، وكأنها كانت من النّاحية العمليّة مُلغاةً . والواقع أن عديداً من القُضاة كانوا ينادون علناً بإسقاطها ، وكان ثمة محكمة نطقت بحُكم موت واحد خلال سبع سنين ، أُطلق عليها لقب : «محكمة القتلّة» .

* * *

(1) المحاولات براغماتيّة واضحة لتصوير أحكام الشريعة اليهودية القديمة وكأنها تتوافق تماماً مع إيديولوجيات العصر الحاضر ومعايير الأخلاقيّة ، بأعلى مستوى .

عيد العبور פסח يسح (الفصح)

يبدأ عيد الخبز الفطير أو عيد العبور⁽¹⁾ عشية يوم 14 من شهر «نيسان» [15 أبريل] ، ولقد تم وضعه تخليداً لذكرى ردّ أسلافنا من مصر ، وهي ذكرى أبدية .
وخلال مدة هذا العيد يُحرّم علينا كلياً تناول أي طعام مُخمّر⁽²⁾ .

قال مُوسيه لليسرئيليين باسم الربّ⁽³⁾ : «اسحبوا وخذوا لكم غنماً» .

فلدى التزامهم بهذه الوصية يستحقّون الله بجدارة وهو بالتالي بخلصهم ،
لأنه عندما تكلم كانوا «عُرّة حفاة» من الأعمال الصالحة والفعال الحميدة .

«اسحبوا وخذوا لكم غنماً» : أي انسحبوا عن الأوثان التي تعبدونها مع
المصريين ، ومن العجول والحملان المصنوعة من الحجر أو من المعدن ، إنما بواحد
من الحيوانات التي كنتم بها تُذنبون تهيّأوا للوفاء بالتزامكم تجاه أوامر إلهكم .

ولما كان الرّمز الفلكي لشهر نيسان هو الحَمَل ، وحتى لا يَقَرّ في أذهان
المصريين أنه من خلال قوّة الحَمَل تمّ لهم الانتفاض من نير العبودية ، فقد أمر الله
شعبه أن يأخذوا حَمَلاً ويأكلوه . ولقد أمروا بأن يشووه كاملاً وبالأ يَكسروا فيه
عَظْماً ، لكي يتيقن المصريون من أن ما أكلوه كان حَمَلاً بالفعل .

وقال الله لمُوسيه : «قل لبني يسرئيل أن يطلبوا من المصريّين أمتعة ذَهَب
وأمتعة فضة»⁽⁴⁾ ، لثلاً يُقال فيما بعد : «لقد تحقّق الكلام القائل : «ويُستعبدون
لهم فيذلّونهم» ، ولم يتحقّق الكلام القائل : «وبعد ذلك يخرجون بأموال
جزيلة»⁽⁵⁾ .

(1) يسح (أو فسح) في العبرية هو العبور ، ومنه نقلت السريانية : هسما ، وعنها العربية ،
والفرنسية pâques ، والروسية Пасха ، بينما في الإنكليزية pasover .

(2) أي العجين يُداف بالماء أو يَلت بالزيت ليختم في اليوم التالي . أما الفطير فالعجين قبل
اختماره ، ولذا يسمّى عيد الفصح : חג המצות «حج همتسوت» (عيد الفطير) .

(3) سفر الخروج - 12 : 21 .

(4) اقتباس من سفر الخروج - 3 : 22 ؛ 11 : 2 .

(5) انظر سفر التكوين - 15 : 14 .

ولما كَلَّمَ مُوشيهُ اليسرَئيليين بأن يصعدوا خارجين من مصر بأَملاك
جزيلة ، أجابه : «ليتنا نخرج ولو كانت أيدينا فارغة» ، أي كالعبد المُلقي به في
السَّجَن ، إذا قال له السَّجَّان : «غداً أُطلقك من السَّجَن ، وأعطيك مالاً وفيروساً» ،
أجابه : «أطلقني اليوم ، ولا تعطني شيئاً» .

وفي اليوم السَّابع من عيد العبور عبَّر بنو يسرئيل خلال البحر الأحمر على
اليابسة .

في بعض الأيام ، كان رجلٌ يسافر في طريقه وابنه يسبقه على الدَّرب .
فعرض لهما أمامهما قاطع طريق ، فوضع الرجل ابنه خلفه . وإذا بدئب يأتي
خلف الصَّبي ، فحملة أبوه واحتواه في ذراعيه .

فهكذا بنو يسرئيل ، لما أرهقتهم أشعة الشمس الحادة «نشر الله عليهم
السَّحاب ليقيهم» ، ولما جاعوا أمطر الله عليهم خُبزاً من السَّماء ، ولما عطشوا
«أخرج لهم الماء من الصَّخرة»⁽¹⁾ .

عيد الحَصَاد חג הקציר

يقع «عيد الأسابيع»⁽²⁾ חג שבועות أو عيد «الحَصَاد» חג הקציר في اليوم
السادس من الشهر الثالث «سيوان» סיוון (حزيران) . وهو يُسمَّى بعيد الأسابيع
لأنه عند مضيِّ تسعة وأربعين يوماً ، أو سبعة أسابيع بما يُعادِلها ، ما بين اليوم
الثاني من عيد العبور ، كانت العادة (إبان كان الهيكل قائماً) أن تُقدِّم حزمة من
الشعير الأخضر ، وفي هذا الاحتفال كان يُخصَّص رغيفان مخبوزان من باكورة
دقيق القمح المحصود ، لكي يُقدِّمًا «خميراً باكورة الرَّبِّ» . وهو كذلك بمثابة
ذكري لتسليم الله لُوحي الوصايا لمُوشيه بجبل سيناء⁽³⁾ .

(1) انظر سفر الخروج - 17 : 6 .

(2) انظر سفر الخروج - 34 : 22 .

(3) انظر سفر الخروج 24 : 12 ؛ 34 : 1 .

ولكن لماذا لا نرى الكتاب المقدس ينصّ على ذكر هذا العيد كباقي الأعياد الأخرى ، بأن يصرّح قائلاً على سبيل المثال : «في اليوم السادس من الشهر الثالث نزلت الشريعة» ؟

هذا لأنه في العصور السّالفة كان الذين يحملون جُزافاً لقب «الحُكماء» يكرّسون إيمانهم وعبادتهم للكواكب⁽¹⁾ ، ويعدّدونها سبعة ، ويخصّصون لكل واحد منها يوماً من أيام الأسبوع . واختارت بعض الأمم الشمس إلهاً أكبر لها ، بينما فضّلت أممٌ سواها القمر ، وهكذا دواليك ، فكانوا يصلّون لها ويعبدونها . ولكنهم ما كانوا يعلمون أن الكواكب تتحرّك وتتغيّر بحسب موازين الطبيعة ، التي وضعها وبرأها الله العليّ القدير ، والتي بيده لأن يغيّرها حسبما يشاء ويريد ، وجرى أن عديداً من اليسرئيليين اعتنقوا جهالاتهم وكفرهم هذا . ولذلك ، بما أنهم اعتبروا الكواكب سبعة ، فلقد وضع الله أشياء كثيرة أخرى بناءً على هذا العدد ، لكي يُريهم أنّما كما هو خالقهم فهو أيضاً خالق الكواكب⁽²⁾ .

وأما اليوم السّابع من الأسبوع فجعله يوم سبّات ، والسّنة السّابعة جعلها سنة راحة ، وبعد مضيّ سبع سنين سبع مرّات ، أي بعد مضيّ سبع سنين سبّية (שנה שמטה) ، عيّن سنة اليوبيل ה'תקכ"א ، أو سنة الخلاص . وخصّص سبعة أيام لعيد العبور (الفصح) ، وسبعة أيام لعيد المظالّ (سكّوت) . وحصار أريحا دام سبعة أيام ، قام أثناءها سبعة كهنة بنفخ سبعة أبواق (شوفار שופר) ، وهم يطوفون حول أسوارها سبع مرّات في اليوم السّابع .

لذلك ، بعد احتساب سبعة أسابيع خلال أوّان نُضج القمح ، يتعيّن على اليسرئيليين عقد احتفال في الكنيس ، لتسبيح مَنْ يمنع ما يشاء ولا يمتنع عنه شيء ، وَمَنْ يُغيّر ما يشاء ولا يطاله تغيير .

- (1) المقصود بذلك الدّيانات الوثنيّة في المشرق ، وما نقل عنها وتبعها في أوروبا بوثنيتها الغربيّة التي انتسخت خصوصاً عبادة البعل الكنعاني وأبيه إيل (صار لدى الإغريق زيوس ولدى الرومان جوبيتر) . أما الشمس فرمز لزيوس والقمر لأنثاه .
- (2) ما شاء الله ، إذا كان واضع هذه النظرية العبقريّة يرون أن الله يمكث في انتظار جهالات القوم ليضع لكونه مقاييسه بغرض إفحامهم ، فهذا ينقض عقيدتهم الدينية لمبدأ التوحيد ولكون الخالق كليّ القُدرة وحكيماً ! حاشى وتعالى عن هذا الهذر .

في اليوم الأول تمّ تخليص اليسرّيليين من نير العبوديّة ومن العبادة الباطلة ،
وفي اليوم الخمسين منّحو الشريعة لتوجّههم في أمور معاشهم ، ولذا فلقد أمرّوا
بتعداد هذه الأيام وحفظها .

وتروي الأسطورة أن بني يشمّعيل طلب إليهم أن يتبعوا الشريعة ، فسألوا :
«فعلّام تنصّ الشريعة ؟» ، قيل لهم : «لا تسرق» . فأجابوا : «فكيف نتبعها إذا
وقد ورد في حقّ أجدادنا بالكتاب المقدّس : «يده على كل واحد»⁽¹⁾ ؟» .

كما طُوب بنو عيسو أن يتبعوا الشريعة ، فسألوا أيضاً : «علّام تنصّ ؟» ،
قيل لهم : «لا تقتل» ، فقالوا : «لا يمكننا اتّباعها ، لأنّ أبانا يصحّاق قد باركنا
بقوله : «وبسيفك تعيش»⁽²⁾» .

ثمّ إنه لما طُوب بنو يسرّيل⁽³⁾ باتّباع الشريعة ، أجاب الشعب : «سمعنا
وأطعنا» .

عيد رأس السنة ، أو يوم الذكرى (رُوش هسّناه) 7267 השנה

في اليوم الأول من الشهر السابع «تشري» 7267 تحلّ ذكرى خلق الدّنيا .
وفيه يُنفخ في البوق (الشّوفار 7267) إعلاناً على النّاس أن سنةً جديدة قد بدأت
دورها ، ولكي يُنذروا على وجوب مراجعة أعمالهم بشكل دقيق ، والتّوبة عن
الذنوب حيث تجب التّوبة .

أفلا يجدر بكلّ إنسان عاقل ، إن كان دارياً باقتراب مثوله أمام محكمة
إدانة ، أن يهيئ نفسه لمثل ذلك اليوم ؟ أو ليس يلجأ للاستشارة ، سواء أكانت
الدّعوى تتعلّق بقضيّة مدنيّة أم جنائيّة ؟ فكيف إذا بالأحرى يلزمه أن يكون

(1) سفر التكوين - 16 : 12 .

(2) سفر التكوين - 27 : 40 .

(3) الطريف أن الباحث في تاريخ الأمم والشعوب ليس بواجد أمة - لا في الشرق ولا في
الغرب - إلا وتجزّم بأنّها خير الأمم وأرفعها شأنًا ، اصطفّاها الله من دون العالمين !

مستعداً لمواجهة ملك الملوك ، العالم بأسرار الصدور وخفايا الأمور ؟ ففي هذه القضية ليست تفيده أية استشارة ، وإنما لا يُدافع عنه ويتراجع إلا التوبة والتقوى وأعمال البرّ . لذلك ، فعلى الإنسان أن يراجع أعماله ويتوب عن خطاياها ، قبل حلول يوم الدينونة . وفي شهر «إيلول» ١٩٧٤ (سبتمبر) عليه أن يضع نفسه أمام مسؤولية العدالة الرهيبة التي تترتب بالبشرية كلها .

وهذا هو العيد الذي غفر فيه الربّ ليسرّيليين الذين صنعوا الشرّ بعبادة العجل المسبوك . وفيه أمر مُوشيه بالصعود ثانية إلى الجبل ليعطيه لوحاً آخر ، بعدما كسر الأول . فهكذا يقول الحكماء : «قال الربّ لمُوشيه في شهر إيلول : «إصعد إليّ إلى الجبل»⁽¹⁾ ، فصعد مُوشيه وتلقّى اللوح الثاني في ختام الأربعين يوماً . وقبل صعوده أمر بنفخ البوق عبر المخيم» . ومُنذ ذِيَاك الحين ، جرت العادة بنفخ الشُّوفار (البوق) في الكُنُس ، لتحذير الناس بأن يوم الحساب في السنة الجديدة يقترب بسرعة ، ومعه يوم الدينونة . ولذلك ، تُتلى صلوات الاسترحام مرتين في كل يوم صباحاً ومساءً ، اعتباراً من اليوم الثاني من إيلول وحتى عشية يوم الغُفران ، وهذه الفترة تتضمّن الأربعين يوماً الأخيرة التي قضاها مُوشيه في سيناء⁽²⁾ ، عندما رضي الله عن بني يسرّيل ، وغفر لهم خطيئة الشُّرك بعبادة العجل المسبوك .

قال الرّابي إلبعيزر : «وُلد أبرهَام ويعقوب في شهر تشري ، وفيه ماتا . وفي اليوم الأول من تشري تمّ خلق الكون ، وخلال عيد العبور وُلد يصحاق . وفي أول تشري (رأس السنة) تذكّر الله النسوة العاقرات الثلاث : ساراه ، وراحيل ، وحنّاه . وفي اليوم الأول من تشري وُضع عن أجدادنا كدهم الشاقّ بأرض مصر . وفي أول تشري خلّق آدم ، ومن بداية خلقه نحتسب سنين تقويمنا ، أي مُنذ اليوم السادس للخليقة . وفي ذلك اليوم أيضاً أكل من الثمرة المحرّمة ، ولذلك فهو العيد المعين للتوبة والتّوابين ، حيث قال الربّ لآدام : «هذه تكون علامةً للأجيال التي تأتي ، ففي هذه الأيام يُدان نسلُك ، وفيها تكون التوبة والغُفران» .

(1) انظر سفر الخروج - 24 : 12 .

(2) انظر سفر الخروج - 24 : 18 .

هذا وإن الربَّ يُعلن أوامره أربع مرّات في السنة :

فأولاً : في رأس السنة ، باليوم الأول من تشرّي . فيه يؤمّر بمحاسبة نفوس البشر جميعاً عن السنة القادمة .

ثانياً : في اليوم الأول من عيد العبور . فيه يُعيّن في القدر مدى إمحال غلال الحبوب أو وفرتها .

ثالثاً : في عيد الحصاد . فيه يُبارك الربُّ ثمار الأشجار ، أو هو يأمرها بالأثقال إلا ثماماً .

رابعاً : في عيد المطال . فيه يقرّر الربُّ إن كان المطر سيبارك الأرض في موسم أم لا⁽¹⁾ .

ويُدان الإنسان في يوم رأس السنة ، ثم يصدر عليه الحكم مُبرماً في يوم الغفران . غير أن الرّابي ناتان قال إن الإنسان يُدان في جميع الأوقات .

وكان الرّابي عقيبا يعلم تلاميذه : «لَم تأمر الشريعة في عيد العبور بتقديم حزمة من الشعير ؟ لأن عيد العبور هو موسم حصاد الحبوب . فالربُّ يقول : «قدموا لي حزمة شعير في يوم العبور ، أبارك لكم القمح الذي في الحقل» .

«ولماذا في الكتاب : «وعيد الحصاد أبارك غلاتك التي تزرع في الحقل»⁽²⁾ ؟ هذا لأنه في وقت عيد الحصاد تنضج الثمار ، والله يقول : «قدم لي رغيفين من أبارك القمح ، أبارك لك الثمر الذي على الشجر» .

(1) يرى الباحثون أن أصول اليهودية متأثرة بأديان الشرق القديم الوثنية الحلوئية ، المتمحورة في الزراعة والحياة الرعوية . فيلاحظ هنا : غلال الحبوب ، ثمار الشجر ، كمية المطر . ولا ننسى أن البعل (الخصم الأكبر للتوحيد اليهودي والأقدم منه) كان إلهاً زراعياً للمطر والخصب ، بينما كان أبوه إيل للخلق والبركة (على سذاجة تفكير الكهنة) . ومن المثير أن اسم البعل ما زال حياً في بلاد الشام كلها : «أرض بعل ، تين بعل» ، ومؤخراً سمعنا في قرى جبال اللاذقية (موطن الكنعانيين القدامى أبناء «أجريت») عبارة تعجب رائعة : «أيلي» (بمد الياء الأخيرة وإمالتها بلهجة كنعانية الساحل) ، تدل بوضوح صارخ على اسم الإله الآب إيل ، الذي ما برح لليوم في الآرامية والعبرية : 16 .

(2) سفر الخروج - 23 : 16 .

«ولماذا أمرنا بتقديم قربان شراب من الماء إلى الهيكل في عيد المظال ؟ لأن عندها يكون موسم المطر⁽¹⁾ ، والرّب يقول : «قدم لي تقدمة الشّراب من الماء ، أبارك لك مطر هذا العام» .

«ولماذا يصنعون البوق الذي يُنفخ فيه من قرن الكبش ؟ لكي يذكر الرّب الكبش الذي ضحّي به بدلاً من يصحاق ، ويسمح لكرامة الأجداد الصّالحين أن تزن لصالح نسلهم ، كما هو مكتوب في الوصايا العشر : «وأصنع إحساناً إلى أُلوف من مُحبيّ وحافظي وصاياي» (خروج 20 : 6)⁽²⁾ .

في يوم رأس السّنة تُتلى في الكُنس عُهود الميثاق الذي كان أعطي ليصحاق للسبب ذاته . ففيما هناك لدى الله رحمةٌ بعباده ، فهو يسمح لهم بفرصة للتوبة ثلاثاً يهلكوا في شُرورهم ، فلذا علينا كما هو مكتوب في مرثي يرميا (3 : 40) أن «نفحص طُرُقنا ونمتحنها ونرجع إلى الرّب» .

خلال السنة يكون الإنسان ميّالاً إلى الفُجور والتّمادي في معاصيه ، ولذلك يتمّ نفخ البوق لردّه إلى رشده وتنبهه إلى الوقت الذي يمضي بسرعة . فيقال له : «انهض من سباتك ، فإن ساعة العقاب تدنو» . فالله الأزلي لا يرغب بإهلاك أبنائه ، بل بمجرد دفعهم إلى التوبة وحُسن المآب .

وثمة ثلاثة صنوف من البشر يُحضرون للدينونة : الصّالحون ، والأشرار ، والمهملون . فأما الصّالحون فإن الله يُشبههم حياةً مُنعمه ، وأما الأشرار فيُدينهم ، وأما المهملون فهو يُمهّلهم . ومن يوم رأس السنة إلى يوم الغُفران يُمسك عن إجراء حُكمه ، فإن هم تابوا حقاً يدخلون في زُمرة الصّالحين وتجاوز لهم الحياة الطيِّبة . لكنهم إن بقوا على حالهم يُحسبون عندها من الأشرار .

(1) التشابه تام بين تقدمة قربان عيد سكّوت الذي يبدأ في 15 تشرين الأول (أكتوبر) وبين عيد قربان الماء لدى الكنعانيين ، فكانوا في الفترة ذاتها يقومون بشعيرة سكب الماء في جُرن مقدّس يقع على قُمة جبل حرمون - أعلى قُمة في جنوب سورية - ليبارك بعل حرمون المطر ونبع الأعوج وغُدراته . وعلى القُمة إلى اليوم آثار معبد وثني (قصر عتتر) كان به كتابة يونانية قديمة استلها أثاري إنكليزي لصالح جمعية P.E.F. عام 1880 .

(2) انتهى كلام الرّابي عقيبا .

وثمة ثلاثة أصوات للبوق يُعبّر عنها في الكتاب المقدس : فالصوت الأول صوت رَخِيم (تقيعاه תקיעה)⁽¹⁾ ، والثاني صوت تحذير أو وعيد مُرتجف (ترُوعاه תרועה)⁽²⁾ ، ثم الثالث صوت رَخِيم من جديد (تقيعاه תקיעה) .

فالصوت الأول يمثل الصّحوة الأولى للإنسان نحو التوبة ، ولذا عليه أن يختبر قلبه جيداً ويتخلّى عن طُرُقهِ الشّريرة وأن يُنقّي سريره ، كما هو مكتوب : «ليترك الشّرير طريقه ورجلُ الإثم أفكاره ، وليتُب إلى الربّ فيرحمه»⁽³⁾ .

أما الصوت التحذيري فيمثل الأسف الذي يشعر به الإنسان التادم على سوء مسلكه ، وعلى عزمه الصادق على العودة إلى جادة الصّلاح .

والصوت الأخير هو الصوت الرّخيم من جديد ، الذي يمثّل رغبةً مُخلصة في الإبقاء على القلب التائب مجرداً من الذنوب .

والكتاب المقدس يقول لنا : «بل الكلمة القريبة منك جداً وفي قلبك لتعمل بها» (تثنية 30 : 14) . فتعلّمنا هذه الآية أن التوبة هي أقرب إلى المؤمنين بالله وكتابه مما يدعيه المتزمتون . فثمة كفارات عسيرة يفرضها هؤلاء المتزمتون على المذنب بينهم : فعليه صيام أيام عدّة ، أو أن يمشي حافياً على دروب وعرة ، أو أن يبيت الليل في العراء . ولكن في الحقيقة ليس مطلوباً منا أبداً أن نطال قاع المحيط أو نرتقي قمم الجبال ، حيث أن كلمة الله المقدسة تقول لنا : «ليست هي في السّماء ولا هي في عبر البحر ، بل الكلمة قريبة منك جداً»⁽⁴⁾ .

هذا ويُمكن لنا القيام بالتوبة عبر هذه الطرق التالية :

أولاً : لفظاً بالكلام ، الصّادر عن قلب سليم .

ثانياً : بمشاعرنا المُفعمة بالأسى على ما اقترفناه من ذنوب .

ثالثاً : بصالح الأعمال في تالي الأيام .

(1) منها المفردة العبرية : תקלא תיָע : النفخ في الصّور .
(2) مثال ذلك في العبرية : תרועות הצולצה תרועת هُصُوصراه : صوت البوق .
(3) سفر يشعيا - 55 : 7 .
(4) سفر التثنية - 30 : 12 .

أعلن الربّي سعدياه أن الله أمرنا بالنّفخ في البوق يوم رأس السنّة لعشرة أسباب ، هي :

أولاً : لأن في هذا اليوم كانت بداية الخلق ، عندما بدأ حكم الله على الكون والخلقة ، فيما أنه من المألوف نفخ الأبواق لدى تنويع ملك ما ، علينا بالطريقة ذاتها أن نُعلن بصوت البوق أن الخالق هو مَلِكُنَا ، كما قال داود : «بالأبواق وصوت الصُّور اهتفوا قُدّام المَلِكِ الرَّبِّ»⁽¹⁾ .

ثانياً : بما أن يوم رأس السنّة هو أول أيام التّوبة العشرة ، فنحن نقوم بنفخ بوق الشُّوفار كدعوة لِحَثِّ الجميع على الأوبة إلى الله والتّوبة إليه . فحتى لو لم يفعلوا ، فهم على الأقل قد نالوا تحذيراً ، ولا يمكن لهم أن يحتجوا بمبرّر الجهل . وعلى التّحوذاته ، نرى أن ملوك الدّنيا يُعلنون أوامرهم ومراسيمهم ضمن هذا الإجراء أصولاً ، لثلاً يقول قائلٌ من النّاس : «لا عِلْمَ لنا بهذا» .

ثالثاً : ليذكرنا بالشّريعة التي نزلت في جبل سيناء ، حيث يُقال : «وصوتُ بوق شديد جداً» وکل שפר חזק מאד (سفر الخروج 19 : 16) . وأيضاً لكي يذكرنا أن علينا تجديد العهد على أنفسنا بتنفيذ وصاياها ، كما فعل أجدادنا فقالوا : «كلّ ما تكلم به الربّ نفعل»⁽²⁾ כל אשר דבר יהוה נעשה .

رابعاً : لكي يذكرنا بالأنبياء ، الذين يُشبّهون بالرُّقباء الحارسين الذين ينفخون في بوق التحذير ، كما نجد في سفر يُحزقئيل (33 : 4) : «فإذا سمع السّامع صوت البوق ولم يتحدّر فجاء السيّف وأخذه ، فدّمه يكون على رأسه . وأما من يتحدّر فيخلّص نفسه» .

خامساً : ليذكرنا بخراب الهيكل وصيحات الحرب المرعبة التي يُطلقها عدونا : «لأنك سمعت يا نفسي صوت البوق وهتاف الحرب» (يرميا 4 : 19) . لذلك ، فإنه يتوجّب علينا عندما نسمع صوت الشُّوفار أن نتوسّل إلى الله لإعادة بناء الهيكل .

(1) مزامير داود - 98 : 6 .

(2) سفر الخروج - 19 : 8 .

سادساً : ليدكرنا بعهد يصحاق ، الذي قدّم نفسه قرباناً للأضحية عن طيب خاطر ، تمجيداً لاسم الله القدّوس .

سابعاً : عندما نسمع صوته المرعب ، قد يدفعنا ذلك من جرّاء الخوف إلى التواضع أمام سيّد الكون ، لأن من طبيعة هذه الآلات الحربية التسبّب في شعور بالرعب ، كما لاحظ النبي عاموس ل¹ : «أم يُضرب بالبوق في مدينةٍ والشعب لا يرتعد؟»⁽¹⁾ .

ثامناً : لكي يذكّرنا بيوم الدينونة العظيم والرّهيب الذي يُنفخ فيه بالصوّر ، كما نجد في سفر صَفَياهُ (1 : 14-16) : «قريبٌ يومُ الرّبِّ العظيم ، قريبٌ وسريعٌ جداً ، يومٌ بوقٍ وصوتٌ نفير⁽²⁾» «²יום שופר ותרוּלה .

تاسعاً : لكي يذكّرنا بأن ندعو لحلّول أو ان الوقت الذي يُجمع فيه منبوذو بني يسرّئيل سوياً ، كما هو موعود في سفر يشعياهُ : (27 : 13) : «ويكون في ذلك اليوم أنه يُضرب ببوقٍ عظيم ، فيأتي التائهون الهالكون في أرض أشور» .

عاشراً : لكي يذكّرنا بقيامة الأموات ، وبإيماننا التامّ بذلك . يقول النبي يشعياهُ⁽³⁾ : «يا جميع سكّان المسكونة وقاطني الأرض ، عندما ترتفع الرّاية على الجبال تنظرون ، وعندما يُضرب بالبوق تسمعون!» .

لذلك كلّهُ ، علينا أن تبقى قلوبنا مُعلّقة بهذه الأعياد ، وأن نطبّق الوصيّة التي تأمرنا بها التوراه ، كما هو مكتوب⁽⁴⁾ : «هذه هي الفرائض والأحكام التي تحفظون لتعملوها في الأرض التي أعطاك الرّبّ إله آبائك ، لتمتلكها كلّ الأيام التي تحيون على الأرض» .

* * *

(1) سفر عاموس - 3 : 6 .

(2) في الترجمة العربية : «يوم بوقٍ وهتاف» ، وهذا غلط فالمفردة العبرية תרוּלה «تروعاه» تعني : صوت النفخ في البوق ، تقدّمت ص 373 .

(3) سفر يشعياهُ - 18 : 3 .

(4) سفر الشّية - 11 : 32 ؛ 12 : 1 .

عيد يوم الغُضْران (يوم كيپور) יום כפור

من الطبيعي أن قلوب كل مَنْ يخافون الله ينبغي أن ترتجف لدى تصوّر فكرة أن جميع أعمال النَّاس يدري بها الخالق تمام الدّراية ، وأنها سوف تُحتسب عليهم خيراً أم شراً . غير أن الله على الدوام جاهز لقبول التّوبة الصّادقة . ولهذه التّوبة درجاتٌ سَبْع ، هي :

أولاً : توبة الإنسان الصّالح ، الذي يتوب عن خطأه بمجرد أن يدرك ذنبه . فهذه التّوبة هي خير الدّرجات وأتمّها كمالاً .

ثانياً : توبة الإنسان الذي عاش بعض الوقت حياةً معصية ، لكنه في أيام قوْرة شبابه يتخلّى عن طرُقهِ الشّرّية ، ويكبح في نفسه ميوله الفاسدة . كما قال شلومو : «فاذكُر خالقك في أيّام شبّابك» וזכר את-בוראיו בימי בחורותיו (الجامعة 12 : 1) . فبادر إذاً بترك طرُقك الشّرّية إبان قوْرة حياتك .

ثالثاً : توبة الإنسان الذي حالَ سببٌ ما دونه واقتراف ذنب كان ينويه ، ثمّ أحسّ حقاً بالندم على نيّته الخبيثة . يقول صاحب المزامير : «طوبى للرجل المتّقى الربّ»⁽¹⁾ . ولكن أيراد به الرجل دون المرأة ؟ بل البشر أجمعهم ، لكن الكلمة المُستخدمة تفيد معنى القوّة ، أي مَنْ يتوبون إبان شبّابهم وقوْرة حياتهم .

رابعاً : توبة الإنسان الذي تكون معصيته في حقّ نفسه ، فيؤيخّ عليها ، كما في مثال أهل نينوى ، إذ أنهم لم يتوبوا حتى توجه إليهم يوناه مُندراً : «بعد أربعين يوماً تنقلبُ نينوى»⁽²⁾ . وكان أهل نينوى يؤمنون برحمة الله ، فرغم أن أمر الله قد صدر في حقهم لم يُشتم ذلك عن المبادرة إلى التّوبة . «فلما رأى الله أعمالهم أنهم رجعوا عن طريقهم الرّديئة ، ندّم الله على الشّرّ الذي تكلم أن يصنعه بهم فلم يصنعه»⁽³⁾ .

(1) مزامير داود - 112 : 1 .

(2) سفر يوناه - 3 : 4 .

(3) سفر يوناه - 3 : 10 .

ولذلك فإن الحاخامين يقولون : «يا أيها الإخوة ، لا لبس المسوح ولا الصيام يعودان بالمغفرة على الذنوب ، وإنما يكون ذلك بتوبة القلب وبأداء صالح الأعمال ، فلم يُذكر عن أهل نينوى أن «الله رأى صيامهم ومُسوحهم» ، بل «رأى الله - أعمالهم - أنهم رجعوا عن طريقهم الرديئة» .

خامساً : توبة مَنْ يتوبون إن هُمْ مَسَّهُمُ الضَّرُّ . فكم يتسم قبول توبة هؤلاء بالنبل بما يسمو كثيراً عن طبيعة البشر ! مثال ذلك قصّة يفتاح الجلعاذي : «أما أبغضتموني أنتم وطرقتموني من بيت أبي ، فلماذا أتيتم إلي الآن إذ تضايقتُم؟» (سفر القضاة 11 : 7) . غير أن الرّحمة اللامحدودة لإلهنا تتقبّل حتى مثل هذه التوبة ، كما هو مكتوب : «عندما ضيق عليك وأصابتك كل هذه الأمور . . . ترجع إلى الربّ إلهك»⁽¹⁾ . وعلى هذا المبدأ وُضع مثل الآباء الشائع : «التوبة وصالح الأعمال درعٌ واقٍ دون البلوى والعقاب» .

سادساً : توبة الطّاعن في السنّ . فحتى إن بلغ الإنسان أرذل العمر وغدا ضعيفاً واهناً ، ثم تاب من قلبه ، فإن توبته تُقبّل . كما يقول صاحب المزامير⁽²⁾ : «تُرجع الإنسان إلى الغُبار ، وتقول : «ارجعوا يا بني آدم»» ، بمعنى أن الإنسان بإمكانه الرجوع في أيّ وقت أو بأيّ عُمر : «ارجعوا يا بني آدم» .

يقول الحاخاميم : «حتى وإن كان الإنسان صالحاً في شبابه وقوته ، لو أنه عصى أوامر الله في شيخوخته فإن فضل صلاحه السابق يزول عنه ، كما هو مكتوب : «إذا رجع البار عن برّه وعمل إثمًا ، ومات فيه ، فيأثمه الذي عمله يموت» (يَحزَقُئِيل 18 : 26) . غير أن الإنسان الذي كان شريراً في مُقتبل عُمره ، ثم شعر بندم حقيقي وتاب في أواخر عُمره ، لا يعود «شريراً» بعدها . ولكن هذه التوبة مع ذلك ليست بمحمودة إن هي تأخرت كثيراً» .

سابعاً : وهي آخر درجات التوبة والمغفرة : توبة مَنْ يكون عاصياً لخالفه طوال أيام حياته ، ثم يرجع إليه عندما تمتدّ إليه يدُ الموت .

(1) سفر الشنية - 4 : 30 .

(2) مزامير داود - 90 : 3 .

يقول الحاخاميم إن كان ثمة امرؤ مريضاً ودّت ساعة موته ، فعلى الحضور أمام سرير موته أن يقولوا له : «اعترف بذنوبك أمام خالقك» .

فينبغي لمن كان مُشرفاً على حتفه أن يعترف بذنوبه وتقصيره . وما المريض المحتضر إلا كرجل يقف أمام محكمة مُقامة لإحقاق العدل ، فإن كان لهذا الأخير مُحامون يترافعون عنه ويُزكّون دعواه ، فليس للأول ما يُحامي عنه إلا التوبة وصالح الأعمال . كما هو مكتوب في سفر أيّوب : (33 : 23-24) : «إن وُجد عنده مرسلٌ وسيطٌ واحدٌ من ألف ، يُعلن للإنسان استقامته ، يتراءف عليه ويقول : «أطلقه عن الهبوط إلى الحفرة ، لقد وجدتُ فديةً»» .

وعلى ذلك ، لدينا سبع درجات من التوبة والتكفير عن الذنوب ، فمن يُغفلها جميعاً عليه أن يُلاقى العذاب في الآخرة . لذلك فقم بالواجبات المُلقاة على عاتقك ، وتب طالما كان المجال أمامك مُتاحاً لإصلاح ما أسأت به . كما يقول الحاخاميم : «تب وإن حضرك الموت ، قبل أن تصير إلى رمسك» .

وكان النبي يُحزّ قليل يُنادي مُندراً : «يا بيت يسرائيل ، تُوبوا وارجعوا عن كل معاصيكم ، ولا يكون لكم الإثم مهلكة!»⁽¹⁾ «بيت ישראל شوبו והשיבו מכל-פשעיכם ולא-יהיה לכם למכשול לון: فماذا يعني هذا الإنذار؟ يعني أنه بغير التوبة سوف تموتون .

ولقد تمّ تصوير مسألة التوبة بهذه الحكاية :

يُحكى أنه كانت هناك سفينة كبيرة تُبحر عدّة أيام في عرض المحيط ، وقبل أن تبلغ وُجعتها المنشودة هبّت عليها ريحٌ وأنواءٌ عاتية حرّقتها عن مسارها ، إلى أن تهادت في النهاية بالقرب من جزيرة بهيئة المنظر ، فأرساها بحارتها عندها . وكانت في هذه الجزيرة تنمو أصناف الأزاهير والأقاحي الفواحة الخلابّة والفواكه اللذيذة بـ«إسراف بالغ» ، أمّا الأشجار الباسقة فكانت تُلقِي بظلالها الوارفة الماتعة على جنبات المكان ، الذي بدا لركّاب السفينة بأبلغ ما تشتهيهِ النفس من الإمتاع والراحة .

(1) سفر يُحزّ قليل - 18 : 30 .

وانقسم هؤلاء الركاب إلى خمسة فرق : فقررت الفرقة الأولى منهم عدم مغادرة السفينة ، قائلين : «لعلّ رياحاً مواتية تهبّ ، ويمكن سحب المرساة وتتابع السفينة بإبحارها ، فتركّ وراءها مخلّفين . لسنا نريد المخاطرة بفقدان الوصول إلى وجهتنا من أجل المتعة المؤقتة المتاحة على هذه الجزيرة» . بينما مضت الفرقة الثانية إلى الشاطئ لبعض الوقت ، فاستمتعت بعطر الأزاهير ، واستطابت مذاق الفواكه ، وعادت إلى السفينة مُغتبطة وقد ساورها النشاط ، فوجدت أماكنها على حالها ولم تفقد شيئاً ، إلا أنها اكتسبت على صعيد الصّحة وطيب النفس شيئاً كثيراً من جرّاء الاستجمام في زيارة الجزيرة .

أما الفرقة الثالثة فزارت كذلك الجزيرة ، لكنها بقيت طويلاً حتى هبتّ الرّيح المواتية ، ولما يبلغوها إلا بالكاد وكان بحارتها آخذين في سحب الأنجر (المرساة) ، وفي خلال عجلتهم وفوضى اندفاعهم فقد الكثير منهم أماكنهم ، ولم ينعموا بالراحة خلال تتمة الرحلة كما كان الأمر في بدايته . لكنهم مع ذلك كانوا أكثر تعقلاً من الفرقة الرابعة ، فلقد مكث هؤلاء الأخيرون على متن الجزيرة طويلاً جداً ، وانغمسوا حتى الثمالة في متعتها ، وتركوا جرس التحذير في السفينة يُجلجل دون أن يلقوا إليه بالآ . وقالوا : «ها هي ذي الأشعة ما زالت لم تُنشر بعد ، فبوسعنا أن نعرف من المتعة المزيد لبضع لحظات أخرى» . وراح الجرس يجلجل من جديد ، لكنهم مكثوا متوانين مُتباطئين ، وقالوا في أنفسهم : «لا شكّ أن الرّبّان لا يُبحر دوننا» . لذا فقد مكثوا على الشاطئ حتى أبصروا السفينة تتحرك ، فما كان منهم إلا أن هبّوا بعجلة طاغية وسبحوا بإثر السفينة وراحوا يتسلّقون جوانبها ، فمن جرّاء ذلك أصيبوا بقروح وخُدوش لم يُشفوا منها في عُضون بقيّة الرحلة .

أما الفرقة الخامسة ، فيا حسرةً عليها ! راح أولئك يأكلون ويشربون ويعمّهون في اللذات والملاهي ، إلى درجة أنهم لم يسمعوا صوت الجرس ، ولما انطلقت السفينة خلفتهم وراءها . وراحت الوحوش الضّارية المُختبئة في الأدغال الكثيفة تصطادهم وتفترسهم ، وأما من نجا منهم من هذه البليّة فقد هلك من قرط التُّخمة .

فأما «السفينة» فهي أعمالنا الصالحة التي تحملنا إلى وجهتنا ، أي الآخرة .
 و«الجزيرة» تمثل متع الحياة الدنيا ، التي أحجمت المجموعة الأولى من الركاب عن
 تذوقها أو النظر إليها ، ولكنها عندما يُستمع بها - كما فعلت الفرقة الثانية - فهي
 تجعل حياتنا مريحة مائعة ، دون التسبب لنا في إهمال واجباتنا المفروضة . غير أن
 هذه المتع ينبغي ألا يُسمح لها أن تستولي على نفوسنا وملكاتنا بأكثر مما ينبغي .
 والواقع أن بوسعنا الرجوع والعودة - كما فعلت الفرقة الثالثة - فيما يكون الوقت
 لا يزال متاحاً ، وإن كان الثمن بعض الخسران ، أو حتى كالفرقة الرابعة التي لم
 تتم لها التجارة إلا في الرّمق الأخير ، مع كثير من الكدّات والجروح التي لا يمكن
 أن تُشفى بالكامل . لكننا نبقى في خطر دائم بأن نبني كالفرقة الأخيرة ، فنمضي
 حياتنا بأسرها ونحن نلهث وراء الباطل والتفاهات ، ناسين المستقبل ، فهلك
 حتى من السمّ المستتر ضمن الأطياب التي تُغوينا .

فَمَنْ هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْأَسَى ؟ وَمَنْ هُوَ الْبَائِسُ ؟

ذلك هو مَنْ يترك لورثته ثروة طائلة ، ويأخذ معه إلى قبره عبثاً ثقيلاً من
 الذنوب . وَمَنْ يجمع الثروة بغير حق ، «مُحْصِلُ الْغِنَى بغير حق ، في مُتَنَصِفِ
 أَيَّامِهِ يتركه» (يرميا 17 : 11) . وعند أبواب دار الخلود لا يُمكن للذهب أو
 للفضة أن تُرافق رُوح الإنسان ، بل إن الأعمال الصالحة والإيمان بالله هي التي
 تكون دليلاً لروحه إلى التجارة .

ورغم أن الله رؤوفٌ رحيمٌ ويفرُّ ذُنُوبَ الْإِنْسَانِ الْمُسِيءِ بِحَقِّهِ ، فإن مَنْ
 يُسِيءُ إِلَى جِيرَانِهِ وَإِلَى النَّاسِ عَلَيْهِ أَوْلَى أَنْ يَتَحَصَّلَ عَلَى مَغْفَرَةِ جِيرَانِهِ وَالنَّاسِ مِنْ
 قَبْلِ أَنْ يَطْلُبَ مَغْفَرَةَ الرَّبِّ⁽¹⁾ . قال الرَّابِي الْإِعْيِزِرُ⁽²⁾ : «هذا ما ينبغي لكم فعله ،
 كما هو مكتوب : «لتطهيركم من جميع خطاياكم أمام الرب» (ليوِين 16 : 30) .
 ففي يوم الغفران تُتاح المغفرة للذنوب الإنسان تجاه باريه ، ولكن ما خلا الذنوب
 الواقعة على الناس ، فتلك بحاجة إلى تنازلهم أولاً» .

(1) هذه القاعدة الشرعية موجودة بشكل مُشابه تماماً في الإسلام .

(2) كان هناك اثنان من مشاهير الحاخاميم بهذا الاسم : إيعيزر بن شمعون (إيعيزر الكبير) ،
 وإيعيزر بن غازوريا . والأول كان معلماً للثاني .

فإن طُوبِ إنسانٌ بالصَّحِّحِ عن أخيه الإنسان ، عليه أن يفعل ذلك عن طيب نفس ، وإلا فكيف يجرو في يوم الغُفران على طلب المغفرة على خطاياهم تجاه الله الأزلي ؟ ولقد جرت العادة في هذا اليوم للإنسان أن يطهّر نفسه كلياً ، جسدياً وروحياً ، وأن يرتدي ثياباً بيضاء نظيفة ، ليتمثل بذلك كلام النبي يشعياہ : «إن كانت خطاياكم كالقَرَمِزِ تبيضُ كالثلج»⁽¹⁾.

* * *

يُحكى أن عمدة إحدى المُدن أرسل في إحدى المرات خادمه إلى السوق لشراء بعض السمك . فلما وصل المذكور إلى موضع السوق وجد أن السمك قد بيع كله إلا واحدة ، وكان ثمة خياط يهودي على وشك شراء هذه السمكة المتبقية الوحيدة . فقال خادم العمدة : «أدفعُ بها بها قطعة ذهبية» ، فقال الخياط : «فأنا أدفع اثنتين» . فأبدي رسول العمدة عندها استعدادها لدفع ثلاث قطع ذهبية بها ، غير أن الخياط تمسك بالسمكة ، وقال إنه لن يتخلى عنها ولو اضطره الأمر لدفع عشر قطع ذهبية ثمناً لها . فما كان من خادم العمدة إلا أن عاد إلى الدار ، وروى لسيده مجريات الأمر وهو يتميز غيظاً . فأرسل العمدة في طلب الرجل الذي يعدّ واحداً من رعيته ، فلما مثل هذا الأخير أمامه سأله :

«ما هي صنعتك؟» .

أجاب الرجل : «أنا خياط يا سيدي» .

«إذا كيف يمكنك أن تدفع ثمناً باهظاً في سمكة ، وكيف تجرؤ على إهانة كرامتي من خلال عرض مبلغ أكبر مما عرضه خادمي؟» .

أجاب الخياط : «إني أصومُ غداً ، فلذا رغبتُ بالسمكة لأكلها اليوم ، فأتقوى بها على صيام الغد . ولم أكن مستعداً للتخلي عنها ولا مقابل عشرة قطع ذهبية» .

سأل العمدة : «فما فضلُ يوم الغد على سواه من سائر الأيام؟» .

(1) سفر يشعياہ - 1 : 18 .

أجاب الرَّجُلُ : «فما هو فضلُك على سائر الرِّجال ؟» .

«بأن الملك قد عيَّنني لهذا المنصب» .

أجاب الحَيَّاطُ : «إذاً فلتعلم أن مَلِكَ المُلوك قد عيَّن هذا اليوم أقدس من كلِّ الأيام الأخرى ، حيث أننا في هذا اليوم نرجو الله أن يغفر لنا خطايانا» .

أجاب العُمدةُ : «إن كان الأمر كذلك فأنتَ على حقّ» . وانصرف السيركيلي لشأنه آمناً مطمئناً .

فهكذا إن نوى الإنسان طاعة الله ، لا شيء يُشبهه عن مقصده . في هذا اليوم أمر الله أبناءه بالصيام ، لكن عليهم أن يقووا أجسادهم على طاعته بأن يأكلوا في اليوم السابق له . فمن واجب الإنسان أن ينقي نفسه ويطهرها جسدياً وروحياً ، مع اقتراب يومه الأكبر . وإن عليه أن يكون تامّ الاستعداد للمُشول في أية ساعة أمام الحضرة الإلهية الجبّارة ، متخذاً التوبة وصالح الأعمال خير رفيق له .

كان لرجل ثلاثة رفاق ، وكان يحبّ أحدهم محبةً جمّة ، وكان يحبّ الثاني أيضاً إنما ليس بدرجة الأول ، أما تجاه الثالث فلم يكن شعوره مُبالياً .

فجرى أن ملك البلاد أرسل مقدماً إلى هذا الرَّجُل ، يأمره بالحضور فوراً أمام العرش . فارتعدت فرائص الرَّجُل للأمر ، وحسب أن بعض النَّاس قد تكلم باطلاً في حقّه ، أو لربّما افتري عليه تهمة زور أمام ملكه ، ولما خشى من المُشول بمفرده أمام الحضرة الملكية ، فقد ارتأى أن يطلب من أحد رفاقه أن يذهب معه . فأولاً ، بطبيعة الحال طلب ذلك من أعزّ رفاقه ، لكن هذا أحجم على الفور عن الذهاب ، دون أن يقدم عُذراً أو سبباً لقلّة وفائه . فما كان من الرَّجُل إلا أن طلب ذلك من رفيقه الثاني ، الذي قال له :

«سوف أذهب معك إلى حدّ بوابة القصر ، ولكنني لا أدخل معك أمام

الملك» .

فلما اعتراه اليأس طلب الأمر ذاته من رفيقه الثالث الذي كان مُهملاً شأنه ، فإذا به يجيبه على الفور :

«لا تخش شيئاً ، فأنا ذاهبٌ معك وتراني أتكلّم في حقك بكل خير ، ولا أترك وحيداً حتى تنجلي عنك غمّتك هذه» .

فأمّا «الرّفيق الأول» فهو ثروة الإنسان ، التي ينبغي له أن يخلفها وراءه عندما يموت . و«الرّفيق الثاني» يتمثّل بالأقارب الذين يتبعونه إلى القبر ويتخلّون عنه بعدما يُهال على جثمانه التراب . وأمّا «الرّفيق الثالث» الذي دخل معه إلى حضرة الملك فهو بمثابة الأعمال الصّالحة خلال حياة الإنسان ، التي لا تتخلّى عنه أبداً ، بل تصاحبه وتشدّ من أزره أمام ملك الملوك ، الذي لا يُقيم لأحد مهابةً ولا يأخذ من أحد رشوةً .

وكان الرّابي الإيعيزر يعلمُ تلاميذه بما يلي :

«في هذا اليوم العظيم والرّهيب لا يجد الملاك «سَمال» (الرّقيب) أي حوّب أو ذنب يشوب بني يسرائيل ، فيخاطب العليّ القدير قائلاً :

«أيها الملك الرّبّ ، على وجه الأرض في يومنا هذا ثمة شعبٌ مُطهّر ومُبرّأ ، وبنو يسرائيل هم كالملائكة في يوم الغُفران . وكما يحلّ السّلام في السّموات فهو يحلّ الآن عند هذا الشعب ، المُسبّح باسمك القدّوس» .

«فيستمع الله لهذه الشّهادة من ملاكه ، ويغفر لشعبه كافّة خطاياهم» .

ولكن رغم أن الله العظيم يغفر لنا خطايانا على هذا النحو ، علينا ألا نعود فنقتربها من جديد ونظنّ بأننا مُحصّنون ، لأنّ مَنْ يقول : «لعلّي أرتكبُ لي ذنباً ثم أتوب» ليست له مغفرة ولا كفّارة» .

* * *

عيد المظال (حَجْ هَسْكَوت) חג הסכות

يبدأ عيد المظال في اليوم الخامس عشر من الشهر السابع «تشري» (أكتوبر) ، وخلال مدته البالغة سبعة أيام يؤمّر الإسرائيليون بالإقامة في المظال أو السقائف . ولقد تمّ وضع هذا العيد للإبقاء في ضمائرهم على ذكرى الخيام التي كانت لهم بمثابة البيوت خلال إقامتهم أربعين سنة في البرية . ورُموز هذا العيد هي سَعْف التّخيل ، التي تُربط بها عساليج الآس والصفصاف والأترج .

في هذا العيد نُومر بالاحتفال والفرح ، لأن مشيئة الله لا ترتضي لنفوسنا الابتلاء على الدوام ، كما في عيده المُكرّم يوم الغُفران . بل بعدما نكون قد خفضنا جناح نُفوسنا وعُدنا إلى خالقنا طائعين تائبين ، نُومر بالاحتفال مع أسرنا وجيراننا . ولذلك فنحن ندعو هذا العيد بموسم احتفالنا .

لقد قال الرّب : «لا يكون هذا لكم صوماً كيوم الغُفران ، بل تأكلون وتشربون وتبتهجون فيه ، وتُضحون بذبيحة السّلامة» . والكتاب المُقدّس ينصّ في متته على عبارة⁽¹⁾ : «سبعة أيّام للرّب» ، ولذا فعلينا في خضمّ بهجتنا أن نُكرّس له طرفاً صالحاً من تفكيرنا .

فهكذا يأمّرنا الملك الكلّي القُدرة بأن نتقل من مساكننا الدائمة وأن نسكن سبعة أيام تحت السقائف . وهذه الوصيّة تعلّمنا أن الإنسان ينبغي ألا يركن كثيراً إلى البناء المهيب الذي قد يكون سيّده ، وألا يستغرق في تزيينه بالزخارف المُكلفة ، وكذلك ينبغي له ألا يبذل ثقته بالكامل لبني البشر ، ولا حتى الحكّام في بلده . بل عليه الاعتماد كلياً على الله العظيم ، الذي قال : «ليظهر الكون إلى الوجود» ، فله وحده الحول والقوة والسُلطان . وهو وحده الذي لا يتحوّل ولا يتبدّل ، ولا يكون أبداً غير ما صرّح عن نفسه ، كما هو مكتوب : «ليس الله إنساناً فيكذب» (سفر العدد 23 : 19) לא אֱלֹהִים אֲנִי וְכִזְבוּ ، وهو وحده الذي يحفظنا من كلّ سوء .

(1) سفر اللّيويين - 23 : 34 .

وعيد المظالّ يحلّ في الخريف ، بعد أن يتمّ تخزين محاصيل الحقل في الأهرام ، تبعاً لكلمة الكتاب المقدّس : «تعمل لنفسك عيد المظالّ سبعة أيّام ، عندما تجمع من بيدرك ومن معصرتك» (تثنية 16 : 13) חג הסכת תעשה לד שבועת 'מים באספך מגרנד ומיקבד .

ففي هذا الموسم ، عندما يرى الإنسان الوفرة حوله ، لرّبما يأخذ بقلبه التّيه والكبر ، وقد يشعر أنه يُغني بيته ويُضفي عليه بذخاً ورونقاً . فلهذا السّبب يُؤمّر بمغادرته لبعض الموسم ، وبأن يسكن تحت السّقائف حيث تتوجّه أفكاره إلى الله ، ففي هذا السّكن المّقام بشكل غشيم وهزيل وغير الحمي من المطر ، يمكن له أن يتذكّر بأنه من خلال هذا المطر الذي أرسله العليّ القدير في أوّان موسمه حصلت الوفرة في غلاله ، ومن خلال هذا التأمّل فهو يؤمن بحقيقة أن كلّ ما هو جارٍ في ملكه إنّما كان بفضل من الله ومنّته ، لا من جرّاء تدبيره هو وقوّته .

وهذه السّكنى في السّقائف من شأنها أن تُعيد إلى الدّهن الطريقة التي عاش بها اليسرّكيّون أربعين سنة بعدما غادروا مصر ، بمجرد جدران مؤقّته لتحميمهم من حرّ الصّيف اللاهب وبرد الشتاء القارس ، ومن الرّياح والعواصف . وكيف كان الله معهم عبر أجيالهم كلّها وحفظوا من كلّ شرّ .

وحسب ما يرى بعض الحاخاميم لم يسكن اليسرّكيّون بالفعل في سقائف بالبريّة ، وإنّما أحيطوا بالغمّام ، بسبع غمامات تحديداً : أربع غمامات ففي كلّ جانب واحدة ، والخامسة ظلّ يقيهم حرارة الشّمس اللاهبة ، أما السادسة فعمودٌ من نار يُنير لهم في الليل (فكان في مقدورهم الرّؤية في الليل بالوضوح ذاته الذي في النّهار) ، والسابعة كانت تسبق مسيرهم وتهدّهم إلى سّواء السّيل⁽¹⁾ .

وكان ارتحال بني يسرّكيل من مصر في شهر «نيسان» (أبريل) ، ولقد عملوا هذه السّقائف على الفور ، فاستخدموها أربعين عاماً . وعلى ذلك كانوا يُقيمون في السّقائف على مدار العامّ بأكمله ، ولذا فكان من الممكن لنا تخليد ذكرى هذا الأمر إمّا في الرّبيع أو الخريف ، وإمّا في الصّيف أو الشتاء على حدّ

(1) قابل على التّوراه ، سفر الخروج - 13 : 21 .

سواء . فلماذا إذا عيّن الله الخريف موعداً لهذه الشعيرة ؟ هذا لأننا إن أقمنا في السقائف بأيام الصيف ، تصبح المسألة مُلتبسةً بين أمرين : أنحن نفعل ذلك التزاماً منّا بأمر الله ، أم نفعله لمسرّتنا وإمتاع نفوسنا ؟ ذلك بأن كثيراً من الناس يطلبون الانجاء إلى البقاع الهويّة في هذا الفصل ، وأمّا في الخريف عندما تطرح الأشجار أوراقها ، ويضحى الهواء بارداً قارساً ، ويكون قد حان أوان إصلاح بيوتنا لفصل الشتاء ، إن نحن أقمنا في هذه المساكن المؤقتة فإنما يكون في ذلك إظهاراً أكيداً للرغبة في تنفيذ أوامر الخالق .

وعيد المظالّ هو أيضاً عيدٌ لجمع الغلال ، حين ينبغي لنا أن نحمد الله ونشكره على الكرم الذي عاملنا به ، والغنى الذي باركنا بالحصول عليه . فعندما يقدم الله الأزلي للإنسان قوته ، عليه في الأمسيات الطويلة التي تلي ذلك أن يتفكر وأن يدرس كتابه المقدّس ، وأن يجعل من هذا العيد بالفعل «عيداً للرّب» ، وليس عيداً مقتصرأ على مسرة النفس .

هذا وإن الأصناف الأربعة من مملكة النبات التي نتخذها في هذا العيد يُقصد بها تذكيرنا بالعناصر الأربعة للطبيعة ، التي تعمل تحت توجيه ورضا العليّ القدير والتي بغيرها بنعدم وجود الكائنات والأشياء كافة . ولذلك فإن الكتاب المقدّس يأمرنا في «عيد الرّب» هذا بأن نتوجّه إليه بالحمد والشكر ، وأن نفرح أمامه بهذه الأصناف الأربعة ، وكلّ منها يمثّل واحداً من العناصر المذكورة .

يرد في الكتاب المقدّس (ليوِين 23 : 40) : «وتأخذون لأنفسكم ثمر شجر الحمضيات» (هادار ٦٦٦ ، وهو هنا الأترُج אֶתְרוֹג) ، ولونه أصفر فاقع فيشبه النار . والصنّف الثاني هو سَعفة النّخيل (في العبرية : לוּלָאב) ، والنّخيل شجرٌ مرتفع وينمو قائماً مُنتصباً في الهواء ، وثمرته حلوة ولذيذة الطعم ، فهذه إذاً تمثّل العنصر الثاني ، أي الهواء . أمّا الثالث فهو غُصن شجرة الآس אֶלֶבֶת ، وهي من أدنى الشجيرات ارتفاعاً ، تنمو على ارتفاع واطئ من الأرض وطبيعتها باردة ويابسة كالتراب ، بما يجعلها مُلائمة لتمثيل هذا العنصر . والصنّف الرابع هو «صنّف الوادي» אֶלֶבֶת הַבְּרָד الذي يكون خيرُ نموّ له بالقرب من الماء تماماً ، وأغصانه تتدلّى نحو الجدول ، فهو يمثّل بذلك العنصر الأخير ، الماء .

ويعلمنا الكتاب المقدس أن علينا أن نتوجه بالشكر العميق لله على كل واحد من هذه العناصر الأربعة⁽¹⁾.

أما الأترج فنحمله باليد اليسرى ، والأصناف الثلاثة الأخرى نمسك بها معاً باليد اليمنى . ونفعل ذلك لأن الأترج يحتوي من ذاته على كل ما تمثله العناصر الأخرى : فالقشرة الخارجية صفراء كالنار ، واللحاء الداخلي أبيض ورطب كالهواء ، أما اللب فمائي ، والبذر جاف كالتراب . وهي تُحمل باليد اليسرى ، هذا لأن اليد اليمنى هي الأقوى ، وثمره الأترج ليست سوى واحدة ، بينما باقي الشعارات ثلاثة .

وهذه الشعارات الأربعة⁽²⁾ تمثل أيضاً الأعضاء الرئيسية الأربعة في جسد الإنسان : فالأترج يشابه شكله القلب نوعاً ما ، وبغير قلب لا يمكن لنا الحياة ، وبالقلب ينبغي للإنسان أن يحب بني جنسه من البشر . أما سعة النخيل فتمثل الصلب ، الذي هو عماد هيكل الإنسان والذي يقع القلب إلى الأمام منه ، وهذا يعني أن علينا أن نعبد الله بكامل جسدنا . أما أغصان الآس فتشبه عين الإنسان ، التي بها يرى المرء أعمال إخوانه من البشر ، والتي بواسطتها يمكنه أن يحصل المعرفة بالشرعية . أما أغصان الصفصاف فتمثل الشفاة ، التي بواسطتها يمكن للإنسان أن يسبح الله الأزلي ويشكره . والآس يُذكر في الكتاب المقدس⁽³⁾ قبل الصفصاف ، لأننا نقدر أن نرى الأشياء ونعرفها قبل أن نتمكن من لفظ أسمائها بشفاها ، وبوسع الإنسان أن ينظر إلى الكتاب المقدس قبل أن يدرسه .

لذلك ، فهذه الأعضاء الرئيسية الأربعة من هيكل الإنسان علينا أن نسبح الخالق ، كما قال داود : «جميع عظامي تقول : يا رب من مثلك؟»⁽⁴⁾.

- (1) نظرية عناصر الطبيعة الأربعة ، التي شاعت في القرون السالفة ، نسفتها في عصرنا علوم الكيمياء الحديثة من عضوية ومعدنية .
- (2) هذه المناظرة مثال على ما يزرخه التلمود من معميات القبالة الرمزية الغنوصية ، مما ستظهر له أصداء في الأدب الصوفي العرفاني الإسلامي ومصطلحاته الغيبية .
- (3) في متته (ليوبين 23 : 40) : «وتأخذون لأنفسكم في اليوم الأول ثمر شجر حمض وسعف النخل وأغصان شجر الأيك وصفصاف الوادي ، وتفرحون أمام الرب سبعة أيام» .
- (4) سفر المزامير - 35 : 10 .

وكان الرأبي العظيم موشيه بن ميمون في مؤلفه الموسوم بـ «مُوريه نُبوخيِم»
 מורה נבוכים (دلالة الحائرين) ، قد فسّر بأن الله قد أمر اليسرئيليين باتخاذ هذه
 الشعارات الأربعة خلال هذا العيد ، لكي يذكرهم بأنهم قد جلبوا من البرية ،
 حيث لا تنمو ثمار ولا يعيش بشر ، إلى أرض تجري بها الأنهار والمياه ، أرض
 تفيض لبناً وعسلاً . ولهذا السبب أمرنا الله بأن نحمل بأيدينا الثمر المبارك لهذه
 الأرض أثناء ترنيم آلاء الحمد له سبحانه ، فهو من صنع الآيات والعجائب من
 أجلنا ، وهو من يطعمنا ويمدنا بالقوت مما تُنتبه الأرض .

وهذه الشعارات الأربعة تختلف من حيث الطعم والشكل والرائحة ، تماماً
 كما يختلف بنو آدام في سلوكياتهم وعاداتهم .

والأترُج فاكهة قيّمة ، فهي تصلح للأكل ولها عَرفٌ طيبٌ للغاية . وهي
 تشبّه بالإنسان العاقل والسالك سبيل الصّلاح تجاه الله وإخوته من البشر . فأما
 رائحة الأترُج فهي أعماله الصّالحة ، ولبها هو علومه التي يغتذي منها الآخرون .
 ولذا فالأترُج هو أكمل هذه الشعارات ، وهو لذلك يُذكر أولاً على الدوام ،
 ويُحمل بمفرده بيدٍ واحدة .

أما سَعفة النّخيل فرغم أنها تطرح ثماراً ، لا رائحة زكيّة لها . وهي تُشبّه
 بأولئك الناس الحائزين على الفقه ، لكنهم واهون من حيث أعمالهم ، العارفين
 بالشرّية والمُتتهكين لأحكامها .

ويُشبّه الآس بأولئك الناس ذوي الفطرة الطيبة ، الذين يُحسنون التصرف
 تجاه الله والناس ، لكنهم غير مُتفهمين في العلم .

أما صَفصاف الوادي فليس له ثمارٌ ولا رائحةً عطريّة ، وهو لذلك يُشبّه
 بالناس الذين ليس لهم علمٌ ولا يعملون بصالح الأعمال .

بيد أن هؤلاء إن هم توحدوا جميعاً وبذلوا ضراعاتهم إلى العليّ القدير ،
 فهو لا ريب سيستمع إلى كلامهم ودُعاءهم ، ولهذا فإن موشيه قال لليسرئيليين :
 «وتأخذون لأنفسكم» . . إلخ ، أي لمصلحتكم ومنفعتكم ، وذلك من خلال
 حمدكم وتسيحككم للرّبّ خلال الأيام السبعة التي يمرّ بها عيد المظالّ ، مُتخذين

هذه الشعارات ، وأن تهتفوا معها بعبارة : «هُوشَعْنَا»⁽¹⁾ הוּשַׁעְנָא (خَلَّصْنَا) ، مع الآية : «هُودוּ לַיהוָה כִּי טוֹף כִּי לְעוֹלָם חֲסְדּוֹ» הוֹדוּ לַיהוָה כִּי טוֹב כִּי לְעוֹלָם חֲסְדּוֹ : «أحمدوا الربّ لأنه مبارك ولأنّ إلى الأبد رحمته»⁽²⁾ .

* * *

وكان الحاخاميم يقولون إن من فاته حضور عيد المظالّ في يروشلأيم ، فقد فاته طعم السعادة الحقيقية في حياته . وكان أول أيام العيد يُعقد فيها بوقارتام ، أما الأيام الوسطى فيحتفل بها بالفرحة والابتهاج بضروب من اللّهُو .

وكان هيكل يروشلأيم مُجهزاً برواق للنساء ، كان يُسمّى شقّة النساء ، بينما كان الرّجال يجلسون في الأسفل كما هي العادة إلى اليوم في الكنيس . وإلى ذلك الحدّ جرى ترميمه . وكان الكهنة الشباب يملأون مصابيح الشّمعدانات الكبيرة بالزيت ، ويُشعلونها جميعاً ، إلى درجة أن المكان كان يشعّ بالضياء حتى تُنير انعكاساته المتلألئة شوارع المدينة . وكانت الأناشيد والتّرايم تصدح بأصوات العباد الأتقياء ، بينما يُرتل الكهنة من سبط ليوي التّسايح للربّ على أنغام الكنّارات ، والشّوفار ، والأبواق ، والمزامير ، وباقي آلات العزف . وكانوا يقفون على خمس عشرة درجة عريضة ، بالغين من الطابق السّفلي إلى الرّواق ، أي قاعة النساء . وكانوا يُنشدون أثناء صُعودهم خمسة عشر مزموراً ، مُفتحين بمزمور «ترنيمة المصاعد» שִׁיר הַמַּעֲלֹת (شير همعلوت) ، فيما كانت الجوقة الكبرى تنضمّ بأصواتها إليهم .

وكان الرّأبي هليل⁽³⁾ الشيخ العتيق مُعتاداً على أن يخطب في جموع المُصلّين في هذه المناسبات الدّينية .

(1) ترد العبارة في سفر أخبار الأيام الأول - 16 : 35 : «وقولوا خَلَّصْنَا {هُوشيعينو} يا إله خلاصنا واجمعنا وأنقذنا من الأمم ، لنحمد اسم قُدسك وتتفاخر بتسييحتك» . وهذه التّرنيمة كانت من الاحتفال بمسح داود ملكاً على كلّ إسرائيل ، وإصعاد تابوت الربّ إلى مدينته الجديدة «مدينة داود» لا 76 77 ، انظر السفر المرقوم 15 : 1 .
(2) سفر أخبار الأيام الأول - 16 : 34 . والاسم الأعظم (يهووا) بلفظ : «أدوناي» .
(3) هو الرّأبي هليل هناسي ، تقدّمت ترجمته في القسم الثالث ، صفحة 253 .

فكان مُعتاداً على أن يقول : «إذا كان الله ساكناً هنا ، فها أنتم إذا هنا موجودون ، كل واحد فيكم ، وأرواح كل منكم . ولكن إن ابتعد الله من بينكم من جراء المعاصي فمن يكون منكم هنا إذا ؟ هذا لأن الله يقول : «إذا أنت أتيت إلى بيتي آتي إلى بيتك ، أما إن تجافيت عن زيارة مسكني فأهمل دخول مسكنك» كما هو مكتوب في متن التوراه : «في كل الأماكن التي فيها أصنع لاسمي ذكراً آتي إليك وأباركك» (خروج 20 : 21) .

فعندها يُجيب بعض الناس : «طوبى لأيام شبابنا ، إذ لم نصم بالعيب والشنار أيام شبيتنا» . فأولئك كانوا زمرة أهل التقوى .

بينما يُجيب آخرون : «طوبى لشيخوختنا ، ففيها تُبنا عن خطايا شبابنا وكفّرنا عنها» . فأولئك كانوا زمرة التوابين .

ثم تنضمّ الزمرتان معاً وتقولان : «طوبى لمن كان بلا خطيئة . أما أنت أيها المذنب فهلّم إلى التوبة ، إرجع إلى الله تنل مغفرة واسعة» .

فكان الاحتفال يستمرّ طوال الليل ، حيث أن الشّعائر الدينيّة عندما كانت تُختتم كان الناس ينصرفون إلى السمرّ واللّهو الحلال والغامر .

وكان هذا العيد يُسمّى أيضاً «عيد استقاء الماء» ، لأنه خلال قيام الهيكل كان الخمر يُقدّم خلال العام كتقدمة محرقة ، ولكن في عيد المظالّ كانوا يقدمون تقدمتي شراب ، إحداها من الخمر والأخرى من الماء . وبخصوص تقديم الماء كانوا يعملون عيداً خاصاً في اليوم الثاني من صلاة عيد المظالّ ، يدعونه عيد استقاء الماء . ولقد جرى وضعه بناءً على عبارة النبي يشعياہ :

«فَسْتَقُونَ مِيَاهاً بَفْرَحٍ مِنْ بِنَابِعِ الْحَلَاصِ»⁽¹⁾ .

ושאבתם-מים בששון ממעיני הישועה:

* * *

(1) سفر يشعياہ - 12 : 3 .

عيد التأسيس (عيد الأنوار - حنوكاه) חנוכה

يحتفل بهذا العيد لمدة ثمانية أيام خلال الشهر التاسع «كسليف» 165 (ديسمبر) ، وهو يخلد ذكرى تأسيس الهيكل من بعد خرابه على يد أنطيوخوس إيفانيس Antiochus Epiphanes ، الذي تم دحر جيوشه على أيدي الحشمونيين ملوك المكابيين الأبطال .

ولقد صنعَ الله القُدوس مراراً الآيات والعجائب لصالح أبنائه في ساعة ضيقهم ، فأظهر من خلال ذلك عظمته الفائقة لأمم الدنيا . وهذه الآيات تقف حائلاً دون سقوط الإنسان في حمأة الكُفر وعزو كل اتِّفاقات القَدَر إلى مسار حركة الطبيعة . فالله الذي خلق الدنيا من العدم ، بإمكانه أن يغيّر بمشيئته الطبيعة التي أنشأها بيده . فلما أحرز الملوك الحشمونيون - بمعونة الله - نصرهم الساحق وأحلّوا في بلدهم السلام والوثام ، كان أوّل عمل قاموا به تطهير الهيكل وإعادة تأسيسه من بعد خرابه . فعلى ذلك ، وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر كسليف ، التزاماً منا بفروض الطاعة لتعاليم الحاخاميم ، نشرع في عيد التأسيس من خلال إنارة المصابيح أو الشموع المُعدة خصيصاً لهذه المناسبة⁽¹⁾ . ففي الليلة الأولى نُنير واحداً ، ثم واحداً إضافياً في كل ليلة تالية خلال مدة العيد . ونحتفل به كذلك بترتيل ترانيم الشكر والتهليل (هَلَلُويָהּ הללויה) .

وهذا العيد قد تمّ التبشير به في سفر العدد ، فلما كان أهرُون يتلقّى تقدمات رؤساء الأسباط كلّهم وهدايا أريحيّتهم الكبيرة ، كان يُساوره شعور ندم ، لأنه هو وسبطه (قبيلته) كانوا غير قادرين على المشاركة معهم في ذلك . لكن هذه العبارات قيلت لتعزية خاطره : «شأنك يا أهرُون أعظم من شأنهم ، فأنت مَنْ يُضيء السُّرُج المُقدّسة ويُصلح أمرها»⁽²⁾ .

(1) فلهذا يُدعى «عيد الأنوار» ، أو «حنوكاه» חנוכה المشتقة من العبرية «حنوك» חנוך التي تعني التأسيس أو التنشئة . و«حنوكياه» חנוכיה هو شمعدان «المُنوراه» מנורה ذي التسع شُعَب المُستعمل بعيد الأنوار ، بينما تكون المُنوراه العادية بسبع شُعَب .
(2) انظر سفر العدد 8 : 1-2 : «متى رفعت السُّرُج فألى قُدَام المَنارة تُضيء السُّرُج السبعة» .

فمتى قيلت هذه العبارات ؟

عندما كُلف بمباركة بني إسرائيل ، كما يرد في سفر العدد 6 : 23 ، وكما سيرد لاحقاً في سفر المكابيين بين أسفار الأپوكريفا المحذوفة⁽¹⁾ .

والربّ قال لمُوشيه⁽²⁾ : «كَلِّمَ أَهْرُونَ وَقُلْ لَهُ : فِي الْأَجْيَالِ الَّتِي تَأْتِي ، يَكُونُ هُنَاكَ تَأْسِيسٌ آخَرٌ وَإِضَاءَةٌ لِلسُّرُجِ ، فَتَسْلُكُ وَحْدَهُ هُوَ مَنْ يَتَوَلَّى هَذِهِ الشَّعِيرَةَ⁽³⁾ .

ولسوف تُرافق المعجزات والعجائب هذا التأسيس . ولا تخشَ علي عَظْمَةِ رُؤْسَاءِ سِيطِكَ⁽⁴⁾ ، فخلال قيام الهيكل تقدّم أنت القرايين ، وأمّا إضاءة السُّرُج فتكون لك ولبنيك فريضة دَهْرِيَّة . ولدى خراب الهيكل سيتوقف تقديم القرايين ، أمّا إضاءة سُرُج التأسيس الذي يعملهُ الحشموينيون فلا تتوقف أبداً» .

وكان الحاخامات يُعلنون هذا الاحتفال بإضاءة السُّرُج ، لإشهار مُعجزة الله للأجيال القادمة جميعها ، ولذا فمن واجبنا أيضاً أن نُضيء مثلها في الكُنُس وفي بيوتنا .

ورغم أن الله قد ابتلى بني إسرائيل بناءً على معصياتهم ، فهو ما برح يعاملهم بالرحمة ، ولم يسمح بوقوعهم في الهلاك التام ، ولذا فحول هذا العيد أيضاً يردّد الحاخامات هذه الآية من سفر اللّيويين (26 : 44) :

«ولكن مع ذلك أيضاً ، متى كانوا في أرض أعدائهم ما أبيتهم ولا كرهتهم حتى أيديهم وأنكثَ ميثاقي معهم ، لأنني أنا الربّ إلههم» ואף-גם זאת בהיותם בארץ איביהם לאדמאסתים ולאדגעלתים לכלתם להפר בריתי אתם כי אני יהוה אלהיהם:

(1) لا وجود لسفري المكابيين (مكاييم) بمتون «الكتويم» من النصّ المسُوراتي العبري لأسفار اليهود (تنخ) ، ولا في التّرجمات الإنجيلية (البروتستانتية) ، لأنهما محذوفان ومرفوضان (سفارييم حيصونيم ספריים חיצוניים) . زد عليه أنه ليس لهذين السّفرين إلا أصول إغريقيّة . أما الطالب لهما فيجدهما في التّرجمات الكاثوليكيّة .

(2) هذا النصّ ليس في التوراه ، بل هو من أجدها التلمود . إذ كيف يخاطب الله أَهْرُونَ على لسان أخيه مُوشيه ، فيذكر تأسيس الحشموينيين للهيكل بعد قرون من عصرهما ؟

(3) ثمة أشياء مُضارعة لذلك في سفر العدد ، الأصحاح 18 .

(4) أي سبط ليوي الذي منه أَهْرُونَ وأخوه مُوشيه ، ابنا عمّام بن قهات بن ليوي بن يعقوب .

فهكذا يفسر الحاخاميم هذه الآية :

«ما أبيتهم» ، في زمن الكلدانيين عيّنت لهم دانييل ورفاقه ليخلصوهم .
«ولا كرهتهم» ، في زمن الأشوريين مددتهم بماتياس وأبنائه ورفاقه لكي
يخدموهم .

«حتى أبيتهم» ، في زمن هامان أرسلت مُردخاي وإستير لإنقاذهم .
«وأنكثَ ميثاقي معهم» ، في زمن الرومان عيّنتُ الرَّابِي يهُوداه وشُركاءه
للعمل على خلاصهم .

«لأني أنا الربّ إليهم» ، أي في المُستقبل سوف لن تتمكن آية أمة من الحكم
على إسرائيل ، وستعود لئسل أبرهام من جديد دولتهم المُستقلة .

هذا وإن تأسس الهيكل ، الذي يُخلد عيد «الخُنوكاه» ذكراه ، قد تمّ في العام
3632 للخليفة ، أي في عام 129 ق . م .

* * *

عيد پوريم

ד'תקס"ג

يُخصّص هذا العيد⁽¹⁾ ، الواقع في اليوم الرابع عشر من الشهر الثاني عشر
«آدار» ٦٦٨ (مارس) ، لتخليد ذكرى خلاص العبريين من مكائد هامان ، عن
طريق مساعي مُردخاي وإستير ، بعون الله .

ورغم أن الله القدّوس يحذّر الإسرائيليّين ، بغيّة أن يتوبوا عن ذنوبهم ، فهو
أيضاً يُغريهم ويرغبهم ، لكي يُضاعف لهم الثواب .

فعلى سبيل المثال ، إن الأب الذي يحبّ ابنه ويتمنى له أن يحسن من
سلوكه ، ينبغي له أن يُعاقبه على إساءاته ، ولكنه عقابٌ تقف من ورائه محبةٌ
ضافية .

(1) التسمية «فُوريم» جمع «فُور» ، وهو الفرعة التي كان استقسم بها هامان لإبادة اليهود .

قال بعض المرتدين يوماً للرّابي صَفْرَا : «مكتوبٌ» : «إيّاكم فقط عرفتُ من جميع قبائل الأرض ، لذلك أعاقبكم على جميع ذُنوبكم»⁽¹⁾ ، فكيف يصحّ ذلك ؟ هَبْ أن رجلاً له حصانٌ برّيٌّ جامحٌ أكان يُركبُ عليه أعزُّ أصحابه ، فيُعرضه لخطر السَّقوط والإصابة ؟» .

فأجاب الرّابي صَفْرَا : «افترض أن رجلاً أقرضَ مالا لشخصين ، أحدهما صديقه والآخر عدوّه . فلا ريبَ أنه سيسمح لصديقه بتسديد القرض له بالتقسيط بحيث لا يكون سدادُ الدّين مُرهقاً له ، وأمّا عدوّه فسيطالبه بالمبلغ كاملاً . فالآية التي تذكرها تنطبق على هذا الأمر بالطريقة ذاتها : «أنا أحبكم ، ولذلك أعاقبكم على جميع ذُنوبكم» ، بمعنى : «أعاقبكم عليها حينما تقع ، شيئاً فشيئاً بما يمكنكم من أن تحوزوا على الإبراء والنّعيم في الحياة الآخرة» .

إنّ تصرّف الملك بتسليم خاتمه إلى هامان كان له على اليهود تأثير أكبر من الوصايا والإنذارات التي راح ثمانية وأربعون نبياً يردّدونها على أسماعهم مُسبقاً ولاحقاً . فإذا بهم يلبسون المُسوح ويُحسّون بالنّدَم الحقيقي وتسيل دُموعهم ويصومون ، فعاملهم الله بالرحمة وأهلك عدوّهم هامان .

ورغم أن قراءة سفر إستير (مَجْلَاهُ 106) ⁽²⁾ في عيد «پوريم» ليست من وصايا التّوراه ، فهي فريضةٌ علينا وعلى نسلنا . ولذا فهذا اليوم مُعيّن للاحتفال والابتهاج وتبادل الهدايا ، وكذلك تقديم العطايا للفقراء لكي يُتاح لهم أيضاً حقّ الابتهاج . فكما في مرسوم هامان ، لم يتمّ التمييز بين الأغنياء والفقراء بل حكم عليهم جميعاً بالهلاك ، فالمفروض أيضاً أن تُتاح للجميع مُوجبات الفرح ، وعلى ذلك ينبغي لنا في جميع العصور تذكّر الفقراء بسخاء في هذا اليوم .

* * *

(1) سفر عاموس - 3 : 2 .

(2) في هذا العيد يخرج اليهود دَرَج «مجلّت إستير» מגלות אסתר (المكتوبة بيد رحابنة العراق) مرة في العام ، فيقرأونها ويأكلون الفطير מצاح (مُتسّاه) الخاص بهذه المناسبة .

القسم السادس

العصبية الدينية والإثنية في التلمود

«إذا ضرب وثنيٌ يهودياً ، توجّب قتل الوثني» (سنهدرين 58 ب).

«لا يتوجّب على اليهودي أن يدفع لوثني أجور عمل» (سنهدرين 58 ب).

«إذا نطح ثورٌ لرجلٍ يسرئيلي ثوراً يخصّ رجلاً كنعانياً لا تُدفع أية فدية ، وأما إذا نطح ثور الكنعاني ثور اليسرئيلي ، توجّب دفع الفدية بالكامل» (بابا قاما 37 ب).

«إذا عثر يهودي على متاع ضائع يخصّ وثنياً فلا يتوجّب عليه رده» (بابا متسيا 24 ن). «الله لا يسامح يهودياً يزوّج ابنته لرجل عجوز ، أو يأخذ زوجة لابنه طفلاً ، أو يردّ متاعاً ضائعاً لشخص كوثني» (سنهدرين 76 ن).

«عندما يقتل اليهودي كوثياً لا تتوجّب عليه عقوبة الموت . وأما ما يحتاجه اليهودي من الجُوي (الأممي) فيمكن له الاحتفاظ به لنفسه» (سنهدرين 57 ن).

«الأمميون يقعون خارج نطاق حماية الشريعة ، ومألهم يتيحه الله حلالاً لبني يسرئيل» (بابا قاما 37 ب).

«يجوز لليهودي أن يلجأ إلى الأكاذيب (الحيل) لكي يراوغ أممياً» (بابا قاما 113 ن).

«أبناء الأميين (الجويم) جمعياً بهائم» (بياموت 98 ن).

«فتيات الأميين نجسات (نداه) منذ مولدهن» (عبوداه زاراه 36 ب).

«الأمميون (الجويم) كلّفون بمواقعة البقر» (عبوداه زاراه 22 ن - 22 ب).

«يحق لليهودي أن يتزوج بنتاً لها من العمر ثلاث سنوات ويوم واحد»
(سنهدين 55 ج2) .

«يتعين على اليهودي أن يتلو الصلاة التالية في كل يوم : لك الحمد يا رب
أن لم تخلقني أمياً أو امرأة أو عبداً» (مناحوت 43 ج1 - 44 ن).

«إذا دفعت الغواية يهودياً إلى ارتكاب معصية ، فعليه أن يذهب إلى مدينة
لا يعرفه فيها أحد ويرتكب المعصية هناك» (موعيد قطان 17 ن) .

«كل من تُسَوَّل له نفسه الخائبة معصية الحاخاميم يستحق الموت ، ويُعاقب
في الجحيم بأن يُسَلَق في النجاسة المغلية» (عرويين 21 ج2) .

«كل الكفرة (مينيم) وسواهم ممن يجحدون التلمود مصيرهم إلى الجحيم
يُجَاوِزُونَ فِيهِ أَبَد الدَّهْرِ» (رُوش هَشْنَاه 17 ن) .

«كل من يقرأ كتب الدين غير المشروعة لا يكون له نصيب في الحياة الآخرة»
(سنهدين 90 ن) .

«من واجب اليهود إتلاف كتب الكفرة والوثنيين» (شبات 116 ن) .

يرد في التلمود : «علّمنا حاخاماتنا : من يسكب الزيت على المواشي أو
الأوعية فهو ليس بمذنب ، أو على الأميين (الجويم) أو الموتى فهو ليس بمذنب .
فالشرعية المتعلقة بالماشية والأواني صحيحة ، كما هو مكتوب : «على جسد
إنسان لا يُسكب» (سفر الخروج - 30 : 32) ، والماشية والأواني ليست من صنف
الإنسان (آدام)» .

«كان الحاخامات ، ومنهم الرأبي شمعون بن يوحاي ، يُعلّمون أن قبور
الأميين (الجويم) لا تسبب الدّس⁽¹⁾ من خلال حصول «أوهيل» (أي الوقوف على
القبر أو الانحناء عليه) ، لأنه مكتوب : «وأنتم يا غنمي غنم مرعاي أناس أنتم»
(سفر يُحزَقْتِيل - 34 : 31) ، فأنتم تُدعون أناساً (من آدام) ، وأما الوثنيون
فليسوا يُدعون أناساً» (بياموت 16 ن) .

(1) تنص التوراه أن لمس جثة ميت أو قبره دّس لا يطهر إلا برماد بقرة حمراء (باراه أدوماه) .

«قيل إن كاهناً يهودياً كان يقف في مقبرة ، فلما سُئل عن سبب وقوفه بانتهاك بين لشريعة مُوشيه ، أجاب بأن هذا الأمر مسموح ، إذ أن الشريعة تمنع اليهود من مُلامسة قبور البشر (الآدميين) فحسب ، وأنه هو كان يقف في مقبرة للأعميين . إذ علّم الرأبي شمعون بن يُوحاي : قبور الأعميين (الجويم) لا تسبب دنساً ، لأنه مكتوب : «وأنتم يا غنمي غنمُ مرعاي أناس أنتم» (سفر يَحزَقئيل - 34 : 31) ، فأنتم فقط تُدعون أناساً (آدميين)»⁽¹⁾ .

* * *

(1) نكفّ هنا عن متابعة هذا القسم ، بعد الذي نطالعه على أديم الإنترنت من بوادر نزاعات دينية شديدة ما برحت تتنامى في عصرنا وتُنذر بصراعات حادة ، مع ردود أفعال سلبية متعصبة . ولقد طالعنا مؤخراً كلاماً في حق ديننا الإسلامي ورسولنا الكريم (عليه أطيب الصلوة والسلام) أصابنا بالقرف والغثيان (وكاتبوه عرب بالمناسبة !) ، مما دعانا فوراً إلى أطراح القلم ، والامتناع غاية الامتناع عن أن نكون طرفاً في هذه المهاترات التي إن بدأت فلا تنتهي ، ولا يكون منها إلا الضرر والأذية .
بدلاً من ذلك ، نلتزم في نقاش الأصول الدينية عرضاً علمياً موضوعياً هادئاً ، بعيداً عن الخطوط الحمراء في إثارة التُّعرات والنزاعات ، وتعجبنا مثلاً لغة علامة مصر المسيري ، بما فيها من حوار علمي (وليس علمانياً) هادئ رصين يُعنى بالتحليل والتفكيك الاحترافي بغير اتهامات أو اشتائم . أمّا من كان له من القراء الأكارم رأي آخر ، فها هو ذا يريدنا الإلكتروني ، ليتفضّل بمراستنا مثاباً ومشكوراً !

التلمود البابلي الطبعات المترجمة

ثمة أربع ترجمات معاصرة للتلمود باللغة الإنكليزية ، هي :

1- طبعة سونتشينو *The Soncino Hebrew-English Talmud* ، بإشراف إيزيدور إپشتاين ، إصدار مطبعة سونتشينو بلندن 1935-1952 في 34 جزءاً ، فيها تواجه كل صفحة إنكليزية ما يقابلها من النص الأرامي/العبري . وكذلك ثمة حواشٍ على كل صفحة ، تقدّم مواداً إيضاحية إضافية . طبعة كاملة .

2- طبعة *The Talmud of Babylonia* ، ترجمة أميركية ، بإشراف الرأبي جاكوب نُوتسنر Jacob Neusner وتُسقي زهافي Tzvee Zahavy وغيرهما . إصدار مؤسسة Scholar Press for Brown Judaic Studies . وهي كاملة .

3- طبعة شوتنشتاين *The Schottenstein Edition of the Talmud* ، من منشورات Mesorah Publications . في هذه الترجمة ، كل صفحة إنكليزية تواجه الصفحة الأرامية/العبرية . والصفحات الإنكليزية مشروحة ومُثقلة بالحواشي ، وكل صفحة أرامية/عبرية من التلمود يلزمها عادةً ثلاث صفحات ترجمة إنكليزية .

4- طبعة شتاينزالتس *The Talmud: The Steinsaltz Edition* ، منشورات Random House (لم تتم بعد)⁽¹⁾ . يضمّ هذا العمل ترجمة جديدة للرأبي أدين شتاينزالتس Adin Steinsaltz (الملقب : إيفن يسرئيل) من اللغة العبرية ، مع تفسير جديد للتلمود بأكمله . والمُنتظر أن تصدر في 40 جزءاً كبيراً .

* * *

(1) اطلعنا في مكتبات Virgin على أجزاء منها بالفرنسية أيضاً .

التلمود اليروشلمي الطبعات المترجمة

1- طبعة جامعة شيكاغو *Talmud of the Land of Israel* ، بإشراف الرأبي جاكوب نُوتسنر وتُسقي زهاقي وآخرين . منشورات مطبعة جامعة شيكاغو . تعتمد هذه الطبعة طريقة عرض شكلي تحليلي ، تسهّل تحديد ومتابعة الأقسام المنطقية لأطروحاتها الكلامية .

نال هذا العمل كثيراً من التقاريز الإيجابية ، غير أن ثمة من يعدّ منهجية نُوتسنر في ترجمته ذات صبغة خصوصية غير موضوعية ، ولقد تولّى نقد أحد أجزاء ترجمته بحدة شاول ليرمان Saul Liberman من «دائرة البحث اللاهوتي اليهودي» *The Jewish Theological Seminary* .

2- طبعة شوتنشتاين *Schottenstein Edition of the Yerushalmi Talmud* إصدار دار Mesorah/Artscroll . وهذه الطبعة هي الموازي لطبعة شوتنشتاين للتلمود البابلي ، المذكورة آنفاً .

برنامج «داف يومي»

يقدم هذا البرنامج (على الإنترنت حالياً) كل يوم ورقة (داف ٩٦) واحدة من التلمود كجزء من عمل تذكاري ، ولقد ابتدع هذا البرنامج الرأبي مثير شاپيرو في عام 1923 بالمؤتمر الدولي الأول لاتحاد «أجودات إسرائيل» «אגודת ישראל» المتعقد في فيينا . وعلى اعتبار أن التلمود البابلي يضم 2711 ورقة (مزدوجة) ، فإن كل دورة لخمته تستغرق حوالي 7 سنوات ونصف . ولقد بدأ الداف اليومي دورته الدراسية الثانية عشرة بتاريخ 2 آذار (مارس) عام 2005 م .

* * *

التلمود باللغة العربية

ليعذرنا القارئ على هذا العنوان المغلوط من الأصل ، فليس ثمة طبعة أو ترجمة عربية للتلمود ، من الناحية الفعلية على الأقل .

وكما أكدنا في المقدمة ، نرى في ذلك نقصاً علمياً فادحاً ينبغي استدراكه بإصدار ترجمة لائقة ، شريطة أن تكون مُستوفية لجوانب الدقة والتحقيق العلمي السليم ، على غرار الطبقات الإنكليزية الأربع⁽¹⁾ . خاصة أن الكتاب يُعدّ واحداً من أصعب وأعقد مصادر الفقه الديني ، ومادته اللغوية شديدة الوعورة : عبرية قديمة (مشناه) + آرامية (جمارا) + عبرية قروسطية (توسافوت) . هذا ناهيك عن إشكالية المصطلحات المعرّقة في الرمزية بين الحلولية والشخينة والغنوصية والقبّالاه والزّوهار ، وإشكاليات الثانوي من متن التلمود (حسرونوت هسّاس) ، وتداخل الهلّكاه والأجداه ما بين التلمود وكتب المدرّاش ، مع تأويلات التّفاسير والشّروح المختلفة ، وتضارب اشتقاق التّسميات ممّا قارناه مراراً بين عدّة طبعات (مثال : تسمية כדוּשׁוּתָא בְּבִי בְּבַבְלָא في مَسِيخَتِ بَرَاخוֹת) .

لا ريب أن في هذه الدّوامه اللاهوتية والفيلولوجية المذهلة سبباً وجيهاً لعدم ظهور ترجمة عربية إلى الآن . على أيّ حال ، إلى أن تقوم إحدى المؤسسات العلميّة ، الرّسميّة أو الخاصّة ، في وطننا العربي الكبير بالانتباه إلى هذه المهمّة الكبيرة ، لا نرى أمامنا إلا أن نتعرّض بالبحث للمحاولتين اليتيمات اللتين بُدلتا لتعريب التلمود ، وإن كان الإخفاق أو الضياع مصير كلّ منهما !

* * *

(1) الملاحظ أن الطبقات المترجمة بأسرها للتلمودين البابلي واليروشلمي قام بها حاخامات يهود إشكنازيم تحديداً . فهل هذا هنا يمثل عرفاً وشرطاً لازماً ؟

المحاولة الأولى مشروع الحَكَم الثاني

يذكر الدكتور جوزيف باركلي في كتابه «الأدب العبري» *Hebrew Literature* الصادر في نيويورك عام 1901⁽¹⁾، أن صاحب قُرطبة بالأندلس «الحَكَم الثاني» (حكم بين 961-976 م) أمر الحاخام يُوسيف بن مُوشيه بنقل التلمود إلى العربية، فترجمه وسمّاه: «الخبائة المكسوّة في كيس»، لأنه حسب تعبير الحاخام «قد ألبس ثوباً دنيئاً عندما تمّ الكشف عن سجاياه العظيمة من خلال الترجمة».

وبالطبع فإن هذه النظرة التقليديّة في كراهة ترجمة التلمود (على اعتباره نصّاً توقيفياً لا يحيا إلا ضمن بيئته اللغويّة) تعكس طريقة تفكير القرن العاشر، ولم يصل إلى علمنا أن التلمود كان تُرجم آنذاك إلى أية لغات أخرى غير العربيّة. حتى أن الصّراعات ما تزال تقوم اليوم بين اليهود حول عدم جواز دراسة التلمود باليديشيّة، وأن العبريّة هي اللغة المقدّسة «هَسَفَاه هَقْدُوشاه» השפה הקדושה التي لا يجوز التعامل مع التلمود إلا بها.

وعلى ذلك، فمن نافل القول أن حاخامات اليهوديّة الرّبانيّة (التلموديّة) يعدّون ترجمة الكتاب تفقده روحه وقيّمته القباليّة (الصوفيّة) والحُرُوفيّة، وتجعل منه مجرد صورة جامدة لا تفيد بأكثر من إعطاء فكرة عن مُحتواه، دون أن يصل ذلك إلى فحواه الجوهرية وقيّمته الحقيقيّة.

أمّا عن مصير ترجمة الحَكَم العربيّة، فلا تُفيدنا مصادر التواريخ الحوليّة أو المؤلفات الدنيّة بأي شيء، والمرجح على الأغلب أنها بادّت منذ تلك العصور، ولم تُؤخذ عنها كما يبدو نُسخ أخرى!

* * *

(1) راجع: «التلمود تاريخه وتعاليمه»، لظفّر الإسلام خان، ص 50.

المحاولة الثانية

مشروع شمعون مويال

قصة هذه المحاولة أكثر درامية من سابقتها . صاحبها مثقف يهودي مصري من أبناء الإسكندرية ، هو الدكتور «شمعون يوسف مويال» ، لا يُعرف الكثير عن سيرة حياته ، إلا أنه نذر نفسه لنقل التلمود إلى العربية ، وباشر بنشر أولى تجاربه عام 1909 بكتاب سماه : «التلمود ، أصله وتسلسله وآدابه» ، فصدر عن مطبعة العرب بمصر في السنة المذكورة . يضم هذا الجزء مقدّمة عن تاريخ التلمود وكتبته ومفسّريه ، ومسيّخت «برقيه أبوت» «פרקי אבות» (فصول الآباء) وهي التاسعة في سيدر نزيقين ، مع بحث عن كتاب «الزُّهار» لشمعون بن يوحاي .

ويفيدنا مويال في مقدّمته أن مشروع ترجمة التلمود كان ينوي القيام به بالأصل الكاتب والروائي الشهير جرجي زيدان ، فنزل له عنه . هذا وبلغ عدد صفحات كتاب مويال 148 صفحة ، آخرها كانت هذه الخاتمة :

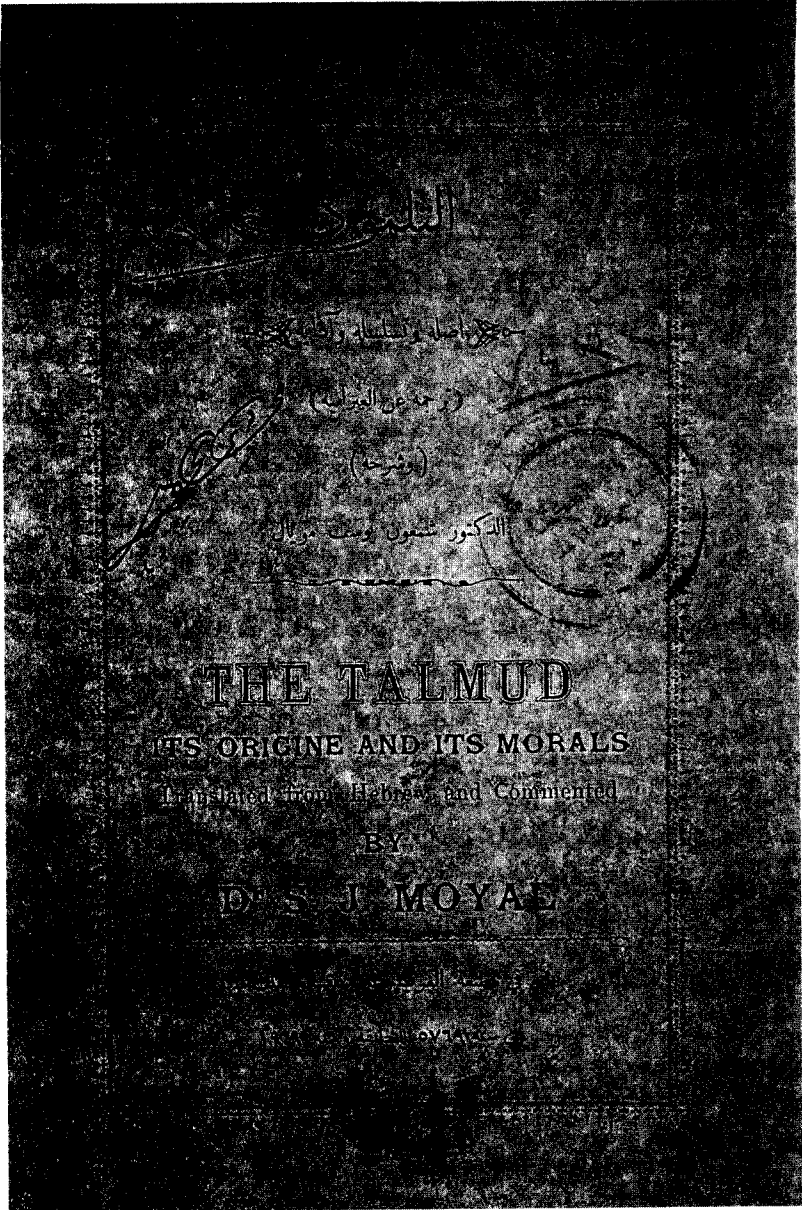
«هذا هو المجلد الأول من ذلك الكتاب الذي كثرت بشأنه الأقاويل والأوهام على غير سابق معرفة به . ها هو على علّاته مترجم بقلم رجل لا يمنعه الإيمان عن المجاهرة بما في ضميره من استحسان واستهجان .

«أعلى ترجمة مثل هذا الكتاب يستحقّ امرؤ مثل ما نالنا من الاضطهاد والمضايقة والسّعي بقطع الأرزاق ؟ أعلى ترجمة مثل هذا الكتاب يجوز لرؤساء الدّين المدعّوين بزعامة الأمة أن يقوموا في وجهنا ويتضافروا على معاكستنا بكل ما لديهم من الوسائل التي يسمح بها الدّين ولا يسمح ؟ ما أغرب تصرّفات رؤساء الأديان ، وما أسخف عقل الإنسان !

«على أننا نستنصر بالرأي العام ، فإذا عضده بطلب هذا الكتاب بادرنا إلى نشر ما يليه ، وإلا كسرنا القلم وقلنا إن معاصرنا كرؤساء الدّين فيهم» .

وكانت آخر كلمات شمعون : (مصر في أبريل سنة 909) ، إذ أنه لم يعيش بعدها ليتابع عمله ، فقد لقي حتفه وتمّ جمع نسخ كتابه ، حتى أنه لا أثر له في كثير من المكتبات العامّة الكبرى اليوم ! ولقد رجعنا إلى نسخة يتيمة منه كانت في مكتبة دمشق الظاهرية تملكها مُحبّ الدّين الخطيب . ثم صدر عنه مؤخراً 2004-2005 طبعتان حديثتان (راجع مسرد البحث) .

* * *



طبعة مصر القديمة النادرة من كتاب مويال ، كانت بظاهرة دمشق
فطوّحت بها يد الدهر إلى لندن ، حصلنا على الأقل على نسخة فوتوكوبي عنها !

مسرد مراجع البحث

المراجع العربية

- تاريخ اللغات السامية : د. إسرائيل ولفنسون ، القاهرة 1929 .
- التلمود ، أصله وتسلسله وآدابه : ترجمه عن العبرانية وشرحه الدكتور شمعون يوسف مويال ، مطبعة العرب ، مصر 1909 . وطبعة حديثة بتقديم د. ليلي إبراهيم أبو المجد ومراجعة د. رشاد عبد الله الشامي ، الدار الثقافية للنشر ، القاهرة 2004 . وطبعة أخرى بتقديم د. سهيل زكار ، دار التكوين ، دمشق 2005 .
- التلمود البابلي ، رسالة عبدة [عبادة] الأوثان : نصّ معرّب عن ترجمة إنكليزية لمايكل رودكسون ، تقديم نبيل فياض ، دار الغدير ، دمشق 1991 .
- التلمود ، تاريخه وتعاليمه : ظفر الإسلام خان ، دار النفائس ، بيروت 1971 .
- فضح التلمود ، تعاليم الحاخامين السريّة : الأب برانائتس ، إعداد زهدي الفاتح ، دار النفائس ، الطبعة الثالثة ، بيروت 1985 .
- فهرس الكتاب المقدّس : جورج پوست ، مكتبة المشعل ، بيروت 1981 .
- الكتاب المقدّس : الترجمة البروتستانتية ، دار الكتاب المقدّس في الشرق الأدنى .
- الكتاب المقدّس : الترجمة الكاثوليكية ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت 1960 .
- الكشف عن تلمود اليهود : الأب الدكتور متري هاجي أثناسيو ، سلسلة (إيمان وحياة) - 19 ، دمشق 1991 .
- الكنز المرصود في قواعد التلمود (اليهودي على حسب التلمود) : أغوستس رولنج ، ترجمة يوسف نصر الله ، بيروت 1968 .
- موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية : الدكتور عبد الوهاب المسيري ، دار الشروق ، القاهرة وبيروت 1999 .
- اليهود في الأندلس : د. محمد بحر عبد المجيد ، (المكتبة الثقافية - عدد 237) الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، دار الكاتب العربي ، القاهرة 1970 .

المراجع العبرية

- دב בן אבא : מלון עברי אנגלי . סיגנט . ניריורק 1977 .
- יחזקאל קוגמן : מלון עברי ערבי . רבנדעמון 1970 .
- מפתחות התלמוד : האגדות וציון לדרש ושער הציון . 1959 .
- מרדכי כהן : מילון חדש עברי צרפתי . לארוס . פריס 1982 .
- ספר תנ"ך . מדויק היטיב על פי המסורה . לונדון 1984 .
- עזיז ברהם : המקרא ותרגיל העברית . אלכסנדריה 1949 .
- רבחי כמאל : המלון החדש עברי ערבי . בירות 1975 .
- רבחי כמאל : שעורי השפה העברית . דמשק 1958 .
- רמב"ם : משנה תורה . בית דפוס מצנעים . ניריורק 1990 .
- תלמוד בבלי : בית דפוס ספראגראף . ניריורק 1958 .
- תלמוד דף יומי . <http://www.e-daf.com> .
- معجم عبري - إنكليزي : دوف بن أبا ، دار نشر Signet ، نيويورك 1977 .
- قاموس عبري - عربي : يحزقيل قوجمان ، مكتبة المحتسب ، عمان 1970 .
- فهارس التلمود : الأجداه ونقول التوراه ومسرد حاخامي ، نيويورك 1959 .
- القاموس الحديث عبري - فرنسي : مردخاي كوهن ، لاروس ، باريس 1982 .
- أسفار الكتاب المقدس (المسوراتي) : جمعية الكتاب المقدس ، لندن 1984 .
- مدارج القراءة والإنشاء في العبرية : عبد العزيز برهام ، الإسكندرية 1949 .
- المعجم الحديث عبري - عربي : د. ربحي كمال ، بيروت 1975 .
- دروس اللغة العبرية : د. ربحي كمال ، مطبعة جامعة دمشق ، دمشق 1958 .
- مشنيه توراہ : موشيه بن ميمون ، دار Moznaim ، بروكلين نيويورك 1990 .
- التلمود البابلي : دار نشر Rebecca Bennet (64 مجلداً) ، نيويورك 1958 .
- التلمود «داف يומي» (الورقة اليومية) : موقع إنترنت (عبري + يديش) .

المراجع الآرامية

- دليل الرّآغبين في لغة الآراميين : المطران يعقوب أوجين منّا الكلداني ، مطبعة دير الآباء الدومنيكين ، الموصل 1900 . والطبعة الثانية ، مركز بابل ، بيروت 1975 .
- اللّباب (صنححًا) ، قاموس اللّغة الآرامية السّريانية الكلدانية : القس جبرائيل القرداحي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت 1887-1891 .

المراجع الفرنسية

- Cohen, Avraham: *Le Talmud*, traduit de l'anglais par Jacques Marty, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1991.
- Derenbourg, P.: *Le Livre des Parterres Fleuris*, Grammaire hébraïque en arabe d'Aboul Walid Merwan Ibn Djanah, Paris, 1886.
- Neubauer, A.: *La Géographie du Talmud*, Georg Olms Verlag, Hildesheim-Frankfurt, 1965.
- Schwab, M.: *Le Talmud de Jérusalem*, traduction française avec notes (en 6 vols.), nouvelle édition, Paris, 1969.
- Steinsaltz, Adin (Even Israël): *Les Clés du Talmud, Guide et Lexique*, traduit en français par Jean-Jacques Gugenheim et Jacquot Grunewald, Éditions Bibliophane, Daniel Radford, Paris, 2005.
- Steinsaltz, Adin: *Introduction Au Talmud*, traduit de l'anglais par Nelly Hansson, Éditions Albin Michel, Paris, 1987.

المراجع الألمانية

- Berkovitz, E.L.: *Was ist der Talmud?*, Frankfurt, 1962.
- Brockelmann, Carl: *Semitische Sprachenwissenschaft*, Berlin, 1916.
- Krupp, Michael: *Der Talmud*, Gütersloher Verlagshaus, 1995.
- Strack, H.L. und Billerbeck, P.: *Das Evangelium erläutert aus Talmud und Midrasch*, München, 1982.
- Der Talmud*, Bibliothek der Weltreligionen, Voltmedia, 2005.
- Zunz, Leopold: *Die Gottesdienstlichen Vorträge der Juden*, Berlin, 1832.

المراجع الإنكليزية

- Barclay, Joseph: *Hebrew Literature*, New York, 1901.
- Barclay, Joseph: *The Talmud*, John Murray, London, 1887.
- Boxer, Ben Zion: *The Talmud, selected writings*, introduced by: Ben Zion Boxer and Baruch M. Boxer, Paulist Press, New Jersey, 1989.
- Brown, F., Driver, G.R. & Briggs Ch. A.: *A Hebrew and English Lexicon of the Old Testament, Based on the Lexicon of W. Gesenius*, Oxford, 1951.

- Cohen, Abraham: *Everyman's Talmud*, Dent & Sons, London, 1950.
- Epstein, Isidore: *The Babylonian Talmud*, (34 vols.), London, 1935-52.
- Fabian, A.: *The Babylonian Talmud*, University of Queensland Press, Santa Lucia, 1963.
- Good News Bible*, American Bible Society, New York, 1976.
- Gilbert, Martin: *The Jews of Arab Lands, Their history in maps*, Burlington Press, Herts, 1976.
- Hanaggid, Shmuel: *Introduction to the Talmud*, in Aryeh Carmell's *Aiding Talmud Study*, Philipp Feldheim, 1989.
- Maimonides: *Commentary on the Mishnah*, Hebrew full text with English translation by Zvi Lampel, Judaica Press, 1998.
- May, Herbert G.: *Oxford Bible Atlas*, Oxford University Press, London, New York, 1974.
- Neusner, Jacob: *Sources and Traditions: Types of Compositions in the Talmud of Babylonia*, Scholars Press, Atlanta, 1992.
- Parry, Aaron: *The Complete Idiot's Guide to the Talmud*, Alpha Books, 2004.
- Polano, H.: *Talmud, Selections from its commentaries, teachings, poetry & legends*, Frederick Warne & Co. London, 1978.
- Rodkinson, Michael, L.: *History of the Talmud*, Boston, 1903-18.
- Shürer, E.: *History of the Jewish People*, translated by: Vermes & Millar, Edinburgh, 1973.
- Steinsaltz, Adin: *The Essential Talmud*, translated from the hebrew by Chaya Galai, Jason Aronson Inc., New Jersey, 1992.
- Steinsaltz, Adin: *The Talmud: A Reference Guide*, Random House, 1996.
- Strack, Hermann, L.: *Introduction to the Talmud and Midrash*, Philadelphia, 1945.
- "Talmud", article in: *Encyclopaedia Britannica*, 15th. ed., New York, 1981, vol. 17, pp. 2006-2014.
- "Talmud", art. in: *Encyclopedia Judaica*, (on the web).
- "Talmud", art. in: *Jewish Encyclopedia*, (on the web).
- "Talmud", art. in: *Wikipedia, the free encyclopedia*, (on the web).

* * *

الأعمال العلمية المنشورة للمؤلف

- 1- وصف دمشق في القرن السابع عشر ، من مذكرات الرحالة الفرنسي لوران دارفيو ، ترجمة عن الفرنسية من كتاب : *les Mémoires du Chevalier d'Arvieux* ، دمشق 1982 .
- 2- وصف دمشق والشام في أيام الملك الظاهر بيبرس : نصوص للقزويني ، تحقيق ودراسة ، دمشق 1983 .
- 3- أساليب الحماية الوقائية لواجهات الأبنية الأثرية في سورية ، ترجمة عن الفرنسية ، مديرية الدراسات في المديرية العامة للآثار والمتاحف 1983 .
- 4- مدينة دمشق القديمة مهددة بالزوال تحت وطأة التطور المدني : مارفن هاو ، ترجمة عن الإنكليزية ، منشورات جمعية أصدقاء دمشق 1983 .
- 5- قلعة دمشق الأثرية ، تاريخ ووصف ، منشورات جمعية أصدقاء دمشق 1983 .
- 6- *The Ancient Walls and Gates of Damascus*, published by the Society of Friends of Damascus, Damascus, 1983.
- 6- قلعة الحصن ، دراسة تاريخية وأثرية : ترجمة عن الفرنسية لبحث للأثاري الفرنسي بول ديشان Paul Deschamps : *le Crac des Chevaliers* ، دمشق 1984 .
- 7- صالحية دمشق ، لمحة تاريخية موجزة ، منشورات جمعية أصدقاء دمشق 1984 .
- 8- المدرسة الصادقية ، أقدم مدرسة بدمشق ، منشورات جمعية أصدقاء دمشق 1984 .
- 9- غاية البيان في ترجمة الشيخ أرسلان : لشمس الدين محمد ابن طولون الصالح ، تحقيق عن مخطوطة فريدة في مكتبة الدولة في برلين ، دمشق 1984 .
- 10- وصف دمشق من خلال نصوص نادرة لبعض الرحالين الأوروبيين من القرن الرابع عشر إلى القرن السابع عشر : موندفيل ، دي لابروكيير ، بولون ، مانريك ، ترجمة وتحقيق ، دمشق 1984 . ونشرت منها مقتطفات في كتاب : دمشق الشام أقدم مدينة في العالم ، دمشق 1989 .
- 11- مسجد خالد بن الوليد ، أول مسجد بدمشق منذ الفتح الإسلامي . الندوة الدولية الثانية حول مدينة دمشق القديمة ، دمشق شباط 1985 . نُشر البحث في مجلة الحوليات الأثرية السورية 35 (1985) ، ص 417-431 .
- 12- أسطورة السيف الدمشقي ، السيف العربي وفولاذ الجوهر ، دمشق 1988 .
- 13- معالم دمشق التاريخية ، دراسة تاريخية ولغوية عن أحيائها ومواقعها القديمة ، تراثها وأصولها واشتقاق أسمائها ، بالتعاون مع د. قتيبة الشهابي ، وزارة الثقافة ، دمشق 1996 .
- 14- دمشق الشام في نصوص الرحالين والجغرافيين العرب والمسلمين ، من القرن الثالث إلى القرن الثالث عشر للهجرة (جزءان) ، دراسة وتحقيق ، وزارة الثقافة ، دمشق 1998 .
- 15- أحمد بن فضلان ، أول رحالة عربي يزور جنوب روسيا وأوروبا الشمالية ، بحث وتحقيق في مخطوطة معهد الاستشراق في سان بيتربورغ ، المنقولة عن نسخة مشهد . الجمعية الجغرافية السورية ، دمشق 1998 .

- 16- *The Role of Leading Kurdish Families in Urban Politics of Late Ottoman Damascus, 1807-1918*. Proceedings of Syria II Conference. Deutschen Morgenländischen Gesellschaft, Beirut, April 1999.
- 17- *The Ottoman Province of Damascus, 1725-1775. From Strife of Political Loyalties to Emergence of Ideological Identities*. Proceedings of the Third Conference on the Syrian Land. Institut für Politische Wissenschaft, Naher Osten. Friedrich-Alexander Universität, Erlangen-Nürnberg, August 2000.
- 18- سلسلة من المحاضرات عن انتقال الحضارة العربية من سورية إلى الأندلس ، ألفت في جامعات ومعاهد سالامانكا ومدريد وغرناطة ، تشرين الثاني 2000 .
- 19- التعليق ، مذكرات يومية كتبت بدمشق : للشيخ شهاب الدين أحمد بن طوق [الجبرودي] ، الجزء الأول بتحقيق الشيخ جعفر المهاجر ، مراجعة أحمد إيش ، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق 2000 .
- 20- حوادث دمشق اليومية غداة الغزو العثماني للشام (926-951 هـ) ، صفحات مفقودة تُنشر للمرة الأولى من كتاب «مفاكهة الخللان في حوادث الزمان» لابن طولون ، تحقيق ودراسة موسعة ، دار الأوائل ، دمشق 2002 .
- 21- الحروب الصليبية ، صراع الشرق والغرب : للمؤرخ الفرنسي رنيه كروسيه ، ترجمة لكتابه : René Grousset: *Les Croisades* ، دار قتيبة ، دمشق 2002 .
- 22- دفاتر شامية عتيقة ، مذكرات ومرويات ونوادير من تاريخ دمشق ، دار قتيبة 2002 .
- 23- مَعْطيات تاريخية جديدة عن بلاد الشام في العهد العثماني ، بحث في ندوة دمشق القديمة والحفاظ عليها تراثاً وطنياً وعالمياً ، وزارة التعليم العالي ، كانون الثاني 2003 .
- 24- سيرة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي «التوادر السلطانية والحاسن اليوسفية» : لابن شدّاد ، تحقيق جديد عن مخطوطة الحرم القدسي النادرة ، دار الأوائل ، دمشق 2003 .
- 25- تطوّر الإنجيل ، دراسة نقدية وترجمة جديدة لأقدم الأناجيل تكشف مفاهيم مشيرة : لإينوك پاول ، ترجمة لكتابه : Enoch Powell: *Evolution of the Gospel* ، مع دراسة وتحرير لمفرداته اليونانية واللاتينية والعبرية والآرامية ، دار قتيبة ، دمشق 2003 .
- 26- رحلة من الكويت إلى الرياض في عهد الإمام فيصل بن تركي آل سعود : للكولونيل لويس بيلي Lewis Pelly المفوض البريطاني المقيم في بوشهر عام 1865 م = 1281 هـ ، ترجمة وتقديم ، دار قتيبة ، دمشق 2004 .
- 27- مشاركة بمواد علمية مختلفة في «الموسوعة العربية» ، التي تصدر عن هيئة الموسوعة العربية التابعة لرئاسة الجمهورية في الجمهورية العربية السورية ، 2003-2004 .
- 28- رحلة إلى نجد ، أو : «رحلة حج إلى نجد» مهد العشائر العربية ، من دمشق إلى حائل عام 1878-1879 : للرحالة البريطانية الليدي آن بلنت ، ترجمة وتعليق لكتابتها : Anne Blunt: *A Pilgrimage to Nejd* ، دار المدى ، دمشق 2005 .
- 29- عوائد عرب الرّولة وشمائلهم ، في بوادي الشام والجزيرة العربية : للمستشرق التشيكي ألويس موزيل (موسى الرويلي) ، ترجمة عن الإنكليزية وتقديم لكتابه المعنون : Alois Musil: *Manners & Customs of the Rwala Bedouins* ، دار قتيبة 2005 .

- 30- دمشق في عصر سلاطين المماليك ، مشاهد وأحداث من نصوص أدب الرحلات العربية ، دار الشرق للطباعة والنشر ، دمشق 2005 .
- 31- معطيات جديدة في الطبوغرافيا التاريخية لدمشق : إعادة بناء المخطط المعماري للقصر الأبلق ، من خلال مقارنة سيرتي السلطان الملك الظاهر بيبرس التاريخية والشعبية (بالتعاون مع الصديق محمد عصام الحجارة) ، بحث مقدّم لندوة «الرواية الشعبية العربية» الأوسط بدمشق ، 27-28 نيسان 2005 .
- 32- دليل جامع دمشق الأموي الكبير ، وزارة الأوقاف ، دمشق 2005 .
- 33- جامع دمشق الأموي الكبير ، بيت الله ودرة دمشق ، تاريخه القديم عبر العصور وآثاره وعماراته وفنونه الزخرفية ، منشورات وزارة الأوقاف ، دمشق 2005 .
- 34- *The Great Umayyad Mosque of Damascus, A Brief Guide*. Ministry of Waqf (Muslim Endowments). Damascus, 2006.
- 35- *La Grande Mosquée des Omeyyades à Damas*, guide abrégé, Ministère de Waqf, Damas, 2006.
- 36- *Die große Omayyaden Moschee in Damaskus*, ein klein Führer, Stiftungs-Ministerium, Damaskus, 2006.
- 37- التلمود كتاب اليهود المقدّس ، تاريخه وتعاليمه ومقتطفات من نصوصه ، دراسة وترجمة ، تقديم الأستاذ الدكتور سهيل زكار ، دار قتيبة ، دمشق 2006 .

دراسات جاهزة للنشر :

- 1- جامع دمشق الأموي الكبير ، دراسة موسّعة في تاريخه وآثاره وعماراته وفنونه .
- 2- أديرة دمشق السريانية القديمة في جبل قاسيون ، دراسة في الطبوغرافيا التاريخية تضم معطيات جديدة غير معروفة من قبل .
- 3- موسوعة خطط الريف السوري ، دراسة في التاريخ والآثار والطبوغرافيا التاريخية والجغرافيا الطبيعية . الدراسة الأولى : محافظة ريف دمشق ، 8 مجلدات .
- 4- التحفة الشهية في الألفاظ العامية الدمشقية ، بحث لغوي في تعابير أهل الشام وكنياتهم الشعبية ، بالاشتراك مع قتيبة شيخاني ، دار قتيبة (قيد النشر) .
- 5- سقى الله هديك الأيام يا شام ، مختارات من نصوص الأدب الشعبي الدمشقي .
- 6- دمشق في عصر سلاطين المماليك ، من خلال نصوص الرحالين الأوروبيين .
- 7- دمشق في عصر سلاطين المماليك ، نصوص في الخطط للبلدانيين الدمشقيين .
- 8- صفحات من تاريخ دمشق في العهد العثماني (1073-1117 هـ) : من كتّاش الشيخ إسماعيل المحاسني وحفيده أحمد بن سليمان .
- 9- صفحات من تاريخ دمشق في العهد المملوكي (739-768 هـ) : للحافظ ابن كثير .
- 10- الحروب الصليبية كما رواها المؤرخون العرب *Storici Arabi delle Crociate* : للمستشرق الإيطالي فرانجيسكو كابريلي .

- 11- الفتح الإسلامي للقسطنطينية ، الحدث الذي غير مجرى تاريخ العالم : للمؤرخ البريطاني ستيفن رنسيمن ، ترجمة وتعليق : *The Fall of Constantinople* .
- 12- مؤامرة تستهدف القرآن الكريم : الرد على ادعاءات كريستوف لوكنسينغ في كتابه : Christoph Luxenberg: *Die syro-aramaeische Lesart des Koran; Ein Beitrag zur Entschlüsselung der Qur'ansprache* .
- أي : «قراءات سرمانية آرامية لنص القرآن ، إسهام في تحليل لغة القرآن» .

قيد الإعداد للنشر :

- 1- رحلة إلى نجد ، من دمشق إلى حائل عام 1878-1879 : للرحالة البريطانية الليدي آن بلنت ، الطبعة الثانية الكاملة مع رحلتها إلى عربستان وإيران ، وملاحق ولغريد بلنت عن جغرافيا الجزيرة وتاريخ آل سعود ومشروع سكة حديد وادي الفُرات .
- 2- عشائر بدو الفُرات ، رحلة في البادية السورية عام 1878 : لليدي آن بلنت .
- 3- رواد المشرق العربي : مشروع عمل وثائقي شامل ، يرصد رحلات الرواد الرحّالين الأوروبيين في مشرقنا العربي ، وإسهامهم في دراسة أحوال بلادنا وصفيّاً وجغرافياً وبشريّاً وطبيعيّاً واقتصاديّاً ، عبر سجل طويل من الاحتكاك الثقافي والحضاري بين الشرق والغرب . محاولة جديدة لتقديم قصة هؤلاء الرحّالين المغامرين .
- 4- رحلات تشارلز داوتي في شمالي الجزيرة العربية وأواسطها في عام 1877 ، نصوص مترجمة من كتابه الشهير : *Arabia Deserta* .
- 5- رحلات وليم جيفورد بالكرنف في شمالي الجزيرة العربية وأواسطها ، وإلى المنطقة الشرقية وقطر والبحرين والشارقة وعمّان ، في عام 1862-1863 . ترجمة كتابه : *The Personal Narrative of a Year's Journey through Central and Eastern Arabia* .
- 6- النجد الشمالي ، رحلة من القدس إلى عُنيزة : للرحالة الإيطالي كارلو غوارماني ، ترجمة لكتابه : *Il Neged Settentrionale* .
- 7- رواد الجزيرة العربية : لدافيد جورج هوغارث ، تاريخ الاستكشاف الأوروبي بالجزيرة .
- 8- مفاكهة الخللان في حوادث الزمان ، لابن طولون الصالحي ، تحقيق جديد بطبعة كاملة .
- 9- تاريخ الأمير حيدر أحمد الشهابي «الفرّ الحسان في تواريخ حوادث الزمان» .
- 10- البادية التدمرية : ألويس موزيل ، دراسة في الآثار والطبوغرافيا التاريخية للبادية الوسطى في سورية ، من بادية الحماد والصفّا جنوباً إلى بادية الرصافة شمالاً .
- 11- بادية الحماد وصحراء النفود : ألويس موزيل ، رحلاته ومشاهداته الطبوغرافية في ديرة عشيرة الروّلة بأيام الشيخ التوري الشعلان ، بين 1908-1915 .
- 12- نقوش كتابية صفائية وكوفية جديدة من جنوب سورية (الرّشيدة ، وادي الشام ، بير الرصبيعي ، النّمارة ، منقع الرحبة ، الزّلف ، قصر نقعة) ، مكتشفات جديدة في الإيغرافيا تُنشر للمرّة الأولى ، كإسهام في «مدوّنة النقوش العربية» .



فهرس الكتاب

- هذا الكتاب 5
مقدمة بقلم الأستاذ الدكتور سهيل زكار 7
التلمود : تاريخه وتعاليمه 25
مقتطفات من نصوص التلمود 63

القسم الأول : سير الأوتيين في سفر التوراه

- الفصل الأول : من قين وهيل إلى خراب برج بابل 65
- الفصل الثاني : من مولد أبرام إلى خراب سدوم وعمراه 81
- الفصل الثالث : من مولد يصحاق إلى وقعة شكيم 97
- الفصل الرابع : من فتوة يوسف إلى بلوغه حكم مصر 117
- الفصل الخامس : مجد يوسف ودخول يعقوب إلى مصر 133
- الفصل السادس : موت يعقوب وأبنائه - مؤشيه - الخلاص من مصر 151

القسم الثاني : نماذج لحواشي التلمود التفسيرية على التوراه

- الفصل الأول : الخلاص من أرض مصر 177
- الفصل الثاني : الآفات العشر 189
- الفصل الثالث : موت مؤشيه 199
- الفصل الرابع : مجلت (ميثاق) إستير 203
- الفصل الخامس : الملك شلومو الحكيم 227

القسم الثالث : تعاليم الحاخامات ونبد من تراجم حياتهم

- الفصل الأول : الرابي يهوداه هناسي (الرئيس) 239
الرابي شمعون الصالح 243
الرابي يشمعييل ، الكاهن الأكبر 246
الرابي مثير 248
هيلل هناسي 253

255	الرّابي راشي
257	الرّابي موشيه بن ميمون
260	الرّابي آمنون من ماينتس
- الفصل الثاني : تعاليم الحاخاميم :	

263	فضيلة الإحسان
268	فضيلة التواضع
269	فضيلة تقوى الله
273	فضيلة إكرام الأبوين
276	الشريعة ودراساتها
285	فريضة الصلاة
289	تقديس يوم شبات
292	الثواب والعقاب
294	السعي في الرزق
295	حول الموت
296	موعظة جنازية لموت حاخام

- الفصل الثالث : وقائع من سير حياة الحاخاميم :

299	الرّابي عقيبا
305	الرّابي إيشاع بن أبوياء
309	الرّابي شمعون
311	قصص متفرقة عن الحاخامات

القسم الرابع : من أمثال الحاخامات ونماذج من أساطير التلمود

319	- الفصل الأول : أمثال ومأثورات
- الفصل الثاني : أقاصيص وأساطير :	

332	الجزيرة المهجورة
334	الإمبراطور والعجوز
336	بيته على ملكية
338	رددين
340	ابن عرس والبئر
341	الورث الشرعي
343	لا شيء في الدنيا بغير نفع
344	عاقبة الإيمان

345	أبتينوس وجَرْمَاهُ
346	الوثوق بالله
349	العروس والعريس
350	الحق
351	خراب بيتار
351	خراب يَروشلَايم
354	خراب يَروشلَايم الثاني
357	حنّاه وعيالها السبعة

القسم الخامس : الشرائع المدنيّة والجزائيّة والأعياد المقدّسة

363	- الفصل الأول : الشريعة والقضاء
	- الفصل الثاني : الأعياد المقدّسة :
366	عيد العبور (الفصح)
367	عيد الحصاد
369	عيد رأس السنّة
376	عيد يوم الغفران
384	عيد المظالّ
391	عيد التأسيس (الأنوار)
393	عيد پوريم

القسم السادس : العصبية الدينيّة والإثنيّة في التلمود

395	- نماذج مختارة
399	طبعاات التلمود وترجماته المختلفة
401	التلمود باللغة العربيّة
405	مسرد مراجع البحث
409	الأعمال العلميّة المنشورة لأحمد إيش

* * *

وكان الفراغ من تأليف هذا الكتاب وتحريره
وتسطيره ، على يد مؤلفه ، بمحروسة دمشق
الشام ، لخمسة بقين من شهر نيسان سنة ألفين
وست للميلاد . والله الحمد بما وفق وأعان .

ש"ס תלמוד

ספר הקדוש של היהדות

מאת

אחמד איבש

ما هي حقيقة التلمود ؟

وما هو أثره الديني والأخلاقي في معتقدات الجماعات اليهودية وسلوكها عبر التاريخ ؟ ما هي تعاليمه . وعلام تشتمل أجزاءه الكثيرة ومضاداته التي تصل إلى 2.5 مليون كلمة ؟

ماذا يعرف المثقف العربي عن هذا الكتاب ؟ أليس من الغريب أن يكون كل ما كتب عنه في العربية (على قلبه) . كما يرى الكاتب الهندي ظفر الإسلام خان : «مجرد تكرار لكتاب شعبي قديم . هو : الكنز المرصود في قواعد التلمود» ؟ وما مدى دقة رؤية الباحث المصري عبد الوهاب المسيري في موسوعته الشهيرة : «الواقع أن التلمود ليس من الكتب الباطنية . أو تلك التي تحيط بها هالة من السرية والغرابة والإخفاء . كما يتوهم السواد الأعظم من الناس» ؟

ما سر التطابق المذهل بين مرويات «أجداه» التلمود ، وبين «القصص» في تراثنا الإسلامي ؟ ولماذا عجز العرب تماماً عن ترجمة هذا الكتاب . الذي له من العمر ما لا يقل عن 19 قرناً من الزمان ؟ ثم كيف يتسنى للقارئ العربي الاطلاع على نصوصه المعقدة في العبادات والعرفانيات . بين مصطلحات التوحيد والحلولية والغنوصية ومعميات القبلاذ والزواهر . ونظرته لـ «الجوييم» أو «الأخيريم» ؟

أسئلة كثيرة وتساؤلات أكثر وأعمق وأخطر تبرز بين السطور والحواشي . في هذا الموضوع الهام المرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتراث الديني لمشرقنا الأدنى . كحلقة أساسية منه لا يسعنا جهلها أبداً !